الإسلاموفوبيا

الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

إصدارات سطور الجديدة



ستيفن شيهي

ترجمة : د. فاطمة نصر



الإسلاموفوبيا

الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

ستيفن شيهى

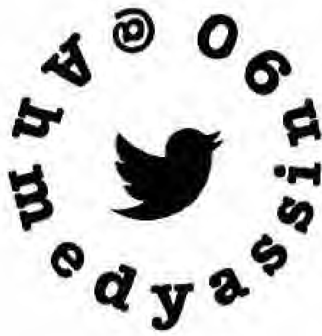
هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

Islamophobia, The Ideological Campaign Against Muslims

المؤلف: Stephen Sheehi

الناشر: Clarity Press,INC 2011

طبعة سطور الجديدة ٢٠١٢



الإسلاموفوبيا
الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين



إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د. فاطمة نصر

المستشار الفنى: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

الإسلاموفوبيا الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين
- تأليف: ستيفن شيهى
- غلاف: حسين جبيل gopy-art@yahoo.com
- المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar.shenawy72@yahoo.com
- إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com
الطبعة الأولي ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٠٨٥٢
الترقيم الدولى: 4- 34- 5296- 977- 978

٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩
e.mailaddress:suour@link.net
الموقع الإلكترونى
www.sutour2.com
صفحة فيس بوك
www.sutour.blogspot.com



شيهي: ستيفن

ترجمة: د. فاطمة نصر

الإسلاموفوبيا الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين

ط ١- (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٢

مكتب سطور ٢٠١٢

ص. سم ١٧ /٢٤

تدمك: ٤ ٤ ٣ ٥٢٩٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الإسلام - دفع مطاعن

أ - فاطمة . نصر (مترجم)

ب- العنوان: ٨ و٢٣ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبري الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mailaddress:suour@link.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com


@Ahmedyassin90



تمهيد

لا يستطيع أحد قراءة كتاب الإسلاموفوبيا بدون أن تتملكه مشاعر البهجة واليأس والتي نادرا ما يحدث وأن تتزاوج.

البهجة لاكتشاف أن المسلمين العرب والأمريكيين يأخذون على عاتقهم تحدي أحدث الأيديولوجيات المهيمنة القامعة، أي الإسلاموفوبيا، التي ترسخت بعمق، والتي يتولى هذا الكتاب تحليلها عن كثب.

بيد أن ثمة مشاعر يأس لتلك المعاناة القاسية وغير الضرورية التي يخبرها الملايين في داخل الوطن وفي الخارج، والتي لا يمكن لها إلا وأن تؤجج تلك المشاعر.

ذلك لأن هذا الكتاب فى جوهره هو نقد لاذع للإمبراطورية، ولكيفية خدمة الإسلاموفوبيا لأهداف الإمبراطورية، حيث إنها ما هى إلا أحدث موجات الذعر التى غمرت الذات الأمريكية وتغلغلت فيها.

ذلك لأنه فى أعماق الذات الأمريكية، فإن ثمة خيالاً مصاباً بجنون الارتياب والعظمة، وفقا لما جاء فى الكتاب الأخير لبارى سبكتور عالم النفس والذى ذهب إلى أن مفهوم «الآخر» قد استُغِل من أجل تنقية الهوية الأمريكية وإضفاء المثالية عليها، الأمر الذى يعمل على ترسيخ نموذج نحن/ هم المعيارى فى ثنائيات «الخير مقابل الشر» التبسيطية. يوضح لنا سبكتور مدى مرونة أسلوب التفكير هذا وإمكانية استخدامه لتحقيق أهداف متنوعة.

«حينما يُستدعى أحد أعمدة النموذج الأصلى لـ «الآخر» (كان الشيوعية سابقا وأصبح الآن الإرهاب)، يبدأ العمود الآخر (الجنس أو العرق) فى التشكل تلقائيا.

تجمع الهجرة، والتى لم تمثل قضية كبرى حتى ٩/١١، بين الاثنين. فى عام ٢٠٠٧، قال أحد نشطاء الحزب الجمهوري: قد يحضر بعض هؤلاء الناس إلى هنا للحصول على عمل فى غسيل الأطباق، فيما يحضر بعضهم لخطف الطائرات، لا أستطيع التمييز بين خوسيه كورڤو وبين عضو تنظيم القاعدة..» كان، بحديثه هذا، يؤطر القضية بحيث يؤكد على «الآخرية» لا على التوجهات الإجرامية. وفى نفس العام، طرحت مجالس الولايات التشريعية أكثر من ١٤٠٠ من قوانين إجراءات الهجرة، وهو عدد يفوق ما طرحته فى العشر سنوات السابقة».

كشخص قضى شبابه فى حركة «تحرير السود» فقد يعتقد البعض أنني، بصفتى هذه، لابد وأن أستخدم تلك الحقبة سيئة السمعة كمُناظِر تاريخى للعصر الحالى الذى يتسم بحملات الكراهية الإعلامية والثقافية والسياسية القومية المكثفة ضد العرب والمسلمين فى الداخل الأمريكى بل وفى كل أنحاء العالم.

لكننى لن أفعل ذلك؛ هذا لأننى لدى قراءتى هذا النص، لم يكن ذاك هو الزمن الذى ترددت أصداؤه فى وعيي، هذا بالرغم من حقيقة أن الوقائع التاريخية تقول إن المسلمين الأوائل الذين حطّوا على شطآن هذا البلد وصلوا وهم مصفدون بالأغلال كجزء من شتات أهالى غرب إفريقيا الهائل والذين تم إحضارهم أسرى مكبلين إلى القارات الأمريكية.

لتجربة أيوبة سليمان ديالو، الأسيرة الإفريقية المسلمة والتى أُسِرت عام ١٧٣١[1] دلالاتها فى سياق هذا التاريخ المخفي.

وعلى الرغم من أن القوى التى أُطلقت، وكما يصفها كتابنا هذا، مستمدَّة من أعماق منابع مشاعر عدم الأمان والعنصرية الأمريكية، إلا أنها تكاد تكون محاكاة لتجربة اليابانيين الأمريكيين فى القرن العشرين.

آنذاك تمت شيطنة أناس، كان ينظر إليهم فى وقت ما بصفتهم أمريكيين نموذجيين، وأعضاء صالحين فى الجسد السياسى القومى بكل المعانى المتخيلة (على الرغم من عدم انتمائهم للجنس الأبيض)، شيطنتهم من خلال السياسيين والأصوات الإعلامية والمصادر الثقافية الأمريكية. أصبحوا نماذج لـ «الآخر» من ثم وُضِعوا خارج نطاق «الضمانات» التى يكفلها الدستور الأمريكي. افتُرِض أنهم خونة، ليس بسبب أى شيء فعلوه، لكن بسبب من هم.

فى أعقاب الهجمات اليابانية على هاواي، قاومت مصادر الإعلام الأمريكية، فى البداية، الدعوات إلى إساءة معاملة اليابانيين الأمريكيين.

لكن هذا لم يدم طويلا. يبين بيتر أيرنز، الأكاديمى القانوني، أنه لم يمض سوى بضعة أيام حتى ترددت أصداء الأصوات العنصرية فى الوسائط الإعلامية بدعوات إلى ما كان، فى جوهره، عقابا جماعيا، ثم تردد هذا فى جميع الأوساط. وأصبح العقاب الجماعى سياسة دولة.

فى اليوم الذى أعقب بيرل هاربور، رأت لوس أنجيلس تايمز أن غالبية اليابانيين «مواطنون صالحون» ولِدوا وتربوا هكذا.

(١) عن كتاب «عقيدة آبائنا» تأليف موميا أبوجمال، دار نشر ترنتون، ٢٠٠٣.

ثم بعد دعوة السياسيين من أمثال ليلاند فورد، عضو الكونجرس عن لوس أنجيلس، إلى وضع «جميع اليابانيين ، المواطنين منهم وغير المواطنين». في معسكرات اعتقال بالداخل الأمريكي، غيرت لوس أنجيلس تايمز نغمتها وذلك لأن «مقتضيات الحرب» تتطلب مثل هذا الإجراء.

وجّه وولتر ليبمان، كاتب الأعمدة الذى كان يحظى بشعبية بين القراء، النقد إلى واشنطون «لعدم استعدادها» لاتخاذ إجراءات «الترحيل الجماهيرى والاحتجاز الجماهيري» لليابانيين الأمريكيين. بدا وستبرووك بجلر، وكان أيضا كاتب أعمدة صحفية، مثل الدعاة إلى كراهية المسلمين ومروجى الخوف منهم الذين ينتمون إلى الحقبة الراهنة حينما كتب يقول «لابد من وضع اليابانيين فى كاليفورنيا تحت الحراسة المشددة على الفور لآخر رجل وامرأة منهم - ولتذهب إجراءات الاستدعاء والأمر بالمثول إلى الجحيم حتى انتهاء الخطر».

لم يشفع لليابانيين الأمريكيين أنهم لم يرتكبوا أية أعمال تخريبية ضد أمريكا بإطلاقه، بيد أنه، ووفقا لأسلوب التفكير المتحيز الأحمق الذى كان له أن يعاود الظهور فى زماننا هذا، فإن هذا البرهان على عدم فعل أى شىء، لم يكن سوى برهان على النوايا الخبيثة. ذهب چون چيه دوويت الجنرال الأمريكى فى «توصيته النهائية» التى أرسلها إلى هنرى إل. ستيمسون وزير الحرب، ذهب إلى الدرك الأسفل من العنصرية فى عرضه لأفكاره!

«إن حقيقة عدم حدوث أعمال تخريبية حتى تاريخه هى ذاتها باعثة على القلق ودلالة تؤكد أن مثل هذه الأعمال ستُرتكب.. إن الجنس اليابانى جنس معَادٍ، وعلى حين أن الكثيرين من الجيلين الثانى والثالث من اليابانيين الذين ولدوا على الأرض الأمريكية ويحوزون على المواطنة الأمريكية قد «تأمركوا» فمازالت خصائصهم العرقية مستعصية على الذوبان».

لدى تحدثه أمام هيئة من الكونجرس فيما بعد، كانت ملاحظات الجنرال أكثر تحديدا وحيوية «اليابانى هو اليابانى؛ سواء كان مواطنا أمريكيا أم لا. ليس لدىّ ثقة فى ولائه على الإطلاق».

وعلى حين أنه من النادر وجود مسئول يتحدث بمثل تلك الصراحة اليوم، إلا

أنه ليس ثمة حاجة للذهاب بعيدا كي نجد جنرالا يشبِّه الحرب على العراق بالحرب المقدسة ضد الكفرة، أو نسمع عسكريين أمريكيين يشيرون إلى العرب/ المسلمين بأنهم بلهاء حمقي، أو يلقبون أحدهم بـ «الحاجي» أو يطلقون عليهم الكنية التى كانت سائدة فى مرحلة ريجان أى «زنوج الصحراء».

بيد أن هذا القياس ليس مُحكماً، إذ إن الهجمة التى شُنَّت فى ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ كانت هجمة شنتها دولة قومية ضد دولة قومية أخري. لكن علينا أن نعترف أن المحكمة العليا فى قرارها الذى أصدرته آنذاك، لم تعارض تلك المعاملة التى كان يتعرض لها مواطنون أمريكيون، بل أضفت عليها الشرعية.

أما هجمات ٩/١١ فقد ارتكبها فاعلون لا ينتمون إلى دولة - بل إلى جماعة صغيرة لم يعرف عنها الكثير حتى آنذاك. وفى واقع الأمر، فإن الأمر يصبح لافتا جداً فى ضوء هذا العامل تحديدا؛ لأنه يوضح كيف أنه بإمكان البلدان العظيمة التصرف بأساليب لا تُعبر عن الجنون المحض، بمجرد تشجيع التحيزات والكراهية الشديدة وإطلاقها.

فى إنجلترا، الشريك التابع لأمريكا فى الكارثة بالعراق، تحدث أعضاء البرلمان بصراحة وعلانية على الأقل (بخلاف أعضاء الكونجرس فى الولايات المتحدة). قال السير بيتر تاسيل، عضو مجلس العموم، لزملائه بالبرلمان ما كان يعرفه معظم السياسيين وكادوا ألا يذكروه إلا نادراً: إن غزو الولايات المتحدة/ بريطانيا واحتلالها للعراق، دمَّر البلد الوحيد الذى لا وجود فيه للقاعدة، والتى لم تجرؤ على دخوله؛ وأن الغزو كان قائما على أساس الأكاذيب والأضاليل وتشويه الحقائق، وأضاف:

«نحن مسئولون مع أمريكا عن موت مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال العراقيين وتشويههم. لقد دفعنا بالطبقة الوسطى بأكملها إلى خارج العراق. فقد حوالي ٤ ملايين عراقى منازلهم ومواطنهم. توقفت إمدادات المياه والصرف الصحى وتم تدمير الخدمات الصحية التى كانت الأفضل فى الشرق الأوسط بأكمله».

من الواضح إذن أن للإسلاموفوبيا مغباتها الواقعية والمروعة، والتى يمكن للقوى

السياسية والنخب الاجتماعية إطلاقها حسب الرغبة لإحداث الدمار الهائل الدائم. أنهى السير بيتر حديثه بالقول «إن الهجوم على العراق كان أعظم خطأ استراتيجى ارتكبه الغرب منذ فشلنا فى سحق عسكرة الراينلاند عام ١٩٣٨. استمرت مغبات ذلك الفشل لسنوات عديدة، وبالمثل فإن مغبات هجومنا على العراق ستُستشعر لعقود قادمة».

حينما كانت الولايات المتحدة مازالت فى طور الطفولة والأمل، قام چيمس ماديسون بمساعدة توماس چفرسون بكتابة قانون الحرية الدينية لولاية ڤرچينيا، الذى يُعدّ سلف التعديل الأول فى الدستور الأمريكي. فى قانون عام ١٧٨٥ تم تبنى مبدأ الحرية الدينية، ونصّ على أنه ليس بإمكان العقيدة الدينية (أو اللاعقيدة) أن تؤثر بأى أسلوب فى «قدراتهم المدنية».

وبعد سنوات، ذكر چفرسون وهو يكتب عن قانون ماديسون إن المقصود به كان «أن يشمل فى إطار الحماية التى يوفرها لليهودى وغير اليهودي، المسيحى والمحمدى [مصطلح يعنى المسلم ينتمى إلى الفترة الكلونيالية]، الهندوسي، والكافر من جميع الفئات والطوائف».

وفيما أكتب هذا، تجنبت البلاد لتوها خوض معركة مصطنعة من النقاشات الخلافية بسبب ما دعا إليه الواعظ الإنجيلى اليمينى من حرق نسخ من المصحف فى ٢٠١٠/٩/١١. يقابَل بناء المسجد المقترح إقامته فى وسط المدينة بمانهاتن باعتراضات صاخبة واسعة المدى من أهالى نيويورك، الذين، وفيما يعترفون بأن للمسلمين الحق فى إقامة المبني، إلا أنهم يبدون قلقهم من تدنيس «الموقع المقدس» لـ ٩/١١.

ما الإسلاموفوبيا إلا أحدث فوبيا تستعر، كالحمي، فى الذات الأمريكية.

نعتقد أنها، هى الأخرى، ستمضى فى طريقها وتختفى.

لكن مغباتها، كما يشير السير بيتر تاپسل، من حيث المعاناة البشرية، التى ستستمر لسنوات وسنوات قادمة، لا يمكن لنا حسابها أو تخيلها. «لكن. ولكن...».

تخيل أمًا يابانية أمريكية، كان ابنها يحارب فى وحدة قتالية أثناء الحرب، وقامت حكومتها باحتجازها فى معسكر اعتقال فى انتهاك تام وكلى للدستور الذى أقسم ابنها على الولاء له. وفضلا عن الخوف الحقيقى الذى تشعر به كل أم على ابنها، فما كانت أفكارها عن بلدها وقتئذ؟ اعتقدتْ أنه بلد أصيب بالجنون؟

لا تتغير الأشياء لمجرد أن الوقت يمر. لابد للحركات الاجتماعية والمنظمات الاجتماعية أن تضغط من أجل إحداث التغييرات فى مواجهة الأمر الواقع العنيد الممانع.

لا يعرف سوى القلة فى الولايات المتحدة هذا بأفضل مما يعرفه الأفارقه الأمريكيون.

إن كتاب شيهى خطوة نحو ذاك المستقبل المختلف، حينما تُفهم الإسلاموفوبيا على حقيقتها، وحينما تُستوعب ويتم إدانتها وشجبها بصفتها ذاك السم الذى يشكل كنهها.

أمنياتى بأن يصل هذا إلى عقول كثيرة، وقلوب كثيرة.

موميا أبوجمال

تمهيد ٢

الإسلاموفوبيا وأساسات «الحضارة الغربية»

ماذا أعتقد بشأن الحضارة الغربية؟ أعتقد أنها ربما تكون فكرة جيدة جداً

موهانداس غاندى (٩٣١)

في كتابه «الإسلاموفوبيا: الصلة الأيديولوجية ضد المسلمين»، أمدنا ستيفن شيهي بمرشد مكثف عن تكوين أحدث المفاهيم السياسية/ الاجتماعية - الأمريكية - التي طورها الغرب من أجل تعزيز هيمنته على المناطق الإسلامية - تعزيزها في الداخل والخارج - وتوسيع مداها. كان للعلاقات المبكرة بين الغرب والعالم الإسلامي، والتي تشكلت في ظل «الآخر» الإسلامي، أثرها ليس فقط على جوهر «الحضارة الغربية» ذاته، بل أيضا أدت إلى الإمبريالية الغربية، ذلك المرض الاجتماعي الكارثي الذي مازالت ممارساته المدمرة تُنزل المعاناة بشعوب العالم اللاأوروبية، المسلمين منهم وغير المسلمين.

مما لا ريب فيه، وبدون قدر كبير من المفارقة أو السخرية، فإن كتابات برنارد لويس وصمويل هنتنجتون الطنانة عن «صدام الحضارات»، وكما يبين شيهي في دراسته المثيرة للفكر التي بين أيدينا، كانت النذير الذي مهّد لقدوم الموجة الجديدة، وإن لم يكن الشكل الجديد، من الإسلاموفوبيا. إن تصنيف الكاتب، ثاقب البصيرة، لـ «خطاب الحضارات» الذي يكمن في جوهر الإسلام يجعل من الصعب أن نقرر ما إن كان من الأفضل وصف الظاهرة، التي يشار إليها باسم «الحضارة الغربية» [وهذا إرداف خلفي، أو جمع بين لفظين متناقضين] بدقة أكبر على أنها تزييف أم أنها وقاحة. وفي الحالتين، فقد ظلت دائماً أكذوبة خيالية. بل إن وضع أوربا الجغرافي ذاته، مجرد اختراع، فهي ليست قارة في حد ذاتها - ناهيك عن كونها «القارة» كما ظل غالبية مدّعي المركزية الأوربية يسمونها منذ زمن طويل - إذ إن أوربا، المركز المكاني لـ «الغرب» - جغرافياً - ما هي «إلا شبه جزيرة متسعة غربي آسيا».

ثمة الكثير من الأباطيل أيضا فيما يقال عن مكانة أوربا الثقافية. إن أصل مصطلح «أوربا» ذاته يرجع إلى اللفظ الفينيقى erub، الدال على «مكان فى ظلام العالم السفلى» وعلى الجهل. ربما يكون من البديهى أن هؤلاء الذين كانوا يسكنون منطقة ظل ينظر إليها لما يربو على ألف عام على أنها لا تعدو أن تكون موضعا متخلفاً ثقافيا تلفه ظلمة الجهل، ولا علاقة له البتة بشئون المجتمعات المتحضرة، لابد لهم وأن يُكمِنوا، فيما بعد، مشاعر الاستياء والحقد، وبنفس الدرجة، فمن المرجح أن تلك المشاعر قد أَججها حس لا يهدأ بالنقص الثقافى مضى يتعمق. وفيما قام «الغرب» فيما بعد بزعم أن أصوله الثقافية تعود إلى حضارة الإغريق القديمة، وقام، منذ القرن الثامن عشر صعودا، بتلفيق «طبخة» إثباتية معقدة مليئة بالتفاصيل قُصد بها تقديم «البراهين» على هوية الإغريق «الآرية»، فإن حقيقة الأمر هى أن اليونان الكلاسيكية، وسابقاتها، كانت أكثر ارتباطا، ثقافياً وجينياً، بمصر وبلاد الشام من

ارتباطها بأية منطقة فى الشمال. علاوة على ذلك، فقد كان يفصل بين ظهور الغرب وبين «سلفه» المزعوم [أى اليونان القديمة]، فترة زمنية استمرت عدة قرون بعد سقوط روما، «عصر مظلم» بحق، قامت أثناءه «الكنيسة، عن عمد، بقمع المعرفة الإغريقة الكلاسيكية [الوثنية]».

تم الحفاظ على الموروث الفكرى لليونان الكلاسيكية وتوسيع مداه، وتنقيحه، وبشكل حصري، من خلال الجهود الثقافية والعلمية العربية/ الإسلامية لمدة تربو على سبعمائة عام. كان للغرب أن يتعلم فى نهاية المكان كتابات أرسطو وأقرانه من خلال الجامعات الإسلامية العظيمة التى أقيمت فى قرطبة وطليطلة وبغداد ودمشق والقاهرة والمغرب وتونس وأصفهان والتى أنتجت كبار الفلاسفة من أمثال الفارابى (توفى ٩٥١). وابن سينا (٩٨٠ -١٠٣٧) وابن رشد (١١٢٦- ١١٩٨). وفى واقع الأمر، فإن الدور المفتاح الذى لعبه الفكر الإسلامى كان جليا فى مولد «الهوية الغربية» ذاتها، وهو شأن يعود إلى تتويج الإمبراطور شارلمان عام ٨٠٠م وما لازمه من إقامة «إمبراطوريته الرومانية المقدسة»، ذلك الكيان الذى يعرف أيضا باسم «العالم المسيحى الغربى».

وبما أن الهدف من تلك الممارسة كان هو توكيد سطوة ما أصبح يعرف فيما بعد بالكاثوليكية الرومانية على أرثوذكسيات العالم المسيحى المشرقى (أى بيزنطة) كان من الضرورى لـ «الكاثوليكية الرومانية» تمييز نفسها عن الأرثوذكسية البيزنطية على أسس لاهوتية. تم تحقيق هذا المطلب، إلى حد كبير، من خلال السطو على التأويلات الإسلامية للكتاب المقدس، دونما ذكر المصدر. وكما ذكر المؤرخ البارز ماكسيم رودينسون:

«أعطى ابن سينا الغرب اللاتينى نموذجا للتجميع الإبداعى بأن جمع بين بُعد الخلاص الدينى وقدرة الإله على الخلق، وكلاهما من أساسيات الفكر الكاثوليكى الروماني. وأبعد من هذا، فإن عمله يشير إلى أسلوب إبداعى من حيث إعادة النظر فى الروابط بين الله والعالم والإنسان من خلال إحاطته بنظريات أرسطو الخاصة بالمعرفة وتضمينها [فى تفسيراته].. لم يُضِف فلاسفة اللاهوت الغربيون سوى استخدام مصطلحات ابن سينا الإسلامية بما يتوافق مع الاستخدامات المسيحية. مثلا، قام روچر بايكون بتطبيق ما قاله ابن سينا عن الإمام المسلم، على البابا المسيحى».

وحتى فيما كانت تلك العملية مازالت قائمة، كان يجرى تدعيم أسس الإمبراطورية التى أقامها شارلمان وتوسيعها من خلال جهود خلفائه الكارولينيين باتباع نموذج شارلمان الذى كان يقوم على أساس الغزو، وإجبار «القبائل الوثنية» التى تقطن المناطق الواقعة غربى آخنا، عاصمة الإمبراطورية، وشمالها وشرقها على اعتناق المسيحية. تم اتباع وسائل ذرائعية متنوعة وتجربتها من أجل حسم المشكلة المتأصلة بشأن أفضل الطرق لتجسيد حس محدّد بهوية غربية على المستويات القاعدية الجماهيرية. تم العثور على الآلية التى من خلالها يمكن تحفيز الوعى بالهوية وإثارته حينما اتُخذ قرار شن أول حملة صليبية أثناء انعقاد مجمع كلارمونت الكنسى عام ١٠٩٥.

كان الهدف المُعلن لأول اجتياح غربى أوربى لـ «المشرق» هو «استعادة» الأرض المسيحية المقدسة من مالكيها العرب المسلمين. تفضح الحملة الصليبية الأولى ومعها الحملات الثمانى التى تلت الرغبات العارمة من جانب النخب الأوروبية الغربية البازغة للقيام بعمليات نهب شامل لمراكز التجارة المشرقية ذات العائدات المالية والثروات الهائلة مثل صور وعكا ويافا (المصادر المباشرة الوحيدة لحرير الصين الأسطوري، والشاى والتوابل وأيضا العاج، والأحجار الكريمة، والعطور، والفواكه الغريبة، وغير ذلك من الرفاهيات)، بل وأيضا للتحكم الكامل فيها. بيد أنه، فقد تم تحويل مسار ثلاث من الحملات الصليبية على الأقل: الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤)، والخامسة (١٢١٧-١٢٢١)، والسابعة (١٢٤٨- ١٢٥٤) عن الذهاب إلى الأرض المقدسة، واستهدفت بدلا من ذلك غنائم القسطنطينية، ودمياط (مصر) الأكثر ثراء.

على نفس الدرجة من الأهمية من منظور تلك النخبة، هو أنه تم تنظيم الحملات كوسيلة لتعظيم المشروعية/ السلطة المتأصلة فى مفهوم البابوية الرومانية وتجسيدها على أرض الواقع، وبالتالى كمشروعية/ سلطة تراتبية النبلاء ممن يحظون بمصادقة البابا لممارسة أشكال علمانية من السلطة. يمكن قول الشيء ذاته أيضا عما أسمى بإعادة الغزو [الفتح] Reconquista، والذى كان نتيجته تقليص مساحة أراضى الأندلس الإسلامية متسعة الأطراف وجعلها تقتصر على المساحة المحيطة بغرناطة بحلول عام ١٢٤٩.

بالطبع..

بالطبع، كان المجهود الحربى العدوانى بأكمله يتوقف على تجنيد أعداد كبيرة نسبيا من عامة الناس وحشدهم بحيث يشكلون وقود تلك الحملات التى لم تكن سوى حرب عدوان. من ثم، كان من الضروري، وفى استعارة منا لمصطلح من كتاب رودينسون، «شيطنة» الذين كانوا يؤمنون بتعاليم الإسلام فى الوعي الشعبي، وكانت تلك عملية دعائية اضطلع بها رجال الدين بحماس لا يهدأ ولا تنطفئ جذوته. بلغت خبث محاولات ترسيخ تلك الصورة فى الوعى الشعبى درجة من الشر والكيدية بحيث، وخلال فترة قصيرة، أصبح من الشائع النظر إلى المسلمين،ليس فقط على أنهم أغراب، بل أيضا على أنهم خطر مهدد، بصفتهم «الآخر» الذين لا ينتمون إلى أشكال الحياة البشرية، ومن ثم، من الواجب، حرفياً، لا من الجائز فقط، القضاء عليهم.

وهكذا تجسّد سلوك «مقاتلى الرب» الذين شكلوا الحملات الصليبية التى شنها العالم المسيحى الغربى منذ اللحظة التى وطئوا فيها «الأرض المقدسة». مثلا، ووفقا للروايات التى عاصرت الحملة كتلك التى سردتها الأميرة البيزنطية آنا كومنتا مثلا، التى قالت فى وصفها لمسلك القوات الصليبية عندما استولوا على مدينة معرة النعمان وأعملوا القتل فى سكانها: «قامت قواتنا بغلى الكبار من الوثنيين فى أوعية الطهو. أما الأطفال فقد تم وضع أجسادهم فى أسياخ، وأكلوهم مشويين». تم تسجيل بشاعات مماثلة، رغم حدوثها على نطاق أقل فى نفس العام، فى مدينة نيقيا، وفى أنطاكية فى وقت مبكر من العام التالي. أيضا، واكب سقوط القدس فى يوليو ١٠٩٩ حدوث مذبحة شاملة لسكان المدينة المسلمين والمسيحيين لم ينج منها النساء والأطفال «فيما أوقع باليهود داخل معبدهم وتم حرقهم أحياء. مثَّل هذا، فى رأى البابا پاسكال الثانى «الذبح المقدس».

عملية التطهير «النفسى» النفسى التى جسدتها تلك اللحظة التاريخية جلية ولافتة من حيث هولها وطبيعتها. كان الحس الجماعى بالذات الضرورى لتكوين الهوية الثقافية، غير موجود واقعيا فى «الغرب»، لكنه تلاحم فجأة، ليس كمدلول

إيجابى [مثبت] بل كسالب [نقيض]، أى موقف موحد من التمايز الواعى عن «الآخر» الإسلامي. بأبسط العبارات، تردّى هاجس الغرب القهرى بإلغاء سمو الآخر الإسلامى ليس فقط إلى حد القضاء على وجوده، كما حدث بالقدس عام ١٠٩٩ بل بانتحال الخصائص التى شكلت المكانة الأسمى للآخر، من خلال إدماج إنجازات الآخر فى مفهوم الغرب عن ذاته وتخيله لها. تمت عملية الإدماج هذه بأسلوب حرْفى لأقصى درجة ممكنة حينما أكل الصليبيون لحوم ضحاياهم المسلمين فى معرة النعمان، وعلى المستوى المجازى من خلال الاستيعاب الأوسع، والأكثر استدامة – أى التهام الفلسفة والعلوم والتكنولوجيا الإسلامية وهضمها.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الاختلاس الفكرى كان قد بدأ بهدوء قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون كوسيلة لتمييز المسيحية الغربية عن منافستها البيزنطية، فإن السرقة إلى حد «الالتهام الثقافي» للحم الآخر لم تحدث حتى بداية الحروب الصليبية.

وبحلول القرن الثالث عشر، كان توماس الإقوينى وغيره من (المفكرين الغربيين) يقومون بوقاحة بسرقة أعمال الفلاسفة من أمثال ابن رشد بزعم أنهم «يفضحون زيفها».

وحقا، فإن منظرى الإسلاموفوبيا الذين يقوم شيهى بتفكيك مزاعمهم فى هذا الكتاب يتجاهلون عن عمد، أو ينكرون عن مكر وخداع، الإرث الإسلامى فى «الحضارة الغربية»، هذا على الرغم من الاعتراف واسع النطاق بما تدين به جميع المباحث الفكرية تقريبا للعلوم والدراسات الاجتماعية لذلك الموروث. وبالمثل، فقد تم التهام معظم المعرفة الرياضية والعلمية والمعمارية والهندسية التى أدت إلى ظهور ما يسمى بعصر النهضة [الميلاد الجديد Renaissance] فى الغرب، التهامها من الإسلام وهضمها. وفيما ظل المؤرخون الغربيون ينسبون المنهج الجبرى (علم الجبر) إلى عالم الرياضيات الإغريقى ديوفانتوس الذى عاش فى القرن الثالث الميلادي، فإن ابن موسى الخوارزمى هو الذى توصل إليه عام ٨٣٠م. وعلى مدى الأربعمائة عام التالية شهد ذلك المنهج تطورا على أيدى خلفاء الخوارزمي، بل إنه، وحتى القرن

التاسع عشر، فإن كثيرا من «الأفكار اللامعة» التى أُدخلت على هذا المنهج ونسبت إلى الرياضيين الغربيين، كانت مجرد إعادة صياغة للأساليب التى أتقنها العلماء المسلمون.

التَهَم الغرب إسهامات المسلمين فى التفاضل والتكامل وعلم المثلثات والفلك والهندسة اللاإقليدية، وابتلعها كاملة، ثم ادعى منذ أنذاك أنها من اكتشافاته. بل إنه حتى فى مجالات الدراسات المتقدمة المعقدة مثل نظرية الأرقام، فقد كان ابن هيثم، عالم الرياضيات العربى يطبق عام ١٠٠٠م ما أصبح اليوم يشار إليه على أنه «نظرية ويلسون» نسبة إلى جون ويلسون الإنجليزى الذى يُزعَم أنه اكتشفها عام ١٧٧٠. كان أول من توصل للنظام العشرى للكسور هو عالم الرياضيات الفارسى أبوالحسن الإقليديسى فى أواخر القرن العاشر، ثم قام خليفته جامشيد الكاشى بنقله إلى الغرب بعد ما يربو على القرون الأربعة، فيما كان الرياضى المغربى أبوبكر الحصار هو من اخترع أسلوب ترميز الكسور بوضع البسط أعلى والمقام أسفل والفصل بينهما بخط أفقي، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادي.

كان العالم الفارسى الموسوعى نصير الدين الطوسى هو من طور علم الفلك الإسلامى بدرجة كبيرة، لم يكتف بأن قدم البراهين على أخطاء بطليموس وما نجم عنها من حسابات مغلوطة، بل إنه، أتى فى عام ١٢٤٧ بنظرية تعرف باسم «مزدوجة الطوسى Tos,s Double» والتى تكاد تتطابق مع النظرية التى نشرها كوبرنيكوس فى عام ١٥٤٣. بل إن العالم ويلى هارتنر، اكتشف أن برهان كوبرنيكوس الرياضى على الفرضية كان هو ذاته الذى توصل إليه ابن الطوسى عام ١٢٦١ وأنه من الجلى أن كوبرنيكوس قد نسخه بدون أن ينسبه إلى صاحبه الأصلي. كان أحد أسباب تقدم المسلمين فى الرياضيات واستباقهم «الغرب» بكثير هو الأرقام العربية التى استخدموها – بما فى هذا الصفر الذى لم يكن معروفا فى أوربا حتى القرن الحادى عشر ولم يستخدم على نطاق واسع حتى القرن السادس عشر– والتى سهلت إجراء

العمليات الحسابية المعقدة وهو أمر كان من المستحيل إنجازه باستخدام الأرقام الرومانية. علاوة على ذلك، فإنه، وبدون الاستناد إلى الثورة العلمية التى أنجزها المسلمون لكان من المستحيل على الغرب تحقيق موروثه العلمى لأسباب أخرى كثيرة. بل فى واقع الأمر، فمن الممكن إرجاع أصول ما يعرف بالنهج العلمى ذاته إلى خطوات البرهان التى طورها ابن هثيم وابن زكريا الرازى حوالى عام ١٠٠٠م.

كان العلماء والأطباء المسلمون هم أيضا من اكتشفوا الأمراض المعدية، حيث تعرَّف ابن سينا على مرض السل كأحد أخطر تلك الأمراض وأكثرها شيوعا فى القرن الحادى عشر وطرح أسلوب الحجر الصحى لمنع انتشاره. ثم توصل، عن طريق الاستقراء إلى مفهوم علم الأوبئة بما فى هذا تحليل عوامل المخاطرة وفكرة التناذر [مجموعة الأعراض التى تظهر فى وقت واحد] واستخدامها فى أغراض التشخيص. ألف ابن سينا كتابه «القانون فى الطب» المكون من أربعة عشر جزءا وانتهى من إنجازه عام ١٠٢٥. كان مؤلَّفه هذا شاملا متقدما بدرجة أنه ظل أحد دعائم تدريس الطب فى الجامعات الغربية حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، فيما أن كثيرا من التطبيقات والممارسات التى أوردها فى «القانون فى الطب» – مثل التجارب [الاختبارات الإكلينيكية]، التجارب العشوائية المتحكم بها، اختبارات الفاعلية – مازال معمولا بها حتى يومنا هذا.

لم تكن منطقة جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا مصدر كثير من مفاهيم الغرب الطبية المفتاح فقط، بما فى هذا نظرية الجراثيم، بل كانت أيضا مصدر مؤسساته الطبية. كان أول مستشفى عام [بيمارستان] هو ذلك الذى أقامه هارون الرازى ببغداد عام ٨٠٥م، ومن هناك انتشرت المستشفيات سريعا فى أنحاء العالم الإسلامي، كذلك أيضا، فقد أقيمت أولى الصيدليات ببغداد فى مطلع القرن العاشر الميلادي، حيث اشتُرط على الأطباء والصيادلة، بداية من عام ٩٣١م، تلقى التدريس الرسمي، والحصول على الترخيصات المطلوبة كى يتعاطوا مع حوالى ٧٦٠ نوعا من النباتات

الطبية والعقاقير المشتقة منها، بما فى هذا مواد التخدير التى تستخدم فى العمليات، والتى صنفها ابن سينا فى مؤلفه «القانون فى الطب».

ومع إلمام الطب الإسلامى بالتخدير، أضحى إجراء العمليات الجراحية – بما فى هذا أشكال من جراحة الأعصاب – وفهم تشريح الجسد البشرى أكثر تقدما بكثير من أى شيء كان بمقدور الغرب فهمه واستيعابه. مثلا، كانت الأساليب التى وصفها الطبيب الأندلسى أبوالقاسم الزهراوى فى «المقالة فى عمل اليد على فن الجراحة» تُطبَّق كاملة فى أوربا لحوالى ستمائة عام. علاوة على ذلك، وبما أن الإنجازات الدوائية فى العالم الإسلامى كانت تستند إلى إلمام تام بعلم النبات والكيمياء، فقد شكل انتحال المعرفة الطبية الإسلامية وتملكها من قبل الغرب الأساس الذى قامت عليه «العلوم الغربية» فى تلك المجالات.

بل إن الفكر الإسلامى فى مجال الفيزياء استبق بقرون عديدة الفيزياء الأوروبية التى يقال إنها العلم الأوربى بامتياز. بحلول القرن الثامن الميلادى، كان جعفر بن الصديق العالم الموسوعى المولود بالمدينة المنورة قد قام بتفنيد فكرة أرسطو عن «العناصر الأربعة» [الماء والهواء، والنار والتراب]، بل من المرجح أيضا أنه قد أتى بنظرية أولية عن جزيئات المادة. وفى القرن التاسع، استبق عالم الفلك جعفر بن موسى بن شكير قانون نيوتن للجاذبية الكونية بنظرية نقحها ابن الهيثم فى القرن الحادى عشر وقام العالم الموسوعى أبوالفتح الخزينى بتوحيد أجزائها فى القرن الثانى عشر. أيضا، تم استباق قوانين الحركة لنيوتن التى عبر عنها لأول مرة عام ١٦٨٧، فى أعمال ابن الهيثم وابن سينا والعالم الأندلسى الموسوعى ابن باجه، والعالم العربى اليهودى أبوحمزة البغدادى الذى عاش فى القرن الثانى عشر. من الجدير بالذكر، أنه وعلى الرغم من نظرية نيوتن، فإن مفهوم ابن سينا العام عن كَميَّة التحرك مازال يطبق فى مجال الفيزياء.

من خلال الإنجازات التكنولوجية التى تمت فى العالم الإسلامى على مدى مئات

من السنين، تسربت إلى الغرب التوجهات العقلانية الجديدة. كان من المحال حدوث «النهضة الغربية» بدون الأسس التى وضعها العالم الإسلامى للعلوم المعمارية التطبيقية والهندسة. نُقلت الأقواس مستدقة الرأس وكذلك أساليب إقامة الأسقف المضلعة والمنحدرة، الأساسية فى المعمار القوطى وما تلاه من معمار باروكي، نقلت وانتُحِلت مباشرة من النماذج الإسلامية فى بلاد المشرق العربى [الشام] والأناضول وصقلية وأيبريا. وبنفس الأسلوب، كانت التقنيات الإسلامية التى ابتكرها المسلمون، وبخاصة تلك المتعلقة بنقل المياه، وضخها، وخزينها، واستخداماتها فى الري، ومعها أنواع مختلفة من المحاصيل التى طورها علماء الزراعة المسلمون، كانت هى سبب ما أحرزه الغرب من تقدم زراعى قبل القرن السادس عشر.

وأخيرا، هناك ما يتعلق بالتكنولوجيا. مثلا عُرفت ساعات الحائط فى بغداد منذ عام ٧٥٠م، كما أنه كان من المحال إبداع النظارات بدون الفهم المصقول والمتقدم لعلم البصريات الذى وفرته قرون من أبحاث المسلمين فى هذا المجال. شاع استخدام ألواح الزجاج، والزجاج الملون على نطاق واسع فى المناطق الإسلامية قبل أول ظهور لها فى أوربا بوقت طويل جدا. فى عام ١٠٠م اخترع تساى لون الورق فى الصين، وفى عام ٨٣٠م، كان يصنَّع بكميات كبيرة فى بغداد. وبالمثل، كان أول ظهور لآلة الطباعة فى الصين حوالى عام ٦٠٠م فيما اخترع بى شنج وليس رجل الطباعة الألمانى جوهان جوتنبرج الأحرف المتحركة عام ١٠٤١. استوعب المسلمون هذه الاختراعات وطوروها، وحصل عليها الغرب من خلالهم.

ينطبق الأمر ذاته على المدافع، والبارود الذى بدونه لم تكن ثمة جدوى للمدافع والبنادق. وعلى الرغم من أن الغرب بذل ما فى استطاعته لينسب اختراع البارود إلى روجر بايكون فى القرن الثالث عشر، فقد كان الصينيون هم من اخترعوه قبل ذلك بخمسمائة عام وأخذه عنهم المسلمون حوالى عام ١٢٤٠. ومع أخذ هذا التسلسل التاريخى فى الاعتبار، فالمرجح أن الصينيين أيضا اخترعوا المدافع حيث يرجع تاريخ

أول نموذج لها ظل موجودا إلى عام ١٢٨٨. من المحتمل أن تكون جيوش المسلمين والمخترعين منهم قد طوروا مثل تلك الأسلحة فى وقت سابق على هذا التاريخ إذ إن أسقف ليون ذكر استخدام قوات المسلمين لهذه الأسلحة فى إشبيلية عام ١٢٤٨، وكذلك ذكر ابن الحسن استخدامها فى معركة عين جالوت عام ١٢٦٠. ظهرت أول «صورة» للبندقية فى الغرب عام ١٣٢٦، وأول استخدام معروف لدينا للمدفع عام ١٣٤٦ فى معركة سرسى Crécy. والأرجح أن أول مدفع «غربي» كان قد تم شراؤه من مصدر إسلامي.

نجح الغرب فى تطوير البارود المُعمَّر المحفوظ ذى الفاعلية الهائلة من خلال خلطه بالملح، ومن ثم، غدا يمتلك ميزة حاسمة على أعدائه. بيد أنه بدون تقنية تنقية الملح الصخرى التى كان الكيميائيون المسلمون قد اكتشفوها قبل ذلك بسنوات طويلة، ما كان للبارود المُحسَّن ليوجد كى يحفظ. وعلى أية حال، فأيًا كانت الميزات التى حصل عليها الغرب من حفظ البارود وما رافق ذلك من تقدم فى صناعة الأسلحة، فإنها لم تكن كافية للتغلب على قوة العثمانيين الذين سدّوا عليه طرق الحصول مباشرة على سلع الصين وهندوستان [الهند] والتربح منهما. ظل هذا هو الحال حتى بعد هجمات المغول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر - والذين تحالف العالم المسيحى الغربى معهم - والتى دمرت، تكرارا، بغداد ومراكز الحضارة الإسلامية المشرقية الأخرى وتركتها خرابا.

تمكنت القوة العثمانية، مؤقتا، من تعويق رغبة القوى الأوربية المنذرة للتغلغل الأعمق فى آسيا. من ثم، أُجبر الغرب على تغيير وجهة محاولته. أثناء السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، حاولت البرتغال الالتفاف حول «العائق الإسلامي» بالإبحار جنوبا بمحاذاة الساحل الإفريقي، ثم شرقا عبر المحيط الهندي. بيد أنه لم يكن حتى عام ١٤٩٨ أن تمكن ڤاسكودا جاما من الوصول إلى كالكوتا عن طريق رأس الرجاء الصالح. لكن، فى تلك الأثناء كان بحار آخر يدعى كريستوبال كولون

(كولومبوس) قد فتح آفاق «عالم جديد» تماما فيما كان يحاول الوصول إلى «الشرق الأقصي» بالإبحار غربا. أوجدت المغامرتان طرقا ينفّذ الغرب من خلالها أسلوبه لافتراس النوع البشرى ونهبه بمدى لم يسبق لأحد تخيله. لم يقتصر الأمر على أراضى قارتين بأكملها- ثلاث قارات إذا أضفنا إفريقيا - غدت متاحة لهم فجأة كى يستولوا عليها، بل الأهم فى تلك اللحظة، كانت إتاحة موارد تلك القارات: الموارد البشرية والمعدنية والزراعية.

أدت النتائج إلى تحول تام وحقيقي. كان تدفق المعادن النفيسة إلى إيبريا من القارات «الأمريكية»، ذلك الاسم الذى أطلقه الغرب على نصف الكرة الأرضية الذى اكتشفه كولومبوس، كافيا لضمان قيام «الثورة الصناعية» فيما بعد. ولم تكن الأرباح التى اكتسبتها إنجلترا وفرنسا من خلال الاتجار فى العبيد والسُكّر، ثم القطن فيما بعد فى نهاية القرن الثامن عشر، لم تكن بأقل من الثروة التى تدفقت على أيبريا. من هنا يتضح لنا أصل الرأسمالية، بالمعنى «الحديث» للمصطلح. وأيضا، الأساس الذى كان للغرب أن يطور عليه تكنولوجيات معينة وينتجها على نطاق واسع وبكميات هائلة - بخاصة فى مجالات الأسلحة والنقل والاتصالات - التى مكنت حفنة من بلدان غرب أوربا من توسيع المناطق التى تهيمن عليها أثناء القرن التاسع عشر بدرجة أنه، وفى مطلع القرن العشرين، كان لهم ولذرياتهم ممن استوطنوا أمريكا الشمالية أن يزعموا حقوق ملكية معظم سطح الكرة الأرضية.

جوهرياً، عكس مسار التوسع الغربى بأكمله، والذى كان قد بدأ فى السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، عِلّة جوهرية نفسية غير سوية آخذة فى النضج والتى انبثقت عنها هوية «الغرب» بدرجة أن تم إسقاط مفهوم يجرد «الآخرين» من الآدمية، إسقاطه ليشملهم جميعا فى كل مكان، مفهوم مضى ينمو ويزداد زخما وخبثا وسُمية. لم يقتصر الأمر على ممارسة الالتهام الثقافي/ الفكرى للنوع الذى مارسه الغرب ضد الإسلام كما هو ثابت فى كل خطوة له على الطريق، لكن ذلك الالتهام تم توسيع

مداه فيزيقيا وممارسته ضد السكان الذين وُضِعوا مؤخرا فى مصنف «الآخر» بمدى واسع النطاق كاد يطغى على المذابح التى ارتكبت فى معرة النعمان والقدس فى الحملة الصليبية الأولى.

بحلول عام ١٨٣٠ كان قد تم نقل عشرين مليون إفريقى أسود من ساحل إفريقيا الغربى للاتجار بهم عبيدا، توفى منهم مليونان على الأقل أثناء شحنهم من إفريقيا إلى القارات الأمريكية. وعلى الرغم من ذلك، تُولِى الحملات التى يطلقها دعاة الإسلاموفوبيا من الليبراليين والمحافظين الجدد اهتماما أكبر كثيرا لتُجّار العبيد العرب فى الجنوب الإفريقي[1] من الاهتمام الذى يولونه لآلاف المسلمين الأفارقة الذين استُرِقوا وتم نقلهم مصفدين إلى القارات الأمريكية. لم يتوان تجار العبيد الغربيون عن إعمال القتل، بأسلوب مباشر وغير مباشر، أثناء الغارات التى كانوا يشنونها باستمرار لحصد السلع التجارية البشرية من وسط إفريقيا. وهنا، يجب إضافة الأعداد المهولة من الأفارقة الذين قتلوا فى موجات المذابح التى لازمت اجتياح الداخل الإفريقى فى السنوات النهائية للقرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

يتضح هول الكارثة البشرية التى حاقت بإفريقيا وأعداد من فقدوا من سكانها من حقيقة أنه ما بين عامى ١٦٥٠ و١٩٠٠ ارتفع عدد سكان أوربا من ١٠٤ مليون نسمة ليصبح ٤٢٣ مليون نسمة فيما ارتفع عدد سكان إفريقيا من ١٠٠ مليون نسمة إلى ١٢٠ مليون فقط. أما فى القارات الأمريكية فكان التأثير أعظم كثيرا. قُدّر عدد سكان القارات الأمريكية ككل في اليوم الذى رسا كولومبوس على شواطئها بمائة وخمسة وأربعين مليون نسمة، وفي غضون قرنين كان هذا العدد قد تقلص بنسبة حوالى ٩٥٪.

تميز صراع «الغرب» من أجل الحفاظ على وضع هيمنته الكوكبية من خلال

(١) كان هؤلاء العبيد يباعون للمساعدة فى الأعمال المنزلية فى غالبية الأحوال وكانوا يلقون معاملة أفضل، ويعتق الكثيرون منهم فى نهاية المطاف. لا يعنى هذا بأى حال تبرير تلك الممارسات من قبل التجار العرب. (الترجمة)

أسلوب الاستعمار «الكلاسيكي» طوال نصف القرن الذى بدأ من منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، تميز بالأسلوب الضارى فى القضاء على السكان «الآخرين» والتهامهم. ابتداء من الفترة ما بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩ كان البريطانيون رواد استخدام أساليب القمع الوحشية ضد «الثورة الفلسطينية»، وهى ذات الأساليب التى استخدمها الفرنسيون طوال العقود التالية فى الهند الصينية والجزائر، واستخدمتها الولايات المتحدة فيما بعد فى ڤيتنام. فقد حوالى مليون هندى حياتهم فيما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٤٨ من خلال محاولات بريطانيا التحكم فى مغبات تخلص الهند من الاستعمار. نجم عن محاولات الهولنديين إحباط استقلال إندونيسيا فيما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٤٩ حوالى ١٠٠٠٠٠ قتيل. أدت محاولات بلجيكا لإعادة تثبيت هيمنتها على إقليم كاتانجا الغنى بالمعادن الثمينة بالكونغو التى كانت قد نالت استقلالها مؤخرا فى عام ١٩٦٠ إلى سقوط أعداد لا تحصى من القتلى تقدر بمليون أو أكثر. كانت تلك هى حشرجات الموت لما وصفه فرانتز فانون بأنه «الاستعمار المحتضر».

فى واقع الأمر، فقد لازمت المفارقة الرهيبة نجاح حركة العالم الثالث للتحرر من الاستعمار الذى كان قد أنجز بنهاية السبعينيات. وبدون التغاضى عن التضحيات الاستثنائية التى بذلتها الشعوب المُستعمرة أثناء نضالاتها من أجل التحرر، أو الأثر الموهن لتلك النضالات على قدرة المستعمرين للحفاظ على النظام الإمبريالى الذى كان قائما، فلابد من التأكيد على أن ما أنهك الإمبراطوريات وأخرج أحشاءها كان هو تطبيق أدولف هتلر للمبادئ الكولونيالية الخالصة على «القارة» [الأوربية] ذاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. تركت الأوضاع التى فُرضت هكذا – من النوع الذى كان «الآخرون» المستعمرون يعانونه بشكل روتينى لعدة قرون غالبا – تركت أوربا الغربية منهكة منسحقة بعد مجرد خمس سنوات بدرجة أنها لم يعد لديها القوة لإخضاع «الآخرين» بأسلوبها المعهود.

من ثم كان «عصر التحول» بعد الحرب، وهى فترة ميزها ليس فقط التحول المفترض من الواقع الكولونيالى إلى ما «بعد الكولونيالي» بل أيضا انتقال مركز «الغرب» ذاته

من العالم القديم إلى العالم الجديد. واكب هذا الانتقال الأخير إعادة ترتيب سريعة للآليات التى من خلالها يُبقى الغرب هيمنته على العالم خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وكانت الولايات المتحدة هى من هندست عملية إعادة الترتيب تلك، بشكل رئيسي. استغل هذا النهج الجديد الحصيف، والذى سرعان ما أسماه كوامى نكروما وغيره من دعاة التحرير فى العالم الثالث، «الكلونيالية الجديدة neocolonialism»، استغل حالة البؤس والإملاق ذاتها والتى كانت تعانيها المستعمرات السابقة نتيجة استيلاء الغرب المستدام على ثرواتها ونهبه لها، استغلها وسيلة أساسية كى «تلزم [تلك البلدان] مكانها». تم إنشاء مؤسسات جديدة كاملة، كان الأبرز بينها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، اللذان أقيما من أجل إقراضها الأموال التى حُصدت نتيجة استغلال تلك البلدان، بذريعة تمكينها من التغلب على أوضاع «التخلف» الحادة التى تعانى منها.

ولكى تصبح «مؤهلة» لتلقى مثل تلك «القروض التنموية» طُلِب من حكومات العالم الثالث فى البداية أن تبرهن على «التزامها باقتصاد السوق الحر»، وهو أمر يتوقف بأسلوب ثابت على تفعيلها لسياسات داخلية تمنح الأفضلية للأرباح التى تجنيها الكوربوريشنات الغربية من المشاريع التى تنفذها داخل تلك البلدان، وترجحها على رفاه سكانها وسلامتهم. من ثم، ظلت الثروة التى يسلبها الغرب من العالم الثالث بنفس المعدلات التى كانت سائدة فى ظل الكلونيالية فى شكلها الكلاسيكي، بل وتفوقها فى بعض الحالات. عمل هذا ومعه نفقات خدمة القروض التى ترتفع باستمرار، على ترك كثير من المستعمرات السابقة أشد فقرا مما كانته قبل حصولها على الاستقلال.

تضمينات مثل تلك الترتيبات يستعصى على المبالغة. فى سبعينيات القرن العشرين، أوضحت التقديرات أن حوالى ٢,٢٥ مليار نسمة من الأمم «ذات البشرة السمراء»، يحاولون يائسين العيش على دخل سنوى للفرد يقل عن ٢٠٠ دولار سنويا، وأن حوالى ٨٠٠ مليون من هؤلاء يعيشون على أقل من ١٠٠ دولار سنويا.

بمنتصف الثمانينيات كان الوضع قد وصل لنقطة «الإبادة الجماعية الصامتة» حيث ذكرت تقارير منظمة الصحة العالمية أن ثمة ١١ مليون طفل فى العالم الثالث، فى المتوسط، يموتون سنويا نتيجة سوء التغذية و/أو عدم وجود أدوية لا تكلف الجرعة منها أكثر من عدة بنسات. فى عام ١٩٩٠، وفقا لبيانات البنك الدولي، بلغت الأرباح المتدفقة من «البلدان النامية» إلى الغرب مستويات قياسية، فيما ذكرت تقارير واكبت تلك البيانات أن نصيب البلدان الواحد وأربعين الأكثر فقرا من الثروة الكوكبية قد انخفض ليصبح ١٨٪ بعد أن كان ٢٣٪ فى العقد السابق. وفقا لصندوق النقد الدولي، فقد زاد تدهور الأوضاع فى تلك البلدان الواحد وأربعين بحلول عام ٢٠٠٩.

يكفى أن نقول إن ما وصفته منظمة التجارة العالمية على أنه إبادة جماعية «صامتة» لم تكن أبدا صامتة بالنسبة للسكان الذين كان أطفالهم - وكبارهم فى واقع الأمر - يموتون، ومازالوا يموتون بالملايين. كما أن أسباب ذلك لم تكن أبدا خفية عليهم (ليس من الصعوبة بالمطلق أن يتبينوا أن حياتهم وحياة أعزائهم قد فقدت قيمتها بدرجة أن أصبحت لا تستحق الحفاظ عليها بأكثر مما تستحقه أوراق التواليت). ونظير ذلك فقد سعت تلك الشعوب باستدامة، وبأسلوب أو آخر، إلى الإطاحة بأنظمتهم التى أقامتها الولايات المتحدة والتى ظل سبب وجودها ذاته، إلى جانب إثراء أنفسهم، هو ضمان «الحد الأقصى من الأرباح لاستثمارات» الكوربوريشنات الغربية على حساب شعوب كل منها مباشرة.

دفع هذا بدوره، ومنذ ستينيات القرن العشرين، الولايات المتحدة إلى الحفاظ على استقرار «بيئات البيزنس فى الخارج» بأن أمدت الأنظمة العميلة فى العالم الثالث بتدريبات عسكرية/ بوليسية، وبقوائم من الأسلحة تتزايد كميتها باستمرار، وبالذخائر، وبتكنولوجيا الاتصالات/ بيانات التخزين/ والرقابة، وغير ذلك من التجهيزات التى لا تستخدم سوى فى قمع رغبات الشعوب فى تغيير الأوضاع القائمة. ضاعف النظام الناجم عن «فاشية العالم الثالث» التى ترعاها الولايات المتحدة المعاناة التى ظلت

شعوب المستعمرات السابقة تخضع لها، بأن جعلت من التعذيب والعنف القاتل الذى يمارس على نطاق جماهيرى واسع أحيانا، شأنا روتينيا. أثناء ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين تم قتل ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ شخص، أى حوالى ٨٥٪ من سكان جواتيمالا الأصليين من قبائل المايا على أيدى الجيش والشرطة الجواتيمالية فى مسعاهم لقمع المقاومة الشعبية، لسياسات استخدام الأراضى الحكومية. وهذا مثال واحد، ويوجد الكثير غيره.

وبنظرة ارتجاعية، فإن الأبعاد العنصرية والشوفينية ثقافياً للنظام العالمى الجديد الذى بدأته الولايات المتحدة وقادته أثناء فترة ما بعد الحرب يبدو جلياً لدرجة الشفافية. فعلى حين لم يكن إصلاح مغبات الحرب فى العالم الثالث وتعويض بلدانه عنها جزءا من خطتها لهذا الجزء من العالم بعد رحيل الاستعمار الأوربى عنه، فإن الولايات المتحدة لم تبخل بالوقت أو الأموال كى تسهل عملية إعادة إعمار بلدان أوربا الغربية بما فيها ألمانيا واستردادها لقدراتها الصناعية بعد ما ألحقته الحرب بها. وهكذا فعلت أيضا بالنسبة للبنية الأساسية الإنتاجية لليابان، ذلك البلد الذى كان قد تغربن تماما بحلول ثلاثينيات القرن العشرين بدرجة أن هتلر دخل فى تحالفات معه. تم تصميم تلك الخطوات والإجراءات وقصد بها تحديدا توليد النتائج التى نجمت عنها – أى تمكين الغرب من أن يتغذى بكفاءة تفوق أى وقت مضى على لحوم الكتل البشرية الكوكبية لـ «الآخرين» الذين جُرِّدوا من آدميتهم بشكل كلى – تلك النتائج التى كانت واضحة منذ المستهل.

وفى واقع الأمر، فقد غدا الترتيب ثلاثى المحور للقوة الكوكبية التى أنشأتها الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٥ وسيطا مثاليا يمكن من خلاله تولّى أمر «التخطيط النخبوى لإدارة العالم»، وهو أمر انعكس جليًا فى تشكيل اللجنة الثلاثية فى عام ١٩٧٢. تلك اللجنة التى وصفت نفسها بأنها «نظير للقطاع الخاص لمجلس العلاقات الخارجية الحكومي»، زعمت أن مهمتها هى طرح توصيات سياسية

تؤدى إلى «تطور سلس وسلمى للنظام الكوكبي». وفيما يبدو هذا الهدف نبيلا، فقد تم الكشف عن معناه الحقيقي بأسلوب فاضح فى إحدى أوائل الدراسات التى أجرتها اللجنة ونُشِرت عام ١٩٧٥ حيث انتهت إلى أن «الديموقراطية المفرطة» ومعها «تدخل الحكومات القومية فى أسعار صرف العملات الدولية» تشكل العوائق الرئيسية لـ «التطور السلس» للنظام. أى أن الحد من هاتين المشكلتين معا - أو القضاء عليهما - سيجعل النظام أكثر «سلمية» فى نهاية المطاف.

إن غض النظر عن هذا بذريعة أنه لغو يمينى نمطى سيكون خطأ كبيرا. فإن بين أعضاء اللجنة ثلاثية الأطراف كثيرا من صناع السياسية النافذين فى العالم الرأسمالي، هذا علاوة على أنه قد تم تنفيذ التوصيات المضمرة فى تقرير اللجنة لعام ١٩٧٥. تم تقليص «تدخل» الحكومات فى التبادلات الدولية وأسعار العملات من خلال الاتفاقيات، مثل اتفاقية التجارة لدول شمال أمريكا NAFTA، كما أنه يجرى الآن التوصل إلى ترتيبات أشمل فى اجتماعات منظمة التجارة العالمية التى تفرض حولها الحراسة المشددة. أما بخصوص تقليص «الديموقراطية المفرطة»، فإن الكثير مما ذكرناه عن رعاية الولايات المتحدة للفاشية في العالم الثالث يكفي للدلالة على هذا. وعلى الرغم من ذلك، فإننا ندعو من مازالت الشكوك تراودهم لمناقشة الموضوع مع أى شخص فلسطينى أو للاستماع إلى موميا أبوجمال التى كتبت تمهيدا لهذا الكتاب وهى من مواطنى الولايات المتحدة الملونين.

وبإيجاز، فإن الواقع الملموس هو أن القوة الساحقة تستخدم بتزايد ضد أى أحد، ويشمل هذا شعوبا بأكملها، يقوم بمقاومة ذات معني، لما يقصد به أن يكون الترسيخ النهائى للهيمنة الغربية. ولأسباب مباشرة، وأيضا جد معقدة بدرجة عدم استطاعتنا تفصيلها هنا، فإنه، وعلى مدى العشرين عاما الأخيرة، فإن أقوى التحديات لهذه الطموحات، ظلت تضطلع به الجماهير الإسلامية، وأحيانا أيضا بعض الحكومات الإسلامية. من ثم، فقد اكتملت الدائرة مرة أخري، حيث يقف الإسلام مرة أخرى

حائلا بين الغرب وبين تحقيق فنتازياته المرضية التى منها وُلِد إحساسه بذاته والتى قام هذا الحس على أساسها دائما. ومرة أخرى، لابد من تقديم الأمثولات والعبر: وفاة أكثر من نصف مليون عراقى فى التسعينيات نتيجة للعقوبات التى فرضتها الولايات المتحدة، وذلك كى يستوعب قادة ذلك البلد خطورة مقولة چورچ إيتش. دبليو بوش المأثورة «إن ما نقوله ينفَّذ». ومرة أخرى يتم «تبرير» هذه البشاعات من خلال حملة متناغمة للتشهير بالضحايا وتشويه سمعتهم.

هذا إذن هو سياق ظاهرة الإسلاموفوبيا التى بُعثت من جديد والتى يُخضعها ستيفن شيهى للتحليل الدقيق الصارم فى الصفحات التالية. وبعمله هذا، فهو يقدم خدمة متسامية، ليس فقط للأسلوب الذى به يلقى الضوء على الظاهرة التى يصفها مباشرة، بل أيضا بما أن الإسلاموفوبيا تتضمن القالب الأصلى الذى منه اكتسبت تنويعات العنصرية الغربية التى تلت شكلها، ومن ثم، فهو يلقى الضوء أيضا على مدى أوسع وأكثر عمقا من الظواهر المرضية المختلفة. إنه فقط من خلال نزع الأغلفة عن فحوى عقلية السمو/ الأوروبى - أو عن عدم وجود فحوى لها - نستطيع أن نُحكم القبضة عليها ونستوعب مكنوناتها وبهذا، فقد نستطيع أن نعثر على وسيلة لشفاء ذلك المرض الذى تُشكِّل الإسلاموفوبيا أهم أعراضه، ومن ثم يمكن لـ «الفكرة الجيدة» التى قال بها غاندى أن تتحقق أخيراً، وإن لم نستطع هذا، فإن جدوى كتاب الإسلاموفوبيا ستكمن فى الآراء التحليلية المتبصرة وتساعدنا جميعا على فهم أفضل لما علينا مواجهته. وفى كلتا الحالتين، فإن قيمة هذا الكتاب لا تقدر، من ثم ندين لستيفن شيهى بأعمق درجات الشكر والإعجاب لشجاعته باضطلاعه بكتابته.

وارد تشرشل

مقدمة

«نحن الآن إمبراطورية» وحينما نتخذ الأفعال والإجراءات، فإننا نخلق الواقع الخاص بنا».

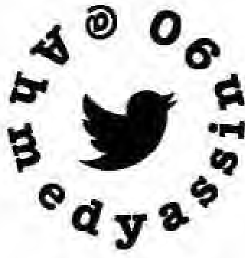
أحد كبار مساعدى بوش، لم يذكر اسمه

دخول أحاديث الكراهية إلى التيار الأمريكى السائد:

قال الرئيس چورج دبليو. بوش لقائد القيادة الوسطى الأمريكية الجديد الأميرال ويليام فالون والذى كان قد تجرأ لتوه قائلا إن الأمريكيين كانوا بحاجة لإيجاد سبيل للتعاطى مع الإيرانيين والدخول معهم فى حوار، قال له «إن هؤلاء الناس حمقى حقراء assholes». دَفعَ هذا التعليق، الذى انتشر بصخب على نطاق واسع، إلى العلن ما كان موضع شك من الكثيرين، أى أن البغض العميق الذى يُكنّه الرئيس للإيرانيين كان وراء استراتيچيتيه الإيرانية/ العراقية وهى استراتيچية لم «تقدم أى نهج» واقعى للتعاطى مع إيران أو مع المنطقة.

وبالتقابل، كان فالون يلقى الثناء بصفته القائد الذى كان يتصدى لخطاب الحرب الذى تبناه البيت الأبيض والذى كان دافعه الرغبة فى الاستيلاء على النفط والغاز، حيث رفض فالون الخيار العسكرى ضد طهران. وفى حوار له، بعد ذلك، مع قناة الجزيرة، انتقد فالون علناً قرع طبول الحرب المستدام الصادر عن واشنطون، وأضاف قائلا إن ذلك «غير مفيد». كان عليه الاستقالة، فى النهاية، حينما أصبح اختلافه فى الرأى مع الإدارة علنياً بعد حوار له مع مجلة إسكواير. ونظرا لوصف الإعلام له بالبسالة لمعارضته الضغط من أجل الحرب وتثبيت تلك الصورة له، فقد تم تجاهل الكُنية التى كان قد أطلقها على الإيرانيين، حيث كان قد أسماهم فى حواره مع مجلة إسكواير «نملاً» سيتم «سحقهم فى الوقت المناسب».

فى أعقاب ٢٠٠١/٩/١١، تم نسف السقف الذى يمكن تقبله لحديث الكراهية ضد المسلمين، وضد العرب بخاصة. غدا بإمكان المحرضين متوسطى التطرف من



أمثال آن كولتر أن تُصرّح فى الوسائط المطبوعة ما كان لابد أن يمنعه أى رئيس تحرير مسئول أو أى حس بالكياسة، حيث كتبت قائلة بعد يومين من أحداث ٩/١١ «يجب أن نجتاح بلادهم ونقتل قادتهم ونحولهم إلى المسيحية. لقد قصفنا المدن الألمانية وسويناها بالأرض، وقتلنا المدنيين. كانت تلك حربا. وهذه هى حرب أيضاً» لم يتراجع عنف اللغة، بل تصاعد بما يتناسب مع التصاعد المأساوى فى عنف سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومثلما أسمى بوش الإيرانيين «assholes»، وسمع رئيس قوات الولايات المتحدة بالخارج يسميهم «نملا» فقد قال الجنرال جيمس ماتيس بالمارينز، وقائد قيادة القوات المشتركة، بعد ذلك ببضع سنوات «اذهبوا إلى الداخل الأفغانى وستجدون رجالاً يصفعون النساء لعدم ارتدائهن الحجاب. تعرفون أن مثل هؤلاء ليسوا رجالا من ثم، فإنها لتسلية عظيمة أن تطلقوا النار عليهم». واكب تبرير قتل المسلمين بالخارج وما يرافقه من متعة، وابل من الأفكار عن الإسلام والمسلمين

لم يكن من المتخيل أن ينطق بها أحد من قبل، عبر عنها التيار السائد الأمريكي الأبيض. منذ ٩/١١، غدا المسلمون والإيرانيون والعرب والإسلام ذاته مواضيع للازدراء والسخرية العلنية على شاشات التليفزيون، وفى البث الإذاعي، والصحافة المطبوعة. نسمع، من الصباح وحتى المساء عن «الخصائص العظيمة الفاضلة لدين الإسلام الغائر فى القدم: قتل النساء على الشرف، ختان الإناث، منع النساء من قيادة السيارات، نعت اليهود بالقردة والخنازير».

وفيما يُشيطن الكثيرون اليمينيين من دعاة الكراهية بعد أن تم تطبيع وابل أحاديث الكراهية التى يقصفون بها المسلمين وأصبحت ضوضاء بيضاء معتادة تنعبث من البرامج الحوارية بالتليفزيون والإذاعة، تمضى الدوائر الليبرالية تستخدم الأضاليل القائمة على الإسلاموفوبيا، وتنميطاتها وتروّجها بزعم أنها نقيض وجهات نظرهم الخاصة، ولنا فى تعليقات هوارد دين الزعيم الديموقراطى الليبرالى على إقامة مسجد بالقرب من موقع هجمات ٩/١١ [Ground Zero] مثال على هذا الخطاب. قال وهو يتحدث إلى راديو WABC إن بناء مركز إسلامى على مقربة من موقع مركز التجارة العالمى سيكون إهانة حقيقية لمن فقدوا حياتهم فى ٢٠٠١/٩/١١، ثم مضى قائلاً، بذات الأسلوب الذى يستخدمه الديموقراطيون للتخفيف من عنصريتهم «أعتقد أن إقامة المساجد فى المدن الأمريكية أمر طيب، لأن أعداد المسلمين الأمريكيين تتزايد وأعتقد أن غالبيتهم معتدلون. أمل أن يستطيعوا التأثير على المسلمين فى أنحاء العالم، وذلك لأن الإسلام عاد إلى ما كانه فى القرن الثانى عشر فى بلاد مثل أفغانستان وإيران حيث يقومون برجم الناس حتى الموت، وهذا يمكن إصلاحه، ليس بالضغط على المسلمين وإقصائهم، بل باحتضانهم والعمل على أن يصبحوا مثل غيرهم من الأمريكيين، ومن الأمريكيين الذين تصادف أنهم مسلمون». ليس حديث هوارد دين بالمستغرب أو الجديد. فى الواقع، وكما سيوضح هذا الكتاب، فإن الكثيرين من مختلف المشارب الثقافية والسياسية فى أمريكا، يتشاركون فى الروايات المضلّلة الناجمة عن الإسلاموفوبيا. تقتضى رؤية هوارد دين استيعاب المسلمين [الأمريكيين]

وإدماجهم فى الثقافة الأمريكية بحيث لا يمثلون تهديدا لهيمنة الولايات المتحدة، أو لثقافة البيض القائمة على الاعتقاد فى سموهم، وتدعو للتأثير على جماعات المسلمين فى جميع أنحاء الكوكب من أجل ضمهم إلى الحظيرة الأمريكية.

وعلى حين أن الليبراليين والتقدميين ظلوا ينقدون الأصولية الدينية المسيحية ويزدرون خطابها، إلا أنهم يرون أن المسلمين يمثلون تهديدا وتحديا كما توضح تعليقات هوارد دين. لا يُعتبر هذا أمرا فريدا فى خطابات الليبراليين والتقدميين التى دائما ما تختص المسلمين [بالنقد والاتهامات]. مثلا، دائماً ما نجد فى كتابات ريتشارد دوكينز، العالم الملحد، أو كريستوفر هيتشنز، داعية الحرب الملحد أيضا هجوما على كل الأديان باعتبارها شعوذات لا عقلانية، لكنهما يُوجِّهان الاتهامات للإسلام بخاصة لما يزعمان عن نزوعه الاستثنائى لقمع الاختلاف أو الخروج على الإجماع من خلال أعمال العنف، وحظره المتأصل للمساءلة الذاتية. بل إن المثقفين والنشطاء التقدميين حينما ينقدون عسكرة الولايات المتحدة وإمبرياليتها، فهم دائماً يستدعون فى خطابهم هذا تصلب الإسلام والمسلمين وتخلفهم بصفتها أسبابا لعدم جدوى إشعال الحروب ضدهم. مثلا، يدعو جوهان جولتونج، مؤسس «دراسات السلام» والناشط المعادى للحروب منذ زمن طويل، إلى نقلة فى النموذج المعيارى لتفاعل الولايات المتحدة مع العالم – لكنه يستند إلى التنميطات فى دعوته إلى تقويض الإمبراطورية الأمريكية وإلى العدالة الاجتماعية الكوكبية. يعيد تحليله استنساخ تحليلات اليمينيين والنيوليبراليين حيث يذهب إلى أن لدى المسلمين مفهوما مختلفا عن الوقت والمجتمع والتاريخ والسياسة وكذلك علاقة مختلفة بكل تلك الأمور حيث إنهم يتمسكون بعقيدة الدفاع عن الإسلام «ضد الكفار»، كما يُحظَر عليهم الإذعان لحكم المسلمين واليهود لأوطانهم. من ثم، فليس ثمة جدوى للحرب على العالم الإسلامى لأن للمسلمين حساً مفتوحاً لا محدداً بالزمان مما يسمح لهم بالقتال ضد «الكفار» إلى ما لا نهاية. بتعبير آخر، فإن أفضل قرار تتخذه الولايات المتحدة هو إنهاء حروبها

مع المسلمين وذلك لأن داخل كل مسلم شخص أصولي سيحارب دون كلل أو ملل ضد هيمنة غير المسلمين على بلادهم.

تسود الإسلاموفوبيا جميع مستويات الحياة الأمريكية. من اليمين إلى اليسار، ومن المتدينين إلى الملحدين. يمكن القول إن بوش وداعميه أشخاص يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا ويعتقدون أن كل مسلم «حقير أحمق» وإرهابي.

ومن الناحية الأخرى نجد أن الديموقراطيين والليبراليين يعمدون بسهولة إلى نشر التنميطات التي تستدعي لا عقلانية العرب والمسلمين وعداءهم للحداثة من أجل تبرير دعمهم لهيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية.

وكما سنري، فإن مشاعر الإسلاموفوبيا جلية في قطاعات عديدة من المجتمع الأمريكي، تنفثها الوسائط الإعلامية ومراكز الأبحاث و«الخبراء» المتفقهون المزعومون، و«المخبرون المحليون»، والأكاديميون المارقون الأوغاد، واللوبيهات، وتنظيمات النشطاء. لا يشعر المسلمون فقط بالوابل اليومي لخطاب الكراهية، وأفعال الكراهية من خلال التحليلات والصور المهيمنة المزدرية، التي تجتاح شاشات التليفزيون والوسائط الإعلامية المطبوعة، وحتى لوحات الإعلانات في الطرق السريعة، بل إنهم أيضا يخضعون للرقابة الحكومية، وتقتفى آثارهم وتحركاتهم في الشوارع والمساجد والجامعات، وتُرصَد تجمعاتهم، وأموالهم وتبرعاتهم الخيرية. علاوة على ذلك، فإن حكومة الولايات المتحدة تتجسس عليهم، وتقمعهم وتقاضيهم. تجسد جميع مناقشات المجتمع المدنى والإعلام عن الحرب، وعن العراق وأفغانستان الإسلاموفوبيا. تشكل الإسلاموفوبيا بنية جميع النقاشات حول الحرب على الإرهاب. تذيّل جميع النقاشات حول «إصلاح العلاقات مع العالم الإسلامي» نوازع هوس الإسلاموفوبيا. تغلب على جميع النقاشات حول فلسطين مفاهيم الإسلاموفوبيا، فيما غدت جميع النقاشات حول إيران وقدرتها النووية ودورها الإقليمى تعبيرا عن الإسلاموفوبيا. كما تشكل الكراهية الاستراتيجية المتعمدة للمسلمين والخوف منهم حدود جميع النقاشات حول الهيمنة على النفط والطاقة.

الإسلاموفوبيا والتشكيل الأيديولوجي للإمبراطورية الأمريكية:

وبعد أن قلنا كل هذا، ليست الإسلاموفوبيا أيديولوجيا سياسية في حد ذاتها كما أنها ليست دوجما منعزلة بمثل ما أن الإسلام ذاته ليس أيديولوجيا سياسية أو دوجما منعزلة. لا تملك الإسلاموفوبيا برنامجا سياسيا أو حتى رؤية سياسية، إنها أمر جوهري، مجرد، مستدام، متأصل، وسائد. يذهب هذا الكتاب إلى أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجي. لا يعني هذا أنها الرؤية الجوهرية لأى حزب سياسي. الأحرى هو أن التشكيل الأيديولوجي تخلقه ثقافة تنشر مجازات، وتحليلات، وعقائد محددة بصفتها حقائق تؤطّر بها السياسات الحكومية والممارسات الاجتماعية. يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا هي تشكيل أيديولوجي جديد تم التعبير عنه باكتمال منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها، أو أحد المفكرين، أو الفلاسفة، أو النشطاء، أو إلى أى منفذ إعلامي، أو مجموعة مصالح خاصة، أو مركز أبحاث، أو حتى قطاع اقتصادى أو صناعى هذا على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون بأسلوب جمعي عن نشر التنميطات الخبيثة المعادية للمسلمين والمعادية للعرب وعن تداول تلك المعتقدات من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على الكوكب وتبريرها. منذ اليوم الأول لتوليه الرئاسة، أظهر بوش وإدارته بوقاحة الاحتقار للعرب والمسلمين، وبلا أدنى مواراة. ستوضح الفصول التالية أن إدارتي كلينتون وأوباما تسودهما نماذج الإسلاموفوبيا والإجراءات المؤسّسة عليها والتي تقترن بنظرة إمبريالية أمريكية مماثلة. وفي واقع الأمر، فإننا، منذ ٩/١١ نشهد الإسلاموفوبيا وقد أصبحت تيارا سائدا بأسلوب غير مسبوق. مثلا، كتب روبرت سبنسر، وهو شخص متطرف غريب الأطوار، مقالين طويلين عنصريين خبيثين عن الإسلام أصبحا ضمن قائمة النيويورك تايمز لأعلى المبيعات، فيما حظى كتاب «العدو الداخلي» المبتذل والمثير للفتن والذى ألفه بروس باور، بترشيح دائرة نقاد الكتب القومية ذات المكانة المرموقة كأفضل كتاب نقد.

وفيما عمل الأكاديميون والنشطاء والمجموعات المحلية، وأيضا الهيئات من أمثال

هيئة «الإنصاف والدقة فى التقارير» على ضم المدعين المأجورين والمثقفين الزائفين إلى التيار السائد، يتبنى هذا الكتاب مسلكا مختلفا. فبدلا من فهم الإسلاموفوبيا بصفتها سلسلة من الأفعال والمعتقدات التى تستهدف المسلمين وتنتج عن سوء فهم نوعى للمسلمين والإسلام، فإنه يكشف أن الإسلاموفوبيا هى ظاهرة أيديولوجية توجد لتعزيز غايات سياسية واقتصادية على مستوى الداخل والخارج. يمكن لنتائج تلك الأيديولوجيا أن تكون سلسلة من الأفعال والإجراءات تضفى حكومة الولايات المتحدة عليها صفةً مؤسسية وتتراوح بين شن الحروب والتعذيب المبرمج، إلى أعمال الخطف والاحتجاز والإعدام دونما إذن قضائي، إلى المراقبة ونصب الفخاخ والإيقاع بالأشخاص. يخبر المسلمون فى حياتهم اليومية آثار الإسلاموفوبيا، حيث يواجهون المضايقات والتحرشات، والتمييز العنصري، وحديث الكراهية فى الشارع، والجعجعات المتبجحة المعادية للإسلام على شاشات التليفزيونات القومية فى برامج البث الإذاعي، وأفعال الكراهية مثل تفجيرات المساجد. بيد أن تلك الآثار قد تُفهم على أنها مجرد أفعال متفرقة تتماس أحيانا إذا لم يتم النظر إليها على أنها تقع داخل نموذج أصلى كامل للإسلاموفوبيا أو خطابها الذى يتخلل الثقافة الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

ومن أجل أن تعارس تلك الآثار فى تناغم مع خطاب يبررها، لابد للإسلاموفوبيا أن تعمل على مستويين فى أن؛ مستوى الأفكار والأحاديث والإدراك؛ ثم المستوى المادى للسياسات والعنف والأفعال. من ثم، فإن بنية هذا الكتاب ذات نهج علمى مزدوج يُنقّب عن كيفية عمل الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي مُؤثر يقوم بتيسير أهداف الإمبراطورية الأمريكية. من ناحية، يقيم هذا الكتاب تحليلاته على كتابات أشخاص مثل برنارد لويس وفريد زكريا، وأعمال «المخبرين المحليين» من أمثال إيان هيرسى على وإرشاد منجي، وعلى خطابات لبوش وأوباما ووزرائهما وتابعيهما ومرءوسيهما من الذين توفر تحليلاتهم وفلسفاتهم السياسية الأساس الاستطرادى الراسخ لتطبيع الإسلاموفوبيا وتبريرها كسياسة دولة خارجية، وسياسة نفطية وأمنية واقتصادية، داخلياً وخارجياً.

من أجل تبسيط الصرح الأيديولوجي متعدد الأوجه للإسلاموفوبيا سنقدم توضيحا تفصيلياً لنموذجين من الإسلاموفوبيا متماثلين ومتنافسين في آن، هما النموذج الذي تطرحه كتابات برنارد لويس وذلك الذي تروجه كتابات فريد زكريا. ومما يستحق التكرار فإن هذين الاثنين ليسا من ابتدع روايات الإسلاموفوبيا التي انتشرت بعد ٩/١١، لكن يمكن القول إن أعمالهما تعتبر تركيزا لروايات الإسلاموفوبيا التي كانت قد ظلت قيد التداول والتراكم طوال العقود السابقة. قام لويس وزكريا بعملية تقطير لكثير من معتقدات الإسلاموفوبيا وتكثيفها في خطابين منفصلين ومتقاطعين في آن يهدفان بوضوح إلى شرعنة نشر قوة الولايات المتحدة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، وإلى التحكم في سكانها المحليين. يتم تكرار النقاط الداعمة في هاتين النسختين من الإسلاموفوبيا في جميع وسائط الإعلام السائد، والدوائر السياسية، ومن خلال المخبرين المحليين (أشخاص من أصول مسلمة أو عربية يُزعَم أنهم أفضل من يُعرُّون المشاهد الداخلية للثقافة العربية/ الإسلامية وينقدونها) وتتردد أصداؤها في خطابات بوش وأوباما.

ومن جهة أخري. سيوضح هذا الكتاب أن خطابات الإسلاموفوبيا هذا لها نتائج واقعية ملموسة. بتعبير آخر، فإن مفردات الإسلاموفوبيا هي الهراوات والحجارة التي بها تكسّر عظام المسلمين، من خلال هندسة الخوف الأورو/ أمريكي من المسلمين وكراهيتهم وإدارته وتوجيهه والعمل كوسائط له، داخل الولايات المتحدة وفي أنحاء الكوكب، كما يمكن تبرير السياسات الداخلية الجديدة التي كانت تعتبر سابقا لا دستورية، بل حتى لا أمريكية، بصفتها أمورا ضرورية للأمن والحفاظ على الذات. كان التعذيب، بدءا من الإغراق بالماء والعزلة المفرطة للمتهمين الأمريكيين بالولايات المتحدة إلى الوسم العنصري، والخطف، وعمليات التسليم الاستثنائي لبلاد تقوم بتعذيبهم، والاغتيالات بدون إذن قضائي، وتجميد إجراءات الاستدعاء القضائية، والحرب الشامل ضد بلدان ذات سيادة واحتلالها من نتائج نشر مزاعم الإسلاموفوبيا وتنميطاتها، ونماذجها وتحليلاتها.

سيبحث هذا الكتاب النتائج العنيفة للإسلاموفوبيا، التي تكاد ألا تخفي ويوضح

بخاصة تعدّد شعاب الهجمات علي المسلمين والعرب في الولايات المتحدة. تعمل المنظمات والوكالات الحكومية مع المجالس التشريعية، والهيئات التنفيذية، بل وحتي القضائية علي استهداف الأمريكيين المسلمين والعرب. وتحديد ملامحهم، وتجميع ملفات عنهم وتجريدهم من حقوقهم الدستورية. تعمل جماعات المصالح السياسية. واللوبيهات ولجان الفعل السياسي مع السلطات المحلية وسلطات الولايات المتحدة والسلطات الفدرالية من أجل عزل الجاليات المسلمة والمنظمات الطلابية والنشطاء والأكاديميين المسلمين وإثارة الذعر بينهم ومضايقتهم والتحرش بهم. وبالمثل، يبث الإعلام بكفاءة دعايات صريحة معادية تعمل علي شيطنة العرب والمسلمين وتزيد من حجم عداء التيار السائد للإسلام ومعتنقيه. سنري كيف تُرتكب أفعال متطرفة ضد العرب والمسلمين وضد أقليات أخري يعتقد خطأ أنها منهم، علي خلفية وابل ضوضاء كراهية الإسلام هذه التي يطلقها البيض.

وفي الواقع، فإن هذا الكتاب ليس شاملا ذلك، لأنه من سوء الحظ فإن قائمة الأفعال والخطابات والأحاديث والأحداث والنشطاء والمشرعين المعادين للعرب والذين يبثون كراهية الإسلام والخوف منه أكثر من أن نستعرضها هنا.

يحتاج سرد أفعال الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، تلك التي ترتكبها الحكومة، والمواطنون العاديون، والمنظمات العامة، وهوليوود، والوسائط الإعلامية إلي مجلدٍ ضخم من عدة أجزاء لابد له وأن يبدو أنه كتالوج لتجليات الكراهية والبغضاء. وفيما أن العمل الجاد علي استقصاء كراهية العرب والإسلاموفوبيا أمر مهم، فإن هذا الكتاب يأمل أن يكشف تعقيدات التشكيل الأيديولوجي ذاته، من أجل فهم بنيته وتنظيمه، والملاحظة الناقدة لتجلياته في المجتمع الأمريكي، ولهذا السبب، نقوم بتعريف الإسلاموفوبيا وفحصها من منطلق نماذج أصلية استطرادية أخذناها علي شكل روايتين رئيسيتين، هاتين اللتين أمدنا بهما برنارد لويس وفريد زكريا. وبدلا من مناقشة جميع الأوغاد، والأكاديميين الزائفين، والسياسيين المأجورين، والمخبرين المحليين الدجالين، والناقدين الانتهازيين، والصحفيين النشطاء، مناقشتهم كل علي

حدة، فإن أعمال حفنة من دعاة الإسلاموفوبيا ومروجيها تساعد علي تحديد السقالات التي عليها تتسلق سياسات الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، وتجد السياسات الأمريكية الخارجية والداخلية تبريراتها.

كلينتون / بوش / أوباما: استمرارية الإسلاموفوبيا

كُتِب الكثير عن كيفية استخدام بوش لأحداث ٩/١١ من أجل تغيير طبيعة الحريات المدنية، والرئاسية، والسياسية في الولايات المتحدة. يسرت حرب بوش علي الإرهاب، وما تلاها من حرب أوباما علي القاعدة أعمال قمع أنصار البيئة، والنشطاء من مناهضي الحروب، والأناركيين وغيرهم من الخارجين علي الإجماع، كما عملت أيضا علي استمرار تردي الحريات المدنية. بيد أن هذا الكتاب يجزم بأن الإسلاموفوبيا سبقت ٩/١١، وأيضا استمرت بعد إدارة بوش. توالت الاستمرارية من رئيس لآخر منذ جورج إيتش. دبليو بوش. استمر ظهور المسئولين ممن خططوا للإسلاموفوبيا، وعملوا علي أن تصبح تيارا سائدا، وأضفوا عليها الصبغة المؤسسية ورسخوها في عقول الأمريكيين، بل وفي النظام القانوني ذاته. استمر ظهورهم وعودتهم إلي الظهور في مناصب وأماكن مختلفة طوال العقود التي تلت سقوط الاتحاد السوفييتي. ثمة استمرارية قوية من إدارة بوش إلي إدارة أوباما، كما أن تسرب السياسات التي استحدثت ضد العرب والمسلمين واستخدامها ضد قطاعات اجتماعية أخري، مازال قائما مثلما يوضح عمل كريس كوباتش عن التحري عن السكان. كان كوباتش قد عمل مُدّعيا في إدارة بوش وساعد جون أشكروفت المدعي العام [وزير العدل] علي استحداث «تسجيل الدخول/ الخروج الخاص بالأمن القومي» وهو برنامج للتقصي، يتطلب أن تؤخذ بصمات جميع المواطنين من البلدان العربية في الغالب، ورصد تحركاتهم أثناء إقامتهم بالولايات المتحدة. كان أول ظهور لهجمة كوباتش علي الحريات المدنية للمواطنين من غير الأمريكيين أثناء تولي أشكروفت منصب وزير العدل. ثم عاودت تلك الهجمة الظهور في مذابح الحريات المدنية الأخيرة ضد اللاتينيين، حيث ساعد كوباتش علي صياغة قانون في ولاية تكساس يسمح لهيئات فرض القوانين بتوقيف أي شخص يشتبه في أنه غير مسجل بالوثائق الرسمية أو لا يحمل وثائق.

مازالت أعمال الكراهية الخاصة، وسياسات تكوين الملفات عن الأشخاص وتحديد ملامحهم، والرقابة والإيقاع بالمسلمين الأمريكيين والمهاجرين وتقديمهم للمحاكمة من خلال استخدام مستفزين عملاء، وتوجيه اتهامات غامضة فضفاضة زائفة مثل «دعم الإرهاب ماديا»، مازالت مستمرة علي الرغم من تغير الرئيس. تستمر مقاضاة المسلمين الذين تم اختطافهم بوسائل غير مشروعة وتوقيفهم بواسطة جيش الولايات المتحدة، من بينهم متهم في الخامسة عشرة من العمر كانت المعايير تقتضي أن يخضع لمعاملة إصلاحية بوصفه أحد الجنود الأطفال، فيما تصاعد تسليم المشتبه بهم إلي جهات خارجية تقوم بتعذيبهم، وكذلك تنفيذ الاغتيالات المتعارضة مع الإجراءات القضائية. وبدلا من مقاضاة ديك تشيني، ودونالد رمسفلد وألبرتو جونزالز كمجرمي حرب نظرا لانتهاكهم الواضح للاتفاقيات الدولية الراسخة ضد التعذيب، وحول معاملة أسري الحرب، فقد جاهد إريك هولدر المدعي العام بإدارة أوباما من أجل استمرار قمع حريات المسلمين المدنية بالولايات المتحدة. تحدي مكتبه شكاوي أشخاص مثل ماهر عرار وخالد المصري، ومظالمهما، حيث كانت الولايات المتحدة قد قامت باختطافهما ثم أُخضعا للتعذيب في سوريا والولايات المتحدة علي التوالي. وما هذه إلا القليل من إجراءات مماثلة كثيرة توضح لنا بقوة أن الإسلاموفوبيا ليست ظاهرة عرضية، بل علي النقيض، فإنها حملة مستدامة تعود أصولها إلي صعود العالم أحادي القطب.

وهكذا، فإن القضايا التي يتعاطي معها هذا الكتاب تمتد خارج نطاق الأيام العنيفة المتهورة لنظام بوش الذي انتهك بصفاقة حقوق المسلمين والعرب، واستهدف النشطاء والأكاديميين والجاليات العربية والمسلمة. واستخدم العسكرة أداة رئيسية في سياسته الخارجية القائمة علي أساس الإسلاموفوبيا، فيما نقوم بتضمين أمثلة حديثة كثيرة من خطابات الإسلاموفوبيا، وأعمال الكراهية والبغضاء من أجل إثبات ما نعرض له. وفي واقع الأمر، فإننا لم نورد أعمال عنف كثيرة مثيرة للقلق، بل وصارخة، ارتكبت ضد المسلمين والعرب في الولايات المتحدة أثناء فترة رئاسة بوش الأولي وذلك من أجل تضمين أحداث وخطابات وسياسات ومحاكمات حدثت منذ عهد

قريب. علاوة علي ذلك فإن هذا الكتاب يورد مصادر كثيرة متاحة من التيار السائد يمكن للقارئ العام غير المتخصص الوصول إليها بسهولة. أي أن النهج الذي يتبعه هذا الكتاب يتوخي الصرامة الأكاديمية ويذكر الهوامش بدقة، كما يجتزئ جميع الأحداث والمصادر والنصوص التي يحيل إليها. وعلي الرغم من ذلك، وكأساس لهذا المنهج الأكاديمي، فقد استندت عامدا إلي المقالات والوثائق والكتب التي يمكن لغير المتخصصين الحصول عليها بسهولة، وهذا الاستناد بأسلوب شبه حصري إلي إصدارات التيار السائد يتضمن الأنجلوفونية ومنافذ إعلام هذا التيار. بتعبير آخر، لم أستند إلي قائمة المهارات المتخصصة التي تميز بين طرق الباحثين الأكاديميين وبين مناهج بحث صناع السياسة والصحفيين الآخرين من غير المبتذلين والذين ينتمون إلي التيار السائد.

يمثل تعقيد الإسلاموفوبيا تحدياً حيث إن التطورات الخطيرة التي حدثت في السنوات الأخيرة جعلت من الصعب إكمال هذا الكتاب بسبب توفر مادة غزيرة إلي حد الإفراط. أنّي للمرء أن يتوقف عن ملاحظة التطورات المهمة الدالة وتحليلها في وقت تتكشف فيه تطورات جديدة يومياً؟ يساعد النهج المزدوج المستخدم في هذا الكتاب علي إطالة أمد الاستبصارات التي نأتي بها وأهميتها إلي زمن تكون فيه تلك الأحداث والمحاكمات، بل وحتي النقاد والمنظرون الذين استشهدنا بهم قد دخلوا في ذمة التاريخ منذ وقت طويل. وفي النهاية، فإن الإسلاموفوبيا تركيبة سياسية وثقافية، ولذا ، فليس في نية هذا الكتاب الدفاع عن الإسلام حيث إن الإسلام لا يحتاج إلي دفاع. إنه دين معقد وبسيط، راقٍ وحصيف، مركب وحَمّال للأوجه تماما مثل المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية. إنه متنوع متباين يضم طوائف ومدارس ومجموعات أرثوذكسية [تقليدية] وأخري مجددة مبتدعة. ليس هذا كتابا يدافع عن الإسلام كدين أو عن المسلمين حيث إنني أذهب إلي أن فكرة أن الإسلام بحاجة إلي دفاع هي نوع من الإسلاموفوبيا، حيث إنها تمحو تماما تعقيدات الدين وتختزل تنويعاته الثقافية والإقليمية وتأويلاته العقائدية إلي دين أصم أوحد، ويختزل المؤمنين به في شخصية مفردة تسمي «المسلم».

الإسلاموفوبيا وشطحاتها: أوربا والولايات المتحدة:

صادمة هي حقيقة أننا مازلنا نناقش «ما الإسلام؟»، و«من المسلمون»؟ و«لماذا يكرهوننا؟» إلخ.. وبخاصة أن أبحاث ودراسات المستشرقين البارزين من أمثال جاك بيرك، ومكسيم رودينسون، وألبرت حوراني قوضت فكرة أن الإسلام دين واحد أصم لا يتضمن أية تنويعات بين الشعوب والأزمنة والجغرافيات. بيد أنه فقد صدرت أعداد مفرطة من الدراسات التي تبرر استمرار ما يمكن اعتباره تفتيشا [قضائيا] في هوية المسلمين وعقيدتهم وضمائرهم، وليس تفحصا لها وبحثا فيها. تدل هذه الظاهرة علي أن الإسلام [في نظر هؤلاء] لم يعد في عصر العولمة هذا، ممارسة دينية فقط، بل إنه اكتسب وضعاً أكبر كثيرا - وبخاصة في ضوء حقيقة أن القوي الإسلامية تبدو وأنها هي التي تقاوم، بشكل أساسي، غزو القوات الأمريكية، أو تلك التي تنوب عنها، لأوطان المسلمين. وكنتيجة لذلك، فمن الممكن القول إن الإسلام لعب دوراً في العقود الأخيرة في إعادة تشكيل «سياسات الهوية» للمسلمين، بيد أن الإسلام كمحدِد للهوية يعني أشياء مختلفة لمختلف الناس في مختلف الأماكن. وعلي الرغم من ذلك، لن يتفحص هذا الكتاب المسائل المتعلقة بهوية المسلمين الأمريكيين التي تغري بطرح أسئلة مثل ما إن كان من المستحسن أن ترتدي المسلمات الأمريكيات الحجاب أم لا ترتدينه، أو لمِ تختلف أسبابهن لارتدائه عن الأسباب التي أدت إلي ارتداء النساء المصريات له كتحد للدولة «السلطوية» العلمانية. أو الأسباب التي تجعل الجاليات المسلمة في الولايات المتحدة تندمج في المجتمع، وتحقق أعلي متوسط للدخل ومستوي التعليم بين الأقليات الإثنية هناك، علي حين تنزع الجاليات الإسلامية في أوربا لأن تظل أكثر انعزالا.

ومع معرفة أن الإسلام آخذ في الانتشار كمحدد اجتماعي / ثقافي سياسي للهوية فلابد وأن يتجنب هذا الكتاب أيضا مناقشة الفروق بين الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها شمال الأمريكية. ليست الإسلاموفوبيا حالة شمولية أو مفهوما أيديولوجيا أوحد أصم. أزعم أن الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها الأمريكية ظاهرتان

اجتماعيتان/ سياسيتان منفصلتان، وأذهب أيضا إلي أن الإسلاموفوبيا العربية/ المسيحية اليمينية، سواء تلك التي يعبر عنها الموارنة أو المسيحيون الأرثوذكس، أو الكلدانيون أو الأقباط هي أيضا ظاهرة منفصلة تنبثق عن أوضاعهم الخاصة التاريخية والاجتماعية. ومثلما يكتسب الإسلام معانى داخل إطار مفهوم سياسات الهوية التي يشكل جوهرها الأوضاع السياسية المحلية والسياقات الاجتماعية، فإن الإسلاموفوبيا يجري بثها بهدف أيديولوجي محدد ومن أجل إحداث آثار تعتمد علي أوضاع اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية محددة ومتنوعة. يختلف موروث الإسلاموفوبيا شمال الأمريكي عن نظيره الأوربي.

تأتي البرامج الوثائقية الأوربية التي بُثت مؤخرا، مثل وثائقيات البى بى سى بعنوان «جيل الجهاد» مشبعة بالقلق الناجم عن ماضي بريطانيا الاستعماري حيث يُنظر إلي المهاجرين المسلمين في بريطانيا بصفتهم جالية منعزلة منبوذة، تجعلهم فلسفتهم المعارضة للاندماج عرضة لأخطار التطرف الإسلامي، لمخاوف أوربا من المسلمين جذورها في مواقفها الأبوية تجاه الشعوب اللاغربية في وقت لم تعد السلطة الأبوية المطلقة موجودة. ظلت المراكز الكلونيالية تشعر بعدم الارتياح دائما من التفاعل مع ذوي البشرة السمراء كأنداد متساوين، وبخاصة هؤلاء الذين كان الأوربيون قد قدموا أنفسهم لهم علي أنهم مفوّضون من أجل جعلهم شعوبا متحضرة. يعود توتر الأوربيين من ذوي البشرة السمراء إلي تاريخهم الكلونيالي وإلي هزائمهم في عصور ما بعد الكلونيالية علي أيدي حركات التحرر القومية التي سرعان ما تبعها استعادة السطوة الأوربية الاقتصادية من خلال الكلونيالية الجديدة. بيد أن للإسلاموفوبيا الأوربية أصولها أيضا في قلقها من «الآخرين» الأوربيين أي اليهود الأوربيين، وبغضها لهم من ثم، فإنه في زمن ما بعد الهلوكوست وما بعد إسرائيل، أسقطت أوروبا نزوعها إلي معاداة السامية وبغضها لليهود علي المهاجرين المسلمين الجدد. بيد أنه أيضا، فإن إسقاط معاداة السامية علي الجاليات المسلمة في أوربا هو تحويل لمشاعر الخسارة والاستياء والغضب الناجمة عن فقدان قوي أوربا الإمبريالية السابقة إمبراطورياتها

الكوكبية في الوقت الذي عليها فيه تحمل العبء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ومسئولية ماضيها الكلونيالي. نتيجة لهذا، غدا صعود الإسلاموفوبيا في أوربا يعبر عن نفسه من منطلقات الخوف من «أسلمة» أوربا مثلا، أو تردي العلمانية الراسخة، أو إفلاس دولة الرفاه الاجتماعي، أو «القنبلة الديموجرافية» الموقوتة. لكننا لن نبحث في هذا الكتاب سوي الإسلاموفوبيا الأمريكية فقط.

الاستشراق مقابل الإسلاموفوبيا: تنويعات تاريخية:

لا يجزم هذا الكتاب بأن الغرب ظل عدوا أبديا للإسلام. كما أنه لا يقدم الإسلام علي أنه الدين القويم الوحيد الذي ليس له تاريخ مارس فيه المسلمون العنف، أو ماضٍ إمبريالي. كما أنه لا يقدم جميع المسلمين بصفتهم ضحايا أو يدافع عن أعمال العنف السياسي حينما لا يجوز الدفاع عنها. كما أنه أيضا لا يقطع بأن الأمريكيين جميعهم يكنّون بغضا متأصلا للمسلمين حيث إنه في واقع الأمر، فقد أوضح الباحثون بأسلوب مُقنع وجود علاقة تاريخية حميمة بين الغرب والعالم الإسلامي، وبخاصةٍ العرب المسلمون والسلاڤيون والبربر والأتراك. بل إن بعض من قاموا بمراجعة تاريخ الحروب الصليبية يذهبون إلي أن العلاقات بين المسلمين والأمراء الصليبيين والإمارات الأوروبية كانت أحيانا أكثر حميمية من العلاقة بين هؤلاء الأمراء، ومنافسيهم المسيحيين. يتيح لنا فهمنا للإسلاموفوبيا بصفتها تشكيلاً أيديولوجياً داخل سياق الإمبراطورية الأمريكية، استلابها من أيدي «الثقافة» أو من الأسطورة التي تقول بوجود سلف واحد لها سواء كان هذا شخصاً أم تنظيما أم جماعة. من ثم، فإن هذا الكتاب يحيد مبتعدا عن الاعتقاد المتفق عليه في أوساط التقدميين والقائل بأن الإسلاموفوبيا قد ظلت موجودة بشكلها الحالي في الولايات المتحدة منذ عقود. فالأمر ليس كذلك ولابد من التمييز بين الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي وبين أشكال العنصرية والتحيز في الماضي، بما في هذا الاستشراق، وهذا لا يعد تبرئة للاستشراق وأشكال كراهية العرب السابقة من ماضيها الخبيث. الأحري أن هذا الكتاب ينوي تأريخ الإسلاموفوبيا في سياقها السياسي الصحيح وذلك من أجل إبراز مدي تجلياتها العنيفة.

في الواقع، فقد ظل الاستشراق موجودا منذ بزوغ فجر عصر الكلونيالية. يكشف كتاب إدوارد سعيد، والذي يعتبر معلما في هذا المجال، كيف تم تشكيل مفهوم «المشرق» والموضوع «الشرقي» من خلال الأعمال البحثية الأكاديمية في العواصم الكلونيالية، حيث قامت تلك الأعمال بوضع الأساس «المنطقي» لتبرير الاستعمار، ولمهمة نقل المدنية إلي تلك الشعوب، وللسياسات الكلونيالية، ولإعادة تنظيم العالم العربي وترتيب أموره. يوضح سعيد لنا أن الاستشراق ليس ظاهرة واحدة موحدة لازمانية. بل إنها تشكل أيديولوجي. وبصفته هذه فقد تعرض الاستشراق لتحويلات وتعديلات، كما أن له تنويعات. وعلي الرغم من أن الاستشراق لا ينضوي علي كراهية العرب إلا أن كثيرا من المستشرقين يزدرونهم. لكن أيضا، ومما يسبب الأسي للصهاينة والإمبرياليين اللاحقين، فإن كثيرا من المستشرقيين كانوا محبين للعرب. اخترق الاستشراق تفكير الغرب وسيطر عليه إذ إنه شكل بنية الأسلوب الذي نفكر به «نحن» عن الشرق ابتدع «الاستشراق» «المشرق»، والعالم الإسلامي والشرق الأوسط، والشرق بأكمله كموضوعات للدراسة، وموضوعات للتحكم وموضوعات للإصلاح والفانتازيا والسِحْر والازدراء.. ابتدع «الشرق» من أجل تمييز «الغرب» عن «الآخرين الساميين» المجاورين له.

بيد أن الاستشراق ليس مرادفا للإسلاموفوبيا، بل إنه مهد الطريق لها؛ حيث يمكن القول إن الإسلاموفوبيا هي وريثة الاستشراق الذي نجح سعيد وآخرون في إبطال مزاعمه وإثبات زيف أمثلته ونماذجه. أستطيع القول إن الاستشراق، بالمعني الذي استدعاه سعيد، استُخدِم أحيانا لشطينة العرب كإثنية أو عرق. كان الإسلام مجرد سمة ثقافية تمّ أخذها في الاعتبار ودراستها في سياق أوسع لدراسة المشرق العربي وتحديده، إذ إن النماذج المعيارية التي أوردها الاستشراق ذات توجه إثني وعرقي. ومن هذا المنطلق، يتم النظر للعرب والفرس والأتراك كمجموعات متمايزة. وفقا للاستشراقيين المؤسسين البارزين من أمثال إرنست رينان، فإن كون هؤلاء جميعا من المسلمين لا يعدو أن يكون من شطحات التاريخ، وفي هذا، فالاستشراق يختلف عن الإسلاموفوبيا.

إن شيطنة المسلمين والعرب عملية تهدف إلي صرف الانتباه وتحويله بقدر ما هي عملية تبريرية، حيث إنها تحول دون استيعاب الأمريكيين للحقائق المؤسفة للإمبراطورية الأمريكية أو علي الأقل تحول دون تعرفهم علي آدمية ضحايا الإمبراطورية. بيد أنه، في ظل الوجود المستدام لظواهر الإسلاموفوبيا وكراهية العرب، يمضي المثقفون، والنقاد، ورجال الدين، والأكاديميون في الغرب والعالم الإسلامي يتصدون لها ناقدين، رافضين مزاعمها التبسيطية، وتعميماتها الفجة، والتجانس المطلق الذي تضفيه علي ثقافة المسلمين وهويتهم. برزت تنميطات الوسائط الإعلامية والمنتجات الترفيهية في مقدمة التفحصات الناقدة لهؤلاء. ولا غرو في هذا إذا نحن أخذنا في الاعتبار أن اللوحات التي رسمها الفنانون الاستشراقيون في القرن التاسع عشر قد واكبت الاستعمار والإمبريالية الأوربية، وقدمت للمشاهد الغربي رؤية مُشيِّئة لـ «الآخر»، أي أنها جعلت منه «شيئاً» يمكن تشكيل مفهوم عنه بمقارنته بالذات الغربية الأسمي، شيئاً غرائبيا، تهديدا، موضوعا رومانسيا، وشيئاً يَستدعي إخضاعه. أما في القرن العشرين، ومنذ الأفلام السينمائية الأولي، فقد ظلت جماهير المشاهدين الغربيين تتلقي الصور الاستشراقية للعرب والمسلمين وتستوعبها في وعيها ولا وعيها.

توضح لنا هوليوود كيف أن الخوف من المسلمين وكراهيتهم لا يعدوان في واقع الأمر أن يكونا تنويعة أخري علي ظاهرة كراهية العرب العنصرية. منذ بزوغ فجر السينما، ظل يُضفي علي العرب سمات غرائبية، فهم البدو المفعمون بالحيوية، أو البرابرة الذين يتسمون بالفحولة ويمتطون الإبل، أو الهمجيون الأجلاف النبلاء. ثم تغيرت فيما بعد تمثيلات العرب ليصبحوا يساريين راديكاليين علمانيين متطرفين، أو حلفاء الشيوعيين أو مشايخ النفط. ثم تطورت الصور تدريجيا في الثمانينيات لتصبح صور المسلمين / العرب المتطرفين، لكنها كانت مازالت تقدَّم علي أنها نقيض للمجاهدين المسلمين الأبطال من أتباع رامبو. ظل العرب الأمريكيون، المسلمون منهم والمسيحيون دائما علي معرفة بهذه التمثيلات، ومضي الباحثون والأكاديميون ينشرون دراسات قيمة تتناول تنمطيات العرب في أفلام هوليوود وفي الإصدارات

المطبوعة والتليفزيون. لكن ما يفوق دراسة تنمطيات العرب الخبيثة وتحليلها أهمية، هو أن أعمالا مثل «تغطية الإسلام» و«لقاءات ملحمية» قد أوضحت أهداف العمل علي انتشار شيطنة العرب والنتائج الأيديولوجية المباشرة المترتبة علي ذلك. تمدنا الآراء الثاقبة في الدراسات الناقدة للاستشراق والتنميطات والتبسيطات بأدوات لفهم كيف تخدم الإسلاموفوبيا أهدافا مماثلة لأهداف المخططات الأمريكية السياسية.

يتبع هذا الكتاب نموذج هؤلاء المفكرين الناقدين من خلال تفحص الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية، مع التركيز علي فترة ما بعد ٩/١١، لكن أيضا يحدد أصول انتشار الإسلاموفوبيا بظهور عالم القطب الأحادي، مع سقوط الاتحاد السوڤييتي وصعود الولايات المتحدة كقوة كوكبية مهينة لا يتحداها أحد، تمازجت أشكال سابقة من الاستشراق والعربوفوبيا مع أشكال جديدة من الإسلاموفوبيا السياسية. وفي واقع الأمر، وكما سنري، فمازال يتم تحديد العرب (في شمال أمريكا وأوربا والعالم العربي) بصفتهم مصدر جميع «الشرور» التي يتسم بها الإسلام. بيد أن الفرق بين أشكال الاستشراق السابقة و الإسلاموفوبيا المعاصرة هو أن «خطايا» العرب المسلمين المزعومة يعاقب عليها الآن جميع المسلمين حيث إنهم جميعهم يحمّلون مسئولية الإخفاقات، والتخلف واللاعقلانية التي كان المستشرقون قد اختصوا بها ثقافة العرب السّامية وتاريخهم. الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية اليوم هي الاستشراق وقد تطاير وانتشر وارتقت منزلته لتصبح تلك النسخة الجديدة ما بعد الحداثية التي نعرفها اليوم. وفيما كان العرب ذوو البشرة السمراء في السابق يشكلون مجموعة الأنجاس المنبوذين، فقد أُسقطت تلك النظرة علي المسلمين بعامة وأُدمجت في لا وعي أمريكا العنصري.

ظل التيار السائد في أمريكا منذ وقت طويل يستهدف المسلمين السود ويخضعهم للتنميط. هذا علي الرغم من أن منظمات المسلمين السود، بما في هذا منظمة أمة الإسلام، ظلت تعمل بجد واجتهاد لتمكين جماعات السود الفقراء، وظلت في مقدمة المكافحين ضد تسرب المخدرات والكحوليات، وأنشطة العصابات إلي جماعات السكان السود. كما أن تلك المنظمات والأفراد يعملون كقوة أمن ذاتي، وتعليم ذاتي في أوساط

الأفروأمريكيين، وأيضا ظل لهم حضور إيجابي في إعادة تأهيل كثير من المسجونين السود الذين تعج بهم السجون الأمريكية بدرجة لا تتناسب مع أعدادهم في المجتمع الأمريكي. كانت شيطنة تنظيمات «المسلمين السود» في الماضي مرتبطة بشيطنة حركة السود التحررية، وأتت كرد فعل علي نجاح تمكين السود الذين رفضوا صراحة الذوبان في مجتمعات البيض وتبرئتهم من أجل إنهاء المظالم العنصرية التاريخية. بيد أنه، ومنذ وقت ليس بالبعيد، بدأ التيار السائد في أمريكا في شيطنة تنظيم «المسلمين السود» زاعما أنهم دعاة فتنة يشكلون أقلية داخل أقلية. قام الصحفيون، والمنظرون والناقدون والنشطاء بإبراز صورة لنظام السجون في أمريكا بصفته مركز المراكز لردكلة أمريكا السوداء والعمل علي تطرفها، ولم يخطر لهؤلاء المعلقين القول إن هذا الخطر لم يكن ليوجد إذا لم تقم الولايات المتحدة بسجن واحد من كل ثمانية رجال سود ممن هم في العشرينيات من أعمارهم. وبدلا عن ذلك، تؤكد منافذ التيار السائد للمهتمين بعلم الإجرام أن معتقلات أمريكا تحولت إلي مراكز لتجنيد المسلمين المتطرفين وتدريبهم حتي أن مؤسسة راند أصدرت تقريرا تحذر فيه من أخطار ردكلة نزلاء السجون الأمريكية السود.

الأسلوب الذي امتزج فيه تحرر السود بخطر الغزو الإسلامي يخاطب التوترات العرقية التي تشكل الأساس التحتي للإسلاموفوبيا. فبعد كل شيء فقد كانت المجموعة الأولي من المسلمين الذين استُقدموا إلي الولايات المتحدة هم الأفارقة المُسْترقّون. برهنت عدة دراسات قوية مقنعة علي أن رحلة العرب والمسلمين الأمريكيين لم تكن سهلة علي الإطلاق، وفيما تطغي المحن التي تعرض لها الأفارقة المسلمون المسترقون علي معاناة نظرائهم العرب وتفوقها كثيرا، فقد أُخضع المهاجرون العرب، وكان غالبيتهم من المسيحيين، لوابل من التشريعات العنصرية، وسوء المعاملة الاجتماعية، والتحيزات، والانتهاكات والتحرشات. تضمنت محن الأفارقة «اللينش» [أي الإعدام شنقا دونما محاكمة قانونية] في الولايات الجنوبية، والمثول أمام المحاكم في حالات التزاوج [زواج السود بالبيض]. لا يمكن فصل قضية «العرق» عن الاستشراق وكراهية العرب

والإسلاموفوبيا. ما يميز أعمال العنف العنصرية تلك ونماذجها الأصلية هي الأوضاع والسياقات السياسية التي فيها يتم استخدام الإسلاموفوبيا من أجل حشد الجماهير وتعبئتهم. ومثل أعمال العنف والإجراءات العنصرية التي يرتكبها البيض الأمريكيون من منطلق شعورهم بالسمو العرقي، ضد السود واللاتينيين فإن الإسلاموفوبيا جزء من تشكيلات أيديولوجية أوسع موجودة داخل ثقافة الولايات المتحدة وسياستها. أتت الإسلاموفوبيا بهذا الشكل المركب كمزيج أيديولوجي داخل ثقافة التسعينيات وسياستها مواكبة للعولمة وصعود الإمبراطورية الأمريكية. من ثم، ستوضح الفصول التالية كيف أن الإسلاموفوبيا هي أحدث تشكيل أيديولوجي يتم نشره من أجل تيسير السطوة الأمريكية، السطوة الأمريكية في لحظة أحاديتها القطبية.


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

شبكات السياسة الخارجية النخبوية

الإسلاموفوبيا ليست مجرد تحيزات

في عام ١٨٦٧، حذّر بطرس البستاني، وكان موسوعياً بارزاً تحوّل إلى البروتستانتية، حذّر إخوانه العرب من أن عليهم الدفاع عن أنفسهم في مواجهة هجمة «جحافل» العادات الأوروبية على العادات العربية والتي تُشنّ بعزم وإصرار. ظل العرب دائما منذ القرن التاسع عشر على دراية بتعديات الغرب الثقافية، وباتهامات الأخلاقية لهم، وآرائه المُستخفة بهم. وفيما أوضحت الدراسات أن العرب كانوا قد أظهروا مشاعر تنم عن الثقة وروابط القربى تجاه الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، إلا أنهم ألفوا تدريجيا حنث الولايات المتحدة لوعودها لهم وفقدانها لمصداقيتها على مدى الأعوام المائة وخمسين الأخيرة. لم تأت أحداث ١١ سبتمبر بأي جديد.

لم تستحدث الإسلاموفوبيا أو تضاعف مُخططات الولايات المتحدة للشرق الأوسط. لكنها حرّرت أسْر خطاب الكراهية، وأفعال الكراهية، والمخططات السياسية والسياسات التى كانت تكبحها من قبل المحاذير السياسية والفلاتر الأخلاقية. منحت هجمات سبتمبر ٢٠٠١ التراخيص للأمريكيين من مُعلقين وصحفيين وسياسيين ومنظّرين لتبنى خطابات الإسلاموفوبيا التى كان قد أعيد تشكيلها أثناء التسعينيات. فى تلك الأثناء انضم المأجورون السياسيون إلى الأكاديميين والمنظرين الأوغاد من أجل إحياء التنميطات الشائعة بالغة البشاعة المعادية للإسلام والعرب وإعادة تشكيلها واستثمارها بذريعة «فهم» العقل العربى واكتشاف «لماذا يكرهوننا».

لفتت الشيطنة الكوكبية للمسلمين انتباه وسائط الإعلام العربية منذ بداية التسعينيات وقبل صعود جورج دبليو. بوش بوقت طويل. تصادف أن واكب ظهور القنوات التليفزيونية الفضائية فى العالم العربى مَقدِم العالم أحادى القطب، حيث



تناولت البرامج الجديدة والبرامج الحوارية النصوص والنظريات التى كان لها أن تُشكل الأساس الأيديولوجى لسياسة الولايات المتحدة بمجرد نشرها، وبخاصة تلك الإصدارات من أمثال «أصول غضب المسلمين وحنقهم» لبرنارد لويس، و«صدام الحضارات» لصمويل هنتنجتون و«نهاية التاريخ» لفرانسيس فوكوياما. كانت تلك النصوص بمثابة مؤشر أن ثمة نقلة فى اللغة السياسية لحكومة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، نقلة استشفتها الوسائط الإعلامية العربية الجديدة المعولمة.

كانت محطة «راديو وتليفزيون العرب ART» هى أول قناة فضائية عربية انطلقت عام ١٩٩٣، فيما بدأت كل من الجزيرة وقناة ال بى سى اللبنانية بثهما عن طريق الأقمار الاصطناعية عام ١٩٩٦. كان لهذه القنوات أن تُعرّف جماهير المشاهدين العرب بلغة العصر أحادى القطب الجديد وبخطابه السياسي، وأيضا أن تعيد صياغة

الخطاب المدنى والسياسى فى العالم العربي، أصبح تعبير «صدام الحضارات» عبارة تتداولها الشفاة فى جميع البرامج الإخبارية العربية وتستدعى النماذج المعيارية المألوفة التى تقابل بين الثقافات الغربية ونظيراتها العربية/ الإسلامية بصفتها فى حالة حتمية دائمة من الخصام والتناحر. فى التسعينيات، أصبح المشاهدون العرب، من خلال إعلام القنوات الفضائية، ثم الإنترنت فيما بعد، على إلمام تام بسجل الإسلاموفوبيا وشفراتها ولغتها والتى على أساسها تشكلت بنية السياسية الخارجية الأمريكية التى بلغت ذروتها فى «أجندة الحرية» لجورج دبليو. بوش ثم أضفت عليها رئاسة باراك أوباما الصبغة المؤسسية.

يتتبع هذا الفصل الخطوط السطحية فقط للعلاقات السياسية والشخصية العميقة بين مهندسى الإسلاموفوبيا الأيديولوجيين، ومروجيها، والانتهازيين وغيرهم ممن ساهموا فى إعادة صياغتها منذ التسعينيات. تفجر التواطؤ بين الدولة، ومراكز الأبحاث، واللوبيهات، ومجموعات المصالح الخاصة من جهة، وبين الأكاديميين، والناشطين، والصحفيين من جهة أخرى مع تفكك الاتحاد السوفييتى و«نجاح» عملية عاصفة الصحراء. دعمت شبكة العلاقات تلك «الحرب على الإرهاب» التى شنها بوش، لكنها أيضا تغلغلت فى أعماق إدارة كلينتون. وعلى الرغم من عدم تواجد مختلف أعضاء هذه الشبكة بكثرة فى إدارة أوباما، إلا أن النماذج المعيارية والسياسية التى روجتها الشبكة وعملت على تطبيعها يجرى الآن إضفاء الصبغة المؤسسية والقانونية عليها بواسطة الإدارة الحالية. بتعبير آخر، يرسم هذا الفصل كفاف الكيفية التى تداخلت فيها النماذج المعيادية للإسلاموفوبيا فى عصر العولمة والإمبراطورية الأمريكية فى نسيج صنع السياسة والإعلام بالولايات المتحدة ونظرة التيار الأمريكى السائد على العالم بغض النظر عن الإدارات الحاكمة.

ليست الأيديولوچيا مؤامرة أو برنامجا حزبيا:

على مدى العقدين الأخيرين، نجحت شبكات المشتغلين بالسياسة والخبراء الاقتصاديين والمعلقين والأكاديميين، تلك الشبكات التى تمضى تتوسع دوما، نجحت فى جعل كثير من نماذج الإسلاموفوبيا المعيارية تهيمن على التيار السائد فى المجتمع

المدنى الأمريكى وتشكل مدركاته. أثناء سنوات إدارة أوباما، وصل حديث الكراهية الموجّه للمسلمين والتحيزات ضدهم إلى مستويات غير مسبوقة. أوضحت استطلاعات الرأى أن آراء ٤٩٪ من الأمريكيين عن الإسلام «سلبية» وأن ثلثهم يعتقدون أنه دين «يشجع» العنف. من المعروف أنه ثلث أعضاء الحزب الجمهورى يعتقدون أن أوباما يعتنق الإسلام سرا، كما أنه من المعروف أيضا أن مماطلة أوباما بشأن حق المسلمين لبناء مسجد بمنهاتان لا تُعزى إلى الجبن السياسي. فاعتقاد الجمهوريين ذلك ومماطلة أوباما هما تعبيران عن الإسلاموفوبيا الراسخة والتى لا تمثل أمرا شاذا عرضيا. لا تنجم الإسلاموفوبيا عن «صدام للحضارات» متأصل بين الشرق والغرب، أو عن سوء ظن تاريخى ومشاعر فظة يكنها المسيحيون لنظرائهم المسلمين. لكن الإسلاموفوبيا هى نتاج سهل لتاريخ أمريكا البيضاء العنصري، وعدم ارتياحها إزاء ذوى البشرة غير البيضاء، وبخاصة حينما يؤكد هؤلاء وجودهم ويثبتون أنفسهم. لكن العنصرية ليست وراثية، بل هى ظاهرة اقتصادية وسياسية تتواجد دائما فى سياقات تاريخية. فى حالة الإسلاموفوبيا، تنجم المشاعر الفظة تجاه الإسلام والمسلمين عن دور أمريكا السياسى كقائد كوكبى للعالم أحادى القطب، قائد يمارس كثيرا من سطوته وقوته فى الشرق الأوسط بخاصة. من ثم، لم يكن لخطابات التيار السائد عن الإسلام والمسلمين أن تكون متاحة كى تنشرها قطاعات جمهور التيار السائد إن لم يكن قد ظلت تُبث بكفاءة وفاعلية، وتستخدم كمبررات سياسية وتفسيرات ثقافية بواسطة شبكة الصحفيين والمنظّرين والمعلقين و«المخبرين المحليين» والأكاديميين طوال العقدين الأخيرين. بتعبير آخر، فإن التفاعل الذى نرسم ملامحه فى هذا الفصل بين كبار «المثقفين» الأوغاد وبخاصة برنارد لويس وفؤاد عجمى وفريد زكريا، وبين اللاعبين السياسيين الرئيسيين، ومراكز الأبحاث و«اللجان» هو الوسيلة التى بواسطتها يتم إدخال الإسلاموفوبيا إلى أعماق المجموعات الليبرالية والمحافظة معاً متخفية فى هيئة تحليلات سياسية وتفسيرات ثقافية قائمة على أساس من المعرفة والاطلاع. علاوة على ذلك، فإن الشبكات التى نتقصاها فى هذا الفصل هى فقط واحدة من سلسلة

من الأساليب التى بواسطتها يستمر سياسيو الولايات المتحدة، ومجموعات المصالح الخاصة، والمنظرون وصناع السياسة فى صياغة التحليلات المعادية للعرب والمسلمين ونشرها واستخدامها من أجل تبرير الإجراءات الاقتصادية والعسكرية والسياسية فى الداخل والخارج.

مهّد وابل الكتابات الزائفة التى نشرها المؤدلجون، والصحفيون المأجورون والمعلقون السياسيون الطريق لبيئة لحصار العالم العربى تعمقت وتفاقمت بعد ٩/١١. نحن وقد قلنا هذا علينا أن نوضح أن هذا الفصل يرفض فكرة وجود علاقة تآمرية صريحة تجمع هؤلاء الأكاديميين والمنظرين الناقدين، والصحفيين، وقادة الحكومة وصناع السياسة والسياسيين ورجال الأعمال والصناعة ومراكز الأبحاث ولجان العمل السياسى ومجالس الإدارات والنوادى الخاصة واللجان والمجالس والمجموعات.

يؤكد هذا الكتاب على المكوّن الأيديولوچى للإسلاموفوبيا، وكيف أنها تكوين يخترق الخطوط الحزبية والارتباطات السياسية والقطاعات السياسية كى يدعم الضرورات المزعومة لوجود أمريكا كقوة عظمى وتبريرات ذلك. ومن أجل كشف هذا، يُلقى هذا الفصل الضوء على الطبيعة السياسية والأيديولوجية لتلك العلاقات بين مختلف الأطراف، ويبين أنها متوطنة فى النظام السياسى للولايات المتحدة النزّاع إلى القوة والسطوة.

وفى واقع الأمر لا تبرهن فاعلية التحالف بين المحافظين الجدد وصقور الديموقراطيين والمسيحيين الإنجيليين الصهاينة الأمريكيين المتعصبين و«مثقفيهم» المدّلين - على وجود مؤامرة بقدر ما تُثبت وجود بنية منهجية تعمل من خلالها جماعات المصالح السياسية والمنظرون السياسيون والمصالح الاقتصادية وصناع السياسة بتكافل على خدمة بعضهم.

وبالمثل، فإن هذا الفصل ليس شاملا فى تحديده للعلاقات المتداخلة بين الأكاديميين الزائفين والمعلقين السياسيين والصحفيين بالشبكة سالفة الذكر. كما أننا لا نزعم أن شبكة الأطراف الفاعلة السياسية والأكاديمية والإعلامية تشكل جماعة سرية تحيك

المؤامرات خلف الأبواب الموصدة من أجل اضطهاد المسلمين والقضاء على الإسلام. نقول بوضوح إن تلك الشبكة الهلامية ليست مؤامرة، بل الأحرى أنها طبقة أيديولوچية من الأطراف الناشطين الذين لا يتشاركون فى معتقدات عامة؛ بل يتشاركون فى مصالح وأهداف تسعى بشكل أساسى إلى إطالة عمر الرأسمالية الكوكبية وهيمنة الولايات المتحدة على العالم. بتعبير آخر، يمكن أن يحل مصطلح «النخب» محل الشبكة العالمية. وعلى الرغم من ذلك، فإننى أستخدم مصطلح «الشبكة» وذلك لأن الشخصيات الجديرة بالذكر فى هذا الفصل هم مجرد عينة عشوائية من طبقة أوسع من النخب القومية. بتعبير آخر، فإن «الشبكة» التى نورد تفاصيلها فى هذا الكتاب ما هى إلا عينة عشوائية من العلاقة المتداخلة بين أصوات مختلفة، ومساهمين، ومراهنين يعملون على تحديد الخطابات التى تمكّن سياسة الولايات المتحدة الخارجية وتدعمها. ولسوء الحظ، فإنهم مجرد قمة مُمثِّلة لجبل جليدى من عداء أيديولوچى عميق الجذور تجاه المسلمين، بل ولشعوب الجنوب، فى الثقافة السياسية شمال الأمريكية.

منذ صعود چورج دبليو بوش وسقوطه، قام الباحثون والصحفيون الناقدون بتحديد معالم الانقلاب الأيديولوچى الذى نفذه المحافظون الجدد فى انتخابات عام ٢٠٠٠. يوضح دايڤيد ألثيد، فى دراسة مُقنعة، كيف أن أصحاب «مشروع القرن الأمريكى الجديد، اشتركوا فى وضع «مؤامرة عامة» بداية من عام ١٩٩٢، وتبنوا الدعوة إلى تدخل عسكرى فى العراق وتغيير نظامه. غذّت هذه الحملة الدعائية الهائلة الوسائط الإعلامية المذعنة بمعلومات انتقائية لا سياق لها عملت على تشكيل أساسٍ لغزو العراق واحتلاله».

لا يمكن لهذا الفصل تقديم ما هو جديد حول الكيفية التى كانت تعمل بها عقول بوش وزمرته أو تفاصيل الألاعيب المعقدة التى تم بها تنفيذ هذا الانقلاب، بيد أن هذا الفصل يسعى لإيجاد الروابط بين النقلة الأيديولوچية الراديكالية التى تم التخطيط لها فى تسعينيات القرن العشرين وبين تنشيط الإسلاموفوبيا لتبرير الأجندة السياسية والاقتصادية التى واكبت عولمة هذه الفترة وتخطتها. يفسر هذا الترابط إحدى الوسائل

التى بها صيغت الإسلاموفوبيا وتم نشرها من أجل الدفع بالأجندات السياسية الأمريكية فى الشرق الأوسط من خلال غرس التنميطات والتحليلات العنصرية فى أذهان الجماهير الأمريكية بما يتوافق مع تكوينات لا وعيهم العنصري.

أحد المثقفين الإعلاميين وشبكته:

بعد هجمات ٩/١١ مباشرة، دعا دونالد رمسفلد، وريتشارد بيرل، وبول وولفويتز مجموعة «من الأكاديميين» وصناع السياسة و«الخبراء» إلى اجتماع سرى فى البيت الأبيض. يذكر بوب وودوارد أن وولفويتز أخبر رئيس أمريكان إنتربرايز إنستيوت (AEI) كريستوفر دمووث أن «حكومة الولايات المتحدة، والبنتاجون بخاصة، لا تستطيع إنتاج نوع الأفكار والاستراتيجيات المطلوبة للتعاطى مع أزمة بحجم أحداث ٩/١١ وهولها».

وإلى جانب كبار العسكريين ومسئولى وزارة الخارجية ووزراء من إدارة بوش، كان للثقل الفكرى والثقافى لمجلس «الحرب على الإرهاب» هذا أن يرتكز على فريد زكريا وبرنارد لويس وفؤاد زكريا ومعهم منظّرون ونشطاء ظلوا طوال عمرهم معادين للعرب وموالين لإسرائيل.

كان زكريا النموذج المحبب إلى اليمين، حيث كان نجما صاعدا، وكان بالفعل أصغر مَنْ تولى رئاسة تحرير النيوزويك سنا. كان قد شبَّ ابنا لإحدى الأسر المعروفة فى الهند حيث كان والده مسئولا فى حزب المؤتمر، ثم أصبح شخصية لافتة فى التسعينيات بسبب مواقفه السياسية المحافظة. تخرج فى هارفارد وحصل منها على درجة الدكتوراة ونُظر إليه على أنه صنيعة صامويل هنتنجتون، ونظرا لأنه شخص وسيم طلق الحديث، أصبح متحدثا رئيسيا باسم اليمين الجديد. وفيما وصل إلى منصب رئيس التحرير الإدارى «لمجلة فورين بوليس»، ثم مجلة نيوزويك، طوّر روابط مع الحرس القديم فى الحزب الجمهوري، ومع صقور المحافظين الجدد. بيد أنه، وبالتقابل مع لويس، أعاد، بكياسة، تشكيل توجهاته ليصبح شخصية إعلامية وسطية يتحدث إلى جماهير أوسع بكثير من المحافظين الجدد الذين عفا عليهم الزمن.

أما برنارد لويس، الأستاذ الفخرى بجامعة برينستون، فقد تصرف كشخص مُسنّ مميز، «ضليع» فى دراسات الشرق الأوسط. فى عام ٢٠٠٨، كان زكريا ولويس ضمن قائمة مجلة فورين بوليس لأبرز مائة مفكر على مستوى العالم. وبالتقابل، فإن فؤاد عجمى أستاذ بجامعة چون هوبكينز ظل يحاول منذ ثمانينيات القرن العشرين كسب ثقة اليمين. وفى واقع الأمر، فقد ظل لويس وعجمى متواطئيْن منذ عقود مع مجموعة المحافظين الجدد، أى أنهما كانا ضمن مجموعة أكاديميين مارقين انضوت أبحاثهم وأعمالهم الأكاديمية على أجندات سياسية مصغرة أحيانا، ويمكن استشفافها أحيانا أخرى، أدرك كلاهما بوضوح حاد الأهمية السياسية لتحلل الاتحاد السوفييتى وعلاقة هذا بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط. أثناء عملية عاصفة الصحراء، غدا لويس وعجمى من «المثقفين العامين» المتحمسين وسرعان ما تبنتهما مختلفة الأجنحة الحزبية داخل دوائر المحافظين الجدد.

كانت الاجتماعات التى عقدها وولفويتز، وپيرل ورمسفلد معالم على الطريق، عملوا خلالها على إضفاء صبغة قانونية على بيان سياسى حدَّد غزو العراق والإطاحة بصدام حسين بين أولى أوليات السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الحرب الجديدة على الإرهاب. يزعم زكريا أن معلوماته عن تلك الاجتماعات المغلقة أنها لم تكن أكثر من جلسات لتوليد أفكار عاصفة تهدف للإعداد للتوجهات الجديدة. بيد أننا نعلم أنه شارك فى تلك الاجتماعات فى وقت كان فيه من بين أكثر الدعاة المفوّهين المرئيين المؤثرين لتغيير النظام فى العراق. فى غضون أسبوع واحد فقط من أحداث ٩/١١، كان زكريا ولويس وعجمى يعتبرون الهيئة الاستشارية لورقة «مثلث الإرهاب» التى كتبها وولفويتز، ولسياساته التى كانت قد أصبحت بحلول نوفمبر ٢٠٠١ أمرا شبه منجز.

معقدة هى العلاقات بين البيت الأبيض وبين زكريا ولويس وعجمى وغيرهم من زمرة المرتزقة الأيديولوچيين الأقل منزلة والذين يتظاهرون بأنهم مثقفون، بمثل ما هى محبطة. تموضع هؤلاء الأكاديميون المارقون والصحفيون المأجورون واحتلوا أماكنهم

داخل شبكة الدوائر السياسية ومراكز الأبحاث النافذة والتى فتحت لهم الأبواب كى يضطلعوا بأدوار عامة فى «الحرب على الإرهاب».

مراكز الأبحاث والمؤسسات السياسية:

ظلت مراكز الأبحاث، واللجان، والمراكز والمعاهد والتنظيمات السياسية الدعامة الأساسية لثقافة واشنطون «الفكرية» على مدى عقود عديدة. بيد أن مستنبت الأنشطة اليمينية فى التسعينيات جعل من تلك المؤسسات ذات تواجد لافت بخاصة. وفى واقع الأمر، فمع بداية عهد بوش، مضت تلك الكوادر التى تتشارك فى روابط مؤسسية تقفز إلى الواجهة لتشكل مجموعات أيديولوجيا تضطلع بمهام كثير فى أجندات البيت الأبيض. تعتبر عضوية زكريا فى العديد من اللجان والهيئات دالة حيث إنها تعتبر مثالا على الشكبة السياسية التى يكمن المعلقون السياسيون والصحفيون والأكاديميون الانتهازيون داخلها، تكشف هذه العضوية والارتباطات عن علاقة حميمة بين مشاهير الصحفيين، والمعلقين السياسيين، والمحررين، وبين النخب الاقتصادية والسياسية النافذين. ليس من المهم إن كانت هذه العلاقات تشكل جماعة سرية أو أخوية تآمرية. إن ما تشكله فى واقع الأمر هو ثقافة سياسية تقوم بصياغة سياسات الولايات المتحدة الخارجية والاقتصادية ثم تقوم بتبريرها، كما أنها تُنتج حملات تعمل على إدماج هذه السياسات بسهولة فى التيار السائد من أجل استجلاب دعمه لها. بتعبير آخر، تعمل هذه المجموعات والأخويات واللجان والجمعيات وسائل لرسم السياسات الخارجية والداخلية والاقتصادية وأيضا لاستنباط الأساليب التى بها يمكن إقناع الشعب الأمريكى بها والحصول على دعمه لها، ذلك لأن الأمريكيين ينزعون إلى مماهاة مصالح النخب السياسية والاقتصادية الأمريكية مع مصالح الطبقة الوسطى من البيض.

تتداخل روابط زكريا وانتساباته لمجموعات داخل المؤسسة السياسية مع روابطه المتشعبة المتسعة بالإعلام والقطاع الخاص. وكرئيس تحرير لإحدى أهم المجلات الإخبارية شمال الأمريكية، فإن لمكانه داخل المؤسسة السياسية دلالاته الكاشفة.

مثلا، كان زكريا عضوا فى «مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS) أثناء فترة بوش. كان ذلك المركز قد أسسه دايفيد أبشاير أحد صقور الحرب الباردة والمستشار السابق للرئيس ريجان، ومعه الأميرال الأسطورى آرلى بيرك. أعاد المركز، الذى يرأسه السناتور المخضرم السابق صمويل نان تنظيم نفسه بعد انتهاء الحرب الباردة ليصبح أحد معاهد السياسة الرائدة التى تقدم الاستشارات للهيئة التنفيذية، والكونجرس، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الطاقة. يعمل كثير من أعضائه أعضاء فى مجلس سياسات الدفاع، وهو لجنة استشارية خارجية لوزارة الدفاع، يضم CSIS عددا كبيرا من أعضاء الحزبين المطلعين على بواطن الأمور بواشنطون، ومسئولين عسكريين سابقين، ومصرفيين ورجال نفط، و«معلقين سياسيين»، وهو فى هذا يختلف عن كثير من مراكز الأبحاث والمجموعات اليمينية التى يرتبط بها زكريا. يؤوى المركز مقاتلى الحرب الباردة الذين تجمعهم عقيدة مفادها أنه ينبغى أن تلازم التواجد العسكرى القوى فى الشرق الأوسط استراتيجية للاشتباك.

نجح زكريا فى تمييز نفسه بين حلفائه وأنداده من المحافظين الجدد بصفته براجماتيا وواقعيا. وتعود أهمية هذا إلى أن هذه المواقف تربطه بالمحللين السياسيين والشخصيات المؤثرة من مختلف الأطياف بمن فيهم زميله فى عضوية CSIS وأحد صقور الحرب الباردة زبجنيو برجنسكي، مستشار الأمن القومى السابق فى إدارة جيمى كارتر والذى كان مسئولا عن ترتيبات تسليح المجاهدين الأفغان حتى قبل الغزو السوفييتي، بحيث نجح فى أن يجعل منهم قوة سياسية قتالية. وفى واقع الأمر، يذهب بيتر دايل سكوت إلى أن برجنسكى مسئول عن دعم الحركات الإسلامية الوليدة على حدود الاتحاد السوفييتي، بل إنه حتى تحول عن دعم شاه إيران إلى دعم آية الله الخميني. وكشخص يشارك زكريا عداءه العميق للاشتراكية وارتباطه بالنيوليبرالية، فإن برجنسكي، الذى ينتمى للحزب الديمقراطي، يدعو بقوة إلى أهمية حفاظ الولايات المتحدة على هيمنتها الاقتصادية والسياسية فى عالم أحادى القطب، مما يضمن أن

مصالحها يجب أن تجبّ أية مصالح إقليمية. أيضا، يُعرف عن برچنسكى أنه مثل زكريا، متشدد من حيث براجماتيته وواقعيته السياسية. من بين أعضاء مجلس إدارة CSIS السابقين والحاليين شخصيات براجماتية من الحزبين بمن فيهم أشخاص من المؤسسة مثل هنرى كيسنجر ومادلين أولبرايت.

ليست الشبكة الثقافية/ السياسية التى تضم زكريا فريدة من نوعها. يمدنا الاستعراض لشبكة ارتباطاته المتفحص بمثال مبتذل صادم للشبكات التى تشكل بنية حياة الولايات المتحدة السياسية، وتتكون منها ثقافة «المُطلعين على بواطن الأمور» السياسية، وتشكل البنية النشطة للدوائر السياسية المغلقة. يتضح لنا فى حالة زكريا كيف أنه موضع نفسه كمثقف وسط مجموعة من السياسيين المؤثرين وسماسرة السلطة تمدد عابرة للأحزاب ومحدّدة ببراجماتية أيديولوجية مشتركة.

وفى هذا الصدد، فإن CSIS نموذج يحتذى به حيث إن دائرته ليست على درجة من عدم الفعالية تجعل منها مجرد مجموعة من منظرى ما بعد الحرب الباردة البرجماتيين المهتمين بالمصالح الاقتصادية والأمنية الأمريكية. بل إن مجلس أمنائه يتكون من مجموعة مفعمة النشاط من كبار المسئولين الذين عملوا فى إدارات نيكسون وكارتر وريجان. يحافظ هؤلاء المسئولون على علاقات حميمة مع معظم شركات وول ستريت الاستثمارية والمصرفية وأيضا مع صناعات الدفاع والطاقة وبخاصة النفطية منها. إن السجلات الوظيفية لهؤلاء المستشارين وأعضاء المجلس مستفيضة بدرجة لا نستطيع معها مناقشتها هنا، كما أن تنوع ارتباطاتهم السياسية والمهنية مذهلة.

وإذا كانت البرجماتية السياسية العامة المشتركة توحّد بين تلك التوجهات المتنوعة، فإن عضوية حفنة من المنظرين المتشددين مثل زلماى خليلزاد وچيمس شلسينجر وريتشارد فيربانكس للمجلس جديرة بالاهتمام. ليس فيربانكس بالبرجماتى أو الواقعي، لكنه منظّر متصلب تتلخص رسالته فى وجوب ترسخ القوة الأمريكية فى العالم العربي. كان هو من أسس «كاپيتال وان فاينانشيال كوربوريشن Capital one Financial Corporation ويترأس الآن مجلس إدارة ليالينا Layalina

بروبكشنز، وهى شركة غير ربحية، تُغدق عليها ملايين الدولارات، وتبث إعلاما داعما لأمريكا فى أنحاء العالم العربي. مهمة ليالينا المُعْلنة هى التعاطى مع «التنميطات السلبية للولايات المتحدة» وتحسين صورة أمريكا بين العرب. تتعاشق هذه المهمة مع قناعة زكريا بأن على الولايات المتحدة تسويق «قيمها» فى العالم العربى وإقناعهم بها، وإرساء نفسها نموذجا لهم. تتباهى ليالينا، التى سنناقشها فيما بعد، بمجلس إدارة يضم المشاهير النافذين من أمثال چورچ دبليو بوش، وكيسنجر، وچورچ شلوتز، ولورانس إجلبرجر، وبرنت سكوكروف ودانييل يرجين.

يرتبط CSIS بأعداد لا تحصى من الهيئات السياسية النافذة، ومجموعات اللوبيهات، ومراكز الأبحاث، وهيئات الحكومة. كثيرا ما تتشارك تلك التنظيمات فى أعضاء بمجالسها ولجانها، فيما تقوم كل منها بوظائف محددة داخل لجان النظام السياسى للولايات المتحدة. وإذا كان CSIS هو مجمع السياسة الذى يتوجه إليه كبار رجال الصناعة والقادة الحكوميين، فإن مؤسسة نيو أمريكا فاونديشن (NAF) هى مركز الأبحاث للبرجماتيين بالتقابل مع حذلقة ويليام كريستول وروبرت كيجان كما تتجسد فى «مشروع القرن الأمريكى الجديد».. NAF مركز أبحاث به أعضاء من الحزبين ويعمل على مباحث وقضايا متعددة ابتداء من سياسة الطاقة وحتى إصلاح العملية الانتخابية. أعضاؤه والمشاركون فيه متنوعو المشارب، ابتداء من الصحفى المستقل نير روزن إلى فوكوياما، وإلى إريك شميدت عضو مجلس الإدارة المنتدب لجوجل وولتر راسل مؤلف كتاب «الروعة الأخلاقية: الإمبراطورية الأمريكية فى الفترة الانتقالية».

ومثل CSIS، فإن برنامج مؤسسة نيو أمريكا تجاه العالم الإسلامى يتناقض مع ما تذهب إليه كثير من مراكز أبحاث واشنطون إذ يؤكد على الاشتباك مع إيران وسوريا وحماس وعلى الالتزام التام بأمن إسرائيل وبجيش أمريكى قوي. لكن وعلى الرغم من نسيج أعضائه متعدد المشارب، يتشارك مجلس NAF مع CSIS فى بعض الأعضاء من كبار رجال النفط بمن فهم دانييل يرجين مدير NAF، وهو عضو بارز فى «مجلس النفط القومي» ومطلّع على بواطن الأمور فى الشئون النفطية منذ زمن

ليس بالقصير. يعتقد أن الاستخدام المستقبلى المستدام للنفط يتوقف على تطوير للتكنولوجيا وإتاحة الوصول إلى المزيد من حقول النفط. وفى واقع الأمر، فإن الشبكة التى نورد تفاصيلها فى تتبعنا لأنشطة زكريا تكتمل دائرتها حينما نعلم أنه أيضا عضو فى مجلس إدارة NAF ومشارك نشط به.

مركز البرجماتيين:

قد يستنبط البعض أن عضوية زكريا فى تلك المؤسسات، والمجالس، والهيئات السياسية لا تعتبر شهادة دامغة على مكانته المؤثرة فى الوسائط الإعلامية الأمريكية. علاوة على ذلك، فقد يجزم آخرون بأن عمله عضوا فى مجالس أمنائها لا يقتضى سوى قليل من التفاعل مع الأعضاء الآخرين وإسهام أقل فى مجريات الأمور الفعلية لتلك المؤسسات. بيد أن تفحصا للشبكة التى تتشارك فى أعضاء مجالسها يثبط هذا التفسير التبسيطى لارتباطات زكريا المهنية وحجتنا فى هذا مزدوجة. إن ما نورده من تفاصيل تفاعل زكريا ولويس وأمثالهما مع سماسرة السلطة، والخبراء الحكوميين وصناع السياسية يحدد الوضع الصحيح لارتباطاتهم السياسية ومعتقداتهم ودوافعهم. لكن عضويتهم لتلك الجهات وروابطهم المختلفة تبين بوضوح الدور النشط الذى يلعبونه فى تشكيل الرأى العام بالولايات المتحدة وخدمة سياساتها الخارجية وصنّاع سياساتها. ولهذا السبب يركز هذا الفصل على دورهم النافذ كمنظرين مؤدلجين أثناء تسعينيات القرن الماضى وسنوات رئاسة بوش.

وعلى حين أن زكريا، بل وحتى لويس، قد لا يكونان من واضعى السياسات أو الاستراتيجيات، فإن مشاركتهما فى تلك المجموعات تضفى مصداقيتهما على تطبيع الفرضيات الجوهرية التى تشكل أساس قوانين «مناهضة الإرهاب» الداخلية، وسياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وهى سياسة يزعم هذا الكتاب أن جوهرها هو الإسلاموفوبيا، وكراهية العرب. ظل زكريا، وزميله المعلّق الصحفى توماس فريدمان، أكثر حرصا دائما من برنارد لويس وفؤاد عجمى ورجال الهجمات السياسية المأجورين من أمثال دانييل پايپس. فعلى حين أنه يرتدى شارة النيوليبرالية

مثلما يرتدى فريدمان شارة البرجماتية «الليبرالية»، فإن مواقف زكريا الخاصة البرجماتية ظلت تتيح له دائما الظهور بمظهر اللامتحيز «الموضوعي»، على حين أن أعماله وأنشطته، وكما سنوضح، تفضحه بصفته فأساً يُشحذ للهجوم على العرب والمسلمين وذلك من خلال عدائه الخبيث لهم.

من الصعب تحديد أعضاء مجالس مراكز الأبحاث والمؤسسات والهيئات السياسية ومستشاريها بدقة وذلك لأن صفوفهم تتمدد وتتقلص حسب التحاق الأعضاء بالخدمة العامة والإدارات الرئاسية وتركهم لها، وفى تلك الأثناء يتم إعداد منظرين مؤدلجين جدد ويتقاعد المستشارون المُسنون أو يُتَوَفَّوْن. يدعم هؤلاء الأعضاء أيضا مستوى آخر من العلاقات الاجتماعية مع أوساط نخب السلطة والنخب الاقتصادية. مثلا، فإن زكريا أيضا عضو فى «مجموعة آسبن الاستراتيجية» التى يضمها معهد آسبن الذى يترأسه برنت سكوكروفت وهو أيضا عضو فى مجلس CSIS. يشكل زملاء زكريا فى أسبن قائمة مألوفة من صنا ع السياسة والدبلوماسيين والوزراء وكبار المسئولين الحكوميين السابقين من الحزبين. من بين هؤلاء مادلين أولبرايت، وريتشارد أرميتاج، ودنيس روس، ومارتن إنديك الأب، وريتشارد لوجار الأب. كان تشاك هايجل الأب، وريتشارد هاس و ديان فينستاين السفراء السابقون، وعضوا إيباك من جماعات الضغط الصهيونية دنيس روس ومارتن إنديك، كانوا جميعهم شخصيات بارزة فى إدارة كلينتون، وكما سنري، سيعاودون الظهور في إدارة أوباما. أيضا، فإن آسبن جروب ملتقى مشترك لزكريا وفيربانكس، وهما أيضا أعضاء فى «جمعية الزملاء» التى تتكون من هؤلاء الذين تبرعوا بأكثر من ٢٥٠٠٠ للمجموعة.

إن العلاقة الحميمة بين أعضاء تلك المجموعة وغيرها هى نقيض للروابط المهنية فى أوساط صناعة السياسات بواشنطون ونيويورك. وآسبن جروب هى نسخة مصغرة من المجموعات السياسية الثلاث بالغة السطوة التى ينتمى زكريا إلى عضويتها جميعها، وهذه المجموعات هى بيلدربرج، واللجنة ثلاثية الأطراف، ومجلس العلاقات الخارجية. وجميع أعضاء تلك المنظمات لهم أصولهم فى منظومة وزراء إدارات ريجان وكلينتون

وبوش، وكبار رجال الصناعة والمثقفين الذين نجدهم فى CSIS وAFN وجهات أخرى. مثلا يترأس ريتشارد هاس، عضو مجلس إدارة أسين، مجلس العلاقات الخارجية (CFR) واسع النفوذ. كان هاس أيضا مستشارا لكولن باول وزير الخارجية، ولجورج إيتش بوش أثناء حرب عاصفة الصحراء.

وبدون أدنى شك، فإن مجلس العلاقات الخارجية هو المركز الأقوى تأثيرا ونفوذا فى مجال السياسة الخارجية، وقد يليه CSIS. كان من بين أعضاء مجلس إدارته شخصيات أعضاء فى CSIS مثل برچنسكي، وچوزيف ناي، ومادلين أولبرايت، وكولن باول، وريتشارد هولبروك، ورئيس معهد بروكينج، ومحرر تايم مجازين سابقا، ونائب وزير خارجية كلينتون ستروب تالبوت، وعضو مجلس الإدارة المنتدب بمجموعة كارلايل دايڤيد روبنستاين. أيضا، فإن زكريا عضو فى مجلس إدارة CFR (مجلس العلاقات الخارجية) ومعه الأكاديمى الوغد والصحفى المأجور فؤاد عجمى الذى سنناقشه فيما بعد. مثيرة للاهتمام هى قيادة هاس لمجلس العلاقات الخارجية، حيث إنه لم يكن جزءا من جماعة المحافظين الجدد السرية الذين تسللوا إلى إدارة بوش وترسخوا فيها. الأحرى أنه كان جزءا من «شلة» منافسة من المحافظين فى دائرة بوش الأب الذين يتبنون مواقف تقليدية فى السياسة الخارجية. ساعده هذا على احتلال موقع ملائم مكّنه من تشكيل مجلس «برجماتي» من أعضاء الحزبين يقدم الاستشارات لوزارة الخارجية والكونجرس والبيت الأبيض أيا كانت الإدارة الحاكمة.

استدعت هذه البرجماتية توجيه النقد من قبل مراكز الأبحاث الموالية لإسرائيل مثل «منتدى الشرق الأوسط» لمجلس العلاقات الخارجية لمعارضته «أحادية، الولايات المتحدة وعملياتها العسكرية» فى المنطقة. تخفى لهجة مجلس العلاقات الخارجية «غير المتحيزة» حقيقة أنه يضم كثيرا من المعلقين والمسئولين السياسيين ممن يعبرون بوضوح واتساق عن وجهات نظر معادية للمسلمين ومعادية للعرب. ظلت المواقف التى يتخذها أعضاء مجلس إدارته بمن فيهم أولبرايت وتالبوت ليكودية موالية لإسرائيل

بأسلوب لا يتزعزع. وفى واقع الأمر، فإن إلقاء نظرة خاطفة على قائمة «خبراء» الشرق الأوسط بمجلس العلاقات الخارجية تبين وجود نخبة من اللاعبين السياسيين المعادين للعرب والمعادين للمسلمين بمن فيهم «مخبرون محليون» من أمثال محمد بزّي.

بيد أن أكثر أعضاء المجلس جدارة بالاهتمام هو إليوت إبرامز المتخصص رفيع المنزلة فى دراسات الشرق الأوسط، وهو أيضا عضو فى مؤسسة هريتدج، ومجموعة مشروع القرن الأمريكى الجديد، ومعهد هدسون ومنتدى الشرق الأوسط. أيضا، كان بين الموقعين على خطاب مفتوح يدعو للإطاحة بالنظام السوري، وأيضا الخطاب المفتوح سيئ السمعة الذى دعا عام ١٩٩٨ الرئيس كلينتون للإطاحة بصدام حسين. لم يلعب فقط دورا مؤثرا فى فضيحة إيران/ كونترا، بل كان أيضا مديرا رفيع المستوى لشئون الشرق الأدنى وشمال إفريقيا فى مجلس الأمن القومى أثناء رئاسة بوش الأب. وبصفته مساعد بوش الابن الخاص والمدير رفيع المستوى للديموقراطية وحقوق الإنسان والعمليات الدولية، يُعترف به كأحد مهندسى «أجندة الحرية» التى تبناها بوش. عُرِف بأنه أكثر المحافظين الجدد تطرفًا وتعكس آراؤه عن الشرق الأوسط آراء مرشده وصديقه ريتشارد بيرل وتستمد جوهرها أيضا من ولائه القتالى لإسرائيل ولسياساتها الأكثر تطرفا تجاه الفلسطينيين. أدان إبرامز اتفاقيات أوسلو ودعا فيما بعد إلى إزاحة ياسر عرفات عن رئاسة السلطة الفلسطينية وصادق على حصاره داخل مبنى المقاطعة فى رام الله الذى احتجز داخله لمدة شهرين.

وعلى الرغم من الدور القيادى الذى لعبه فى تشكيل سياسة إدارة بوش للشرق الأوسط، فإن إبرامز لم يتلق أى تدريب مهنى رسمى فى دراسات الشرق الأوسط. يعتبر نموذجا معياريا للمسئولين السياسيين من ذوى الإلهام الأيديولوجي والذين أرشدوا الأجندة الأجنبية للبيت الأبيض بعد ٩/١١. كان لإبرامز دور مفتاح أثناء سنوات بوش فى «تصنيع الإجماع» لعسكرة الولايات المتحدة وتدخلها فى الشرق الأوسط بترويجه معتقداته الأيديولوجية التى تصور الأنظمة العربية بصفتها أنظمة

منبوذة تشكل تهديدا دائما للديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ترويجها من خلال قنوات الإعلام الخلفية. قد يقال إن الاختلافات غير الخافية فى درجات التعصب للصهيونية بين إبرامز وزكريا تعطى مصداقية لحقيقة أن مجالس السياسات الخارجية «اللاحزبية» تمثل طيفا من الآراء المختلفة وبخاصة فى عصر أوباما. بيد أنه، فى واقع الأمر، فإن مثل هذه الاختلافات تمنح قوى جذب أكبر لزكريا حيث تظهر آراءه النيوليبرالية والكارهة للعرب محسوبة وحريصة بالتقابل مع آراء إليوت إبرامز غير المتوازنة.

مجموعات وضع الاستراتيجيات وهيئات الخبراء:

شبكات زكريا أكثر اتساعا وخبثا من شبكات برنارد لويس، حيث يلعب دورا بارزا ومرئيا فى تشكيل الثقافة السياسية الأمريكية، وفى الإعلام كما توضح عدة برامج حوارية يقوم فيها بدور المضيف وأحدثها برنامجه الأسبوعى بشبكة سى إن إن المسمى «الميدان العام الكوكبي». وكما سنري، فعلى الرغم من أن لويس يُبقى على صلات فى مراكز السلطة لكنه، ويشكل أساسي، مصدر للخبرة يلجأ إليه المحافظون الجدد واليمين الموالى لإسرائيل، مثلما كان يحدث بخاصة أثناء إدارة بوش. وعلى حين أن صلة زكريا بتلك الجبهات ذاتها، ليست على نفس القدر من الحميمية التى تتيح له تقديم الإرشاد والمشورة الأيديولوجية، إلا أن زكريا من جهة أخري، يتقاسم الطاولة مع نخب السلطة والسياسيين الموجودين على قوائم مراكز الأبحاث واللجان وغيرها من المنظومات التى تناولناها بالنقاش. وفى واقع الأمر، فإن براجمتية زكريا تمثل نقيضا «لمثالية» لويس من حيث تعصب الأخير فى موالاته لإسرائيل.

من الجدير بالاهتمام أن زكريا ولويس لا يُبقيان فقط على عضويتهما فى المؤسسات التى تشكل سياسات الولايات المتحدة، بل أيضا فى أقوى تنظيمين دوليين أى «اللجنة ثلاثية الأطراف» و«مؤتمر بيلدربرج». وإذا نحينا جانبا نظرية المؤامرة، فإن اللجنة ثلاثية الأطراف هى المناظر الدولى لمجلس العلاقات الخارجية من حيث الجوهر، أنشأ اللجنة دايفيد روكفلر عام ١٩٧٣ وكان هدفها المحدد «تبنى تعاون أوثق بين

مناطق العالم الصناعية الديموقراطية الرئيسية التى تتشارك مسئوليات القيادة فى النظام الدولى الأوسع». يتقابل أعضاؤها سنويا كمجموعة، وأيضا بشكل منفصل فى مؤتمراتهم الإقليمية. علاوة على ذلك فهم يقومون بنشر أوراق بحثية سياسية مؤثرة مثل «الاشتباك مع إيران وإقامة سلام فى الخليج الفارسي». إن الأسلوب الدورى الذى تتبعه اللجنة فى العضوية والقيادة يعمل على إشراك أقوى السياسيين ورجال الصناعة والصحفيين والمصرفيين ورجال المال والمسئولين العسكريين السابقين والأكاديميين على مستوى العالم فى المسئولية. من المهم أن نبين أنه على الرغم من أن «اللجنة» تعترف بـ «الاستقلال المتنامي» للأمم، فلا يوجد أى فرد أو بلد عربى فى عضويتها.

زكريا، وبرنارد لويس ومعهم أكاديميون مُسيَّسيون آخرون من أمثال الراحل صمويل هنتنجتون وفرانسيس فوكوياما وجوزيف ناى أعضاء فى «اللجنة». ثمة عديد من أعضاء مجلس العلاقات الخارجية يشاركون فى عضوية «اللجنة» بمن فيهم برجنسكى الذى هو فى واقع الأمر عضو مؤسس لـ «اللجنة». من بين الأعضاء الآخرين جيمى كارتر وجورج إيتش. بوش وبيل كلينتون وديك تشينى وبول وولفويتز وهنرى كيسنجر، وبرنت سكوكروفت، ووليام كوهين، ولورانس إنجلبرجر ودايفيد جرجن، ومعهم حفنة من السناتورات النافذين المعادين للمسلمين مثل توم فولي، وديان فينستاين وجاك دانفورث. وفيما يُجزم دائما أن «اللجنة ثلاثية الأطراف» تسعى لإقامة «حكومة عالم واحد»، فما علينا سوى النظر إلى بياناتها الصريحة كي نفهم أن مهمتهم هى الحفاظ على هيمنة الشمال المتقدم على البلدان المتخلفة من خلال حملات «عصف المخاخ». يسمون هذا الحفاظ على «القيادة» الدولية للبلدان المتقدمة فى أمريكا الشمالية وأوربا وآسيا من أجل أن «تظل المرتكزات الرئيسية للنظام الدولى الأوسع» فيما تأخذ «فى الحسبان التحول الدراماتيكى فى النظام الدولي» فى وقت فيه «القوة [فى سبيلها] للانتشار على مساحة أوسع». وعلى الرغم من كل السرية التى تحيط بها اللجنة ثلاثية الأطراف» مهمتها، فإنها تبدو على قدر

كبير من الوضوح: الحفاظ على هيمنة الغرب الاقتصادية والسياسية وفى هذا الصدد فإن لويس وزكريا قد أسهما بما لديهما من «خبرة» لتيسير هذه المهمة.

وفى واقع الأمر، فقد كانت اللجنة ثلاثية الأطراف قد انبثقت من منظمة أخرى مغلقة «خاصة» نخبوية اسمها «مؤتمر بيلدربرج» - أسميت على اسم الفندق الهولندى الفاخر الذى عقد فيه أول اجتماع لها عام ١٩٥٤ - تجتمع مرة كل عام من خلال توجيه الدعوات فقط. اهتمام مؤتمر بيلدربرج المعلن هو توطيد العلاقات بين صناع الرأي، والكوربوريشنات، والحكومات من أجل إبقاء الغرب على قمة الهيمنة الرأسمالية. وبالإضافة إلى لويس، ظل كل واحد من زملاء زكريا من أعضاء مجلس مركز العلاقات الخارجية بين الأشخاص المائة والثلاثين الذين يُدْعَون إلى مؤتمر بيلدربرج. فى عام ١٩٧٩، حضور لويس المؤتمر وعرض نظريته عن «قوس الإسلام» وبلقنة الشرق الأوسط. تم ذكر حضور لويس لعدد من مؤتمرات بيلدربرج، ومن بينها ذاك الذى عُقد فى أعقاب عاصفة الصحراء عام ١٩٩١، ومؤتمر عام ٢٠٠١، على موقع المؤتمر الإلكترونى إلا أنه من الصعب تأكيد حقيقة حضوره إذ إن مُنظمى بيلدربرج يحرصون على سرية قائمة المدعوين ولا ينشرونها إلا فى الأوقات التى تناسبهم. تتضمن القائمة الرسمية لمن حضروا المؤتمر عام ٢٠٠٩ شخصيات أمريكية بارزة من بينها بول وولفويتز، وريتشارد بيرل، وريتشارد هولبرووك، ودايفيد روكفلر، و روبرت زوليك رئيس البنك الدولى والمدير السابق لمركز الدراسات الدولية والاستراتيجية CSIS، وكونداليزا رايس مستشارة الشئون الخارجية وعضو مجموعة أسين.

فى عام ٢٠٠٣، حضر زكريا الاجتماع المغلق بفرنسا الذى كان قد اقتصر على شخصيات من الذكور الغربيين ومعهم كثير من أعضاء المجالس واللجان المذكورة سالفاً بمن فيهم كيسنجر، وريتشارد هاس من مركز العلاقات الخارجية وعضو الكونجرس اليمينى تشاك هايجل والصحفى توماس فريدمان. عقد ذاك الاجتماع فى مايو بعد أسابيع معدودة من بدء غزو العراق. تم تمثيل إدارة بوش، والصناعات النفطية، وكبار الشخصيات الإعلامية جميعهم فى ذلك المؤتمر. كان من بين المدعوين

الآخرين شلة ديك تشينى وبول وولفويتز وريتشارد بيرل وجون بولتون، ومعهم بارونات النفط والإعلام والمصارف من أمثال دايفيد روكفلر، ورئيس شركة شل جيرون فان درفير وأندرز إلدروب رئيس الشركة الهولندية وكونراد بلاك، عملاق الإعلام ومالك صحيفة جيروسالم بوست المحافظة. وحقا، فإن أحد أساليب فهم تلك المنظمات والمجالس والجمعيات، ناهيك عن المؤتمرات على شاكلة بيلدربرج، هو النظر إليها بسذاجة على أنها تنظمات مهنية تقام من أجل تجميع الأفضل والأكثر ذكاء فى محاولة لحل مشكلات العالم، فى حين أن الأسلوب الآخر، فهو رؤيتها بصفتها تنظيمات مؤامراتية. أما نحن، فنرفض بشدة نظريات المؤامرة التى تعتبر بيلدربرج واللجنة ثلاثية الأطراف مجموعات نخبوية ضمن فريق أوحد يحكم الكوكب. الأحرى أن مؤتمر بيلدربرج الذى عقد عام ٢٠٠٣ يوضح كيف تتجمع النخب الرأسمالية الكوكبية من أجل تشارك الاستراتيجيات ووجهات النظر حول كيفية الحفاظ على هيمنتها على الأسواق الكوكبية، وبخاصة أسواق الصناعات المهمة مثل الصناعات النفطية، وعلى قيادتها للسياسة العالمية وبخاصة فى أوقات الأزمات الكوكبية. بتعبير آخر فإن هذه المجموعات والمجالس هى تحديدا ما تصرح به عن نفسها. إن هذه المؤتمرات السنوية، واللقاءات التى تعقد فى المنتجعات والمنازل هى التى فيها يلتقى رجال السلطة، والنخب الاقتصادية من أجل استباق التحديات الوشيكة لقبضتهم هم والدول الصناعية الكبرى على السلطة ووضع الاستراتيجيات لمجابهة ذلك. وحسب ما جاء فى بيان اللجنة ثلاثية الأطراف، فإن المجموعة تنوى أن تتداول «الأفكار المشتركة والقيادات للبلدان الأعضاء فى اللجنة (ومعهم المنظمات الدولية الرئيسية) والتى ظلت الدعائم الأساسية للنظام الدولى الأوسع». أو، وحسب ما جاء فى بيان صادر عن «بيلدربرج» فإن الاجتماعات هى «نقاش، ليس للنشر، حول موضوعات لها أهمية راهنة، بخاصة فى مجالات الشئون الخارجية والاقتصاد الدولي». وعلى الرغم من الاختلافات المعترف بها فى مواقف الدول الغربية وتجاربها، فإن أعضاء المؤتمر يتفقون حول حاجة الدول المتقدمة للخروج برؤية موحدة حول الأمن والتنمية الكوكبية

بقولهم «تظل ثمة حاجة واضحة لتطوير مزيد من الفهم يمكن من خلاله المواءمة بين تلك الاهتمامات المختلفة».

وبوضوح تام، تستخدم تلك المؤتمرات، وورش العمل، والاجتماعات، سواء تلك التى ترعاها مجموعة آسبن، أو الأخرى الأكثر تفصيلا وتعقيدا كتلك التى يرعاها بيلدربرج، آليات تقنية تتبادل من خلالها تلك الشخصيات الأفكار، وتنسق الأساليب اللوجستية التى تنفذ بواسطتها تلك المخططات. بيد أنه، ومن أجل أهداف هذا الكتاب، فإننا نفهم تلك المجالس والمنظمات والمؤسسات، والمجموعات المنبثقة عنها، واقعيا بصفتها أخويات تتداول فيما بينها تفاهمات ونماذج معيارية تشكل أساس السياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة والعالم المتقدم، وبخاصة فى الشرق الأوسط. فعلى مدى العقدين الآخرين، غدت النماذج المعيارية للإسلاموفوبيا، والمعادية للعرب دعامات للمدركات والسياسات المنبثقة عن تلك التجمعات. ليست شبكة نخب السلطة التى تضفى الشرعية على برنارد لويس وفريد زكريا وتمنحهما حق التحدث باسمها، ليست فريدة من نوعها أو حتى منذرة فى حد ذاتها. بل يمكن القول إنها ليست ذات أهمية محددة. تتيح هذه الشبكات «النقاشات» و«تبادل الأفكار» التى تعمل على تطبيع النماذج المعيارية الأيديولوجية. لا يُعد المشاركون مولدين لتلك النماذج بقدر ما هم موظفون مهمتهم الأساسية مراجعة منظومة الروايات التى تجعل عددا من السياسات المحددة ممكنة. يعمل «المفكرون» والصحفيون ممن يشاركون فى تلك المجموعات، مثل لويس وزكريا على إضفاء الاتساق والمنطق على تلك الروايات، وعلى انتشار تلك النماذج المعيارية ومنحها مظهر المصداقية الفكرية. سيبين الفصل التالى أنهما ليسا محدثين لأية فكرة أو نموذج (بخلاف ليو ستراوس، مرشدهما النيوليبرالى مثلا). الأحرى أنهما يقومان بتجميع تنوعات من التوجهات الفكرية، والخطابات، والنماذج المعيارية التى تُتداول فى أوساط النخب السياسية والاقتصادية للبلدان المتقدمة، والمواقف الأيديولوجية وينظمانها على شكل روايات يمكن استخدامها مرتكزات أيديولوجية توضع حولها الاستراتيجيات التى تضمن طول عمر القوى المهيمنة.

لا يمكن التقليل من قيمة إسهام زكريا فى الخطاب العام الذى أحاط بالحرب على الإرهاب التى تبناها بوش حيث إنه كان مروّجا مرنيا لسياسات بوش ودعا إلى تغيير الأنظمة منذ الأيام الأولى لإدارته. لزكريا مكانه الراسخ فى شبكة من مراكز الأبحاث، والجمعيات، واللجان، والمنظمات التى تتشارك فى مواقف برجماتية تحدد توجهات الاستراتيجيات التى تضمن الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم. بيد أن واقعية زكريا مشبعة بقدر مفرط من الإسلاموفوبيا الخصبة التى توظّف لربط السياسيين البرجماتيين من أمثاله بدعاة الإسلاموفوبيا المثاليين من أمثال برنارد لويس. أمد موقع زكريا داخل الشبكة المعقدة من الشخصيات والمؤسسات النافذة «الواقعيين» و«البرجماتيين» من الحزبين، برواية توضح ضرورات تغيير الأنظمة فى الشرق الأوسط. وفى هذا الصدد، جمع زكريا بين البرجماتية والمثالية الأخلاقية، وبين التوجهات المحافظة القديمة وتوجهات المحافظين الجدد.

شبكة برنارد لويس المؤسسية:

فيما أنه قد يكون لزكريا المكانة المهيمنة فى التيار السائد، وفى شبكة نخب السلطة والقوة، يحتل برنارد لويس القمة فى أوساط المستشرقين الجدد ودوائر المحافظين الجدد اليمينية والجماعات الموالية لإسرائيل فى أمريكا الشمالية. وعلى حين أن هذه الشبكة قد تكون أصغر [من شبكة زكريا] إلا أنها أقوى، وعلى حين أنه ليس عضوا فى جميع المجالس أو اللجان التى يتمتع زكريا بعضويتها، إلا أن رفاقه المقربين الذين يشاركون فى توجهاته الأيديولوجية هم غالبا من قادة تلك المؤسسات والمنظمات أو من المشاركين فيها. فى نهاية التسعينيات، وأثناء سنوات بوش، كانت أية إحالة إلى أعمال لويس المشبعة بالإسلاموفوبيا تعتبر دلالة على الثقافة الرفيعة فى إعلام التيار السائد والدوائر اليمينية وجماعات النشطاء.

يمكن الأخذ بكتابات وأقوال ريويل مارك جرتشت شهادة على حضور لويس القوى بين مجموعة المتعصبين الأيديولوجيين التى أطلِق عليها فيما بعد اسم «الفلاكنة». فى عيد ميلاد لويس التسعين كتب جرتشت مقالا تم تداوله على نطاق واسع يطرى فيه

على لويس بعنوان «آخر المستشرقين». كان جرتشت، العميل السابق بالسى أى إيه، والمدير السابق لبرنامج الشرق الأوسط بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، كان أيضا تلميذا للويس. مارس ضغوطا حماسية على البيت الأبيض من أجل غزو العراق، وكان مع زكريا ولويس ضمن دائرة وولفويتز المغلقة لعصف المخاخ. اكتسب شهرة بعد تصريح لاقى رواجا إعلاميا حول إيران فى برنامج فرانت لاين بتليفزيون PBS، حيث قال «أحد الأسباب التى من أجلها يريد الإيرانيون الحصول على أسلحة نووية هى أن الإرهاب موجود فى دناهم DNAs».

وفيما لا يمكن اعتباره مؤهلا للحكم على الأعمال الأكاديمية، إلا أن هذا الجاسوس السابق على إيران يرى عن صواب أن للويس تأثيرا حقيقيا على دوائر القرار الداخلية. يقول فى مقال له إن «كتابىْ [لويس] الموجزين اللذين صدرا فى أعقاب ٩/١١ وكانا على قائمة أفضل المبيعات - «أين الخطأ؟» و«مأزق الإسلام» - «لعبا دورا فى مساعدة كبار مسئولى الإدارة على فهم أفضل للسياق التاريخى للمسلمين المتطرفين الذين اعتنقوا الإرهاب وسيلة للتعبير عن عقيدتهم». ثم يمضى جرتشت ليمتدح المدى الواسع لتأثير لويس:

«إن مقالاته الإبداعية عن النزعات القتالية الإسلامية بدوريات أطلنطيك مانثلي، وفورين أفيرز، وكومنترى ونيوريبابليك وجدتْ طريقها إلى داخل مؤسسة السياسة الخارجية.. وربما يمكننا القول إن كتابات لويس المحملة بظلال المعانى عن الديمقراطية فى العالم الإسلامي، ومعها طلبته السابقون وأصدقاؤه العديدون قد ساعد على تبلور فهم الإدارة الآخذ فى التطور سريعا لسياسات الشرق الأوسط وعقيدته بعد ٩/١١».

لا يجوز التقليل من دور لويس بصفته الوجه الأكاديمى لإدارة بوش. بيد أنه علاوة على ذلك، فقد كان للويس أثر كبير من خلال تقديمه رواية تاريخية وثقافية واجتماعية مهمة مكّنت بوش/ تشينى من تأليف ترنيمتهما عن الحرب مهتدين بسطورها، وسنقوم فى الفصل الثانى بفحص روايته ومعها رواية زكريا فيما يكتفى هذا الفصل بتوضيح

حقيقة أن لويس لم يكن شخصا على قائمة الانتظار مثل فؤاد عجمى وغيره من الأقل الأهمية الذين لا يصلحون سوى للاستشهاد بهم على أحابيل جماعة المحافظين الجدد السرية التى كانت قد استولت على واشنطون، ذلك لأن لويس كان جزءا عضويا من تلك المجموعة ذاتها.

ومثلما شارك زكريا فى دورة «عصف المخاخ» التى قادها وولفويتز بعد ٩/١١ للترويج لغزو العراق، شارك لويس فى ورشة عمل فى نوفمبر ٢٠٠٢ بعنوان «العراق: استطلاع ما بعد صدّام». كان حضور لويس لتلك الورشة عن العراق متوقعا إذ إن من نظمها كانت هى مجموعة المحافظين الجدد، والشلة الموالية لإسرائيل التى قامت بكتابة ورقة بنيامين نتانياهو البحثية بعنوان «القطيعة التامة Clean Break» عام ١٩٩٦، والتى تشكل منها أيضاً «مجلس سياسات الدفاع الخاص بالعراق» وعمل أعضاؤها مستشارين خارجيين للبنتاجون لمساعدته على صياغة سياساته؛ كان قادة هذا المجلس ومنسقو ورشة العمل هما ريتشارد بيرل ودوجلاس فيث مساعد وزير الدفاع السابق. وفيث، مثل بيرل، صهيونى يمينى شهير، أسماه الجنرال تومى فرانكس، الذى كان آنذاك قائد قوات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط «أغبى رجل على الكوكب». يذكر تقرير ورشة العمل المؤلف من ست صفحات أن تلك المناسبة التى استمرت يومين «جمعت بين أكثر من سعبين أكاديمياً، وخبيراً، وممارساً، لمناقشة تحديات ما بعد التدخل والتى تواجه صناع السياسة فى العراق». كانت هذه الورشة من بنات أفكار تشينى نفسه بنفس القدر الذى كانت به من إبداع مجموعة إندرو كارد وكارل روف من البيت الأبيض الذي، وكما يبين توماس ريكس، كان بحاجة لتبريرات لغزو العراق لا يستطيع سوى الأكاديميين و«المثقفين» توفيرها.

خطاب المُعلّم ورؤية التلاميذ:

لويس صديق قديم لبول وولفويتز وريتشارد بيرل وأيضا لزلماى خليلزاد. وفى واقع الأمر، فقد اعتبر بيرل لويس مرشده فى شئون الشرق الأوسط. أثناء سنوات بوش، كان البروفسور يتباهى بأنه قام بزرع لاعبين مفتاح فى وزارة الدفاع والبيت

الأبيض، وكان بين هؤلاء هارولد رود الصهيونى المتعصب وصنيعة لويس وصديقه الحميم. عمل رود محللا مقيما لـ «الإسلام» بوزارة الدفاع أثناء أكثر أيام إدارة بوش قتامة، ويقرر البعض أن مكالمة هاتفية أجراها لويس مع پيرل ضمنت تعيين رود فى ذلك المنصب بوزارة الدفاع. وفى وزارة الدفاع، عمل رود عن قرب مع دوجلاس فيث ودايفيد ويرسمر للتخلص من المتخصصين غير المؤدلجين الموجودين بالمناصب المفتاح بالوزارة والإتيان بأمثالهم من المعادين أيديولوجيا للعرب والمسلمين الذين يتوقع منهم أن يقوموا بالتخطيط لإعادة ترتيب مراكز القوة فى العالم العربى بدءا بتشكيل عراق جديد. كان قد تم تعليق إخلاء طرف رودس الأمنى فى التسعينيات وذلك للاشتباه فى أنه قام بتمرير أسرار إلى إسرائيل، كما قام الإف بى آى بالتحقيق معه عام ٢٠٠٤ لنقله معلومات عسكرية سرية للغاية إلى الموساد.

بيد أن رودس ليس سوى لاعب واحد فقط فى شبكة أوسع من عملاء المحافظين الجدد السياسيين، واللوبيهات، ومراكز الأبحاث التى كانت تشكل شبكة مجموعة بوش السرية. غير أن دور لويس فى تلك الشبكة لم يبدأ فى أعقاب ٩/١١، الأحرى أن علاقته بحركة المحافظين الجدد ترجع إلى ثمانينيات القرن الماضى حينما تصدى نيابة عنهم لتشويه سمعة إدوارد سعيد، وكان هذ بالطبع جزءا من حملة أوسع ضد سعيد المفكر والناشط الفلسطينى الأمريكى البارز. بحلول التسعينيات كان لويس قد تحالف مع وولفويتز، وغيره من البارزين فى دوائر القرار الداخلية بعد أن قام الشاب، ريتشارد پيرل «بتقديم الرجل الإنجليزى [لويس] إلى تلك الجهات بواشنطون»، حيث تعرف لويس فى تلك الدائرة على عدد من الشخصيات القوية المحافظة الموالية لإسرائيل والتى شكلت فيما بعد «شلة» بوش. لم يتركز وضع لويس فى مجموعة وولفويتز/ پيرل على البيزنس فقط بل على حقيقة أنهم كانوا يتشاركون فى تعصب أيديولوجى عام. عبَّر عمق الروابط بين لويس وهذه المجموعة وولائه لها عن نفسه حينما تولى البروفسور دورا قياديا فى لجنة الدفاع عن «سكووتر ليبي».

فى عام ٢٠٠٧، منح ذا أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لويس جائزة إرڤينج كريستول مما يقطع بالعلاقة الحميمة بينه وبين أعلى مستويات صنَّاع السياسة. كان

من بين من منحوا هذه الجائزة قبله روبرت بورك، وديك تشيني، وجين كيركباتريك، وصقر المحافظين الجدد مايكل نوفاك، ومرشد المحافظين الجدد نورمان بودهورتز، ورونالد ريجان. كان جرتشت، وريتشارد بيرل وجون بولتون من بين أصدقائه وتلاميذه السابقين الذين حضروا مراسم الاحتفال، كما ألقى ديك تشيني، نائب الرئيس، الخطاب الرئيسي. أوضح تشيني، في معرض تكريمه لويس، إعجابه به بصفته المرشد الأخلاقي لنهج البيت الأبيض تجاه الحضارات، ونص تحديدا على أن:

«برنارد لويس يعرف عظمة الحضارة الإسلامية.. كما أنه، مثل أي شخص موجود آخر، يفهم طبيعة الصراع الحالي بين الحرية والخوف، بين العدالة والقسوة. كما يدرك أن الحرية ليست محنة – إنها حق لرجال ونساء في نصف العالم البعيد عنا، مثلما هي حق لنا. وبما أن الصراع القديم من أجل التحرير والمساواة يتجدد مرة أخرى في زماننا، سنستمر في الاعتماد على أسلوب تفكير برنارد لويس الصارم».

في خطابه هذا، ومثل خطاباته الأخرى، يحدد ديك تشيني بوضوح رواية لويس عن الحضارات والتي سنتفحصها في الفصل التالي بوصفها مصدر سياسات البيت الأبيض في المنطقة.

الأهم من صداقته لوولفويتز، أو دوره الإرشادي بالنسبة لبيرل، هو أنه قد نتج عن تداوله داخل تلك الدوائر علاقة مع ديك تشيني، بدرجة أن بوب وودوارد قال عن لويس إنه «أحد المفضلين لدى تشيني». دائما ما لجأ نائب الرئيس إلى لويس طالبا المشورة، ومثل عجمي، كان يسميه «صديقا». وفي واقع الأمر، فحينما اختبأ تشيني في الأسابيع التي تلت ٩/١١، ذهب لويس عدة مرات لتناول العشاء معه بمفردهما في «مواقع سرية». لم يوفر لويس لتشيني وشبكة المحافظين الجدد، والصهاينة، والمعادين للإسلام فقط الرواية التي تبرر التدخل، بل أمدهم أيضا بتبريرات ملزمة أخلاقياً للعسكرة، والإمبريالية، بل ولحرب صليبية جديدة.

دائما ما استخدم الصيت الذي يتمتع به لويس، وبأسلوب روتيني، لدعم السياسات التي كان عقل نائب الرئيس قد تفتق عنها بالفعل. مثلا، اتبع تشيني اقتراح لويس

القديم بأنه ينبغى أن يكون للولايات المتحدة منفذ دعاية قوى فى العالم العربى من أجل نشر رسالة البيت الأبيض «الحقيقية» ولمجابهة المدركات الخاطئة عن الديموقراطية الأمريكية. تحدث تشينى فى خطاب له بمعهد هدسون المحافظ عن حاجة الولايات المتحدة للوصول إلى نخب البلاد العربية وجماهيرها، وقال إنه «تحدث إلى برنارد لويس فى هذا الموضوع تحديدا»، ذاكرا انعدام الحرية فى المجتمعات العربية، الأمر الذى يؤدى إلى التمثيل الخاطئ للولايات المتحدة فى الشارع العربي. ثم أضاف تشينى «إنه بليغ مقنع فى هذا الشأن. وأنا أوافقه. أعتقد أن مشاكلنا الكبرى فى الماضى كانت تتمثل فى غياب التدفق الصريح الصادق للمعلومات على شعوب هذا الجزء من العالم»؛ وقال بتوافق مع لويس «علينا الاستمرار فى تنفيذ هذا بعدوانية شديدة. نحن بحاجة إلى حملة معلومات عامة نشطة تبرر ما نفعله، وتوضح أهدافنا وغاياتنا وأغراضنا هناك». ولهذا الهدف، عمل لويس كمحك واضح موثوق بالنسبة لتشينى الذى كان يشارك لويس الرأى حول الحاجة لتحرير العرب من حكامهم الطغاة، ومن جهلهم، ووافقه أيضا جمهور «الخبراء» الذين كانوا حاضرين، والذين تمت استشارتهم فيما بعد حول سياسة الشرق الأوسط.

فى نفس الوقت الذى كان فيه عجمى ولويس يتسلمان جوائز الدولة، كان ديك تشيني، نائب الرئيس، يستشهد بلويس أمام معهد واشنطون لسياسة الشرق الأدني، وهو مركز أبحاث موالٍ لإسرائيل كان يتمتع بقدر كبير من النفوذ على إدارة كلينتون. حذّر تشينى ذلك الجمهور، المكون فى غالبيته من الديموقراطيين، من أن عليهم التعلم من أخطاء الماضي. وهنا، وفرت شخصية لويس ومشورته منبرا يتوحد حوله مسئولون من أمثال دنيس روس، وديك تشينى وبلتقون. ذكّر تشينى الجمهور بأحد مزاعم لويس الشهيرة فى التسعينيات حيث كان قد صرح بأن الولايات المتحدة كانت تدفع ثمن أحد إخفاقاتها فى الماضي، وهو إخفاق عزاه لويس إلى نقطة ضعف مأساوى فى السياسة الأمريكية - أى موقفها الذى يبدو متساهلا تجاه الشرق الأوسط. رأى لويس أن سياسات الولايات المتحدة الخيرة فى الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة

قد فهمها المتطرفون العرب والأنظمة العربية المارقة على أنها نقاط ضعف! أقنع ضبط النفس الذى مارسته الولايات المتحدة فى الماضى إزاء الإرهابيين هؤلاء المتطرفين بأنها متساهلة متراخية، بالتقابل مع السوفييت وحلفائهم فى المنطقة الذين حفزت وحشيتهم مشاعر الاحترام. كان الدرس واضحا على الرغم من عدم التصريح به: لا يفهم العرب سوى لغة القوة.

خطاب مفتوح للرئيس كلينتون:

فى عام ١٩٩٨، تمت دعوة لويس للمشاركة فى «لجنة السلام والأمن فى الشرق الأوسط». كانت اللجنة من بنات أفكار «مركز الدراسات الأمنية» برئاسة فرانك جافنى ولم تكن فلسفة هذا المركز المعلنة «السلام من خلال القوة» مجرد شعار للقوة العسكرية بل عقيدة مفادها وجوب الحفاظ على قوة أمريكا القومية واستخدامها كما يجب، وذلك لأن لها دوراً كوكبياً فريدا فى الحفاظ على السلام والاستقرار فى جميع الأنحاء». وكعضو فى هذه اللجنة وقّع لويس على التماس يدعو الرئيس كلينتون للإطاحة بصدام حسين. كان من بين الأسماء الموقعة على الالتماس وفقا لترتيب توقيعاتهم، دونالد رمسفلد، بول وولفويتز، دوجلاس فيث، وريتشارد آلان الذى أصبح مستشار الأمن القومي، وزلماى خليلزاد الذى أصبح سفيرا، ومايكل لدين من الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، ومارتن بريتز رئيس تحرير دورية نيوريبابليك، وروبرت پاستور مساعد الرئيس كارتر الخاص، وماكس سينجر من مشروع القرن الأمريكي الجديد ومعه دايڤيد ويرمسر الذى كان آنذاك زميلاً بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت.

نقد الالتماس سياسة الاحتواء التى اتبعها كلينتون (وكان قد أطلقها چورج بوش الأب)، ودعا الموقعون إلى العسكرة الفاعلة للسياسة الخارجية بالشرق الأوسط قائلين: «إن ما نحتاجه الآن هو استراتيجية سياسية وعسكرية شاملة للإطاحة بصدام ونظامه». تأتى الوثيقة بمخطط شديد التحديد لإثارة القلقلة السياسية بالعراق- وهو مخطط اتبعه بحذافيره فيما بعد چورج بوش الابن. ينص الخطاب على أن الخطوة

المبدئية ينبغى أن تكون «الاعتراف بحكومة مؤقتة فى العراق.. تؤسسها قيادات مجلس العراق الوطنى INC». وفى واقع الأمر فقد كانت السى آى إيه هى التى أنشأت ذلك المجلس حيث كان جورج بوش الأب، وبعد غزو الولايات المتحدة الأول لمنطقة الخليج، قد كلّف السى آى إيه بمسئولية إنشاء جبهة معارضة تتبنى الإطاحة بصدام. وبدورها، قامت السى آى إيه بالتعاقد مع رندون جروب، وهى وكالة علاقات عامة مشبوهة للاستشارات الاستراتيجية، لإنشاء حكومة ظل عراقية فى المنفى. لم يكن المجلس يشكل معارضة مستقلة بقدر ما كان هيكلا تنظيمياً استخدمته السى آى إيه في الحرب الدعائية ضد صدام حسين. نسقت رندون جروب أنشطته، والمناسبات التى كان يقيمها، وعضويته وبياناته بواسطة فرانسيس بروك مستشارها فى الشرق الأوسط، والذى عمل مستشار «علاقات عامة» للجلبى وكان يرافقه دائما. ودُشن ذلك المجلس بالتنسيق مع حملة دعائية جماهيرية تم شنها من خلال منافذ إعلامية ومواقع علاقات عامة عديدة بمصادقة من وزارة الدفاع والسى آى إيه، وتضمنت هذه الحملة إنشاء قناة «الحرة» التليفزيونية والإذاعية العراقية الفضائية.

وفى هذا الصدد، تم استخدام الالتماس الذى وقعه لويس وأصدقاؤه من الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت بالترادف مع البرنامج الدعائى للسى آى إيه. كان الالتماس صريحا بشأن الخطوط التى تلى ذلك. بعد الاعتراف بالمجلس الوطنى العراقي، لابد للإدارة الأمريكية أن «تعمل على توسيع مساحة المناطق المحررة من العراق من خلال مساعدة حملة الحكومة المؤقتة الهجومية ضد نظام صدام حسين لوجستياً وبوسائل أخرى». تضمن هذا الدعم «شن غارات جوية منهجية ضد دعائم سلطة صدام – وحدات الحرس الجمهورى التى تسانده والبنية الأساسية العسكرية التى تبقى عليه». وفى النهاية، نص الالتماس على أنه ينبغى «على الولايات المتحدة موضعة تجهيزات قوات أرضية فى المنطقة بحيث تكون لدينا القدرة، وكملجأ أخر، على مساعدة القوى المعادية لصدام فى شمال العراق وجنوبه، وحمايتها».

يوضح هذا المخطط كيف وفر الأكاديميون من أمثال لويس مظهرا من المصداقية

لمجموعة الصقور القتاليين الذين كانوا ينادون بإعادة ترتيب الشرق الأوسط منذ تسعينيات القرن الماضي. ثم بدأ موقعو الالتماس ومهندسوه فى تنظيم أنفسهم فى «شلة» أيديولوجية عملت فيما بعد أساسا لإدارة بوش الابن. أتاحت التسعينيات الفرصة لهؤلاء العملاء السياسيين، ومقاتلى الحرب الباردة السابقين، والصهاينة المتعصبين، وصقور الحزبين، والصحفيين المؤدلجين والأكاديميين المارقين، أتاحت لهم تشكيل سياسة خارجية أمريكية تقوم على أساس هيمنة الولايات المتحدة المطلقة. نجم عن الالتماس الموجه للرئيس كلينتون إصدار مشروع قانون «تحرير العراق» عام ١٩٩٨ الذى ينص صراحة على التزام الولايات المتحدة بتقديم المعونة العسكرية واللوجستية والإنسانية من أجل «الإطاحة بنظام صدام حسين عن السلطة فى العراق وإحلال حكومة ديموقراطية محله». ثم وقع الرئيس كلينتون على مشروع القانون ليصبح قانونا نافذ المفعول. الأهم من ذلك، فقد أُدمِج فى الالتماس موقف أيديولوجى تم الدفع به إلى مركز السياسة الخارجية للولايات المتحدة. مثّل هذا تنسيقا ناجحا بين شبكة من العلاقات من مراكز الأبحاث والوسائط الإعلامية والقوى السياسية والتى كان لها أن تؤكد على ضرورة اتباع سياسة «الصدمة والترويع» الموجهة ضد العالم العربى مع صعود بوش.

لابد من الاعتراف بالروابط المباشرة بين كل هؤلاء وبين لويس بصفته المنشئ الأصلى لهيئة الخبراء تلك. يمكن أن يُعزى صعود البروفسور إلى مركز الصدارة فى التيار السائد إلى حقيقة ترسّخ موقعه فى شبكة المحافظين الجدد والموالين للصهاينة من المحركين والمخططين بأكثر حتى من زكريا وعجمي. كان الارتياب الخبيث فى المسلمين والعرب مبدأ أيديولوجياً مركزياً فى شبكة المحافظين الجدد فى التعسينيات وفى إدارة بوش. وفّر لويس رواية أيديولوجية أكاديمية تبدو مثالية ومؤسسة على الوقائع فى آن تمكّن المحافظين الجدد والصهاينة الأمريكيين من تعليق بغضهم وكراهيتهم عليها.

شبكة حروب بوش:

فى ١٩ سبتمبر ٢٠٠١، عقد دونالد رمسفلد، وپول وولفويتز، وريتشارد پيرل الاجتماع الأول من بضعة اجتماعات «عصف بالمخاخ» دينامية وفاعلة تبحث كيفية الرد على أحداث ٩/١١. بنهاية الاجتماع الأول كان الرد على ٩/١١ قد تقرر من قِبل هذه المجموعة وثيقة الترابط من مؤدلجى المحافظين الجدد: لابد من شن «حربٍ على الإرهاب»، وستكون عادلة بقدر ما هى واسعة المدى وطويلة الأمد. ستكون أيضا متعددة الشعاب تبدأ فى أفغانستان، وتقوم بتغيير النظام عسكرياً فى العراق، وتعيد هندسة القوانين المدنية والجنائية فى الداخل الأمريكى من أجل القضاء على الإرهاب الإسلامي. كان الاجتماع استمرارا لجلسات سرية تآمرية مماثلة عقدتها تلك المجموعة من المنظرين منذ سقوط بوش الأب. كُتِب الكثير والكثير عن هذه المجموعة وعن كيفية حدوث انقلاب قادة الفلاكنة أثناء سنوات بوش. وفيما أن الفلاكنة كانوا يعتمدون بانتظام على اجتذاب شخصيات من وزارة الدفاع والإعلام، والأكاديميا، ومراكز الأبحاث، وهيئات صناعة السياسة، إلا أنهم كانوا «شلة» هدفها استمالة الرئيس، وتشكيل شرق أوسط جديد وسياسات داخلية جديدة، وكانت فى نفس الوقت، تعمل بوضوح وصراحة على استبعاد مسئولى وزارة الخارجية.

وعلى حين استبعد كولن پاول، وزير الخارجية، من هذا الاجتماع، ذكرت بعض التقارير أن زكريا ولويس وفؤاد عجمى لم يستبعدوا، بل إن لويس، فى واقع الأمر، لعب دورا مركزيا في الاجتماع الذى تحدى فيه رمسفلد المستشارين والمسئولين الذين ملئوا الغرفة لاستباق الأساليب التى بها سيحتج المجتمع الدولي والمشهد السياسى الداخلى على غزو العراق. كان على الحضور تدبّر أساليبَ لاستباق المقاومة الداخلية والدولية لسياسات البيت الأبيض وحرفِها عن مسارها. تجزم بعض التقارير بأن لويس كان هو قائد هذا الاجتماع فى معية صديقه الحميم أحمد الجلبى العميل العراقى الطموح.

كان الجلبى مصرفيا سابقاً وأستاذا للرياضيات، أدين فى إحدى وثلاثين جريمة

اختلاس وسرقة وتزوير فى الأردن. بدأ ارتباط الجلبى بلويس فى ذات الوقت الذى كانت السى آى إيه قد قامت بتشكيل المجلس الوطنى العراقي. كان الجلبى اختيار بيرل وولفويتز لـ «القائد المستقبلي» فى العراق، وذلك منذ أن قدم لهما مرشدهما اليمينى سيء السمعة ألبرت وهلستتر ذلك العراقى الأليف المدلل. قام وهلستتر أيضاً بتقديم الجلبى للويس الذى غدا أعلى دعاته مكانة ورفعة. يقول ريتشارد بوليت الأكاديمى المرموق إنه كان ينتظر أن يصبح الجلبى أتاتورك العراق. إلا أنه فى واقع الأمر فقد كان دجّالا، وعميلا لدى حكومة الولايات المتحدة وانتهازيا يعمل لمصلحته الخاصة وقام بالتسلل إلى داخل الدوائر المحافظة فى أعقاب «عاصفة الصحراء» من خلال تيسير إقامة العلاقات بين المجموعات الكردية والبنتاجون. كان المجلس الوطنى العراقى هو المجموعة «المعارضة» التى دفعت بها حكومة الولايات المتحدة وصنعتها.

وعلى الرغم من تخلى إدارة بوش عن الجلبي، إلا أن لويس ظل حليفه ونصيره. وفى واقع الأمر، استمر البرفسور المتقاعد يدعو لـ «الحكم الذاتي» فى العراق أثناء سنوات بوش كرد على حالة الفوضى التى أتى بها الغزو. بيد أن لويس كان يعني، بوضوح، حكماً ذاتياً يقوده الجلبى الذى قال إن بإمكانه أن يقود العراق بحرص نحو الديموقراطية لكن ليس «قبل الأوان». ليس من قبيل المفارقة أن الكثيرين على الجانبين النقيضين، بمن فيهم هيلارى كلينتون، وزيرة الخارجية الحالية، صادقوا على دعوة لويس لإقامة «حكم ذاتي» بالعراق، وأن السناتور ليبرمان، والسناتور بوب كري دعما إصدار قانون يؤيد المجلس الوطنى العراقي.

بعد يوم واحد من الاجتماع سيئ السمعة الذى عقده وولفويتز بالبيت الأبيض، تم نشر خطاب إلى «الرئيس» فى صحيفة النيويورك تايمز يدعو إلى استهداف حزب الله بصفته منظمة إرهابية خبيثة، وممارسة الضغوط على السلطة الفلسطينية لوقف الهجمات على إسرائيل، ويضغط من أجل «إزاحة صدام حسين عن السلطة» حتى بالرغم من عدم وجود صلة بينه وبين هجمات ١١ سبتمبر. وعلى الرغم من دورهما المركزى فى النقاشات إلا أن الجلبى ولويس لم يوقعا على الخطاب. الأحرى

أن الخطاب نُشر برعاية مركز الأبحاث اليمينى «مشروع القرن الأمريكى الجديد». تضمنت التوقيعات على الخطاب أسماء ستتكرر كثيرا فى هذا الكتاب: ريتشارد پيرل، چين كيركپاتريك، فرانك جافني، رويل مارك جرنشن، ويليام بنت، جفرى بل، فرانسيس فوكوياما، نورمان بودهورتز، وتشارلس كراوثامر. وعلى الرغم من التيار التحتى القوى داخل مجلس وزراء بوش الداعى إلى الإطاحة بصدام حسين وتنصيب الجلبى حاكما «ديموقراطيا» إلا أن الرئيس رفض مقترحات الخطاب حيث إنه لم يكن ثمة قرائن قوية على وجود علاقة بين صدام حسين والإرهاب الدولى - أو على إمكانية وجودها.

عمل فشل الثلاكثة، ولويس وزكريا وعجمى والجلبى فى إقنا ع البيت الأبيض بشن حرب على العراق على بدء سلسلة من الأحداث أكثر شهرة انتشرت بسهولة وسط جو الذعر والإسلاموفوبيا فى أعقاب ٩/١١. كان رفض الرئيس بوش لخيار الحرب على العراق وتفضيله شن الحرب على أفغانستان حافزا لوولفويتز كي يسعى لفبركة قرائن على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ووجود علاقة بين صدام حسين والقاعدة. وفى واقع الأمر، فلم يعدل الثلاكثة ولويس وزكريا عن مسعاهم للإطاحة بصدام، وتنصيب عميل تابع مرن يحابى المصالح الأمريكية ويطبع العلاقات مع تل أبيب. كان هذا المسعى قد ظل نشطا قائما منذ انتهاء عملية عاصفة الصحراء. ظل لويس يتبع لقاءاته مع الثلاكثة بنشر مقالات رأى متتابعة فى الصحف الأكثر انتشارا وبخاصة فى دورية وول ستريت. لم تكن تعليقاته مجرد تهليل يؤيد توجهات بوش العسكرية فى الداخل وفى الشرق الأوسط، بل كانت ضرورة أيديولوجية. فإلى جانب بثه الحجج المشبعة بالإسلاموفوبيا التى يستند إليها فى نقاشاته من أجل تبرير السياسة الخارجية أكاديميا، فقد كان المقصد من تعليقات لويس بث الذعر بين الجمهور الأمريكى بصفته أكاديمياً ذا مكانة راسخة فى مجال دراسات العالم الإسلامي، وأستاذا بجامعة برينستون، حيث مضى يحذر الأمريكيين من المغبات المحتملة إذا فقدت الولايات المتحدة العزم على مواصلة ما لابد وأن تُصبح حربا كوكبية طويلة على

الإرهاب، حربا كوكبية من أجل بقاء «أسلوب حياتنا». وبالمثل، كان الهدف من مقالات لويس تركيز بؤرة الانتباه على العالم العربي، وممارسة الضغوط على الفلسطينيين، وأهم من هذا كله إبقاء أنظار الأمريكيين مركزة على رعاية صدام حسين لـ«الإرهاب» ضد إسرائيل وعلى التهديد الذى يمثله على الأمن الإقليمى (النفطي).

فؤاد عجمي: عربي أبيض بالبيت الأبيض:

على الرغم من فشل اجتماع ١٩ سبتمبر، ثابر وولفويتز وشركاه في جهودهم لتحقيق رغبتهم التى تمنونها منذ وقت ليس بالقصير لتغيير النظام بالعراق. وفيما عملت وزارة الخارجية وعلى رأسها كولن باول على تعويق أحابيل المحافظين الجدد من أجل اجتياح العراق، مضت شلة رمسفلد / بيرل/ وولفويتز فى عقد اجتماعاتها السرية (التى أقصيت عنها وزارة الخارجية). أخذوا يصدرون أوراقا بحثية سياسية ومبادرات أساسها الخوف من وجود عراق قوي، وحركة مقاومة فلسطينية فتية، وحزب الله مهيب الجانب، ومنظمة القاعدة الفيروسية. استمرت تلك الاجتماعات فى استغلال شبكة الأصدقاء المألوفة فى عالم الإعلام والأكاديميا، والحكومة وصناعة السياسات.

فى نوفمبر ٢٠٠١، تآمر وولفويتز، وكريستوفر دموث، رئيس الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت للعمل على تشكيل شبكة لاعبين عابرة لمختلف المجالات والقطاعات لتجميع بورتفوليو عن الحرب على العراق. يبين بوب وودوارد أن وولفويتز عقد اجتماعا للمجموعة بحضور دموث وزكريا ولويس وعجمي. صدر عن الاجتماع بيان سرى مهم نال رضا نائب الرئيس، ومستشار الأمن القومى كونديلزا رايس التى رأت أن رسالته تنقل الطبيعة الشريرة للشرق الأوسط بشكل «مقنع جدا جدا». يخبرنا وودوارد أيضا أن الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت ومدرسة [كلية] جونز هوبكينز للدراسات الدولية المتقدمة (SAIS) يقعان على مسافة قريبة من بعضهما وكانا «منبرا لكثير من التلقيح التهجينى.. وأن الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت كان الملتقى الفكرى ومأوى المتقاعدين من محافظى واشنطون»: كان دموث صديقا قديما لوولفويتز منذ أن كان هذا الأخير عميد SAIS بجونز هوبكينز.

ليس من قبيل الصدف أن نجد فؤاد عجمى أحد ملامح SAIS الدائمة وأرزقيا قديما فى الدوائر السياسية. وفيما أننا لن نقوم بتفحص أعماله فى هذا الكتاب، إلا أن أهميته ترجع إلى كونه مخبرا محليا [من الشرق الأوسط] وأكاديميا خبيثا مارقا منذ زمن طويل. وفى واقع الأمر، فقد جذب عجمى الانتباه على المستوى القومى كمعلق بتليفزيون CBS مع دان راذر أثناء حرب العراق الأولى، حيث أيد بصراحة ذلك الغزو، بل وشجع بوش الأب على المضى فى الحرب حتى يصل إلى بغداد و«ينهى المهمة». فى عام ٢٠٠٧، أسس مع لويس «جمعية دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا» ASMEA والتى قُصد بها تجنُب جمعية دراسات الشرق الأوسط MESA الأكاديمية المهنية ذات المكانة الرفيعة. وفى واقع الأمر، لم يتمتع عجمى أو لويس بالمصداقية أو المؤهلات التى تتطلبها MESA وذلك لضعف خلفيتهما الأكاديمية فى هذا المجال علاوة على أنشطتهما السياسية من أجل إسرائيل وعسكرة الولايات المتحدة وأيضا مواقفهما العنصرية التى لا تتزعزع ضد العرب والإيرانيين والأرمن.

وبالتقابل مع MESA، فإن مهمة ASMEA كانت «تنشئة جيل جديد من الباحثين والأكاديميين» والمتعاطفين مع إسرائيل ومع سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومنذ نشأتها، لم تتعد كثيرا كونها هيكلا خارجيا يؤوى الأكاديميين اليمينيين، والمتطرفين الموالين لإسرائيل. يضم مجلسها الأكاديمي جورج شولتز وزير الخارجية الأسبق ورئيس شركة بكتل سابقا، وكنت ستاين المدافع عن إسرائيل والذى استقال من منصبه كرئيس لمركز كارتر حينما اتهم الرئيس الأسبق الدولة الصهيونية بممارسة التفرقة العنصرية. كما أن عجمى «صديق حميم» لوولفويتز ويقال إنه كان «مستشارا» لكونداليزا رايس.

وعلى الرغم من أن أعماله لا تحوز الاحترام فى الأوساط الأكاديمية المتخصصة فى الشرق الأوسط، فقد ضمن له موقعه فى SAIS مكانة جيدة فى أوساط صناع السياسات، ومقعدا فى مجلس مستشارى دورية فورين أفيرز، وهيئة تحرير ميدل إيست كوارترلى وهى دورية يصدرها مركز الأبحاث البارز الموالى لإسرائيل «ذا

ميدل إيست فورام». كثيرا ما كان ديك تشيني وكونداليزا رايس يذكران اسم فؤاد عجمي، بأسلوب مقصود يوحي بالعفوية، بصفته مرجعية في الشرق الأوسط، وكإحالة أكاديمية من أجل إضفاء المصداقية على سياسات بوش الفاشلة. بل إن تشيني في أحد خطبه أحال الجمهور إلى آراء عجمي من أجل تبرير الاجتياح الوشيك للعراق، الأمر الذي أحدث فضيحة مدوية شائنة.

وفي سنوات زواء إدارة بوش، كان اسم عجمي يُسمَع كثيرا في إجابات مسئولي البيت الأبيض حينما كانوا يُسألون عن التقدم الذي يحرزه الأمريكيون في العراق وإمكانية مواجهة إيران. مثلا، صرح توني سنو، المتحدث الأسبق باسم البيت الأبيض قائلا «كان معنا الجنرال المتقاعد وين داونينج، والجنرال المتقاعد باري مكفري، ومايكل فيكرز، وأمير طاهري وفؤاد عجمي، ورعد القادري» في الاجتماع حول العراق وإيران. وحقا، فليس من النادر عقد مثل تلك الاجتماعات بين البيت الأبيض، ومسئولي البنتاجون رفيعي المستوى وشلتهم. منذ عقود، اعتادت وزارتا الدفاع والخارجية دعوة المتخصصين في مختلف المجالات من جميع التوجهات السياسية لطرح تحليلاتهم عن مناطق معينة، وللسياسات والأحداث. بيد أن إدارة بوش أنهت عصر المتخصصين في دراسات العالم العربي، أو «المستعربين» وهو مصطلح كان محل قدح من قبل كثير في الإدارة ومن المحافظين الجدد والحركات الأمريكية الصهيونية. وبدلا من ذلك اعتمدت إدارة بوش على المسئولين الذين نسّقوا تسليح السي آي إيه للمجاهدين مثل فيكرز، و«المعلقين» المأجورين من أمثال طاهري أو الأكاديميين المارقين المزيفين من أمثال عجمي. وفي هذه المناسبة بالذات استند سنو إلى تفاؤل عجمي بشأن الغزو والاحتلال وأطرى عليه، ثم استشهد بزيارات البروفسور للعراق ولقاءاته بآية الله العظمى على السيستاني كبرهان على أن الأوضاع على الأرض كانت آخذة في التحسن. ومن المفارقات الساخرة أن زيارة عجمي تزامنت مع تصاعد مُروِّع في أعمال العنف، ومع تحلل المجتمع السياسي والمدني على أرض الواقع في خريف ٢٠٠٦. تضمّن تدمير الحياة العراقية مقتل أكثر من ألف عراقي من المدنيين في شهر إبريل فقط من العام ذاك.

وفى العام الدموى ذاك، أصدر عجمى كتاباً يطرى فيه على سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، مُركِّزا بخاصة على جهدها «النبيل» فى العراق. تزامنت دعايته الصحفية لهذا الكتاب الذى كان عنوانه «هدية الأجنبي» مع تراجع لولبى فى الدعم الشعبى للحرب وما تلى ذلك من تخطيط لـ «الاجتياح» وتنفيذ له. وبما أن عجمى كان على أرض الواقع عميلا حكوميا أثناء سنوات بوش، يمكن للمرء بسهولة فهم السبب الذى من أجله يشير ديك تشينى إلى عجمى بصفته «صديقه الصدوق». وفى الواقع فقد كان صديقا صدوقا لسياسات تشينى طوال سنوات تلك الإدارة. وفى العام التالي، وبعد نشر تقرير بترويس، استشهد تشينى بزيارة أخرى قام بها عجمى للعراق للتحدث مع شيوخ العشائر، والشخصيات الدينية والسياسية، حيث أبلغ جمهوره أن بروفسوره الأليف المفضل قد أكد له أنه على الرغم من أن «جميع أنواع الضراوة والعنف لم تخمد بعد.. فقد بدأ قدْر من النظام يثبت على الأرض» فى العراق.

وبالتقابل مع زكريا البرجماتي، ظل عجمى مخلصا لرعاته من المحافظين الجدد طوال السنوات الأكثر قتامة لإدارة بوش. وفى مواجهة الإخفاقات المتتالية، كان يصر على تذكير الجمهور الأمريكى بأن الشرق الأوسط «بيئة خطيرة»، أجنبية، لا يجوز الثقة به بل يجب التعاطى معه بقبضة حديدية. دعا إلى استخدام «القوة الصلبة» فى الشرق الأوسط، وظل مروِّجا مخلصا لـ «أجندة الحرية» الكارثية التى ابتدعها بوش. ولذلك، فبمجرد أن أقسم باراك أوباما قسم الرئاسة، مضى عجمى يعلن صاخباً معارضته، بصفته ممثلا للنظام القديم، لسياسة «اليد الممدودة» تجاه العالم الإسلامى التى نادى بها أوباما وذهب إلى أن ذلك الموقف المتساهل يعتبر «تدليلا» للطغاة و«طمأنة للمستبدين» واتهم الرئيس الجديد بأنه فشل فى استغلال اللحظة، والاعتراف «بأثر سلفه الثورى على بلاد المسلمين» ناهيك عن الاستفادة منه. فى كتاباته الأخيرة يدعو عجمى أوباما إلى الاعتراف «بالطبيعة المغايرة للبلاد الأجنبية» وإلى استخدام القوة والقمع لدى الحاجة، وعدم تكرار سياسات الاسترضاء التى اتبعها كارتر.

علاقة عجمى الحميمة بمسئولى البيت الأبيض فى عهد بوش لم يكن يفوقها سوى علاقة معبوده برنارد لويس بهم. وفى واقع الأمر، فإن جون ميرشيمر وستيڤن وولت يقرنان اسميهما حينما يذكران أنه يقال إن برنارد لويس من برنيستون وفؤاد عجمى من جونز هوپكينز كان لهما دور مهم فى إقناع تشينى بأن الحرب هى الخيار الأفضل».. يشكل الاثنان ثنائياً يكمل أحدهما الآخر، ودائما ما يحضران معا نفس المناسبات والاحتفالات الحكومية. أسهما معا فى نفس ورش العمل التى شكلها أعضاء الشبكة الذين جاء ذكرهم فى هذا الفصل، كما مُنِحا الجوائز من نفس الهيئات الإمبريالية. وفى واقع الأمر، فقد اعترف البيت الأبيض فى عهد بوش بخدماتهما للنظام فى مناسبات عديدة. وفى إحدى تلك المناسبات كانا بين سبعة أساتذة جامعيين تمت دعوتهما لحضور عشاء مع الرئيس بوش احتفالا بمرور ٤٠ عاما على إقامة «الوقف القومى للفنون» و«الوقف القومى للعلوم الإنسانية». وحضره ١٢٠ مدعوا. وعلى الرغم من أن تخصص عجمى [العلوم السياسية] ينضوى ضمن مباحث للعلوم الاجتماعية إلا أنه مُنِح هو ولويس «ميدالية الإنسانيات القومية» بعد ذلك بعام، وتلقى معهما هذه الجائزة عن العام ذاك هووڤر إنستيتيوت سيئ السمعة – على الرغم من أنه ليس معهدا للإنسانيات أو الدراسات المؤنسنة- وكذلك مارى لِفكوويتز أستاذة الكلاسيكيات ذات التوجهات اليمينية. وفى واقع الأمر، تكشف قائمة من منحوا الميداليات فى العام ذاك أن تلك الجائزة كانت مكافأة مُسيّسة لا اعترافا محترما بالإنجاز الأكاديمى فى مجال الإنسانيات.

الخلاصة:

ليس توجيه الاتهامات والإهانات والمواقف المتعالية بالنسبة للعالم الإسلامى بالأمور المستحدثة. تم دعم الاستعمار وعصر التوسعات بواسطة كتابات شكلت مجلدات ضخمة ضمت أعمالاً تميز وتعرّف وتقيس وتزن وتستهزئ بالشعوب، شعوب البلاد المستعمرة وأراضيهم. تم توظيف دراسات الشرق، والاستشراق من أجل تشكيل خطابات، وجمع معلومات عن شعوب الجنوب الكوكبي، واستخدامها فى

تبرير الحكم الاستعماري. بيد أنه، وكما أوضح لنا إدوارد سعيد، فإن الاستشراق ليس مبحثا جامدا لا يتغير. تنامت المعرفة الاستشراقية وتغيرت النماذج المعيارية كي تستوعب الحقائق الكوكبية الجديدة، وبخاصة صعود الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قوتين عظميين. من المفارقات أنه بمجرد أن بدأ الاستشراق كمبحث يفقد وضعه وتوجهه بسبب كتابات إدوارد سعيد الرائدة حتى ظهرت سلالة استشراق جديدة بدت وأنها قامت على أنقاض النماذج المعيارية القديمة التي كان قد تم تفكيكها.

في أعقاب عاصفة الصحراء (أو حرب العراق الأولي) ظهرت الإسلاموفوبيا كمزيج من تحليلات الاستشراق الأكثر عنصرية واختزالا. وفيما أوجد الاستشراق متناً من المعرفة الضرورية لخلق مجال للدراسة يتبعه خلق موضوع للهيمنة، انبثقت الإسلاموفوبيا في البداية عن مراكز الأبحاث ومُعلقي دوائر واشنطون المغلقة. ليست الإسلاموفوبيا مبحثا مثل الاستشراق، ولا تتطلب تعليماً أو تدريبا في مجال اللغات، وفقه اللغة، وتحليل النصوص والتاريخ والأنثروبولوجيا بل هي تشكيل أيديولوجي ينتقل من مراكز الأبحاث إلى جماعات الضغط ومجموعات الفعل السياسي، وفي نهاية المطاف إلي جميع فروع الحكومة الفدرالية، وحكومات الولايات، والحكومات المحلية من أجل العزل المباشر لمسلمي الولايات المتحدة ومسلمي العالم واستهدافهم وشيطنتهم. وبتواطؤ مع الإعلام الجماهيري، وجماعات المصالح، والمعلقين، والمتحدثين والمرشدين المعلمين، ومركز الأبحاث، يتم تحويل التعليقات الأيديولوجية التوجيهية إلى «تحليلات» وصفية مقبولة بعامة لحقائق ثقافة العرب والمسلمين ومجتمعاتهم ودينهم.

في ظل الرؤساء كلينتون وبوش وأوباما، واكب تفشي نماذج الإسلاموفوبيا مستوى جديداً من السياسة الخارجية الأمريكية العدوانية - بل وديبلوماسية المدافع - في العالم العربي. أما في الداخل الأمريكي، فقد وُظّفت الإسلاموفوبيا كتبرير أيديولوجي لحرمان عشرات الآلاف من الحريات المدنية، وتكوين ملفات عنهم والاحتجاز غير القانوني لعشرات الآلاف من المقيمين الشرعيين، والتغاضي عن اختطاف المشتبه

فيهم وتعذيبهم، وتشريع التجسس على المواطنين الأمريكيين ومراقبتهم والإيقاع بهم؛ وحدوث سابقة لاغتيال مواطنين أمريكيين. أصبحت الإسلاموفوبيا مبررا ثقافيا مقبولا لإرهاب المفكرين والباحثين والطلبة الناشطين والإخماد الاستباقى للمعارضة السياسية بالولايات المتحدة. ورغم نهج القفاز المخملى الذى يتبعه أوباما تجاه العالم الإسلامي، إلا أن اتحاد الحريات المدنية الأمريكى ACLU أوضح استمرار سياسات إدارة بوش، ومدركاتها ونماذجها المعيارية بخصوص العالم الإسلامى فى ظل الرئيس الحالي، بل أيضا إن إدارته اتخذت الخطوات لإضفاء الصبغة المؤسسية على انتهاكات الإدارة السابقة للحقوق المدنية. ولم يكن لهذا أن يحدث بدون انتشار نماذج الإسلاموفوبيا فى أنحاء المجتمع المدنى والمجال السياسى بالولايات المتحدة وتطبيعها.

وعلى حين أن الاتهامات التى توجّه للعالم العربى والتنميطات عن تخلفه شكلت الأساس التحتى لسياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاهه منذ الحرب الأولى ضد البربر في شمال إفريقيا، فقد وسمت الإسلاموفوبيا العرب والمسلمين بالعداء العصابى المتطرف للسلوك الحديث المعياري. يذهب هذا الكتاب إلى أن مثل تلك المفاهيم ليست من قبيل الصدفة، أو نتيجة فهم مغلوط أو جهل، أو عزلة ثقافية أمريكية أو حتى توجه اجتماعي/ نفسى روتينى لإسقاط الصور السلبية على «آخر» غريب. لقد رأينا أن شبكة المنظرين الكبار للتبريرات القائمة على الإسلاموفوبيا ومهندسيها من أجل توسيع مدى الإمبراطورية الأمريكية تصل عميقا وتتخلل الإعلام وقاعات المجالس، والغرف السياسية التى ترسم سياسة الولايات المتحدة. من ثم، فإن الإسلاموفوبيا ليست تحيزا غربيا أو مسيحيا ذا صبغة عالمية يمتد فى الماضى إلى البيزنطيين أو المحاربين الصليبيين. بل العكس هو الصحيح حيث إنها ظاهرة تم ترقيع أجزائها من خلال تنويعة من مجموعات المصالح، والتنظيمات، والمجموعات السياسية ثم تم التعبير عنها من خلال عدد وافر من المنظرين المرئيين يدعمهم جدار من ضجيج البيض الذى يصدر عن صغار المأجورين، والهواة، والمتحولين الذين اعتنقوا الإنجيلية والمدوّنين.

وُضعت «أجندة الحرية» فى التسعينيات بواسطة مزيج مُلفَّق من صقور الحرب الباردة، والصهاينة اليمينيين، وعتاة النيوليبراليين القتاليين. ومع صعود چورج دبليو. بوش إلى سدة الرئاسة، تمكن اللاعبون المفتاح الذين توحدوا حول مشروع القرن الأمريكى، والأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، وأيضا مجلس العلاقات الخارجية، تمكنوا من تطبيع مخططاتهم لتتوافق الهيمنة الاقتصادية الأمريكية على الشرق الأوسط مع التحكم الأمريكى السياسى فى المنطقة. وكما رأينا، تآمرت شبكة العلاقات المتداخلة بين المثقفين والإعلام وصناع السياسة وجماعات الضغط لتبرير غزو العراق كوسيلة لسحق «نظام مارق» وذلك من أجل تغلغل المصالح السياسية والاقتصادية للولايات المتحدة فى الواقع السياسى شرق الأوسطى بأعمق مما هى عليه.

تولى باراك أوباما الرئاسة فى وجود واقع كوكبى وإقليمى أوجده نظام بوش. لم ينجم واقع العداء بين الغرب والعالم الإسلامى عن قرون من الارتياب وفقدان الثقة، بل من نشر الإسلاموفوبيا وإضفاء الصبغة المؤسسية عليها كتبرير أيديولوجى لسياسات الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن شبكة أوباما الخاصة استبعدت الكثيرين من شلة بوش إلا أنها مازالت تشارك فى نفس سياسات سابقتها. وهكذا، فقد استمر أوباما، وكما سنرى، فى اتباع السياسات القائمة على الإسلاموفوبيا، وفى تشجيع الظاهرة من أجل تبرير السياسات الداخلية والخارجية، كثّف بذلك مناخ الحصار الذى يشعر به المسلمون فى الولايات المتحدة.

يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجى اختصت به «لحظة أحادية القطب»، سنرى أن له تضمينات كثيرة، وتعديلات، وخطابات تحتية تسهل نسقاً من الأفعال والإجراءات الرسمية وغير الرسمية، المشروعة وغير المشروعة، ضد المسلمين داخل الولايات المتحدة وفى أنحاء الكوكب. وعلى الرغم من مدارسها وأطيافها المختلفة، فإنها مدعومة بالعنصرية وبالرغبة فى التحكم فى المعارضة والاختلاف فى الرأي، وإدارتهما. سيرسم هذا الكتاب خريطة لمنحنيات الاستطرادات «المنطقية» للإسلاموفوبيا، وتحولاتها، ليس فى سياق البحث الأكاديمي، بل لتوضيح تأثيراتها

الواقعية الملموسة جدا. سيبين الصلة بين أعمال الأكاديميين الخبثاء النفعيين والمنظرين والمرشدين والصحفيين الانتهازيين وبين سياسات حكومة الولايات المتحدة وإجراءاتها وأنشطة جماعات الفعل السياسي، ومراكز الأبحاث وجماعات الضغط. لا يجوز أن يُعزى صعود الإسلاموفوبيا فى عصر العولمة إلى استغلال إدارة بوش لتلك المشاعر الكامنة والجلية داخل الدوائر الإعلامية والسياسية شمال الأمريكية، فإن خوف أوباما الضارى المستتر من المسلمين يدل على وجود أسباب أخري. لقد ظهرت الإسلاموفوبيا كأيديولوجيا مغايرة مهيمنة وسمت السياسة الخارجية الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة. لقد أوضح هذا الفصل كيف تكمن روابط كبار منظرى الإسلاموفوبيا فى الثقافة السياسية للولايات المتحدة وفى سماتها السطحية المرئية وكيف ساعدت هذه الشبكة بنجاح على ترسيخ معتقدات الإسلاموفوبيا كحقائق طبيعية متفق عليها يُستند إليها فى الأحاديث، وكأطر للنقاش حول الشرق الأوسط وضرورة هيمنة الولايات المتحدة عليه.


@Ahmedyassin90

الفصل الثانى

صحفيون، وأكاديميون أشرار

و«مخبرون» محليون

حصار العقل العربى

مقدمة:

أثناء سنوات رئاسة بوش، توجّه الكثيرون من أفراد دائرته المُحكمة الشهيرة إلي الأكاديميين والمحليين كي يمدوه باللغة التي تبرر استخدام القوة كوسيلة دبلوماسية، وتُمرِّر تنويعة من السياسات الداخلية التي تهدف إلي تقييد الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. يعلّق بوب وودوارد علي السرعة التي اجتمعت بها دائرة البيت الأبيض الداخلية لمناقشة مخططات غزو أفغانستان والعراق أيضا، حيث يقول إن شلة بوش كانت علي علاقة بعدد قليل من «المفكرين» العملاء الذين كانت توجه إليهم الدعوات بانتظام لحضور عدد كبير من النقاشات السياسية والاجتماعية السرية في الأشهر التي تلت ٩/١١، بل ولقيادة تلك الاجتماعات أيضاً.

فى الفصل الأول، تفحصنا عددا من هؤلاء «المفكرين» ورأينا شبكات نفوذهم المختلفة والمتداخلة فى أن التى تُشكّل قنوات اتصال مع الإعلام والسياسيين ومراكز الأبحاث ومراكز وضع السياسات، والحكومة، والتيار السائد. ساهمت أعمال لويس وزكريا وأنشطتهما بدرجة كبيرة فى تطوير روايات كان البيت الأبيض ومجموعة الصقور «الفلاكنة» بحاجة إليها لكسب أفئدة الشعب الأمريكى وعقولهم من أجل مواصلة «الحرب على الإرهاب» غير المحددة واللامنتهية. وعلى الرغم من إسهامهما، فلم يبتدع زكريا ولويس مدرسة محددة للإسلاموفوبيا أو فصيلا منها. الأحرى أن أعمالهما هى تكثيف لنموذجين معياريين ثانويين كانا قد ظلا موجودين داخل إطار الاستشراق وثقافة التيار السائد الأمريكية العنصرية لعدة عقود. تعكس الشبكتان المنفصلتان والمتداخلتان فى آن، واللتان رسمنا كفافهما فى الفصل الأول، نماذج معيارية متداخلة ومتنافسة للإسلاموفوبيا تغلغلت فى واشنطون، وإعلام الولايات المتحدة، والمجتمع المدنى شمال الأمريكي.

ومع غزو أمريكا للعراق «وتحرير الكويت» عام ١٩٩١، غدت الولايات المتحدة بحاجة لنماذج ميعارية أكثر شمولا وتقبلا من أجل فهم الشرق الأوسط. كان ذلك هو فجر العالم أحادى القطب، وكانت ثمة وفرة فى استراتيجيات السياسات والرؤى الجديدة لدور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تبنى كلينتون منظمة التجارة العالمية، ومنظمة التجارة الحرة شمال الأمريكية NAFTA، وكان هذا إيذانا بوجود حقائق اقتصادية جديدة تواكب الواقع السياسى المستحدث. كان على الولايات المتحدة إعادة تجهيز نفسها أيديولوجياً بحيث يمكنها التعاطى مع «انتصارها» على الشيوعية، انتصارها على منافس أصبح غائبا عن الساحة. ترك هذا الفراغ الذى وجدت فيه الولايات المتحدة نفسها القوة العظمى الوحيدة، ترك معضلات عملية بالداخل حيث عملت «ثورة الجمهوريين» على جرّ التيار الرئيسى الأمريكى نحو اليمين، وأقامت بذلك خطاً قاعديا يمينيا ذا منحنى أخلاقى بالجبهة الداخلية كان له أن يعمل أساساً لدور الولايات المتحدة الاستباقى كقوة هيمنة كوكبية.

سيتفحص هذا الفصل نماذج لويس وزكريا ورواياتهما المتداخلة للإسلاموفوبيا وكيف تعمل هذه الروايات على تطبيع السياسات المحلية والخارجية التى تستند إلى شيطنة المسلمين وتجريدهم من صفات البشر، وتضفى على تلك السياسات قشرة من العقلانية. وفى نفس الوقت الذى كان كلينتون يفرض العقوبات المعوقة للحياة على العراق ويقوم باجتياح الصومال، ويقصف السودان وأفغانستان، دفع لويس بمفهومه عن أسباب «حنق المسلمين» - وهو مفهوم مركزى كانت تستند إليه أعداد لا تحصى من مراكز الأبحاث الليبرالية واليمينية فى التسعينيات. وسرعان ما أصبح لويس أكاديمياً داخلياً لحركة المحافظين الجدد التى كان أفرادها قد التحموا فى تلك الفترة وجمعت هذه الحركة معا متشددى الحرب الباردة، والصهاينة الأمريكيين، واليمين الإنجيلي، والمحافظين الجدد المتطرفين. أمدهم لويس بحجة أخلاقية بعثت من جديد «المهمة الحضارية» التى كان الاستعمار الأوربى قد ابتدعها، وذلك على شكل صيغة إلزامية ملحة تحدّد بوضوح ضرورة تزايد تدخل الولايات المتحدة عسكريا واقتصاديا وسياسيا. وبلا ريب فإن رواج حجة لويس انبثق عن نفس الدافع القومى الذى دفع بـ «ثورة الجمهوريين» الأخلاقية إلى النجاح فى نفس الفترة.

وإذا كان لويس قد قام بتوفير السبب «النبيل» للسياسات الداخلية والخارجية القائمة على أساس الإسلاموفوبيا فقد قام زكريا بتبرير الضرورة السياسية لتقديم الإرشاد للعرب المسلمين والدفع بهم خارج «الاختلالات الوظيفية» التى تتسبب فيها ثقافتهم ومجتمعهم. دعم عمله بدوريتى الفورين أفيرز ونيوزويك دوره فى صفوف قيادات المفكرين المحافظين حيث تعاطت أعماله مع القضايا الداخلية والدولية. وإن كان لويس قد وفر القشرة الأخلاقية والفكرية للإسلاموفوبيا التى تفجرت فى أوساط التيار الرئيسى فى أعقاب ٩/١١، فقد وفر زكريا رواية صحفية «واقعية» توضح «لماذا يكرهنا» المسلمون. تضع كتابات زكريا مسألة اللبرلة [التحرير] الاقتصادية فى وسط المسرح، وبحسب ما يذهب إليه، فإن السبيل الوحيد لتقدم العرب وتحديث مجتمعاتهم (ويعنى بهذا تحرير التجارة والحريات المدنية وحقوق المرأة) هو أن

يعتمدوا أنظمة مستنيرة غير ليبرالية. وفيما سار «معلمه السابق» صمويل هنتنجتون على نهج لويس حينما طرح فكرة عدم اتساق الثقافة الإسلامية مع نظيرتها الغربية وتصارعهما وشيك الحدوث، قلب زكريا هذا النموذج المعيارى رأسا على عقب حيث يطالب بأن تتخذ الولايات المتحدة والغرب إجراءات سياسية واقتصادية وعسكرية تدخلية استباقية بما فى ذلك تغيير الأنظمة - من أجل «نشر» الديموقراطية وتعزيزها وتنفيذ «الإصلاحات». يرى أنه ينبغى أن تدفع تلك الإجراءات إلى السلطة بحكام مستبدين موالين لأمريكا، أو تخلقهم فى حالة تغيير الأنظمة. حكام يستطيعون إدخال تلك الإصلاحات الاقتصادية ومكافحة «الإرهاب الإسلامي»، حيث يرى أن التحرير [اللبرلة] الاقتصادية سيأتي، فى نهاية المطاف، بالإصلاح السياسى الذاتي. وهكذا، أمد زكريا البيت الأبيض بأكثر الروايات وضوحا لتبرير «أجندة الحرية» أو مهمة فرض الحضارة.

الذرائع الأكاديمية للإمبراطورية: برنارد لويس

كما رأينا، كان لويس المتحدث الأكاديمى لجماعة المحافظين الجدد. وذلك تحديدا بسبب رابطة البروفسور الوثيقة مع صهاينة واشنطون المتشددين فى ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته. فى مناسبة رعاها «مجلس الشئون العالمية» أثنى ديك تشيني نائب الرئيس على لويس بصفته حكيما يسعى مَنْ فى السلطة لتوسل مشورته السديدة. قال تشيني «كتب لويس فى عام ١٩٩٠ «جذور غضب المسلمين وحنقهم» الذى تنبأ فيه بالأعمال الإرهابية التى وقعت فى ذلك العقد. «وفى قرننا الجديد هذا، يسعى صناع السياسة والدبلوماسيون وزملاؤه الأكاديميون، والعاملون بالإعلام الإخباري، يوميا، إلى تلمس مشورته الحكيمة». وإلى جانب «مجلس الشئون العالمية» رعا تلك المناسبة «صندوق پيو الخيري» و«صندوق جلنميد»، وكان كلاهما يتبعان ملاّك شركة صن للنفط. وإضافة إلى تشيني، وهنرى كسينجر وجودى وودراف من سى إن إن، وإيان هيرسى على من «المخبرين المحليين»، فقد حضر المناسبة جوزيف بايدن الذى أصبح نائبا للرئيس.

يعتبر مفهوم «غضب المسلمين» مجازا ملائما إذ إنه تفسير يحمل شكاواهم فى «بيئة» صوتية واحدة بحيث يبدو استياؤهم من الولايات المتحدة بغضا عميقا متأصلا ورد فعل لا عقلانيا، مصدره أوجه قصور دينهم ومجتمعهم التى تحتمها ثقافتهم. ليست رواية لويس نظرية تآمر هامشية عفا عليها الزمن كان يتم تداولها فى الدهاليز الضيقة لمراكز أبحاث المحافظين الجدد وفى عقولهم، ثم يعهد بها إلى إدارة بوش، بل إنه ومنذ وقت قريب، أى فى عام ٢٠١٠ أشار توم بروكاو إلى «جذور غضب المسلمين» بصفتها عقبة كئود تستدعى صياغة «نموذج معياري» جديد من جانب الولايات المتحدة لدى تعاطيها مع العالم الإسلامي. من السهل على المرء أن يفهم سبب جاذبية مقال لويس: «غضب المسلمين» لشخصيات على شاكلة ديك تشينى ومجموعته من دعاة الحروب ومدمنيها، فعلى حين لم يّرد بالمقال ما هو جديد، إلا أنه أتاح لصناع سياسة القرن الحادى والعشرين أطروحات معيارية جدلية معادية للمسلمين جاهزة للاستخدام فى الهجوم عليهم، بل يمكننا القول إن المقال واستخداماته المغرضة يُعدّ نموذجا لجدوى أعمال لويس فى صياغة سياسات الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، حيث لا تكمن فاعلية تلك الأعمال فى قيمتها الأكاديمية أو تحليلها الثاقب المنطقة، بل فى قدرتها على إضفاء مظهر أكاديمى خادع على عدد من التوكيدات الاختزالية والتبسيطة بل والمتطرفة فى عنصريتها التى تسوغ الأجندة الأمريكية للتدخل السياسى والاقتصادى والعسكرى فى الشرق الأوسط.

يقول لويس، بأسلوب سلس بسيط، ونقاش تبسيطي، إن أسباب غضب المسلمين اللاعقلانية تنبثق عن «تلك الظاهرة الجديدة التى تعمل على إضفاء هالة من القدسية على العالم الثالث.. حيث يقال إن الشيطان [الأفعي] الغربى سلب براءة آدم وحواء اللاغربيين وأفسدهما». لا يعتقد لويس أن أسباب «غضب» المسلمين من الولايات المتحدة تشمل دعمها غير المشروط لإسرائيل؛ ودعم واشنطون «المحدود» للأنظمة السلطوية وانتهاكات حقوق الإنسان، كما أنه لا يرى أن أصول هذا الغضب قد تكمن فى مخططات الغرب للاستيلاء على نفط المنطقة، ناهيك عن التاريخ الأطول

والأشمل للإمبريالية الأمريكية والأوربية في جنوب شرق آسيا وشمال إفريقيا، وكذلك أنشطتهما الاستعمارية الجديدة. بل إن لويس يرى أنه لا يحق للمسلمين الشكوى من الإمبريالية الغربية، ذلك لأن تاريخ الاستعمار الغربي كان يواكبه دائما مراجعة ذاتية تأملية حول حق مجتمعات الغرب الليبرالية في استرقاق العالم، واستغلاله وقمعه. وبأسلوب عرضي خارج أي سياق تاريخي، يقول لويس إن المعضلة الأخلاقية المتأصلة في الاستعمار الأوربي، لم يكن لها وجود أبدا في تاريخ المسلمين الإمبريالي.

وهكذا يتيح تحليل لويس للمسئولين الحكوميين، والمأجورين الأيديولوجيين تسويغا عقلانيا أخلاقيا لسلب المسلمين حقهم في التظلم التاريخي أو الحالي من الإمبريالية، والاستعمار الجديد، والهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية. وفي مثال كلاسيكي على لوم الضحايا، يعيد النقاش توجيه أسباب غضب المسلمين إلى أوجه قصورهم الثقافي المزعوم، أي أن لويس يقول إن أصول غضب المسلمين وحنقهم تعود إلى مشاعر الاستياء والغيرة والعجز تجاه الغرب الناجح ويرى أن المسلمين، وبأسلوب جوهري، أسرى شراك أوجه قصور ثقافتهم التي تجعل من الحداثة شأنا يتعارض مع «العقل» الإسلامي. وليس هذا بالرأي الجديد إذ إن له أصوله في إرث الاستشراق الطويل الذي يرجع تاريخه إلى إرنست رنان عميد المستشرقين المعادي للسامية. وإن كان رنان هو الاستشراقي المكتمل الذي أمد استعمار القرن التاسع عشر بالمسوغات الأكاديمية، فإن لويس هو داعية إسلاموفوبيا الدولة ما بعد الحداثي. يقوم بإعادة تشكيل إرث رنان الاستشراقي ليعمل على خدمة احتياجات ما بعد الحرب الباردة لصناع السياسة والمنظرين والسياسيين الذين ينشدون أساسا «أكاديمياً» لتصنيع سياسة أمريكية «استباقية» تخطط لمزيد من التدخل في المشرق العربي. كما أنه يذهب إلى أن جذور مشكلة «العقل» الإسلامي لا تكمن في جوهر ثقافات المسلمين جميعهم. ففي واقع الأمر، فلدى صناع السياسة من الحزبين حلفاء مسلمون يعتزون بهم مثل تركيا وماليزيا وإندونيسيا. وهكذا، لا يعود تخلف الإسلام والمجتمعات المسلمة إلى الإسلام ذاته بقدر ما يعود إلى أصوله في ثقافته الأم، أي، الثقافة العربية.

يعتبر هذا النموذج الإثني/ الديني المعياري مركزيا بالنسبة لأعمال أعداد لا تحصى من المنظرين المرشدين، والصحفيين، وأشباه الأكاديميين من أمثال زكريا، ورفائيل باتاى، وتوماس فريدمان ودانييل بايبس وغيرهم من «النجوم» الأقل مرتبة على غرار أيان هيرسي على ومارتن كرايمر وإرشاد منجي. وفي السنوات الأخيرة، استخدم صناع السياسة والاستراتيجيون فى إدارة أوباما النموذج الإثنو/ ديني لإثارة المشاعر القومية الفارسية في مواجهة الإسلاميين فى الداخل الإيراني. وفقا لهذه النظرية، فإن «العقلية» العربية هى التى تحدد هوية الإسلام السنى وتعمل الهيمنة العربية على الإسلام على تنامي التطرف في الثقافات الإسلامية الحميدة بطبيعتها. يقول لويس، بإصرار، إن المجتمع العربي ظل على مدى التاريخ «معتادا على احتقار البرابرة الكفرة خارج تخوم الحضارة الإسلامية» كما يؤكد على أن المسلمين ظلوا على مدى التاريخ ومنذ ظهور الإسلام منذ أكثر من ألف عام، يزدرون «الغربيين الكفرة» ويريدون غزوهم وإلحاق الهزيمة بهم. وعلى الرغم من أنهم أفادوا من إبداعات الغرب التكنولوجية، وبالذات في مجال صناعة الأسلحة، إلا أن تلك الواردات الثقافية «لم يكن لها سوى قليل الأثر على مدركات المسلمين [عن الغرب] أو مواقفهم منه، هذا إن وجد مثل هذا «الأثر». وعلى مدى القرون، ظل المسلمون يحصلون على الأسلحة الغربية ويستخدمونها «دونما أى تعديل فى نظرتهم إلى الكفرة الذين حصلوا منهم على تلك الأسلحة». وبحسب لويس، فقد أتقن المسلمون استخدام التكنولوجيا الغربية وحققوا نجاحا كبيرا فى هذا، لكن هذا لم يرادفه تبنيهم الأفكار الإنسانية والديموقراطية للثقافة الأوروبية، ورأى أن «تبنّي مخترعات الكفرة أو محاكاتها شأن، وتعلمهم من معلميهم الكفرة شأن آخر». تعمل مرجعية لويس كمتخصص في تاريخ الشرق الأوسط على تشبع التوجهات المتداولة حديثا بتلك الأفكار الاستشراقية الجازمة التى عفا عليها الزمن، مثلما يعمل وضعه المزعوم كأستاذ «ضليع» في دراسات الشرق الأوسط على تحويل أفكار الإسلاموفوبيا العقيمة الارتكاسية إلى مسوغات أكاديمية لسياسة الولايات المتحدة التدخلية.

فى التسعينيات تم توظيف مقولات لويس كطوق صلب ربطه عن كثب بشبكة المحافظين الجدد من لاعبين وتنظيمات ومراكز أبحاث. وعلى النقيض من استخدام أوباما البرجماتى لـ«القوة الناعمة»، استخدم البيت الأبيض فى عهد بوش «مصداقية» لويس الأكاديمية حجر زاوية لتسويغ «أجندة الحرية أخلاقياً»، حيث كان لويس قد حوّل خلاصة الاستخدامات المجازية الاستشراقية القديمة إلى إسلاموفوبيا أيديولوجية تطورت لتصبح رواية دوجماتية إمبريالية نيوليبرالية وصهيونية استخدمت أداة لتنفيذ أجندة بوش الكوكبية. لكن، وعلاوة على ذلك، مضى صوته يدوى فى جميع الوسائط الإعلامية للتيار السائد فى رغبة جامحة منه لتبرير عدم ارتياحه الشخصى تجاه العالم الإسلامى وانزعاجه منه. أمدت آراء بروفسور جامعة برينستون «الأكاديمية» الجازمة الجمهور الأمريكى والإعلام الأمريكى بدعامة أيديولوجية تسوغ هيمنة بلدهم الكوكبية فى العالم أحادى القطب. بتعبير آخر، وفرت تعاليم لويس للخطاب العام تحليلا سهلا مهدئاً يعمل على حرف الأبصار عن مغبات سياسة الولايات المتحدة المستدامة فى الشرق الأوسط التى عملت على توليد مزيد من المشاعر المعادية لأمريكا، وأتاحت أيضا للتيار السائد تسويغ رغباتهم للتحكم فى الشرق الأوسط. من المؤهل لانتزاع الشرق الأوسط خارج سياقاته التاريخية أكثر من ذلك «الأكاديمي» ذى المكانة الراسخة؟ مكنت تلك المكانة لويس من إغفال جميع عوامل التاريخ والمجتمع والثقافة والاقتصاد والسياسة والدين والتى شكل جوهرها خبرة المنطقة بالاستعمار وإغراق المنطقة فى النظام الرأسمالي، وظهور الحركات القومية المحلية أو الإقليمية، وكذلك الحركات الاشتراكية وقياداتها؛ ومغبات الحركة الصهيونية والصهاينة على الفلسطينيين والمنطقة، وكيفية تشكل التضاريس السياسية والاجتماعية الحديثة فى البلدان العربية من خلال ضغوط الحرب الباردة وعواقبها من دفع وجذب. علاوة على ذلك، غدا بإمكان لويس إغفال قرنين من تعاطى البلاد العربية مع الحداثة حيث يقول إنه «بالرغم من كل الجهود، وبالرغم من إنشاء المدارس، وكليات العلوم فى جميع الجامعات تقريبا، فإن استيعاب العلوم الحديثة كان بطيئًا بشكل مؤسف كارثي».

يفسر لويس هذا التقدم الذى لا يكاد يذكر برواية اختزالية بالغة التبسيط حيث يذهب إلى أنه من المستحيل إحداث تغير ثقافى ونفسى وذلك لأن العرب لا يستطيعون مواجهة «الإجابات الحضارية والثقافية» عن الأسئلة والتحديات التى طرحتها الحداثة. كان ذلك الرأى الجازم هو الإسهام الأكثر قيمة فى الأيديولوجيا التى تدعم حجج سياسات الولايات المتحدة الإمبريالية فى الشرق الأوسط، من بين كل ما ألفه من كتب وما كتبه من مقالات وافتتاحيات صحفية.

وعلى غرار أمثلة رنان، فإن المقصد الدَّعوى المسيَّس لأعمال لويس يختزل الأخرية المطلقة للعقل العربي/ الإسلامى فى جوهر «مزعوم». لكن، بالنسبة لأعماله ما بعد الحداثية وما بعد الحرب الباردة، يحدد لويس سياق تلك «الأخرية» بعلاقتها بحداثة الغرب التى تروج لـ «مجتمعها المدني» العلمانى الديموقراطى نموذجا لمجموعة معلومة من البلدان. ظل لويس دائما يكن ألفة ومودة للنظم المسلمة السلطوية «المتغربنة» وبخاصة للنظام التركى الذى يرى أنه حقق التقدم على الرغم من الإسلام وعلى الرغم من جذور هذا الدين فى الثقافة العربية. ظل لويس داعما طوال حياته للكمالية [الأتاتوركية]؛ وبدلا من أن يسائل ذلك النموذج التركى الذى يتبنى «الحداثة» ويتأقلم معها يجد من الأسهل أن ينكر، بصوت مفوّه، مذابح الأرمن، أو يعارض حقوق الأكراد فى تقرير المصير. يرى لويس أن تركيا نجحت فى احتواء الإسلام داخل أطر علمانية مدنية محددة، وبذلك أتاحت الفرصة للحداثة لأن تتجذر وتزدهر. كانت عدم ملاءمة العقل الإسلامى للمفاهيم الحديثة [الغربية] عن الذات والمجتمع والحداثة بشكل كلى وكامل جوهر مقال «الغضب الإسلامي» للويس، المقال المفضل لدى تشيني، والذى استمد منه صمويل هنتنجتون تعبيره الأكثر شهرة، حيث يقول لويس فى ذلك المقال «إن هذا يرقى لأن يكون صداما للحضارات، رد الفعل اللاعقلانى ربما، والتاريخى يقينا من منافس قديم على موروثنا اليهودي/ المسيحى وحاضرنا العلمانى وعلى انتشار كليهما فى أنحاء العالم».

من ثم، لا ترجع أهمية أعمال لويس إلى فحواها المبتكرة، بل تكمن فاعليتها فى قدرتها على إعادة قولبة المجازات الاستشراقية الجديدة فى صورة نماذج معيارية

جديدة مشبعة بالإسلاموفوبيا تتوامم مع زمن العولمة وسطوة الولايات المتحدة فيه. وفيما قام لويس فى التسعينيات بإدماج الإسلاموفوبيا فى الرؤية السياسية لحركة المحافظين الجدد، فقد قام أيضا بتوضيح ضرورات استخدام قوة القطب الأحادى لصناع السياسة. علاوة على ذلك، فقد وجدت أطروحات لويس الثقافية أصداء لها فى اللاوعى العنصرى للأمريكيين البيض باستغلال مخاوفهم من اندماج العالم الإسلامى الأسمر [غير الأبيض] فى النظام الكوكبي. ومع أخذ هذا فى الاعتبار، يمكن أن نفهم بسهولة كيف أصبح الرد على الغضب الإسلامى الأولوية السياسية فى نظر التيار السائد الأمريكى. للعالم العربى وإيران. بتعبير آخر، فإن تبنى هنتنجتون فى كتابه الشهير لمصطلح «صدام الحضارات» الذى ابتدعه لويس سيتم تقييمه كوثيقة شاهدة على لحظة تاريخية لعب فيها لويس دورا تثقيفيا باكثر من النظر إلى الكتاب على أنه كتاب عنصرى ملىء بالأضاليل والأطروحات المغرضة. أى أن أعمال لويس «الأكاديمية» فى التسعينيات أصبحت دالة على الحاجة إلى إعادة تشكيل أيديولوجى لوزارتى الخارجية والدفاع فى زمن ما بعد الحرب الباردة. لم يخترع لويس فكرة أن العقل العربى نقيض للعقل الغربى العلماني، إلا أنه نجح فى التسعينيات فى توليد استراتيجية سياسية كان لها أن تزهر أزهارا سامة كان من المفترض لها أن تنثر لدى أقدام قوات التحرير الأمريكية فى كابول وبغداد فى زمن بوش.

[منحنى] الدراسات الأكاديمية الأيديولوجية:

لابد من وضع تمسك لويس بالإسلاموفوبيا ما بعد الحداثية التى أسهم فى تصنيعها فى سياقها. فى واقع الأمر، فعلى حين أنه ظل صهيونيا طوال حياته، إلا أن أنشطته السابقة كانت مختلفة عن أجندة ما بعد الحرب الباردة التى دفع بها فى التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، بل إن أيديولوجيا الإسلاموفوبيا التى اعتنقها كانت تتناقض مع رؤيته السابقة الاستشراقية والعنصرية أيضا لدور الولايات المتحدة فى العالم الإسلامي. أثناء الحرب الباردة، شجع لويس غرس الإسلام السياسى ورعايته لمجابهة سلطة السوفييت وانتشار الشيوعية العلمانية فى جنوب غرب آسيا

ووسطها. وتحديدا، فقد عُرف عن لويس أنه أطلق مع برچنسكى فى السبعينيات استراتيجية جديدة معادية للشيوعية حيث أكد على أنه ينبغى على الولايات المتحدة رعاية الأصوليين الإسلاميين فى أنحاء آسيا الوسطى وذلك من أجل استيلاد مشاعر معادية للسوڤييت، وكان أن أصبح «قوس الإسلام»، الجنوبى هذا، «قوس الأزمة» بالنسبة للسوڤييت. علاوة على ذلك، وبحسب ما أصبح يُعرف فيما بعد باسم «خطة برنارد لويس»، كان على الولايات المتحدة التخلى عن دعمها للشاه، وأن تدعم بدلا من ذلك ناشطى الإسلام السياسى بالداخل الإيراني.

كان مصدر دعم الرئيس كارتر، ووليام كيسى مدير السى آى إيه وبرجنسكى للتيارات الإسلامية، وللمقاتلين الإسلاميين، وبخاصة فى أفغانستان هو ذلك التكافل الثقافي/ الأيديولوجي. كان لمنحنى الأزمة الذى ابتدعه لويس/ برجنسكى أن يعمل على تقويض أساسات المعارضة اليسارية القوية بالداخل الإيرانى وأيضا أن يضع الولايات المتحدة فى وضع مُميّز لتصدير الأصولية الإسلامية المعادية للشيوعية إلى وسط آسيا، حيث تم النظر للأصولية الإسلامية بصفتها وسيلة فاعلة لاحتواء انتشار الشيوعية بالمنطقة بما فى ذلك فى أفغانستان حيث كان لحزب الشعب الديموقراطى الأفغاني، فى السبعينيات دعم شعبى واسع النطاق. بعد أن وصل ذلك الحزب إلى السلطة فى السبعينيات، عمل على إدماج النساء فى المجتمع المدنى بشكل كامل وحظر ارتداء البرقع والزيجات الإجبارية، وأطلق برنامجا للتنمية يفيد البلاد بأكملها. بيد أن خطة برچنسكي/ لويس كانت تدعم بقوة اللوردات الإقطاعيين والمجاهدين «الإسلاميين» فى أفغانستان حتى قبل الغزو السوڤييتى عام ١٩٧٩، وكان لها استراتيجية تساعد فيها باكستان على تقويض حكومة كابول العلمانية الثورية المناهضة للإقطاع.

وعلى حين أن إسهام لويس فى تشكيل الجماعات الإسلامية المتطرفة، وتقويتها وانتشارها قد تم نسيانه بأسلوب ملائم مريح، فقد ثبت أن إسهامه فى تشكيل نماذج كراهية الإسلام السائدة أطول عمرا وأكثر تأثيرا بكثير. فعلى حين أن أوباما

قد تخلى إلى حد كبير عن ذلك النموذج، إلا أن نظرية لويس عن صدام الحضارات وتحليلاته مازالت تجد طريقها بدرجة لافتة فى الإعلام والتيار السائد. وإن كان لويس قد ابتعد عن الأضواء فى عهد أوباما، فمازال فؤاد عجمى يدعو إلى نموذج «صدام الحضارات» بحماس كبير، كما تفضح مقالته فى دورية نيويورك تايمز بووك ريڤيو التى تجزم بأهمية تلك الصياغة التى استلهمها هنتنجتون من لويس. يستند مثل هذا الخطاب «الحضاراتي» إلى الاختلافات الثقافية، العدائية التى تفصل العقل العربي/ الإسلامى عن العقل الغربى ذى التوجهات الإنسانية، وهذا الخطاب الذى تفصل به لويس بكل مرونة وسيولة هو نتاج مائتى عام من الدراسات الاستشراقية. تفحص إدوارد سعيد الكيفية التى ظل بها هذا الخطاب ذاته يتخلل جميع الدراسات الغربية عن «الشرق» طوال قرنين من الزمان. وفى واقع الأمر، فقد تعاطى سعيد مع لويس فى عدة مناظرات عامة فى الثمانينيات، وكشفه من خلالها بصفته تجسيدا لأكثر أوجه الاستشراق سوءاً، وفضح افتقاده لسعة الاطلاع والتعقيدات التى تميز هذا الموروث. وحقاً، فإلى جانب أوجه قصوره العديدة، فإن أعمال لويس تفتقد الصرامة الأكاديمية، والتحليل النصى المحكم الذى يميز مناهج البحث على أساس من فقه اللغة والتى تبناها الاستشراق. ولا تتمثل مشكلة لويس فى أنه ليس استشراقيا متفقها فقط، بل فى أنه استشراقى ردىء. وفى واقع الأمر، فإن ذلك التبسيط، وتلك الفجاجة الأكاديمية هما تحديدا سبب وجود أتباع كثيرين له فى دوائر صناعة السياسة وإعلام التيار السائد.

مهمة نشر المدنية ما بعد الحداثية:

تتيح الزاوية الحضاراتية - طرح ثنائية التمايز بين الإسلام، والغرب- للويس وأتباعه فرصة لإغفال قرنين من التغيرات الدينامية الاجتماعية والسياسية والثقافية فى العالم العربي، مثلما يبرئ خطاب صراع الحضارات بوضوح الغرب من أية مسئولية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى العالم الإسلامي. علاوة على ذلك، يجد القراء، والمناصرون لتلك الرؤية من السهل تخطى الحاجة إلى التفحص

المتأنى للحركات والتنظيمات والفنانين والمثقفين والنشطاء الذين تعاطوا مع الحداثة بأساليب معقدة، فيما مضوا أيضا يتحدون الأشكال المتنوعة من الإمبريالية الغربية، والاستعمار والرأسمالية ويشتبكون معها منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن. وحقا، فإن هذا المستشرق يقول عن خطأ إنه لا يوجد من بين هؤلاء المثقفين أو تلك الحركات من ساطل «تلك التمايزات الثلاثة المقدسة التى ترسخ المكانة المتدنية للعبيد والنساء والكفرة». تعاود هذه التيمة الظهور فى أعمال لويس بهدف إظهار العرب أناسا غير أسوياء يعانون من رغبة فطرية فى الهيمنة على الآخرين، ويتضاعف الميل إلى العنف المتأصل فى هذه الرغبة نتيجة الإحباط الناجم عن عدم القدرة المستدامة على النجاح فى الهيمنة الثقافية على الآخرين. وبتحديد أكثر، يقول لويس، إن الثقافة العربية يعتريها القلق الحاد إزاء تفوق الغرب اللاإسلامى والحقد على هذا التفوق، ومن ثم يضيف قائلاً: إنه «ومنذ وقت طويل ظل هناك تيار متصاعد من التمرد ضد هذا التفوق الغربى ومكانته، ورغبة فى إعادة ترسيخ القيم الإسلامية واستعادة مجد المسلمين»، ويرى أن لهذا تضمينات خطيرة من بينها «أن الشر الحقيقى غير المقبول هو هيمنة الكفرة على المؤمنين الحق». ونحن نشهد هنا جوهر أعمال لويس، وتفسيرا لهاجسه المَرضى بالجهاد.

وحسب ما يذهب إليه لويس فإن «الجهاد» هو الرد الطبيعى للمسلمين على هيمنة الغرب الكوكبية. تُردد كتاباته بعد ٩/١١، مثل كتابه «من بابل إلى الترجمان» هذه التفسيرات، حيث تحدد المشكلة، على أنها سمة دينية/ إثنية وليست ظاهرة سياسية تاريخية. فإن كان العنف وإخضاع الآخرين خاصيات ثقافية متغضونة فى نظرة المسلمين والعرب إلى العالم، تصبح الحرب إذن، فى عصر صراع الحضارات هذا، ليست مجرد أمر يمكن تطبيقه عمليا، بل مسئولية أخلاقية. وسيعاود مفهوم الضرورة الأخلاقية التى تجبر الولايات المتحدة على تنفيذ «حرب على الإرهاب» الظهور بعد ذلك فى جميع أعمال منظرى الإسلاموفوبيا وتحليلاتهم. لكن اللافت بدرجة أكبر هو أن الحجة «الأخلاقية» كانت متوافقة تماما مع مفهوم بوش المخادع عن الدبلوماسية

التى بمقتضاها تشن القوة الإمبريالية حربا من أجل فرض السلام. وبناء على ذلك، كان لويس فى لقاءاته على العشاء سرا مع تشينى فى أعقاب ٩/١١ يحثه بقوة على شن حرب ضد المسلمين، ليس بدافع القلق من وجود أسلحة دمار شامل، بل، وكما أكد لويس لنائب الرئيس، لأن أمريكا بهذا تقاتل حضارة مريضة ينبغى عليها أن تهزمها حتى تستسلم. من ثم، فقد حث تشينى على أنه ينبغى على الولايات المتحدة «المضى قدما دونما تردد».

تمكن لويس، حرفيًا، من السيطرة على أسماع أقوى شخصيات الدولة حيث أمدهم بخطاب حضاراتى أتاح للولايات المتحدة إخفاء سياساتها التدخلية تحت عباءة أخلاقية بحيث تعيد هذه الضرورة الأخلاقية قولبة هذه «المهمة الحضارية» وتجعل منها سياسة خارجية قابلة للتطبيق فى القرن الحادى والعشرين، والتى بدورها تعد مبادئ العولمة الاقتصادية والسياسية وأهدافها وآلياتها بدعائمها الرئيسية. أيضا، تُستخدم نغمة الخطاب الحضاراتى الأخلاقية تلك لتوحيد مختلف الأطراف، وهو تأثير مازال يمارس حتى بعد سنوات بوش، حيث نجحت النغمة الأخلاقية التى استخدمت فى الدعاية لـ «الحرب على الإرهاب» فى توحيد الفصائل المتنافسة فى الحياة السياسية، بل وفى المجتمع المدنى بالولايات المتحدة. مثلا، نجحت مسألة قمع النساء فى الإسلام، وكما سنرى لاحقا، فى حشد أعضاء الحزب الديموقراطى الليبرالي، والحركات النسوية، الذين اتفقت آراؤهم مع المحافظين الجدد من الحزب الجمهوري، ومع الحركات الإنجيلية. وهكذا توحَّد الرجال والنساء من الطرفين «النقيضين» على رفض قبول الممارسات «غير الليبرالية» و«المتخلفة» فى البلاد العربية- وبخاصة تلك البلاد غير المتحالفة مع الولايات المتحدة. يفسر هذا المنبر المشترك، الذى يتشارك فى موقف حضاراتى وأخلاقى واحد، سبب توافق معهد واشنطون لسياسة الشرق الأدني، أو معهد برووكينز واللذين يهيمن عليهما الديموقراطيون، على نفس الآراء التى يتبناها ذى أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، وغالبيته من المحافظين الجدد، حول تدخل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

ليست النظرية الحضاراتية الأخلاقية مجرد نظرية لا تمارس على أرض الواقع، أو تنحصر فى دائرة صغيرة من المنظرين وذوى العقائد المثالية. إن آراء لويس عن الإسلام أبوكالية [تتناغم مع ما جاء بسفر الرؤية] لذا تجد لها أصداء لدى الإنجيليين وتتوافق مع النظرة السائدة بالولايات المتحدة عن الشرق الأوسط، حيث إنه طرح سياسة الولايات المتحدة بصفتها معركة معادية حتمية بين الشرق والغرب، معركة تحتمها المبادئ الحصرية المتناقضة التى يتبناها كل منهما. يقوم إعلام التيار السائد الأمريكى ببث هذا التحليل فى جميع الأنحاء إلى حد تشبع الجماهير به، بعد صياغته بأسلوب يجعله يبدو وأنه تفسير عقلانى لسؤال «لماذا يكرهوننا؟». كان لويس مصدر كل استشهاد مرجعى استخدمه جميع المنظرين والسياسيين ممن قرعوا طبول الحرب فى أعقاب ٩/١١. لم تكن الذريعة التى استخدمت لتسويغ «تغيير الأنظمة» لتحظى بإجماع كامل إن لم تكن قائمة على أساس حافز أخلاقى لاريب فيه، وهنا أمد لويس البيت الأبيض برئاسة بوش بالخطاب الحضاراتى الذى يمكن له أن يشكل الأساس الأخلاقى للحرب على الإرهاب «المجيدة»، والتى يمكن لها أن تكون حربا «كلية» تشمل منظومة من الحروب الفرعية مثل غزو أفغانستان، «وتحرير» العراق، والحرب الداخلية وذلك لأنها حرب من أجل البقاء، حرب ضرورة، وحرب إلزام أخلاقي.

وفيما أكد لنا بوش أنها ليست حربا على جميع المسلمين، مضى لويس يمدنا بالحجج الأكاديمية ويؤكد لنا أنها يجب أن تكون حربا على المسلمين جميعهم. لم تركز الأطروحة التى شكلت أساس حرب بوش، على أسامة بن لادن بصفته مسلما ضالا منحرفا، على الرغم من أن بوش، وتشينى ورايس كانوا يقولون هذا أحيانا فى خطاباتهم إلى التيار السائد، الأحرى أن التركيز كان على مسلمى التيار السائد وثقافتهم وعقائدهم المنافية، بل والمعادية لـ«القيم الأمريكية». يضمر هذا أنه لا يمكن النظر إلى غزو أفغانستان والعراق كعمليات معزولة مفردة، بل على أنها تشكل جزءا من «حرب صليبية» أوسع، إذ إن هاتين الحربين وحدهما لن تجديا فى مجابهة الانتشار الفيروسى للإسلام القتالي. بعد ٩/١١، مضى لويس ينكر المرة

تلو الأخرى أن ٩/١١ كانت مجرد «إطلاق النار الاستهلالى فى المعركة الأخيرة» بين الإسلام والعالم المسيحي، من ثم، ينبغي أن يكون الرد حربا على الإرهاب الكوكبي، متواصلة، ومستدامة وأكثر عنفا، حرباً أهدافها ذات أهمية مركزية بالنسبة «لقيمنا الديموقرطية الجوهرية ولأسلوب حياتنا». وعلى حين أن البيت الأبيض برئاسة بوش، مثل البيت الأبيض برئاسة أوباما، مضى يطمئن المسلمين ويؤكد لهم أن الولايات المتحدة لا تخوض «حربا ضد الإسلام» فإن البيانات الواضحة لمن فى البيت الأبيض، وسياساتهم اتبعت وصفات لويس بأنه ينبغي أن تتضمن الحرب على الإرهاب بالضرورة إعادة تشكيل شاملة للعالم الإسلامي، وإعادة تحديد للعلاقة بين واشنطون والبلاد العربية. وفى حالة عدم إعادة رسم الحدود كما كان لويس قد اقترح فى الماضى يجب إجبار العرب على القيام بإصلاحات رغماً عنهم كى يتم قبولهم فى مجتمع الأمم المتحضرة.

وفيما أن لويس ليس على وئام مع إدارة أوباما، فمازال مستمرا فى الدعوة إلى ممارسة دبلوماسية القوة فى الشرق الأوسط بما فى ذلك إيران، حيث يدعو هو وتلميذه ريويل مارك جرتشت الذى عمل جاسوسا بإيران ثم تحول ليصبح محللا سياسياً، يدعوان إلى رد فعلٍ عسكرى ضد أحمدى نجاد وبرنامج إيران النووى المزعوم. وفى واقع الأمر، فقد برّر لويس، فى السياق الإيراني، شن حرب صليبية كرد فعل أخلاقى على التوجهات التوسعية الإسلامية، وكان قد ألقى هذا الخطاب بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لدى تسلمه جائزة إرفينج كريستول فى حضور ديك تشينى وجون بولتون و«سكووتر» ليبي، وريتشارد بيرل. يوضح هذا الخطاب كيف تسمح مكانة لويس الأكاديمية له بالجهر بآراء جازمة ذات منطق خادع مضلل، آراء لو صدرت عن غيره لاستنكرها على الفور الخبراء الأكاديميون وأفقدوها مصداقيتها. وبمحاكاته مروجى الذعر المعادين للسامية، مضى لويس يصور المسلمين، فى الماضى والحاضر، على أنهم ظلوا يسعون للسيطرة على العالم. قام، وهو يقوض اللحظات التاريخية ويطمسها، بربط إيران بالحركة الوهابية الأصولية ومبادئها، حيث يذكر

أن أحمدى نجاد لديه «رؤى أبوكالية عن الإسلام» ويحذر جمهوره من أن لهذا الشكل من التطرف الإسلامى - هذا على الرغم من معتقدات أحمدى نجاد الشيعية وتمسكه بالقومية الإيرانية - جذوره فى الوهابية السعودية التى تعتبر أكثر الدعوات الإسلامية تشددا وعنفا وتعصبا والتى كان قد أسسها محمد بن عبدالوهاب فى القرن الثامن عشر وتبنتها الحكومة السعودية مذهبا دعمته الثروة النفطية غير المحدودة. ثم يمضى جازما فيقول إن «الوهابية بالنسبة للإسلام، تماثل الكلو كلوكس كلان بالنسبة للمسيحية».

وبأسلوب لويس الكلاسيكى المعهود، يطرح حجته بحيث يستطيع القول بكل حسم إن الولايات المتحدة تتحمل مسئولية مواجهة أحمدى نجاد و«طموحه النووي» قبل أن يطرق الإسلام بوابات فيينا مرة أخري. يترك هذا التحليل للولايات المتحدة خيارا وحيدا قابلا للتطبيق، خيارا قويماً وأخلاقياً، يقتضى منها الاستمرار فى «القمع» الفاعل للتطرف الإسلامى فى الداخل الأمريكى كما فى الخارج، ومواجهته عسكريا إذا اقتضى الأمر. وفى نفس اليوم الذى ألقى فيه لويس خطابه ومُنح جائزته، بثت البى بى نتائج «استطلاع للرأي» أجرته بين العراقيين حيث أيد غالبية المدنيين العراقيين شن الهجمات على قوات «التحالف» فيما عارض ٩٤٪ منهم أعمال العنف الطائفية. وبما أن هذا كان هو الوقت الذى جرى فيه انتشار مزيد من القوات الأمريكية «المتدفقة» على العراق رأى حوالى نصف العراقيين المستطلَعين البالغ عددهم ألفين أنه كلما زادت الولايات المتحدة من عدد قواتها المنتشرة فستزيد أعمال العنف التى يتعرض لها المدنيون.

أصناف الحصار: فريد زكريا

استشهد أفراد مجموعة «الخبراء» الذين تداولوا لعب الأدوار فى دوائر واشنطون بأعمال لويس التى شكلت بالنسبة لهم رواية رئيسية يستشهدون بها على عدم كفاءة المسلمين وبربريتهم وحنقهم العدائى تجاه الغرب. وإذا كانت كتابات لويس لم تظهر فى الوسائط الإعلامية اليومية للتيار السائد، فإن اسمه كان هو المرجعية المصدّقة

التى استند إليها كبار المتحدثين، والصحفيون، والمنظرون فى تنفيذ حملتهم ضد المسلمين. كان يتم تداول ناشطى المرتبة الثانية بين مراكز الأبحاث والبيت الأبيض ووزارة الدفاع، والأمن الداخلي، والخارجية كى يمدوا المسئولين ببعد حضاراتى للحرب على الإرهاب و«أجندة الحرية»، ثم يتم بث خطابهم بين صفوف صغار مثيرى الرأى العام ورجال الإعلام المأجورين من خلال المنافذ الإعلامية المحلية والقومية. تقول الرواية إن أصول «الخطر الأخضر» ترجع إلى المدارس الدينية السعودية، أما فى الداخل فإنه يتمثل بنفس القدر فى التنظيمات الخيرية والدعوية مثل مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية CAIR، والذى يعتبره الكثيرون طابورا إسلاميا خامسا فى الولايات المتحدة. كانت هذه الرواية الأداة الأكثر قوة وفاعلية لتبرير عسكرة السياسة الداخلية والخارجية أمام جمهور أمريكى كان يشعر بالصدمة والمرارة والرغبة فى الانتقام بعد ٩/١١.

وفيما كان لويس معلم التيار السائد حول الإلزام الأخلاقى الكامن فى قلب الخطاب الحضاراتي، كان فريد زكريا هو من عبر عن الرواية السياسية لـ «الحرب على الإرهاب» بأكبر درجة من الوضوح والإيجاز، وسوقها داخليا وعالميا. فإلى جانب شعبيته فى دوائر المحافظين الجدد، فقد حلّقت شهرته عاليا فى أوساط التيار السائد فى أعقاب ٩/١١ بعد نشر مقاله الشهير «لماذا يكرهوننا؟» الذى دائما ما يتم الإحالة إليه والذى يعتبر نصًا تكوينيا فى مجمل الأعمال المعادية للمسلمين والتى بدأها لويس بمقاله «جذور الحنق الإسلامي». يظل مقال فريد زكريا، بالنسبة للإعلام ودوائر واشنطون الداخلية فى فترة ما بعد ٩/١١، التحليل الأكثر أهمية بدرجة بحيث يغطى على محاولاته التقارب مع «المسلمين المعتدلين» بعد رئاسة بوش. بدلا من أن يسأل عن سبب غضب المسلمين الدائم، فإنه يسأل «لماذا يكرهوننا؟» و«لماذا ينبغى أن نهتم؟». ظهرت سلسلة مقالاته فى عدد أكتوبر ٢٠٠١ من مجلة النيوزويك فيما كانت الرضوض النفسية لأحداث ٩/١١ مازالت غضة، ثم تم إعادة طبعها ومعها مقال «كيفية إنقاذ العالم العربى» فى كتاب له بعنوان «مستقبل الحرية». ولّد مقال «كيفية

إنقاذ العالم العربي» ردود فعل واسعة فى العالم العربى تراوحت بين قبول عام لأفكاره من جانب النيوليبراليين، إلى اشتباك نقدى مع آرائه من جانب المثقفين، إلى إشارات هجومية ساخرة إليها فى أغانى المطرب الشعبى شعبان عبدالرحيم.

وبالتقابل مع المنظرين، ومع الصحفيين المشاركين فى الحملة المسعورة المعادية للإسلام، فإن زكريا ليس مأجورا أو إمعة تابعا للبيت الأبيض، فقد برهن على أنه لاعب ذكى حصيف، ملتزم دوجماتيا بالتوجهات النيوليبرالية بأكثر من التزامه بالأفكار الخشبية لحركة المحافظين الجدد، هجين يجمع بين الأيديولوجيا النيوليبرالية والمبادئ المحافظة القديمة، وهو أيضا نتاج لمدرسة السياسة الواقعية للحرب الباردة والبرجماتية السياسية. عملت تعليقاته بالنيوزويك على تأييد صناع السياسة والسياسيين والقراء لها لمدة عقد من الزمان، من ثم، ضمن له ذكاؤه وحصافته وظهوره التليفزيونى النجاح فى فترة ما بعد بوش. وفى واقع الأمر فقد سهلت المرونة التى تميزت بها براجماتية زكريا السياسية له التخلص من كثير من آرائه التى كان قد تبناها سابقا عن العالم الإسلامي، وتبنى آراء أخرى فى عصر أوباما وبعد أن أصبح وجها تليفزيونيا مألوفاً ذا شعبية. لكن هذا الكتاب لن يناقش آراء زكريا المعدّلة فى برامج السى إن إن، حيث إن كتاباته المؤثرة أثناء سنوات بوش أكثر أهمية بدرجة أنها وجّهت طموحات الولايات المتحدة فى تلك السنوات، كما أنها عبرت عن رواية الإسلاموفوبيا البرجماتية حول المجتمع المدنى المسلم وسياساته، تلك الرواية التى تعاظمت شعبيتها بمرور السنوات.

نشأ زكريا فى الهند ابنا للطبقة العلمانية الاقتصادية والسياسية الحاكمة، وهو مسلم اسميا فقط، وهذا النسب النخبوى وما يصاحبه من مكانة سياسية أمر يألفه من قضى وقتا فى العالم النامي. وزكريا نتاج الطبقة البرجوازية الهندية التى تدعو للسياسات الاقتصادية النيوليبرالية وتستغلها وتستفيد منها، وتتبناها بصفتها أفضل وسيلة للتنمية والنمو الرأسماليين. لم يتغير إيمان زكريا فى زمن أوباما بالطبيعة المسيانية [الدينية] للنيوليبرالية، أما أثناء سنوات بوش فقد تواءمت تلك

النظرة بسهولة مع أفكار كونداليزا رايس وسياساتها، بحيث عثر زكريا، فى شخص رايس، على توءم روحه. فالاثنان شخصان نيوليبراليان و«مثقفان» من غير البيض، يتحدثان بذكاء ووضوح بلسان السلطة فيما يخفيان انتهازيتهما. تأثر كلاهما، وهما المعاديان للشيوعية ومن صقور الحرب الباردة سابقا، بصمويل هنتنجتون وجوزيف كوربل ويزمنان بـ«الرسالة الديموقراطية» كأساس لشرعنة سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى العالم النامي.

وكوزيرة للخارجية، ومستشارة للأمن القومي، كثيرا ما كانت رايس تستشهد بكتاب «لماذا يكرهوننا؟»، هذا على الرغم من أن الكتاب المذكور لا يعدو كونه مقال رأى تم توسيعه، لكن رايس، والرئيس، ومعهم صناع السياسة والصحفيون روّجوا له كبحث إمبريقى مرجعى يشكل أساسا للسياسة الخارجية الأمريكية. كثيرا ما أشارت فى أحاديثها إلى «مقال نيوزويك الشهير الذى ظهر عنوانه على الغلاف وكتبه صديقى فريد زكريا»، وكانت تقول «فى أعقاب ٩/١١ مباشرة، تساءل أمريكيون كثيرون «لماذا يكرهوننا» وتحليل زكريا يساعد على الإجابة عن هذا السؤال. اعتاد الرئيس بوش، ورايس، وتشينى الاستشهاد مرارا وتكرارا وإلى ما لا نهاية بالجزء من مقدمة زكريا حيث يقول «يكره المتطرفون فى العالم الإسلامى أمريكا وسيظلون يكرهونها دوما. يكرهون سياساتنا، قيمنا، حرياتنا، بل أسلوب حياتنا ذاته. وحينما يتم التعبير عن الكراهية من خلال أعمال العنف، فليس ثمة سوى رد ملائم واحد..». ثم تمضى رايس لتقول إن مدركات المسلمين المغلوطة عن أمريكا «تخلق مناخا من المرارة والشعور بالظلم يجد فيه التطرف آذانا مصغية متعاطفة. وباستطاعة مثل تلك الآراء أن تُبقى مجتمعات كاملة أسرى أيديولوجيات فاشلة، الأمر الذى ينجم عنه، بالنسبة للعالم الإسلامى، التخلف والفقر الدائم وغياب الحريات. علينا أن نوصل الحقيقة عن قيمنا وسياساتنا إلى شعوب الشرق الأوسط. ومثلما أن الحرية ينبغى دائما أن تكون أمرا يختاره الناس، فإن التقدم الدائم، وإصلاح المجتمعات يجب أن ينبثقا من داخلها».

تلخص مقولة رايس بإيجاز روح مقال زكريا، ذلك لأنه يري، على خلاف لويس، أن التطرف ليس متأصلا فى الإسلام أو المسلمين، وأن «المشكلة التى يعانى منها الإسلام» تكمن تحديدا فى الثقافة العربية وعقلية العرب المتأصلة والتى انتشرت إلى المسلمين من غير العرب. بعد ١١ سبتمبر، صاغ زكريا السؤال المفتاح للإعلام وصناع السياسة: «ما السبب فى أن هذه المنطقة هى العاجزة سياسيا فى العالم؟ المجموعة الشاردة عن مسيرة المجتمع الحديث؟» وحسب رأيه، لا تقتضى معرفة الإجابة عن هذا السؤال سوى النظر إلى الثقافة العربية، إذ إننا فقط حينما ننظر إلى الشرق الأوسط العربى «نرى بألوان متوهجة منذرة جميع الإخفاقات الوظيفية التى يستدعيها الناس حينما يتحدثون عن الإسلام»، وعلى سبيل المثال قال موضحا إن «أفغانستان كانت أرض المعسكرات التى منها انطلق جيش عربى لقتال أمريكا». يرى زكريا أن العرب متخلفون قبليون أبويون يفتقدون النقد الذاتى ويفاخرون بثقافتهم التى كانت مجيدة يوما ما وغدت الآن فاشلة. تحول تلك السمات الثقافية دون «التقدم» الحق. ثم يمضى زكريا يقول جازما «إذا كان ثمة سبب واحد رئيسى للأصولية الإسلامية فهو ينحصر فى الفشل الكُلى للمؤسسات السياسية فى العالم العربي»، ويرى أن هذا الفشل متجذر فى عدم قدرة العرب على فهم «الحداثة» وأن «تجربة» الحداثة بالنسبة للعرب انتهت بفشل فى أعقاب فشل.

ترجع أصول فكرة «العقل» العربى القبلى المتخلف إلى عقود من الكتابات الاستشراقية، وتبرز بخاصة فى أعمال برنارد لويس ورفائيل بطي. لكن ما يميز زكريا عن لويس هو أن تحليله للعالم العربى يعين حدود هذا الفشل بصفته فشلا فى استيعاب الحداثة وتبنيها، أى أنه فشل سياسى ومجتمعي. وعلى حين أن مسئولية لويس عن الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين تكمن فى أنه أتى بتفسيرات أكاديمية «مزعومة» عن أسباب اختلاف المسلمين عن الغرب واستحالة اندماجهم معه أو قبولهم موروثاته الديموقراطية وتوجهاته الإنسانية، فإن دور زكريا هو تسييس تلك الثغرات الثقافية والمساعدة على صياغة حلول عملية تُمَكِّن الولايات المتحدة من التدخل وتوسيع

سيطرتها بزعم الحفاظ على أمنها ومصالحها السياسية والرفاه الاقتصادى العالمي، بتعبير آخر، لا تستند قيمة زكريا، بالتقابل مع لويس، إلى أى مسوغات أكاديمية، بل إنه يمضى يدعو بحماس إلى علاج فشل المسلمين من خلال تبنيهم اقتصاد السوق الحر، والخصخصة ولبرلة التجارة والتعديل الهيكلى لـ «المجتمعات العربية المُغلقة».

وفيما أن لويس يعزو إخفاقات المسلمين إلى بربرية «العقل العربي» فإن زكريا يعزو كراهيتهم للغرب إلى إخفاقات الثقافة السياسية العربية ونظمهم الاقتصادية، ويذهب إلى أن التنمية فى العالم العربى اقتصرت على المحاكاة الببغائية لتفاهات العصر الحديث، أى أن حداثتهم هى مجرد «نسخة زائفة» مشوهة من الحداثة، إذ إنهم يحاكون الشكليات المادية ويغفلون المبادئ الحديثة؛ ثم يمضى ليقول «إن استيراد السلع الغربية سهل، لكن استيراد الحشو الداخلى للمجتمع الحديث – السوق الحر، الأحزاب السياسية، الخضوع للمحاسبة، حكم القانون – صعب، بل إنه يمثل خطرا على النخب الحاكمة»، ومن سوء الحظ أن العرب غير مؤهلين ثقافيا واجتماعيا وفكريا للاستفادة من العولمة: «يشاهد العرب العروض والبرامج التليفزيونية الغربية، ويتناولون الوجبات السريعة ويشربون المشروبات الغازية، لكنهم لا يقومون بعملية تحرير حقيقى لمجتمعاتهم». من ثم، فإن ما نشاهده «هو عكس للعملية التاريخية فى العالم الغربى حيث أنتجت الليبرالية الديموقراطية، وتعزز الديموقراطية الليبرالية. أما الطريق الذى سلكه العرب فقد أنتج الديكتاتورية التى ولّدت الإرهاب الذى هو أبرز تجليات علاقة الاختلال الوظيفى هذه بين الدولة والمجتمع».

وفى تحديده لمعالم إخفاقات المجتمع العربى «غير الليبرالي» يستشهد زكريا بتقرير برنامج التنمية الصادر عن الأمم المتحدة، وبخاصة الاتهام الخاطئ الذى جاء بالتقرير بأن العرب لا ينتجون كتبا مؤلفة أو مترجمة. تظهر تحليلاته العرب مفلسين فكريا وراكدين اجتماعيا ومعوَّقين اقتصاديا، وتصبح هذه النغمة معزوفة دائمة تستمع إليها الجماهير العربية حيث حظى تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم بتغطية واسعة فى الإعلام العربي. وفيما يركز التقرير على أزمة ثقافية واجتماعية واقتصادية

وشيكة فى العالم العربى بسبب «تضخم أعداد الشباب»، فإنه يتجاهل، مثل زكريا، عن عمد كثيرا من الحقائق الموجودة على الأرض. مثلا، فعلى مدى السنوات العشر التى مرت منذ صدور تقرير التنمية الأول، ارتفعت معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة فى العالم العربي، وتنامت الطبقة الوسطى الحضرية فى جميع العواصم العربية الكبرى، وقد حدث هذا على الرغم من العقوبات المعوقة التى فرضتها الولايات المتحدة على بلد مثل العراق باسم الأمم المتحدة. بيد أنه أيضا فقد شهدت تسعينيات القرن الماضى والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين حركات تقدمية دينية وعلمانية جديدة تنمو فى معية منظمات ديموقراطية قاعدية عمالية وطلابية من المغرب وحتى سوريا. وفيما يمتدح زكريا الحكام والملوك المستبدين الليبراليين الموالين لأمريكا، فإنه يتجاهل ازدهار مجموعات الحركات القاعدية التى تحتج على السياسات الاقتصادية والبيئية المدمرة، وعلى القمع السياسى الذى تمارسه الدولة فى آن. وفى واقع الأمر، فمنذ مطلع الألفية الجديدة، تبنى زكريا والمنظرون السياسيون المؤدلجون الآخرون، بأسلوب انتقائي، بعض الحركات «الشعبية» فى الشرق الأوسط. مثلا، لا يناقش زكريا أبدا «ربيع دمشق» حيث تضغط العديد من مجموعات المجتمع المدني، والشيوعيون المعارضون، والبعثيون الإصلاحيون، والمثقفون من أجل إجراء إصلاحات داخلية وإجراء الحوار مع الدولة. وبالتقابل، تم تصوير «ثورة الأرز» بحسب تسمية الإعلام الغربي، على أنها حركة لبنانية جماهيرية ديموقراطية عفوية، وهذا ما لم تكنه أبدا حركة «١٤ آذار»، إذ إنها كانت عبارة عن إعادة تحالفات بين النخب الذين قاموا بحشد المشاعر القومية الكارهة للأجانب فى غالبيتها بين أتباع طوائفهم من أجل تحدى الوجود السورى بلبنان. من ثم، لا غرو أن زكريا كان على رأس الإعلاميين الذين شوهوا فوز حماس فى الانتخابات الديموقراطية التى أجريت بالمناطق الفلسطينية.

لا يتبنى زكريا الأحداث التاريخية اعتباطيا ويؤولها بصفتها حركات ديموقراطية، لكنه يفعل ذلك لأن تحليلاته تتسق مع الخطاب الأعم الذى أصبح هو إحدى سماته. أى أنه يصور العالم العربى على أنه ينقسم بين «أنظمة مارقة» و«ديموقراطيات غير

ليبرالية»، ومن ثم فهو يتسم «بعلاقة خلل وظيفى بين الدولة والمجتمع». ومما لا ريب فيه أن زكريا يتفق مع أعمال لويس «المرجعية»، ومع النموذج المعيارى الذى يصور العقل العربى على أنه معيب جوهريا بأسلوب يكاد يكون وراثيا. إلا أن زكريا لا يهتم بحتمية لويس الدينية والإثنية بقدر اهتمامه بالتوصل إلى وضع تصور تخطيطى برجماتى يفهم من خلاله الثقافة السياسية العربية، إذ يذهب منطقه إلى أن الأسلوب الوحيد لإعادة هندسة تلك الثقافة هى فهمها كاملة بكل انحرافاتها وأمراضها. يبين فى تفسيره البنية التنظيمية للعالم العربى أنه «يقع الآن أسيرا بين الدول الاستبدادية والمجتمعات غير الليبرالية التى لا يمكن لأيهما أن يكون أرضا خصبة للديموقراطية الليبرالية، ثم يضيف قائلا «لقد أنتجت التفاعلات الدينامية بين هاتين القوتين مناخا سياسيا يملؤه التطرف الدينى والعنف». والحال هكذا، فإنه ينبغى الدفاع عن دعم الولايات المتحدة لتلك النظم العربية الاستبدادية: «على الرغم من أن حلفاء أمريكا فى الشرق الأوسط استبداديون وفاسدون وقمعيون، إلا أنهم أكثر ليبرالية وتسامحا وتعددية ممن قد يحل محلهم». يصر زكريا أن الحلفاء من أمثال المغرب والأردن ومصر [مبارك]، بل وحتى الأسرة المالكة السعودية أكثر ليبرالية وتسامحاً وقابلية للإصلاحات الاقتصادية النيوليبرالية ومنح النساء حقوقهن وإقامة مجتمع مدنى «حر» من العدو المشترك، أى الإسلاميين.

أتاحت برجماتية زكريا له الاستمرار فى لعب دور فى الحياة السياسية بعد بوش، بل إنها مكنته من التباعد عن أجندة المحافظين الجدد القتالية فى الشرق الأوسط لدى فشلها الواضح أثناء فترة رئاسة بوش الثانية. وفي واقع الأمر، فقد نجح زكريا فى إعادة تشكيل نفسه ليصبح شخصية إعلامية، وتمكن بذلك من إن يكتب، بسلاسة، مقالات يدافع فيها عن أسباب ردود أفعال الولايات المتحدة المبالغ فيها بعد ٩/١١، دونما أن يتنكر لتحليلاته القائمة على أساس أيديولوجيا الإسلاموفوبيا، وذلك لأنه لا يعتمد أساسا فى تحليله على الكراهية المقيتة للإسلام والعرب وعلى الالتزام مدى الحياة بمصالح إسرائيل بنفس القدر الذى يتجلى في أعمال لويس، بل على التمسك

بمصالح الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية بصفتها «قائدة العالم الحر». مكنه هذا النهج البرجماتى من البقاء طويلا فى عالم ظل يتأرجح بين أعمدة القوة «الصلبة» والقوة «الناعمة» لكن، وكما سنري، فعلى الرغم من إعادة تشكيل نفسه كبرجماتى لا حزبي، إلا أن الرواية التى مضى يروجها طوال العقد الأخير تظل حاضرة فى سياسة أوباما شرق الأوسطية وفى خطاب كثير من مستشاريه بشأن الشرق الأوسط. وفى هذا الصدد، فإنه بإمكاننا القول إن زكريا هو المنظّر المكتمل للإمبراطورية الأمريكية بالتقابل مع لويس المنظّر المكتمل للإسلاموفوبيا ذاتها.

وعلى الرغم من أن زكريا يصر على أنه ينبغى على الولايات المتحدة دعم حلفائها التاريخيين ورعايتهم إلا أنه يرى أن اعتماد حلفاء الولايات المتحدة المستبدين على المعونة الأمريكية هو مصدر لسلبية الجماهير تجاه النخبة. يقرر، وهو ينكص إلى استخدام التنظيمات والمزاعم بشأن خمول العرب المتأصل أن دول العالم العربى تعتبر «نموذجا نمطيا للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات»، ثم يمضى قائلاً «إن دخل تلك الدول الذى لا تكسبه بجهدها» بل يأتيها كمعونات أو من عائدات النفط شجع الأنظمة شرق الأوسطية على «ألا تطلب سوى القليل من شعوبها، وفى المقابل، لا تعطيهم سوى القليل». ثم ينتهى تحليل زكريا من حيث بدأ حيث يقرر أن «الأموال التى تأتى بلا جهد لا تعنى سوى قليل من التحديث الاقتصادى أو السياسي». يبرئ منطقه هذا الولايات المتحدة من أية مسئولية عن طول عمر تلك الأنظمة الجامدة المحتضرة فى الشرق الأوسط، حيث يذهب إلى أن المسئولية لا تقع على الحكومات القمعية أو رعاتها فى واشنطون، بل على الجماهير العربية غير الراغبة فى المشاركة فى مجتمعاتها المدنية أو تقبل المسئولية عن قصورها وعدم كفاءتها أو تحمل عبء الحياة السياسية كاملا. بدلا من ذلك، نراهم على استعداد دائما للاحتجاج ضد إسرائيل والولايات المتحدة، بدلا من مواجهة أوجه قصور مجتمعاتهم وأنظمتهم الحاكمة.

وفى واقع الأمر، يرى زكريا أنه من الواضح أن عدم وجود «المجتمعات المدنية»

أو «ثقافة الديموقرطية» [فى البلاد العربية] ينجم عن عقلية الدولة التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات». وبدورها، فإن فشل الحكومات العربية فى تحرير طبقاتها الوسطى ومنحها حقوقها، وأيضا فشل الشرائح الوسطى والعالية من الطبقات المتوسطة فى تشكيل ديموقراطيات مدنية فاعلة هو مصدر الإرهاب.

تجاهل التاريخ: النيوليبرالية بصفتها صنوا للحداثة:

يعبر زكريا فى «لماذا يكرهوننا؟» و«مستقبل الحرية» بإيجاز وتحديد عن منطق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية فى زمن ما بعد الحرب الباردة. فبدلا من أن يدفع بإدانة ثقافية عنصرية صريحة لنوازع العرب وميولهم، يقدم تحليلا اجتماعيا/ سياسيا وصفيا وموضوعيا فى ظاهره لكراهية المسلمين للغرب - وهى كراهية، كما يُذكِّرنا بالإمكان أن تنمو محليا بسهولة، وتستورد إلى الداخل الأمريكي، وتصدر إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى غير العربي. وفيما يروج المؤرخ لويس للإسلاموفوبيا التى يُسوِّقها على شكل مجازات عبر/ تاريخية وسمات متأصلة فى العقل العربي، يتمثل إسهام زكريا فى التشكيل الأيديولوجى ما بعد الحداثى للإسلاموفوبيا بربطه بين أوجه فشل المسلمين واللحظة الكوكبية الراهنة. ومن خلال دمج الحداثة بالعولمة، والسياسات النيوليبرالية بالديموقراطية، يريد زكريا لنا أن نفهم كيف أن غياب الحرية [أى التجارة الحرة] يؤدى إلى التخلف الاقتصادى والاجتماعى وأيضا إلى تنامى مشاعر الاستياء من الغرب الذى يتمتع بمزايا الديموقراطية والحداثة.

ليست الفكرة القائلة بأن الأنظمة العربية تتشدق بمبادئ الحداثة فيما تعمل ضدها على أرض الواقع بالجديدة. قام جيل سابق من المفكرين العرب من أمثال صادق جلال العظمة وهشام شرابى ومحمد عابد الجابرى بمناقشة فشل العالم العربى فى الأخذ بالحداثة والتنظير لهذا، وليس ثمة حاجة لزكريا أن يعرف العربية ليعلم أن لهؤلاء الكتاب مكانة مركزية فى الفكر السياسى العربي، ولا يبدو أن هذا الجهل المتعمد بأية معلومات ولو سطحية عن تاريخ الفكر العربى الحديث مصادفة. يختلف مفهوم الحداثة لدى هؤلاء المفكرين العرب عن استخدام زكريا المضلل له. قام

المفكرون من أمثال شرابى والعظمة والجابري، منذ خمسينيات القرن الماضي، ثم بعد عام ١٩٦٧ بمراجعة الأساليب التى بها حدَّد أسلافهم فى القرن التاسع عشر معنى الحداثة فى العالم الماضي، وأضافوا آراءهم. ومن المفارقات أن تلك الأعمال الفكرية ذاتها، والتى يمكن الحصول عليها مترجمة إلى مختلف اللغات، تناقض آراء زكريا ولويس التى تجزم بأن العرب يفتقدون تقاليد النقد الذاتي. ذهب هؤلاء المفكرين إلى أن الحداثة هى فترة من الأوضاع السياسية والاجتماعية. يجرى العمل فيها على القضاء على الممارسات والأفكار الإقطاعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التقليدية مع المحافظة على الهوية العربية. أى أن هؤلاء المفكرين يرون الحداثة هى حالة من التحرير الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى وتحرير المرأة، لا كما يراها زكريا على أنها «مأسسة» مبادئ الديموقراطية الليبرالية والاقتصاد النيوليبرالى. إن الحداثة التى يدعو لها زكريا الذى تأثر بأستاذه صمويل هنتنجتون هى مجرد تمويه وذريعة لإجبار المجتمعات على إصلاح العيوب الاقتصادية والاجتماعية التى يعانون منها ليس من خلال ترسيخ إجراءات الحداثة ومبادئها كما يفهمها مجتمعهم المدنى بعد عقود من التفحص الناقد والأنشطة السياسية، الأحرى أن «حداثة» زكريا تعنى أن تتجرع المجتمعات العربية واقتصاداتها المدعومة أقراص النيوليبرالية والعولمة السحرية كى تلحق بعصبة الأمم المتحضرة، أما إن رفضت هذا «الإصلاح الاقتصادي» المزعوم فإن هذا يعنى أنها ترفض الحداثة وحقوق الإنسان والديموقراطية «وحكم القانون».

وفى هذا الصدد، تعكس أعمال زكريا فلسفة النيوليبرالية ونظرتها إلى العالم حيث تضع الأسواق الحرة والتنمية الاقتصادية الليبرالية فى مقدمة تمكين الجماهير والمبادئ الديموقراطية. وعلى حين أن زكريا يتحدث عن إخفاقات المسلمين وتركز كتاباته الأخيرة على باكستان وإيران فإنه يرى إخفاقات تلك البلدان الإسلامية نتيجة لإخفاق العالم العربي، قلب العالم الإسلامي، حيث إنه وبسبب عدم قدرة العرب على استبطان الحداثة، وتطوير مجتمع مدنى وتنمية اقتصاد حر غدا «العالم

العربي صحراء سياسية بدون أحزاب سياسية حقة أو صحافة حرة. لا يوجد به سوى مجالات قليلة للاختلاف والمعارضة، ومن ثم غدا المسجد المكان الذى تُناقَش فيه السياسة». وتوضح مثل هذه الآراء الجارفة مدى خداع زكريا الفادح أو افتقاده للمعرفة. فمثلما يتجاهل عقودا من نقد المثقفين لسوء إدارة التنمية وللسلطوية فى العالم العربى فإنه يتغاضى عن جماعات الناشطين القاعدية البارزة مثل كفاية بمصر والبديل فى سوريا والمجتمع المدنى أو شبكة المنظمات غير الحكومية للتنمية بلبنان وATTac-Maroc بالمغرب وغيرها وغيرها، علاوة على التاريخ الطويل للجماعات العلمانية الديموقراطية الناشطة فى العالم العربي.

ظل الحشد السياسى الجماهيرى والوعى السياسى من نسيج التاريخ السياسى الحديث فى العالم العربي. وعلى الرغم من أن أحزابا مثل جبهة التحرير الجزائرية، وحزب المؤتمر الشعبى باليمن، والحزب الوطنى الدستورى بتونس وحزب البعث السورى قد استفردت بالسلطة وحولت بلادها إلى نظام الحزب الواحد إلا أنها كانت قد قامت على أسس أيديولوجية علمانية وكان لها لجان تنفيذية داخلية وفازت فى الانتخابات وكان لها قواعد تأييد شعبية من جميع القطاعات. وعلى الرغم من ذلك، يوجد في الوقت الراهن الكثير من الأحزاب الإسلامية واليسارية الديموقراطية، مع حفنة من الأحزاب اليمينية تسعي، وعلى الرغم من الحكومات التى تدعمها الولايات المتحدة، إلى تفعيل التمثيل البرلماني. بيد أنه، وحتى لو ألم زكريا بدروس التاريخ وبما يحدث على أرض الواقع، سيظل تحليله كما هو وذلك لأن نظرته إلى العالم الإسلامى تقوم أساس الانتهازية الأيديولوجية التى تجعله يُحرِّف الحقائق ويشكل منها رواية تنتهى إلى أن الغرب ظل دائما فى جانب التاريخ المضىء فيما ظل العالم الإسلامى ظله المظلم.

من إخفاق الأنظمة إلى الإصلاح المنهجى:

مع الأخذ فى الاعتبار قراءة زكريا الانتقائية والأيديولوجية للتاريخ، نجد أن تاريخه يواجه ألغازا دائمة. كيف يتأتى لأى أحد إدخال الديموقراطية على مجتمع يعتنق

التخلف بإرادته وبأسلوب حماسي؟ تشكل إجابة زكريا قطيعة مع البيت الأبيض ومع برنارد لويس والآخرين الذين دفعوا بـ«أجندة الحرية»، وهى فانتازيا لهندسة ديموقراطية لا تصلح للعالم العربى وذلك بسبب ثقافته السياسية وأوجه قصور مؤسساته. من ثم، فهو يرى أن البلاد العربية تحتاج فى الوقت الراهن إلى حكام مستبدين خيّرين أو لملوك على شاكلة عاهل الأردن، من أجل تنظيم مجتمعاتهم ولبْرلتها حتى تصبح ديموقراطية. لكن على الولايات المتحدة أن «تطلب شيئاً» فى مقابل المساعدة والدعم السياسى الذى تقدمه لهم. عليها أن تطلب مقابلا نظير تضحيتها بالمبادئ الديموقراطية وتعاملها مع الحكام المستبدين، على واشنطون أن تطالب «بإصلاح سياسى واقتصادي، وليس بإصلاح ديني». لابد من التحايل على الشعوب العربية حتى تفتح أسواقها ومجتمعاتها، وتلتزم بالولاء السياسى ليس فقط للولايات المتحدة، بل للتعديلات الهيكلية. يرى زكريا أنه فقط عندما يحدث ذلك، ستسود نظم الحداثة المجتمعات العربية وتتوطد دعائمها.

وفى واقع الأمر، سنجد زكريا يوجه اللوم، مؤخرا، إلى سياسات تعددية الثقافة الأوروبية التى سمحت للمسلمين المهاجرين بالحفاظ على ثقافاتهم الأصلية، بل وشجعتهم على ذلك، ويزعم أن ذلك هو مصدر التطرف الإسلامى فى أوربا. أيضا، فهو يرى أن المسلمين فى الولايات المتحدة ليسوا متطرفين بعامة وذلك لأن أمريكا تعمل على استيعابهم بسهولة فى ثقافة البيض المهيمنة، التى هى ثقافة مسيحية فى جوهرها. يستخدم زكريا هذه الرؤية فى إعادة تشكيل خطته التى كان قد تبناها أثناء سنوات بوش لإجراء الإصلاحات فى العالم الإسلامي، أى أن ليبرالية زكريا فى عهد أوباما هى إعادة تدوير لأعماله السابقة التى تركز على الإصلاح المستهدف واللبرلة الاقتصادية، إعادة تدويرها لتصبح نسخة محدثة من الخطة الأصلية التى لا يفتأ يرددها عن تشجيع المسلمين «المعتدلين». وفى إطار تلك المعايير يؤيد زكريا إقامة مسجد فى موقع أحداث ٩/١١ «Ground zero mosque». واكب موقفه من هذه القضية تنازله عن «جائزة الحرية» التى منحته إياها «جمعية مكافحة التشهير -Anti

Defamation League الصهيونية وذلك لمعارضة تلك المنظّمة الشديدة لإقامة مركز إسلامى فى Park 51، بل إن زكريا ذهب، أثناء الجدل بشأن إقامة المسجد، إلى حد تهنئة حزب الله على مصادقته على إعادة ترميم معبد اليهود ببيروت بوادى أبوجميل، وهو حى كان قد أزيل أثناء تنفيذ مشروع سوليدير الإعمارى لرفيق الحريري.

يتعاشق البرنامج النيوليبرالى الإصلاحى لتخلف العالم العربي/ الإصلاحى بسهولة مع سياسات الولايات المتحدة التدخلية فى عهدى بوش وأوباما. أتاحت مرونة استراتيجية الإصلاح البرجماتية التى تبناها زكريا لها الازدهار فى إطار سياسة «القوة الصلبة» الأخلاقية التدخلية التى اتبعها بوش والذى لم يكن انعزاليا بأية حال، وأيضا البقاء فى عصر «القوة الناعمة»، تلك السياسة الماكرة التى يتبناها أوباما. أثناء سنوات بوش استُخدمت رواية زكريا من قبل الإعلام والجمهور الأمريكى وسيلة يُمكنهم من خلالها توفيق غايتين متناقضتين ظاهريا. فمن جهة، كانت ثمة حاجة لحث الأنظمة العربية على بدء الإصلاح السياسي، أولا وقبل كل شىء من خلال مأسسة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التى كان بيل كلينتون قد دفع بها فى العقد السابق. ومن جهة أخري، يمكن تبرير سياسة البيت الأبيض التدخلية الأخلاقية كما عبر عنها لويس، لأن استخدام أساليب «القوة الصلبة» هى الوسيلة الفضلى، إن لم تكن الوحيدة، التى من خلالها يمكن إحداث التغير السياسى والاقتصادى فى العالم الإسلامي، وذلك لأن الأنظمة العربية غير قادرة على إحداث الإصلاح ذاتيا بسبب أوجه قصورها المجتمعية والسياسية. وبدلا من التأكيد على العملية السياسية، يجزم زكريا بأن «الحريات الاقتصادية والمدنية والدينية هى جوهر الاستقلال والكرامة الإنسانية. فإذا مضت أية حكومة محدودة الديموقراطية فى توسيع تلك الحريات باطراد، لا يجوز لنا تصنيفها على أنها ديكتاتورية».

يرى زكريا أن هذا منطق سليم حيث يقول «إن الإصلاح السياسى والاقتصادى هو الحل الذى يبقى مدة أطول من غيره، ويجب أن تأتى الإصلاحات الاقتصادية أولا، حيث إنه على الرغم من أن مشاكل الشرق الأوسط ليست اقتصادية خالصة، فقد

يكمن حلها فى الإجراءات الاقتصادية. وكما رأينا، فإن التحرك باتجاه الرأسمالية هو الطريق الذى يضمن، بأكثر من غيره، إيجاد طبقة وسطى حقيقية ودولة تخضع للمحاسبة». ومرة أخرى، يشير تحليل زكريا إلى فشل آخر للجماهير العربية أى عدم قدرتها على إقامة طبقة وسطى مستقلة نشطة بحق، حيث إن الرأسمالية وبدلا من أن تكون محرك التغيير فى العالم العربي، فقد أفسدها اعتمادها على الثروة النفطية التى أنتجت طبقة وسطى متخلفة ورعتها. بالتالي، لم تصبح الطبقة الوسطى العربية رائدة التغيير بل تراجعت إلى حالة من الإقطاع والقبلية والأبوية، وأصبحت، بحسب تنظير زكريا الذى تعوزه الدقة، مستنبت الأصولية العربية الإسلامية ومصدر تجنيد المتطوعين للجماعات الإرهابية. يرى أن ثمة حاجة «لطبقة حقيقية من رجال الأعمال وأصحاب المشاريع والذين لابد لهم أن يشكلوا أهم قوة مفردة للتغيير فى الشرق الأوسط»..

يتقاطع مبدأ پول وولفويتز عن تسيد الولايات المتحدة فى العصر أحادى القطب مع نظريات زكريا فى الاقتصاد السياسي. فمن جهة وجد وولفويتز فى لويس توءم روحه الصهيونية، وكان هو عمليا من أبدع تسويغات التدخل الأحادى اللامتسق ودعا إليه منذ عام ١٩٩٢. ومن جانب آخر، كان هذا نقيضا لممارسات وولفويتز للتنمية أثناء فترة رئاسته [الخلافية] للبنك الدولى وعمله سفيرا بإندونيسيا فى عهد رجلها القوى وحاكمها المستبد سوهارتو. أثناء فترة عمله برئاسة البنك الدولي، طوّر وولفويتز، بالاتساق مع آراء زكريا، سياسة ليبرالية جديدة أصبحت الأساس الذى قام عليه «فرع» مشبوه داخل البنك يسمى «صندوق المستقبل» الذى كانت تموله بشكل أساسى وزارة الخارجية الأمريكية وتترأسه شاهه رضا، تلك الشخصية الخلافية التى كانت عشيقة وولفويتز ومسلمة كارهة لذاتها. كانت مهمة «الصندوق» تستهدف الشرق الأوسط تحديدا، حيث إنه، وبحسب ما قالته كونداليزا رايس «سيقوم بإعطاء منح تمكن الإصلاحيين من الاستناد إلى أفكارهم ومُثلهم لإقامة تنظيمات قاعدية ورعايتها من أجل دعم نمو الديموقراطية».

تفسر هندسة زكريا السياسية ثناءه على الأردن والمغرب، وأمله فى أن تصبح بلاد عربية أخرى مثل سنغافورة، أى «ليبرالية» «دستوريا» وسلطوية على أرض الواقع. يذهب زكريا إلى أن الطريق للوصول إلى تلك اليوطوبيا الهوبزية [نسبة للفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز]، أى نظام الدولة الخيرة السلطوية هي من خلال «فترة انتقالية مدتها خمس سنوات تجرى خلالها إصلاحات اقتصادية وتنمية مؤسسية تسبق إجراء الانتخابات متعددة الأحزاب». يعمل على تحسين سلسلة التناقضات التى يصفها زكريا عقيدة مهيمنة بأن الحريات المدنية والاقتصادية لها الأولوية على الديمقراطية وحكم الشعب. يوضح وهو يصف «الديموقراطية الليبرالية» وتاريخ مفهوم «الحرية» فى الصفحات الأولى لكتابه أن العالم العربى ليس مهيأ لها، ويؤكد أن دروس التاريخ السياسى لأوروبا وأمريكا الجنوبية تعلمنا أن الحرية استبقت الديموقراطية على الدوام، وأنه ليس بوسع أى بلد إقامة ديموقراطية حقة تلقى قبولا سياسيا واقتصاديا من الولايات المتحدة إلا بعد أن يجرى لبرلتها اقتصاديا. وعلى حين أن الجماهير الأمريكية لم تلاحظ حقيقة أن فلسفة زكريا تحرم الملايين فى العالم النامى من حقهم فى المشاركة فى حكم بلدهم إلا أن تلك الحقيقة لفتت انتباه الصحافة العربية، حيث علق عبدالنبي بن علي، الصحفى العربى بقوله إن وقاحة تلك الهندسة الفجّة تؤكد أن فاعلية تعليقات زكريا على الأوضاع فى الشرق الأوسط تكمن فى طلاقته كـ«نبى للديموقراطية النيوليبرالية».

فاعلية نماذج النجاح التى تنجز محلياً:

على حين أن زكريا أعاد تشكيل نفسه كبرجماتى وسَطى أثناء سنوات أوباما، فقد كانت سنوات بوش هى التى أتاحت له الفرصة لتطوير السياسات المحافظة التى كان قد نمّاها فى العقد السابق، وللاستفادة أيضا من آراء المحافظين الجدد التى تبناها لويس عن الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أنه من المنطقى ترجمة الإصلاح النيوليبرالى إلى إصلاح سياسى ولبرلة اجتماعية إلا أن سنوات بوش مثلت فرصا واقعية غير مسبوقة لتطبيق ذلك، استند إيمان زكريا بالنيوليبرالية إلى حقيقة قوة

الولايات المتحدة الجيوسياسية، وفى إطار هذا التوجه، رأى أنه ينبغى أن تظل للولايات المتحدة علاقة بما يجرى من أحداث من خلال سياسة خارجية استباقية، وآنذاك، كان بإمكان سياسة «القوة الصلبة» التى تبناها بوش ضمان هذا بأسلوب غير ملتبس. كانت الذريعة الأيديولوجية الأكثر إقناعا بشأن الحفاظ على علاقة الولايات المتحدة هذه هى فكرة الإلزام الأخلاقى كما طرحها لويس والمحافظون الجدد. وعلى الرغم من أن زكريا كان يتفق معهم على أن للولايات المتحدة واجبا أخلاقيا للدفع بالديمقراطية فى العالم العربي، إلا أنه كاستراتيجى ومعلق سياسي، رأى أنه ينبغى أن يواكب «أجندة الحرية» إصلاح اقتصادى وفتح الأسواق العربية وتحرير للتجارة وإعادة الهيكلة البنيوية.

من ثم، أخذ زكريا برأى غلاة المحافظين الجدد القائل بأن الشرق الأوسط بحاجة إلى قصة نجاح يتم إنجازها محليا، حيث تم الاتفاق على أن قصة النجاح تلك ستنجز فى العراق. ذهب زكريا إلى أنه رغم ضعف قدرات شعوب المنطقة الدائم إلا أنهم ينبغى أن يضطلعوا بمهمة الإصلاح، كما أن على الولايات المتحدة أن تدعمهم، حيث إن التغيير يمكن أن ينجز فقط من خلال طبقة محلية من النيوليبراليين تساعدها واشنطون، بل وتوجدها إذا اقتضى الأمر. كانت هذه تحديدا هى الأفكار التى عبر عنها وولفويتز. وبيرل ورمسفلد فى الاجتماعات التى عُقِدت بالبيت الأبيض فى أعقاب ٩/١١ حيث ساد الرأى القائل بأنه إذا أطاحت الولايات المتحدة بحاكم مستبد، ستصعد طبقة جديدة من أصحاب المشاريع الأشخاص والديموقراطيين وتخلق «شرق أوسط جديد»، بحسب تسمية كوندليزا رايس له لاحقا أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦. ذهب زكريا وغيره من أمثال دونالد رمسفلد إلى أن العراق كان المرشح الأول لهذا التغيير بسبب تاريخه العلماني، ووجود طبقة وسطى راسخة وثروته النفطية. هنا، كانت كتابات زكريا فى صحافة التيار السائد تعبيرا عن نفس المشاعر والتطلعات التى جاءت بالخطاب المفتوح للرئيس كلينتون عام ١٩٩٨ الذى وجهه أعضاء الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت.

فى عام ٢٠٠٣، نشر زكريا أمام الرأى العام الأمريكى ما يعتبر بروفة لرؤية اقتصادية وسياسية راديكالية جديدة للعراق حيث بيّن قائلا «لو أطاحت الولايات المتحدة بصدام» ومضت تنفذ مشروعا طويل الأمد لبناء الأمة، فبإمكان العراق أن يصبح أول بلد عربى كبير يجمع بين الثقافة العربية والدينامية الاقتصادية، والتسامح الديني والسياسة الليبرالية والنظرة الحديثة إلى العالم». كانت معاييره للنجاح فى تغيير النظام واضحة حيث رأى أن العراق مرشح لهذا لأنه بلد به انقسامات مناطقية وإثنية ومذهبية قوية. ذهب أيضا إلى أنه لا يجوز أن يفهم تغيير الأنظمة على أنه يقتصر على حالة واحدة، الأحرى أن فاعليته تكمن فى قدرته على استنساخ نفسه فى بلدان أخرى ثم يختتم قائلاً إن «النجاح مُعْدٍ». وفيما يصادق دوجلاس فيث فى «مذكراته» على أن ذلك كان هدف البيت الأبيض فى عهد بوش، يُبين الجنرال ويزلى كلارك فى كتابه بعنوان «كسْب الحروب الحديثة» أنه تلقى قائمة بسبعة بلاد شرق أوسطية عيّنها البيت الأبيض في عهد بوش لتغيير أنظمتها وكان من بينها إيران ولبنان وسوريا والسودان، وكانت إدارة بوش قد أعلنت تلك الخطة الطموحة فى مذكرة نصت على أن هدفها هو تحقيق هذه الغاية فى غضون خمس سنوات.

أمدت كتابات زكريا التيار السائد بإطار تبدو من خلاله «أجندة الحرية» التى تبناها بوش منطقية جدا. صادقت تحليلاته على آراء «فلاكنة» بوش وصقوره وأكدت بأسلوب جازم أن مشكلات العالم الإسلامى على درجة من الخطورة بحيث أصبحت تمثل تهديدا لأمن الولايات المتحدة. من ثم، فإنه وفيما تحافظ واشنطون على أمن أمريكا يمكنها أيضا تحرير المجتمعات المسلمة التى أصابها الوهن نتيجة إخفاقاتها وبسبب أنظمته الجامدة المحتضرة. وفيما يُقر زكريا بأن المسلمين ليسوا جميعا متخلفين بالضرورة، فإنه يتفق مع لويس الذى يرى أن العالم العربى قد نجح فى تسميم معتقدات العالم الإسلامى من خلال مناهج الدعوة التى تُدرَّس بالمدارس الدينية التى تمولها البترودولارات العربية من ثم يجب أن تضطلع الولايات المتحدة بدور استباقى تدخلى لإصلاح المجتمعات شرق الأوسطية. وإذا كان بوش قد وقف

[بعد غزو العراق] أمام لافتة كُتِب عليها «المهمة أُنجزت»، فإنه وتشينى مَضيَا يُكرّران أن المهمة الكبرى هى حرب شاملة على الإرهاب لا يمكن التنبؤ بنهاية لها، حرب «عادلة» و«ضرورية» تستهدف أعداء الحداثة والديموقراطية وحكم القانون.

الخلاصة:

ونحن نختم هذا الفصل، لابد من توضيح بعض النقاط. إن السبب المباشر فى جو الحصار الذى يعيشه المسلمون فى أنحاء العالم هو سياسات الولايات المتحدة المستدامة منذ «عاصفة الصحراء». بيد أن هذا لا يعنى أنه لم يكن ثمة جو من الازدراء ومحاولات التقسيم وبث الفرقة والتحكم قبل عام ١٩٩١، هذا على الرغم من أنه لم يكن بمثل هذه الحدة. فقد حدثت حالات تدخل أمريكية عديدة فى الشرق الأوسط قبل حرب الخليج. فى عام ١٩٥٨، أرسل الرئيس أيزنهاور قوات أمريكية إلى لبنان لدعم كميل شمعون رئيسها الموالى لأمريكا، والذى كان على وشك السقوط. كان شمعون قد أقال، بأسلوب غير قانونى، عددا من الوزراء الناصريين، وحاول، فى مخالفة للدستور، تمديد رئاسته فترة أخرى. وحينما قامت القوى التقدمية المسلمة فى غالبيتها، بالتمرد ضده، أمر أيزنهاور بنشر قوات المارينز فى لبنان لإنقاذ الحكومة، ثم قامت الولايات المتحدة، وفى وجود المارينز على الأرض بتنصيب فؤاد شهاب، وكان قائدا سابقا للجيش، ذا ميول قومية ويحظى بالاحترام، لكنه لم يكن ذا توجهات ناصرية أو اشتراكية. وفى نفس العام، أطاح الجنرال عبدالكريم قاسم بالنظام الهاشمى العميل فى العراق. ثم تحالف مع الاتحاد السوفييتى وانسحب من حلف بغداد الذى كان يضم إيران وتركيا وباكستان والعراق وبريطانيا، والذى كانت بريطانيا قد عملت على تشكيله بعد عامين من الانقلاب الذى دبرته السى آى إيه ضد محمد مصدق، رئيس الوزراء الإيرانى المنتخب ديموقراطيا، وإعادة تنصيب الشاه. ثم مضت السى آى إيه، وقد شجعها نجاحها فى إيران فى لعب دور محورى فى الانقلاب البعثى الذى أطاح بعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣. أما المواجهة التى حدثت بين أيزنهاور، وبين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل فى عدوان عام ١٩٥٦ فلم تكن بدافع

الحرص على سيادة مصر بل كانت خطوة حصيفة لتجنب أى تصعيد مع الاتحاد السوفييتى [وإنهاء دور بريطانيا فى الشرق الأوسط]، هذا على الرغم من أن مصر بقيادة عبدالناصر كانت من دول عدم الانحياز. بيد أنه أثناء الحرب الباردة، فإن قائمة التدخلات الأمريكية فى الشرق الأوسط وسياساتها العدوانية هناك، بما فى هذا دعم واشنطون الذى لا يتزعزع للصهيونية الكلونيالية ومساعدتها على تحقيق أهدافها، كان مردّه الأساسى التنافس بينها وبين الاتحاد السوفييتى على السيطرة على العالم.

يجسد تاريخ سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى العراق تغير سلوك واشنطون تجاه الأنظمة العربية. فعلى حين أن السى آى إيه ساعدت الانقلاب البعثى عام ١٩٦٣، إلا أن العراق عاد إلى الحظيرة السوفييتية فى نهاية سيتينيات القرن الماضي، ثم كان دفء العلاقات بين صدام حسين ورونالد ريجان إيذانا بمقدم العصر الذى نعيش فيه الآن حيث إن هذا التقارب حدث فى أعقاب ظهور الإسلام الثورى بقيادة الخمينى على المسرح العالمى من ثم، طورت واشنطون علاقات عسكرية وثيقة مع حكومة العراق «المعادية للديموقراطية» بل والاشتراكية أيضا وذلك من أجل استخدامها للقتال ضد الإسلام الجهادى الذى تمثله إيران والذى كان يهدد باختلال توازن القوى الإقليمى وأيضا اختلال سوق النفط العالمي. ومن جهة أخري، كان صدّام، الذى كان محاطا بالأخطار، على أتم استعداد، وعلى الرغم من مزاعمه عن «إيمانه» بـ«الاشتراكية والقومية العربية والعلمنية»، أن يتلقى المعونات العسكرية من الغرب من أجل إنجاز مخططاته فى مختلف المناطق العراقية، وتحقيق طموحاته السياسية الإقليمية.

فى ثمانينيات القرن العشرين، بدأ التموضع الأيديولوجى للولايات المتحدة فى التحول من مواجهة النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط إلى الحاجة للتحكم المباشر فى المناخ السياسى فى العالم العربى وإدارته، وبخاصة مع صعود الإسلام السياسى القتالي. ظلت سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى الشرق الأوسط سواء فى وجود الاتحاد السوفييتى أو فى عصر العولمة، تقوم على زرع الفُرقة، واستخدام المؤامرات

وممارسة الضغط الاقتصادى أدوات رئيسية لها. أما الدوافع الأساسية التى شكلت تقليديا الركائز التحتية لتلك السياسة شرق الأوسطية فقد ظلت مصالح إسرائيل وأمنها والمصالح النفطية. تم توثيق تاريخ اهتمام الولايات المتحدة بنفط الشرق الأوسط جيدا، وقد زاد هذا الاهتمام الآن بأكثر من أى وقت مضى، حتى أن آلان جرينسيان بين آخرين، قد أكد بوضوح أن غزو العراق كان من أجل «أمن النفط».

كثيرة هى التعليقات والتحليلات التي تتناول دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وسيتم مناقشة هذا الموضوع نقدياً في الفصل السادس من هذا الكتاب حيث سنقوم بتفنيد كثير من النظريات السائدة عن هذه العلاقة الوثيقة ومنها تلك التى تفسر ولاء واشنطون للدولة اليهودية وإذعانها لها على أساس أن إسرائيل تعمل طابورا خامسا للولايات المتحدة. أيضاً، يزعم جون ميرشيمر وستيفن وولت فى ورقتهما الشهيرة أن اللوبى اليهودى الأمريكى والمسيحيين الإنجيليين الموالين لإسرائيل هم من يعززون دعم الولايات المتحدة لإسرائيل إلى حد كبير مستخدمين نفوذهم المالى فى العملية السياسية، ويذهبان إلى أن هذا الدعم أثّر سلبيا على مكانة الولايات المتحدة فى العالم العربي، كما أنه يعمل ضد مصالح البلد الحقيقية. بيد أن الآراء الشعبية ونظريات المؤامرة عن الولايات المتحدة لدى شعوب الشرق الأوسط تشير إلى ما هو أكثر من شعب واهم مخدوع - بل العكس هو الصحيح. يذهب أحد تفسيرات تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية فى المنطقة، والتى تبدو لا مبالية وقصيرة النظر وإمبريالية وقاصرة، إلى أنها ذات دوافع أيديولوجية بحيث يمكن أن تنطبق عليها تفسيرات المنظرين بداية من ماركس وحتى ألتوسير. أى أن الآراء والتنظيرات الهجومية الخبيثة [عن العرب والمسلمين] والتى تفحصناها فى هذا الفصل ليست شذوذا أو انحرافا للثقافة السياسية الأمريكية، أو نتيجة عملية اختطاف للمبادئ الأمريكية بعد أحداث ٩/١١ التى روعت الأمريكيين. الأحرى أن تلك النماذج التنميطية للعرب عضوية ومصدرها اللاوعى «الأمريكي» السياسي، وقد أوردنا فى هذا الفصل تفاصيل التحليلات التى تتسم بالإسلاموفوبيا، والتى أصبحت حقائق

مفترضة يُبحث من خلالها الشرق الأوسط ويناقش فى الإعلام، وتبّرر بها السياسات الداخلية والخارجية الأمريكية.

يذهب هذا الكتاب لاحقا فى نقاشه للصهيونية إلى أن الولايات المتحدة تتعاطف جوهريا معها وذلك لأن لتلك الأيديولوجيا ذاتها أصداء عميقة تتناغم مع التاريخ السياسى والعسكرى الأمريكى. للمسيحيين الأمريكيين إرث طويل من معاداة السامية، وعلى الرغم من الدور البارز لليهود الأمريكيين فى الحياة السياسية للحزبين إلا أن معاداة السامية من مكونات اللاوعى الثقافى للأمريكيين البيض. من ثم، فإن هذا الدعم الذى لا يتزعزع لإسرائيل لا ينجم فقط عن مشاعر الذنب حول الهلوكوست أو القبضة الحديدية للوبى الصهيونى بقدر ما ينجم عن تماهى المسيحيين شمال الأمريكيين مع رغبات الأوروبيين فى استعادة الأرض التى وعدهم الرب بها فى سفر التكوين. مثلا، وعد الرئيس هارى ترومان المعادى للسامية حاييم وايزمان ودايفيد بن جوريون بالاعتراف بإقامة دولة إسرائيل حتى قبل إعلان قيامها على الرغم من معارضة أصدقائه ومستشاريه القدامى كلارك كليفورد وإبراهام جرانوف وإيدى جاكسون ومحاولتهم إثناءه عن ذلك. كان سلوك ترومان القسرى نتيجة مشاعره الدينية العميقة من جهة، وقناعته بحق اليهود الأوروبيين فى «أرض الميعاد» على الرغم من ملكية العرب الفعلية لتلك الأرض منذ أكثر من ألف عام.

من ثم، فعلى الرغم من أن برنارد لويس قد ظل صهيونيا متشدداً منذ زمن، وأن صهيونيته شكلت جوهر أبحاثه وكتاباته ونشاطه السياسى لعقود، فإن قضية الإسلاموفوبيا ذاتها لا تتعلق بإسرائيل. كما أنه، ومن جهة مغايرة، فلا أهمية لحقيقة أن زكريا شخص مسلم. ونظرا لأن الإسلاموفوبيا تنمو من حطام الإرث الاستشراقي، فإنها تتمحور حول إسقاط الذات الأوربية على الشرق الأوسط، بل وغرسها هناك، فيما تقوم أيضا، بتحديد هوية شرق الأوسطيين وعزلهم من أجل «تطويقهم» فى منطقتهم. تتعلق الإسلاموفوبيا بالتحكم فى «الآخر» الذى يمثل تهديدا لنظرة أمريكا البيضاء إلى ذاتها، وإلى مصالحها الاقتصادية والسياسية الذاتية فى

عصر العولمة. توضح لنا كتابات لويس وزكريا أن «العقل» الأمريكى الذى يتجلى فى تلك الكتابات ليس من بقايا الماضي، وتخبرنا أيضا كيف ينظر المسئولون الأمريكيون المنتخبون والمشتغلون بالإعلام ومحترفو السياسة إلى العالم ويبررون التحكم فيه. يمثل هذا الوعى مرتكزات كشوفات هذا الكتاب؛ أى أن الإسلاموفوبيا أيضا هى تشكيل أيديولوجى ينجم عضويا عن نظرة أمريكا البيضاء المتعالية إلى العالم والتى تسعى إلى تبرير مصالحها السياسية التى تتناقض مع المبادئ الليبرالية التى يتبناها الأمريكيون.

يبلور كتاب مايكل أورن «القوة، العقيدة، والفانتازيا» والذى يسرد تاريخ مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط من وجهة نظر صهيونية، صورة العرب فى «العقل السياسى الأمريكي». ليس افتقاد الكتاب لأية قيمة أكاديمية هو المهم، بل اللافت أنه يعكس بوضوح شيطنة الأمريكيين للعرب والمسلمين، وافتتانهم بهم فى آن. تؤكد رواية أورن أن الأمريكيين أبعد ما يكونون عن العنصرية ومعاداة السامية وتتشارك مع كتابات زكريا ولويس فى التجاهل المتعمد لتاريخ الأمريكيين والغربيين العنصرى والإمبريالى بعامة وبجزم، بدلا من ذلك، بأن الإرث الثقافى والدينى الذى يتشارك فيه الأمريكيون مع إخوانهم اليهود فى أرض الميعاد يأسر لب الأمريكيين، وأن الولايات المتحدة ظلت دائما أمة ذات مبادئ تعمل وفق دستورها الأخلاقى (المسيحي) ويذهب إلى أن اليهود والمسيحيين الأمريكيين يمثلون قوة حضارية فى مقابل العالم العربى الذى يسوده التعصب والبربرية كواقع ثقافي. من المفارقات أن أوجه قصور الكتاب أكثر جاذبية بكثير من روايته المعتلة التى تنضح بالإسلاموفوبيا وكراهية العرب، ذلك لأن تحيز الكتاب المقيت، والذى كان موضع إطراء إعلام التيار السائد، يعكس بدقة الكيفية التى ترى بها الولايات المتحدة العالم العربى والإسلامى إذ إنها لا تنظر إليه فقط على أنه مستودع النفط الذى يغذى الصناعات الأمريكية، بل تراه أيضاً تهديدا يجب احتواؤه والتحكم فيه.

فى واقع الأمر، فقد أظهرت الأنظمة شرق الأوسطية وقطاع كبير من سكان

المنطقة الود للعولمة والنيوليبرالية، حتى أن أعدادا لا حصر لها من المثقفين اليساريين والإسلاميين، والناشطين يقولون إن المنطقة أظهرت ترحيبا مفرطا بتلك التوجهات، وأن تطبيق تلك السياسات قد نجم عنه بالفعل قدر كبير من الدمار البيئي، وندرة الطعام، وإعادة توزيع الثروة وتركيزها فى أيدى النخبة وزيادة ترسخ الطبقة السياسية ومؤسستها. بيد أن بعض المسلمين والعرب ظلوا يقاومون ضغط الغرب من أجل فرض تحرير التجارة، والسياسة الخارجية النيوكلونيالية، والتدخل العسكرى المباشر، وأيضا الحكم السلطوى الذى يمارسه من تدعمهم هذه السياسات وتبقى عليهم. وفى واقع الأمر، لم يكن المسلمون أبدا «ضحايا طيبين» حيث ظلوا دائما يرفضون الاستسلام والكُمون فى وضع «المعرضين للمخاطر».

نشاهد على شاشات القنوات الفضائية الإخبارية، الفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين وهم يلوّحون بجثامين أطفالهم الذين قتلهم الأمريكيون، أو الأسلحة والذخائر الأمريكية، وعادة ما ينجزون، عن حق، وعودهم بالثأر لقتلاهم.

بيد أن إعلام التيار السائد الأمريكى لا يفهم مقاومة العرب لأعمال عنف المستوطنين والمستعمرين الصهاينة، ومقاومة المسلمين من باكستان إلى المغرب للنيولبيرالية والجرائم السياسية الأمريكية فى المنطقة، لا يفهمها سوى على أنها برهان على تخلفهم. بل إن رفضهم لأن تسحقهم قوة الولايات المتحدة أحادية القطب، أو العولمة النيوليبرالية، «تبرره فى نظر الرأى العام الأمريكي، مزيدا من استخدام القوة سواء من خلال التدخل العسكرى المباشر، أو من خلال وكلائهم فى إسرائيل وأفغانستان وباكستان ومصر ولبنان والمغرب. لم يحدث وأن تم تجاهل القرارت الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بشأن أى بلد فى العالم، ناهيك عن التحقيقات على غرار تقرير جلادستون، لم يحدث وأن تم تجاهلها بوقاحة، وصلف كما يتم فى حالة القرارات المتعلقة بالبلاد العربية، وبخاصة فلسطين ولبنان. لم يحدث وأن استخدمت قرارات الأمم المتحدة آلية للقمع والعزل والتحكم سوى تلك التى تصدر ضد بلدان العالم العربى (كما حدث فى حالة العراق). لم يتعرض أى شعب لأعمال عنف إجرامية

من جانب الولايات المتحدة وحلفائها (بخاصة إسرائيل وتركيا) بأكثر مما تعرضت له الشعوب العربية (فى فلسطين ولبنان والعراق). لنا هنا أن نذكر قول مادلين أولبرايت بأن مصالح الولايات المتحدة أكثر أهمية من موت نصف مليون طفل عراقي، وكذلك تصريح كونداليزا رايس بأن دماء مئات القتلى المدنيين أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ هى مخاض ولادة الديموقراطية والشرق الأوسط الجديد. وفى واقع الأمر، فلا يسمح للعرب أبدا أن يعتقدوا أن حياتهم واستقراراهم ومستقبلهم تعادل فى قيمتها حياة واستقرار ومستقبل الإسرائيليين أو الأمريكيين أو الأوربيين. مهما كان ثقل الواقع أو التاريخ، ومهما قاوموا هندستهم اجتماعياً واقتصادياً، أو ساروا فى ركاب النيوليبرالية، فإن العرب والمسلمين يدركون جيدا أنهم سيظلون أنجاسا منبوذين فى أعين العالم الغربي.

الفصل الثالث

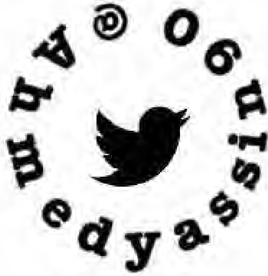
«الخبرات» المحليات

النساء والذرائع الأخلاقية لهيمنة الغرب

لعبت النساء، كعميلات ورموز، دورا مركزيا في تسويغ «الحرب على الإرهاب»، التي شنها بوش وفي «أجندة الحرية» التي واكبتها، وأيضا في سياسة «اليد المفتوحة» التي انتهجها أوباما تجاه العالم الإسلامي. يرى زكريا أن العرب تقبّلوا مُرغمين تخلص النساء من الحجاب كدلالة علي الحداثة بعكس نظرائهم المسلمين في أنحاء أخرى مثل تركيا الذين فعلوا ذلك بإرادتهم– هذا علي الرغم من توقف هذا التوجه حاليا في ظل صعود حكومة أردوغان. يؤكد زكريا، متحديا التجليات التي نشهدها في مختلف البلاد الإسلامية والعربية، أن الأنظمة السلطوية الصديقة تستحق دعم الولايات المتحدة لأنها تحرص علي حقوق النساء بالتقابل مع الأصوليين الذين لابد وأن يسعوا لحرمانهن من تلك الحقوق، بل إن المجموعات النسوية التقليدية المعادية للحروب مثل تلك التي تقودها ميديا بنجامين وكود بينك قد ذهبت هذا المذهب. وتلك الأطروحة ليست بالجديدة، فقد كانت قد استُخدمت مثلا من أجل دعم شاه إيران.

وبالمثل، كان لويس قد ظل لعدة عقود يلفت الانتباه إلى سوء «معاملة النساء»، «وبطريركية» العالم العربى التى رأى أنها سمة محددة للثقافة العربية، أى أنها أحد الاختلافات المفتاح التى تميزها عن الثقافة الغربية. يذكر فى كتابه «أين الخطأ؟» أن «وضع النساء قد يكون أكثر الاختلافات عمقا بين الحضارتين». كما يعتبر أن عدم تحرير النساء هو الملمح المحدِّد الذى يؤكد تخلف المجتمع العربي/ الإسلامى «إنه محك الاختلاف بين التحديث والغربنة، والغربنة، بالنسبة للمحافظين التقليديين والأصوليين المتطرفين ليست ضرورية أو مُجدية، بل ذميمة ضارة، خيانة للقيم الإسلامية الحقة».

تماثل هذه الأطروحات ما جاء فى أعمال بعض المثقفين العرب مثل هشام شرابى وحليم بركات اللذين ساهما ما قال به لويس، بل إنها مجتزأة من تلك الأعمال. يذكر شرابى فى كتابه «البطريركية الجديدة» أن أساليب التفكير البطريركية، وبخاصة



التفريق بين النوعين، أعيد العمل بها فى العالم العربى أثناء فترة الحداثة، مما أدى إلى وجود ما يسميه زكريا أنظمة ومجتمعات «غير ليبرالية». من المهم هنا أن نذكر، وعلى الرغم من أن أعمال شرابى أكثر تعقيداً بكثير وإلماما بالمعلومات من أعمال زكريا، أن استخدام الأصوات العربية النافذة للعرب هى استراتيجية استُخدِمت لخدمة «الحرب على الإرهاب» مثلما استخدمتها وزيرة الخارجية هيلارى كلينتون فى «الحملة الكوكبية من أجل النساء».

ظلت قضايا الجندر والجنسانية منذ وقت طويل نقاطاً جدالية فى مناقشات العالم الإسلامي، داخليا وخارجيا، وكانت قضايا الجندر تستخدم نقاطا فاعلة فى حشد الرأى العام للطعن فى المسلمين جميعهم وفى الثقافات الإسلامية وبدءا من أوريانا فلاسى، ويتى محمودى وآزار نفيسى وأزاده مواڤنى و إسراء نعمانى، ظلت النساء تطلقن حملات نقد طنانة ضد الرجال المسلمين والثقافات الإسلامية التى تشجع على

كره النساء وعلى البطريركية بحيث بدت تلك الممارسات أكثر كثيرا مما يحدث فى الثقافات المسيحية واليهودية والهندوسية فى الغرب وجنوب أمريكا وآسيا وإفريقيا.

القائمة - B: دعاة الإسلاموفوبيا المحليين/ المحليات

ظلت قضية الجندر شوكة رئيسية فى الرمح ثلاثى الشُعَب الذى يستخدم استراتيجيا لتوحيد الحزبين والدعم الجماهيرى لتدخل الولايات فى العالم الإسلامي. ينهال على الإعلام باللغتين العربية والإنجليزية طوفان من الهجمات التى تشنها مُدّعيات مسلمات وعربيات مثل إيان هيرسي علي، وإرشاد منجي ودونى درويش ووفاء سلطان، وبريجيت جبرييل، هجمات ذات مركزية أوربية على الإسلام. لا تذكر مراكز الأبحاث اليمينية، ومؤسسات العلاقات العامة، ومجموعات المصالح الصغيرة وغيرها من «المراكز» المزيفة التى تبنت هؤلاء النساء حقيقة أنهن لا يتمتعن بأية خبرة أو مسوغات أكاديمية أو سياسية. مثلا، نذكر أن جبرييل مسيحية يمينية لبنانية عملت لحساب جيش لحد الجنوبى الذى كان ميلشيا عميلة لإسرائيل فى جنوب لبنان المحتل أنذك. بدأت عملها «الصحفي» فى تليفزيون الميدل إيست، المنفذ الإعلامى لشركة البث الإعلامى المسيحى التابعة لرجل الدين المتعصب الأمريكى پات روبرتسون، فى فلسطين ولبنان. وبدون أى تدريب رسمى كصحفية أو حتى درجة جامعية أصبحت شخصية إعلامية فى محطة تليفزيون الميدل إيست الإخبارية بالقدس الشرقية المحتلة. تتحدث علنا وكأنما هى مرجعية مطلعة «من الداخل» على الرغم من أنها مسيحية لبنانية يمينية لا تربطها علاقات حقة بمواطنيها المسلمين حيث إنها غادرت لبنان إلى إسرائيل بعد المرحلة الثانوية مباشرة. تقوم مكانة جبرييل الوظيفية على أساس إطلاق التحذيرات الشوفينية التى تؤكد رغبة المسلمين فى تدمير كل ما هو طيب وجميل، وعلى الرغم من فجاجة هذياناتها إلا أنها تتكون بشكل أساسى من سرقات أسوأ الأعمال الأكاديمية الزائفة التى تروج للإسلاموفوبيا مثل كتابات روبرت سبنسر، وستيف إمرسون وبات يائور ورفائيل بطى الذين يذهبون فى هذيانهم إلى حد الجنون بحيث تبدو كتابات برنارد لويس أكاديمية وموضوعية بالمقارنة. بيد أن الفضل فى

وصول جبرييل إلى الجمهور الغربي يرجع إلى كتابين أصدرتهما لها، للأسف، اثنتان من دور النشر المحترمة وهما: «لماذا يكرهوننا: ناجية من الإرهاب الإسلامى تحذر أمريكا» و«ينبغى أن نوقفهم: لم يجب علينا هزيمة الإسلام المتطرف وكيف نستطيع ذلك؟».

ليست جبرييل الوحيدة التى تستعمل لقب «صحفية» لإضفاء ما يشبه المصداقية على كتابات مبتذلة وعلى سيرة وظيفية خالية من المسوغات. نونى درويش مسلمة تحولت إلى العقيدة المسيحية الإنجيلية، وأسست جماعة «عرب من أجل إسرائيل»، تذكر فى سيرتها الذاتية أنها عملت لبضع سنوات فى شركة إعلامية تملكها الدولة بيد أنه ليس ثمة ما يثبت صحة هذا. تمكنت، كابنة لضابط مصرى قُتِل أثناء إقامته فى غزة من أن تؤسس لنفسها مكانة فى الأوساط الإنجيلية اليمينية بصفتها «مخبرة من الأهالي»، بنشر عملين دعائيين عُصابيين ضد الإسلام والمسلمين بعنوان «بسمونتى كافرة» و«عقوبة غير معتادة» ثم بثت «مقالا» على الإنترنت تتهم فيه الرجال المسلمين بزواج بنات قد يبلغن من العمر عاما واحدا، ثم يتملكوهن لدى بلوغهن التاسعة. ونونى التى لا تملك أية مؤهلات أكاديمية أو بحثية أو مهنية تسوغ لها الحديث عن الإسلام باستثناء «خبرتها» الخاصة وحياتها كمسلمة سابقة، تصور نفسها كضحية وبطلة فى آن، وهو أمر معتاد فى كتابات «المخبرين/ المخبرات المحليين» وبخاصة النساء اللاتى يُعلنّ آراءهن المعادية للإسلام.

بعد ٩/١١، ثم بتزايد بعد غزو العراق، تسللت أعداد أكبر من «المخبرات المحليات» إلى إعلام التيار الرئيسي، وتمثل وفاء سلطان النموذج الكامل لهذه الظاهرة حيث تجمع بين الانتهازية ومسوغات «المخبرات المحليات». أبحرت سلطان إلى إعلام التيار السائد الأمريكى تدفعها رياح الإسلاموفوبيا البغيضة التى انطلقت من صندوق باندورا المليء بالشرور والذى فتحه تعطش الإعلام لقصص الرعب التى ترويها نساء مسلمات عن الآباء والأشقاء والأزواج المسلمين. ومثل درويش وجبرييل، فإن ما اكتسبته سلطان من شهرة خاطفة لم يكن بسبب قوة روايتها أو مصداقيتها، بل

بسبب تعطش الجمهور الأمريكي واحتياج حكومته إلى رواية تبرر العسكرة الأمريكية، والحرب على أفغانستان والعراق والدمار الذى لحق بهما، والقصف غير المشروع لباكستان واليمن، والدعم العسكرى لإسرائيل وإمدادها بالأسلحة الفتاكة لقتل المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين. أما الفرق بين سلطان ونظيراتها فهو أنها تسوّق نفسها بصفتها «إخصائية نفسية» هذا على الرغم من أنها لم تمارس المهنة بالولايات المتحدة، كما لم تحصل على مصادقة أو اعتراف من «الجمعية النفسية الأمريكية». لا يعطى لقبها كإخصائية نفسية مصداقية لما تقوله عن «العقل العربي» بقدر ما يمنح التبريرات للسياسة الخارجية الأمريكية باعتبار أن مصدرها شخصية مهنية.

ليس ثمة أسباب قوية تجعلنا نصدق أى شيء تقوله سلطان التى حصلت على وضع قانونى بالولايات المتحدة من خلال ملابسات مشبوهة بأن قامت بتقديم طلب إقامة بمقتضى خطة للعفو الشامل اختُص بها عن المهاجرين غير الشرعيين العمال اللاتينيين. عملت بمطعم للبيتزا فى جنوب كاليفورنيا، وكانت بين الآونة والأخرى تقوم بكتابة مقالات لموقع إلكترونى سوري/ أمريكى يمينى يملكه مسيحى إنجيلى سوري. أدت دعايتها لنفسها فى الوسائط الإلكترونية العربية إلى تسللها وظهورها الأول على قناة فضائية إخبارية حيث استضافها فيصل قاسم فى برنامجه «الاتجاه المعاكس» على قناة الجزيرة (٢١ فبراير ٢٠٠٦)، حيث لم تُضيّع على نفسها الفرصة لخلق مشادة خلافية، فى مناظرتها مع شيخ أزهرى «درجة ثانية». مضت تجتر تأكيداتها التى اختبرتها حول لا عقلانية الثقافة العربية وقمع النساء ثم هاجمت عدم قدرة الإسلام على السماح بالعلمانية وأصرت على وجوب صنع سلام مع إسرائيل. وعلى حين أن سلطان كانت نكرة مجهولة قبل ظهورها على الجزيرة فقد أكسبها ذاك الظهور شهرة مؤقتة وسوء سمعة فى الوسائط الإعلامية العربية أيضا، سرعان ما بثت مجموعة MEMRI الإعلامية الصهيونية ترجمة لهذا الحوار حيث تم تداوله فى عدة قنوات مما جعل من سلطان الطفلة المدللة فى أوساط الإسلاموفوبيا المتطرفة. نتيجة لهذا استطاعت أن تؤسس لنفسها كيانا مهنيا فى هوامش الحياة السياسية الأمريكية وأن تشبع رغبة التيار السائد لمزيد من البذاءات اليمينية حول الإسلام.

ومثل كثير من نظيراتها، استطاعت سلطان استغلال النقاشات الخلافية التى ارتبطت بها لتحصل على عقد لكتاب نشرت به سيرتها الذاتية بعنوان «الرب الذى يكره: المرأة الجسورة التى أشعلت العالم الإسلامى تتحدث ضد شرور الإسلام»، حيث كالت الاتهامات غير المسئولة للمسلمين وللثقافة العربية واصفة إياهم بالعصابيين غير الأسوياء نفسيا.

هذا الصف الثانى من «المخبرات المحليات» يتشاركن فى الكثير. يتناقض تحولهن السريع من نكرات إلى شخصيات شهيرة مع عدم وجود مؤهلات لديهن تمكنهن من التحدث كمرجعيات عن الإسلام والعالم العربي. كما يتعارض بغضهن العميق للإسلام ودفاعهن المزعوم عن النساء المسلمات مع كراهيتهن الواضحة لثقافة وعقيدة والمجتمعات المحلية لهؤلاء النساء. تسبب تبنى المنظمات اليمينية والإنجيلية والصهيونية لهن فى أن يحصلن على عقود لإصدار كتبهن من دور نشر «محترمة» كانت مستعدة فى تلك الحالات أن تهبط إلى مستوى الصحافة الصفراء. تتبع هذه المشتركات صيغة ثابتة فى صناعة «المخبرات المحليات» فى عالم ما بعد ٩/١١، حيث يحاولن جميعهن أثناء شهرتهن الاستهلالية إقامة جبهات ذات صدقية يقاومن منها الانزلاق مرة أخرى ليصبحن نكرات لا أهمية لهن.

من ثم، غدا خلف كل «مخبرة محلية» منظمة أو معهد تولت هى إنشاءه. شكلت جبريل «كونجرس الحقيقة الأمريكى من أجل أمريكا Act for America»، الذى يسعى لإقامة أفرع له فى المدن فى جميع أنحاء الولايات المتحدة من أجل «تعليم ملايين المواطنين الحقائق عن عدوّنا: الإسلام القتالي. وعلى الرغم من تباهى المركز بمجلس مستشاريه المكون من مشاهير الصهاينة اليمينيين ودعاة الإسلاموفوبيا من أمثال روبرت سبنسر وهارفى كوشنر ووليد فارس، فإن جبريل تعترف فى إيميل تحاول من خلالها جمع التبرعات بعدم وجود موظفين أو هيئة عاملين أو مجلس إدارة أو مكاتب أو تمويل للمركز.

وبالمثل أنشأت درويش تنظيمها السياسى النكرة المسمى «العرب من أجل

إسرائيل» وعلى حين أنها تذكر أن التنظيم لا يعادى الإسلام إلا أنه «يتذكر بعميق الأسى والاحترام العرب الشجعان، المعروفين منهم والمجهولين، الذين قُتلوا أو عوقبوا بسبب دعوتهم للسلام مع إسرائيل» فيما يتناسى الأعداد الهائلة من الفلسطينيين الذين قتلوا أو أنزلت بهم أقسى العقوبات لسعيهم السلمى للحصول على الحكم الذاتى وحق تقرير المصير. حينما لم يترك «العرب من أجل إسرائيل» تأثيرا يُذكر أعادت درويش اختراعه تحت اسم «المسلمين المرتدين المتحدين». وعلى حين أن هذه المجموعة كانت من بنات أفكار درويش التى تعمل مديرة لها، إلا أن وفاء سلطان، وابن الوراق (مؤلف «لِم أنني غير مسلم» و«دفاعا عن الغرب» بين أشياء أخري) وغيرهم يظهرون على قائمة المؤسسين لها. ومثل ACT، فإن الأهداف المعلنة لجموعة درويش هى «تعليم الجمهور الأمريكى وبخاصة السياسيون ومن يعملون فى النظام القانونى للولايات المتحدة حول كيفية تشجيع الشريعة الإسلامية لفرض عدالة الشارع المتشددة وغير القانونية على المرتدين» وأيضا القيام بالدعاية الكافية عن المعاملة التى يلقاها المسلمون المرتدون، بالداخل الأمريكى وفى أنحاء العالم، من نظرائهم المسلمين بما فى ذلك تهديد حياتهم، والعنف الجسدي، والامتهان، والنبذ من المجتمع، والحرمان من الميراث، وتخلى أسرهم عنهم».

من الأمور الدالة، أنه لا يمكن فصل الموقف «الإصلاحي» و«الناقد» للإسلام لهؤلاء عن تعصبهم/هن لإسرائيل. وفى واقع الأمر، فبمجرد وصولهم/هن الاستهلالى إلى التيار الأمريكى الرئيسي، يجد هؤلاء المخبرون والمخبرات المحليون جمهورهم الرئيسى بين الجاليات الصهيونية الإنجيلية واليهودية ويتلقون تمويلهم منهم وتعمل آلة العلاقات العامة والدعاية الإسرائيلية فى خدماتهم بحيث نجد أن الدرجة التى يدعم بها هؤلاء المخبرون/ المخبرات المحليون/ المحليات دولة إسرائيل صادمة وكاشفة لدرجة أن تحيزهم الفاضح يأتى أحيانا بنتائج عكسية. بيد أنه، فليست محتويات بياناتهم وتصريحاتهم أو تكرارهم للدعايات المبتذلة التى عفا عليها الزمن هى المهمة بالنسبة لميكانيزمات الإسلاموفوبيا، وإمبراطورية الولايات المتحدة والسياسات الإسرائيلية،

بل نجد أن وجودهم وتموضعاتهم الهزلية تخدم هدفا مزدوجا. من ناحية، فهم يمثلون نموذجا للاحتضان الغربي والنجاح الذى ينتظر العرب والمسلمين الذين يتحولون إلى البروتستانتية الإنجيلية ويسخّرون أنفسهم وهم جاثون لخدمة المصالح الإسرائيلية والأمريكية. ومن ناحية أخرى، فهؤلاء هم «المخبرون والمخبرات المحليون» المطلعون على بواطن الأمور الذين يتمثل دورهم فى إثبات صحة تنميطات الإسلاموفوبيا، ومن ثم تبرير السياسات الأمريكية والإسرائيلية وجعلها ضرورية.

من ثم، تمضى درويش، وجبرييل وسلطان يتقيأن بصفاقة ودونما خجل الصيغ الأكثر تطرفا من الدعاية الصهيونية اليمينية المعادية للفلسطينيين. يقدمن «نموذجا» للإنجيليين المتطرفين، والمحافظين الجدد، والصهاينة اليمينيين على أن بإمكان العرب والمسلمين «المعتدلين» و«المنطقيين» أن ينكروا أن الفلسطينيين قد عاشوا أبدا فى «الأرض المقدسة»، وأن يوافقوا على أن إسرائيل لم تتعامل أبدا مع الفلسطينيين سوى بكل نبل وشهامة وعدالة. وإلى جانب «أكل العيش»، فإن سبب وجود درويش يكمن فى تعظيمها قدر إسرائيل، والتقليل من شأن الفلسطينيين والاستخفاف بهم إلى جانب التشهير بالمسلمين والإسلام. بعيد ظهور سلطان على الجزيرة، سرعان ما أجرى أحد المذيعين بالإذاعة الإسرائيلية حوارا ومعها، مضى يكرر أثناءه «كم أحبك». وفيما بعد، وباستثناء ظهور نادر لها فى منافذ إعلام التيار السائد الأمريكية، غدت كل أحاديثها مقصورة على المناسبات التى تقيمها الجهات اليمينية الموالية لإسرائيل.

وبالمثل، فقد تواطأت جبرييل مع قوات جيش الدفاع الإسرائيلى أثناء احتلالها للجنوب اللبناني، وبلغت فى انحيازها للصهيونية درجة قال فيها أحد محاوريها بصحيفة الجيروزالم بوست إنها تدمج بين القتال «ضد الإسلام الراديكالي» وبين خلاص الغرب وإسرائيل، وبل والمسيحيين العرب. أيضا، تعمد إلى تزييف تمثيل المجموعات المسيحية والمسلمة فى المنطقة مؤكدة أن المسيحيين ظلوا يعيشون لمئات السنين خاضعين لطغيان المسلمين وظلمهم لهم. وفى واقع الأمر، فإن جوهر ميولها الصهيونية وأنشطتها ونظرتها إلى العالم مستمد من إرث الموارنة اللبنانيين الفاشستى

الذى مثّل الدعامة الرئيسية لأيديولوجيا حزب الكتائب اللبنانى الانتهازية وجيش لبنان الجنوبى العميل لإسرائيل أثناء الحرب الأهلية. تتمحور مهمة جبرييل وجبهة ACT وأنشطتها المدنية حول ضمان أن يظل «المسئولون المنتخبون فى الولايات المتحدة متيقظين فيما هم يؤدون واجباتهم للدفاع عن الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل، الديموقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط وحمايتها» وأيضا «أن يتم تدريب الأعضاء على اليقظة والرد السريع على التحيزات الإعلامية المناهضة للولايات المتحدة وإسرائيل ومعها السلوكيات الاجتماعية والسياسية والدينية».

قد يكون أكثر ما يثير القلق حول القائمة B من دعاة الإسلاموفوبيا المحليين/ المحليات هى الدرجة التى يتودد بها التيار الرئيسى إليهن/ إليهم على الرغم من أصولهن/ أصولهم اليمينية المتطرفة ومواقفهن/ هم المعلنة. وفيما تكمن عائداتهن/ هم المادية فى صلاتهن/ هم بالدوائر الإنجيلية المتطرفة والصهيونية، فقد تم الدفع بهن/ هم قدما إلى واجهة التيار السائد بحيث أصبح هذا الاعتراف بهن/ بهم المصدر الرئيسى لمصداقيتهن/ هم. ولا تعتبر هذه العملية علاقة طفيلية بأية حال. فعلى حين أن سلطان وجبرييل ودرويش طفيليات يقتتن على بغض الأمريكيين للإسلام وحنقهم على المسلمين إلا أن الإعلام الأمريكى والتنظيمات السياسية والمجموعات الدينية بالولايات المتحدة قد استخدمتهن بصفتهن مُطّلعات على بواطن الأمور وحولتهن إلى أدلة تعمل على تحويل الإسلاموفوبيا إلى ظاهرة اجتماعية وثقافية. هذا علاوة على أن ما تقلنه وتكتبنه ضد الإسلام أصبح الأساس الوطيد الذى قامت عليه العسكرة الأمريكية. فى عام ٢٠٠٦، اختارت تايمز مجازين، بأسلوب غير مسئول، وفاء سلطان واحدة من بين الشخصيات المائة الأقوى تأثيرا حيث إن «شكيمتها وموهبتها ونموذجها الأخلاقى يجعلها قادرة على تغيير العالم، وهذا ما هو حادث فعلاً». لدى نقاشنا لإيان هيرسى علي، سنرى كيف أن قائمة تايم مجازين للشخصيات المائة الأكثر تأثيرا ظلت باتساق تُعلى من شأن دعاة الإسلاموفوبيا لمستويات من الصدقية لم تكن متاحة من قبل. بيد أن مسار المخبرات المحليات للشهرة والمجد لا يقتضى أبدا أية مؤهلات أو

خبرة أو إنجازات. لا تحمل سلطان، مثل درويش أية درجة جامعية متقدمة في مجال علم النفس أو العلوم السياسية أو الدراسات الدينية أو الأنثروبولوجي. وفيما أنها تزعم أنها حاصلة على درجة جامعية في علم النفس، فليس لديها ما يثبت أن لديها أية خبرة إكلينيكية أو أنها مارست المهنة في سوريا، وطنها الأصلي.

في واقع الأمر، فإن الصف الثاني من المخبرات المحليات من أمثال جبرييل ودرويش يعتمدن في وجودهن على دعم المحافظين الجدد، والتنظيمات المسيحية الصهيونية، والمجموعات السياسية ومراكز الأبحاث والشبكات الإعلامية بالولايات المتحدة، حيث إنهن مدينات بكل شهرة أو «مجد» حصلن عليه إلى تلك الشبكة، وما تتمتع به هذه المجموعات من نفوذ على إعلام التيار السائد الأمريكي، وعلى التنظيمات السياسية، وتلك علاقة تكافلية وإن لم تكن متسقة. تعتمد تنظيمات ونشطاء الإسلاموفوبيا من أمثال «فريدوم سنتر» الذي يديره هورويتز على الأصوات المحلية لتعزيز رواياتهم وإثباتها، وتزويد الجماهير الأمريكية من الراغبين بأكثر الشهادات والأقوال تطرفا عن الإسلام والمسلمين، والتي يعمل مصادرها المحلية على عدم اعتبارها «عنصرية» كما لابد وأن يكون الحال لو أن مصدرها غير محلي. وفي واقع الأمر، فقد ظلت درويش وجبرييل وسلطان أحد الملامح الثابتة في المناسبة السنوية التي يقيمها هورويتز بعنوان «أسبوع الوعي بالفاشية الإسلامية». وبدورهن، تعتمد تلك الأرزقيات المدعيات على مجموعات الطلبة اليمينيين، وتجمعات المسيحيين الإنجيليين، والمنظمات الصهيونية المتعصبة كوسائل لكسب معاشهن.

هنا تدخل قائمة A للدعاية: الضحايا الأبطال / البطلات

على الرغم مما حققته سلطان ودرويش وجبرييل من إنجازات في أوساط مجموعات المصالح الموالية لإسرائيل واليمينية، إلا أنهن مازلن من الهواة بحيث لا يستطعن إخفاء انتهازيتهن بدرجة كافية مقارنة بغيرهن من المخبرات المحليات اللاتي حققن نجاحات هائلة على المستوى الإعلامي من أمثال أيان هيرسي علي وإرشاد منجي. وعلى حين أن هيرسي علي ومنجي، ومثل نظيراتهن في القائمة B لا يملكن مؤهلات

علمية أو أكاديمية تمكنهن من التعليق المرجعي على الإسلام، فقد تمكنت كلتاهما من اكتساب صيت كناشطات وأكاديميات بناء على مزاعمهما عن اطلاعهما على بواطن الأمور في العالم الإسلامي بحيث وصلتا إلى عمق الأعماق بين جماهير التيار السائد وحققتا «مصداقية» كبيرة. يرجع هذا جزئيا إلى فطنتهما حيث إنهما لم تتحالفا بشكل حصري مع المنظمات الإنجيلية مثلما فعلت درويش وجبرييل. أفادت هيرسي على (الصومالية) ومنجى (الكندية التى ولدت فى أوغندا من أصول مصرية وجنوب أسيوية، حسبما تزعم) من سمار بشرتهما وجاذبيتهما فى الصور التى تبدوان فيها كثائرتين من أراض قصية تتصرفان وكأنما هما نبيتان ونذيرتان تحذران الجماهير من أخطار الإسلام والمسلمين فى وقت تسعى فيه أمريكا البيضاء للعثور على أوجه سمراء تثبت صحة اعتقاداتها العنصرية وتروج لها.

تحقق هيرسى على ومنجى نجاحات بأساليب لا تملك القائمة B سوى تمنّيها. تخفيان جعجعتهما ورطانتهما فى الهجوم على الإسلام والمسلمين فى هيئة توجهات نسوية «ناقدة للذات» وتتبنيان رواية تتحدث لصالح المسلمين وضد الإسلام، فيما لا يجد إعلام التيار السائد أية غضاضة فى تجاهل تناقضاتهما. وجدت الرواية التى تقمصتا فيها دور المدافعات عن تحرير المسلمين ضد طغيان دينهم أرضا خصبة فى شمال أمريكا وأوروبا ما بعد ٩/١١ حيث كان قد تم إعادة ترتيب الخطط السياسية وتسخير الموارد فى تلك البلاد بالكامل من أجل شن «الحرب على الإرهاب». يوضح تظاهرهما بالولاء لارتباطاتهما «الليبرالية» المبكرة - هذا على الرغم من تبنيهما لرواية اليمين حول المهاجرين والمسلمين بالخارج - افتقادهما للنزاهة بدرجة أكبر. أيضا، فإن تقمصهما لشخصية كاسندرا Cassandra[1] غذّى رغبة الجماهير فى العثور على «ضحايا للإسلام من بين معتنقيه لتبرير «ثأر» حكوماتهم من المسلمين، فى الداخل والخارج، والذين كانوا يعتبرونهم مسئولين عن الهجمات على واشنطون ونيويورك.

(١) نبية إغريقية أسطورية تنبأت بشرور مستطيرة كانت علي وشك أن تحل بقومها ولم يصدقها أحد حتي فوات الأوان [الترجمة].

وفى الواقع فإن هيرسى على ومنجى تعلنان بصراحة، بل وبأسلوب هستيري، أن عليهما «إيقاظ الغربيين» من أوهامهم الرومانسية بأن الإسلام دين سلام وتسامح. تجد مزاعمهما وهجماتهما قبولا سهلا لدى الجماهير فى الغرب وتغذى دافعهم للثأر من أحداث ٩/١١. حيث إن هيرسى على ومنجى لا تفتآن تؤكدان أن تلك الهجمات لم يرتكبها «مجانين مسلمون هامشيون، بل إن ذلك العنف هو من سمات الإسلام الأصيلة». بهذا، فهما تتبعان خطاب صِدَام الحضارات الذى ابتدعه لويس ثم اكتسب شعبية عارمة بعد كتاب هنتنجتون، حيث تصران على أنها معركة بين حضارتين. وبأسلوب يستدعى معه مبدأ چورچ دبليو بوش «إما معنا أو ضدنا» فإنهما ترسمان خطا واضحا بين «الحضارتين»، و بهذا تُجيبان بوضوح وبصفتهما امرأتين سمراوين على سؤال منجي: «أى حضارة يجب أن أمنحها ولائي؟».

لا تخفى هؤلاء المخبرات المحليات انتهازيتهن. مثلا، تعترف هيرسى على فى سيرتها الذاتية التى تمجد فيها نفسها بأنها انشقت على حزب العمال الهولندى الذى منحها الإرشاد والدعم التعليمى وفرصة العمل حينما كانت تسعى للجوء السياسى بهولندا لتنضم إلى منافسه اليمينى VVD وركبت موجة المشاعر المعادية للمهاجرين والمسلمين. عقدت هيرسى على مع حزب VVD العنصرى اتفاقية تخدم مصالحهما معا بأن تكون هى مرشحة الحزب فى الانتخابات البرلمانية وأن يتركز برنامجها على معاداة الهجرة والمهاجرين. فيما بعد، حدثت مفارقة وأخذت العدالة مجراها حينما أُجبرت هيرسى على على الاستقالة من عضوية البرلمان بعيد انتخابها لأنها وُجدت مذنبة بارتكاب إحدى التهم التى كانت توجهها إلى المهاجرين فى حملتها عليهم، إذ اكتُشف أنها زوّرت الأسباب التى من أجلها هاجرت إلى هولندا وجعلتها مؤهّلة لحق اللجوء السياسي، حيث إنها كذبت على السلطات حول الدوافع التى جعلتها تترك وطنها الصومال. نتج عن هذه الفضيحة سقوط حكومة VVD فيما بعد وحرمان هيرسى علي، مؤقتا، من المواطنة الهولندية. لكنها، وبأسلوب انتهازى كلاسيكي، كانت قد قامت بترتيب استراتيجية للخروج فيما كانت مازالت عضوا بالبرلمان،

وتركت هولندا «الحبيبة» لتقبل منصبا بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت فى واشنطون دى سي. وفى نفس الوقت، ظلت الترجمة الإنجليزية لكتابها «الكافرة Infidel» على قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعا لأسابيع عدة.

وعلى الرغم من أن مسار منجى للشهرة لم يكن مثيرا كنظيرتها هيرسى على إلا أنه لا يقل عنها من حيث المهارة والانتهازية. ومثل هيرسى علي، فقد استخدمت ذخيرتها كامرأة مسلمة، بل وأيضا كامرأة مثلية مسلمة، كى تحول شخصيتها العامة التى تقمصتها من مضيفة من الدرجة الثانية فى برنامج حوارى للمثليين بإحدى القنوات الفضائية الكندية، إلى «عالمة» دولية فى شئون الإسلام. قذف بها كتابها «مشكلة الإسلام» الذى حاز شعبية كبيرة إلى آفاق رحيبة فى الحياة السياسية والإعلامية الكندية تبعد مسافات كبيرة عن وظيفتها الباهتة فى التليفزيون الكندي. أكثر ما يثير المخاوف بشأن منجى هو السرعة الفائقة التى أصبحت بها رطانتها المبتذلة وحياتها الوظيفية الانتهازية جزءا من التيار السائد. وعلى الرغم من أنها تسمى نفسها «أكاديمية» مثقفة إلا أنها لا تحمل أية درجة جامعية متقدمة تؤهلها للحديث كمرجعية عن الإسلام والنساء والثقافة الإسلامية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكنت من التسلل إلى جهات شبه أكاديمية مثل «المؤسسة الأوروبية للديموقراطية» و«مشروع الشجاعة الأخلاقية» بجامعة نيويورك ذى الارتباطات الملتبسة بمركز أبحاث القيادات للفعل الإيجابى والذى يقع فى كلية الدراسات العليا للخدمة العامة التى أنشأها إف واجنر حيث تعمل منجى أستاذا زائرا. بيد أنه، تظل طبيعة «مشروع الشجاعة».. وعلاقة منجى بجامعة نيويورك، وسؤال ما إن كانت مقيدة بكشف الرواتب بالجامعة، ومدى إسهامات الجامعة فى أنشطة المشروع.. إلخ غامضة عن عمد، فيما تظل مسيرة منجى الوظيفية نموذجا للمهارة فى التكيف والتشكل والدعاية المبتذلة لنفسها.

لا يتميز كتاب منجى «مشكلة الإسلام» أو كتاب هيرسى على «الكافرة» بأية بصيرة أو بلاغة أسلوبية أو تحليل إبداعى، بل العكس، فلم تفعلا سوى تبنى أطروحات برنارد لويس وفريد زكريا ونماذجهما المعيارية. بيد أن تفشى الإسلاموفوبيا فى جميع

أوساط الطيف السياسي في كندا وأمريكا بعد ٩/١١ دفع بهما إلى آفاق الشهرة وتحديدا لأنهما رددتا، كنساء مسلمات، ما ظل لويس وزكريا يقولانه. بل إن موجة الإسلاموفوبيا كانت من القوة بدرجة أكسبتهما شيوعا إعلاميا في برنامج أوبراه، وفي التايم مجازين التي اختارت هيرسي على إحدى أكثر الشخصيات تأثيرا عن عام ٢٠٠٥، هذا على الرغم من التهم التي وجهت إليها في هولندا وحرمانها من عضويتها بالبرلمان. وعلى الرغم من أن دعايتهما الفجة وتحريضهما على كراهية المسلمين قد فقدا بعض الزخم في زمن إمبراطورية أوباما الأكثر نعومة، تظل هيرسي على ومنجي تسهمان بانتظام في مراجعات الكتب وكتابات الرأي في صحف تزعم الموضوعية مثل الإنترناشونال هِرالد تريبيون والنيويورك تايمز.

وبالتقابل مع لويس وزكريا، تزعم هاتان المرأتان، زوراً، إتقانهما للغة العربية هذا على الرغم من أن أية قراءة عابرة لما تكتبانه تكشف عن عدم إلمامهما بأساسيات اللغة حيث إنهما حينما تُحيلان إلى العربية في كتبهما نتبين أخطاء نحوية ولفظية مُزرية. يعني هذا عدم قدرتهما على فهم المصادر «المحلية» التي تحيلان القارئ إليها بالرغم من مزاعمهما أنهما خبيرتان في مواضيع كتابتهما. يفضح هذا سوء النية والأجندة السياسية التي تكمن في جوهر كتابتهما، بل وأيضا أجندة الوسائط الإعلامية التي تنشر لهما والتي لابد وأن بإمكانها استشارة مرجعيات مُلمّة بالموضوع.

علاوة على هذا، لا تحوي كتابات تلك المرأتين أية بصيرة عميقة أو معقدة. تحاول هيرسي علي متعثرة تبني لهجة تأملية وقورة تخفي بها روايتها التنبُّئية المنذرة: «حينما يقول الناس إن قيم الإسلام هي التراحم والتسامح والحرية أنظُر إلى الواقع، إلى الثقافات والحكومات الموجودة، وأكتشف أنها ببساطة ليست كذلك، ثم تمضي تقول «يتقبل الناس في الغرب مثل هذه الأشياء بسذاجة خشية اتهامهم بالعنصرية». وانتها بصيرتها البطولية في ٢٠٠١ حينما – كما تقول – «فُتح المصراع في خلفية عقلي حيث تدفقت جميع أفكاري المتنافرة، وفَتّحت عقلي بعد ٩/١١، ورفض الانغلاق مرة أخري». وبالتقابل، نجد أسلوب منجي الخطابي يتميز بالحميمية والتعالي في

أن. فإلي جانب وعظها المسلمين وإهانتهم بأسلوبها الذى يبدو عفويا بل ومسترخيا، فإنها لا تعتمد على البصيرة النقدية، أو سعة الاطلاع والتحليل بقدر ما تعتمد على التعبيرات الصبيانية الدارجة.

ورغم اختلاف تكتيكاتهما الخطابية، فإن هيرسى على ومنجى تتشاركان فى نهج يرُسى النموذج المعيارى لكتابات المخبرات المحليات: يستمدان مرجعيتهما للتحدث من مجرد «صدقية» كونهما مسلمتين. من ثم، تُعتبران نمطا لكل تلك الظواهر والرموز: تقوم المجموعة المهيمنة باختيارهما وتبنيهما والترويج لهما على أساس استعدادهما للأداء بما يتوافق مع احتياجات المجموعة – فى هذه الحالة حربان على بلدين مسلمين، وحرب ثالثة ضد إيران يتم التصعيد بالكونجرس من أجل شنها. وفرت مواقفهما التى تدعيان أنها قويمة أخلاقياً، والتى تعمل على الحط من شأن المسلمين وبخاصة المسلمون العرب، لصناع السياسة والإعلاميين الأمريكيين مصدرا يستندون إليه فى أرائهم عن عدم الاتساق المطلق بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية.

الكتابات المبتذلة كحقائق: إرث لويس وزكريا والصحافة الصفراء:

لا تخرج كتابات هيرسى على ومنجى عن كونها نسخا مبتذلة مصغرة من كتابات لويس وزكريا من دون القشرة البراقة لحسن الاطلاع والذكاء والاتساق التى تتسم بها كتابات هذين الأخيرين. تستخدمات فى كتاباتهما سلسلة من الأساليب الخطابية التى تشكل واجهة نحيلة لأطروحاتهما ذات الطبيعة الكلية المعممة. ونظرا لعدم إمكان صمود المنطق المتلفلف لهجماتهما الدعائية نجدهما تعتمدان على منطق قياسى مشترك، ومجموعة مشتركة من الأساليب الخطابية: التعميمات، التفكير الاستنباطي، الإدانة لمجرد الارتباط، لوم الضحية، قلب الأدوار، الاستخدام الانتقائى للمصادر، وطمس القضايا وخلطها. تستخدمان ضمير المتكلم فى روايتهما لكنهما أيضا تملآن الثغرات الذاتية فى رواياتهما الشخصية بتحليل يبدو موضوعيا ومرجعيا وأكاديميا مأخوذاً عن لويس وزكريا وأمثالهما. لم يوفر لويس وزكريا فقط «الحقائق» التى تستند إليها المخبرات المحليات، بل أيضا البنية المحددة بصرامة للخطابات العامة عن الإسلام، والثقافة الإسلامية والمسلمين.

يوفر منظور ضمير المتكلم قدرا من الحرية غير متاح لأمثال لويس وزكريا وتوماس فريدمان ودانييل بايبس. يعفي الصوت الذى يستخدم فى رواية السيرة الذاتية الحكايات «المونولوجية» غير المترابطة من التزامات الاستشهاد بالمصادر، أو الدقة التاريخية أو أية صرامة أكاديمية تعمل على إضفاء درجة من الموضوعية. مثلا، باستطاعة منجى أن تجزم باسم التلقائية وعدم «الرغبة» فى ذكر المصادر، أنه حينما «يضطلع العرب بوضع أجندة الإسلام فإنهم يوضحون بما لا يدع مجالا للشك الكيفية التى حل بها الترويع محل العقل فى الإسلام. وأنه مثلما غدا العقل العربى مرتبكا ومشوشا فكذلك غدا العقل الإسلامى. وعلى حين أن «حقوق النساء» فى الإسلام كانت صيحة حرب أطلقها لويس وزكريا، تسهم المخبرات المحليات من أمثال هيرسى على ومنجى بدرجة كبيرة فى الدعاية الهجومية ضد المسلمين والعرب فى تعليقاتهن على مواقفهم من الجندر وتوجهاتهم وممارساتهم الجنسية وتعتبر قضية الجندر من الخطابات القوية المعادية للإسلام لأنها تجد صدى من طرفى الطيف السياسى الأمريكى حيث يتوحد أنصار الليبراليين «التقدميين» مع نقضائهم من المحافظين الجدد والإنجيليين المتعصبين حول قضية النساء فى الإسلام، يجذبهم إليها تعصبهم العنصرى والديني.

ليس ثمة أية كتابات للتيار السائد تصور ممارسات المسلمين الجنسية على أنها غير سوية وشائنة بأكثر من كتابات هيرسى علي. فبحسب ما تقوله، يعانى المسلمون من فسوق وفساد ثقافة نبيهم، تلك الثقافة التى تقوم على التراتبية والإذعان، ومن ثم على التشيؤ الجنسى للنساء. يعيد المسلمون إنتاج تلك الثقافة التى عفا عليها الزمن والتى تميزها «الأخلاقيات الجنسية» الإسلامية القامعة، حيث لا تتعدى النساء كونهن من أملاك الذكور القيمين عليهن».

علاوة على ذلك، تقول هيرسى على إن الإسلام كـ «ثقافة شاملة» يتميز بالإحباط الجنسي، مما يؤدى إلى أن يكون كل رجل مسلم «مغتصباً محتملاً»، لذا نجد العنف ضد الفتيات والنساء شأنا روتينيا متقبلا. تزعم فى كتبها «العذراء فى القفص»

و«الكافرة» و«البدوى الرحّال» أن الإسلام يجعل رجاله يماثلون التيوس [ذكور الماعز] حيث يجد الرجل من هؤلاء نفسه، وبأسلوب قسرى «يركب» الأنثى بمجرد أن يراها: «حينما يبصر الرجل المسلم امرأة سافرة يقوم على الفور بالوثوب عليها، حيث لا يجد الرجل المسلم أى سبب يجعله يتعلم التحكم فى النفس. حينما يرى الرجال المسلمون امرأة، لا يمكنهم التحكم فى شهواتهم، وما صغار الفتيات المسلمات سوى «ماعز- ضحايا سهلة» يغتصبهن «التيوس» من الرجال المسلمين المنحرفين.

تخبرنا هيرسى على أنه على الرغم من أن جميع الثقافات الإسلامية تشترك فى تلك «الأخلاقيات الجنسية» إلا أنها مستمدة أصلا من القيم العربية القبلية. ونظرا لما تضفيه عليها نشأتها فى ثقافة إسلامية من مرجعية، تستطيع هيرسى على توجيه الاتهامات النمطية المتداولة دونما مساءلة: «العالم الذهنى للإسلام هو انعكاس للركود الذى وقع فيه هذا الدين أسيرا بعد مولده ببضعة قرون» بل إنها تتعدى كل حدود تقول «وفقا لمعاييرنا الغربية فإن محمدا شخص منحرف وطاغية. بل إنه ضد حرية التعبير، وحقا فهو شخص حقير، نموذج لحكام الشرق الأوسط المصابين بجنون العظمة مثل صدام حسين والخمينى وأسامة بن لادن».

وباستخدامهما ضمير المتكلم تقدم كل من هيرسى على ومنجى شهادتهما على أن الانحرافات الجنسية للرجال المسلمين مصدرها الانحرافات المتأصلة فى الثقافة العربية المتخلفة، ويعتبر هذا تنويعا آخر على تحليل لويس وزكريا اللذين يذهبان إلى أن مشكلة الإسلام لا تكمن فى الدين نفسه بقدر ما تكمن فى ثقافة مُنشئيه الأوائل وقياداته من العرب وفى عقولهم. وبتبسيط شديد، ترى هيرسى على أن الإسلام يقوم على ثقافة الخضوع [الاستسلام] والتراتبية ومصدرها ثقافة العرب الصحراوية حيث يقوم عالمه الذهنى على علاقة استسلام المسلم لله وخضوعه له والتى هى نموذج لجميع العلاقات الاجتماعية حيث يخضع الرجل لله، والمرأة للرجل، والأطفال للنساء وغير المسلمين للمسلمين. من ثم، تقول هيرسى على إن بنية الإسلام هى بنية الثقافة العربية وانعكاس لما أصاب هذا الدين من تأسل وركود.

وفيما تتقمص هيرسى على شخصية العلمانية الراديكالية ومنجى الإصلاحية

المسلمة، تتبع كلتاهما ادعاءات لويس بأن الإسلام يعكس نقائص الثقافة المحلية المتخلفة التى نشأ فيها وعيوبها. تقول هيرسى فى كتابها الأول إن الأخلاقيات الجنسية المستمدة من القيم القبلية العربية تهيمن على الدين. وعلى النقيض لرؤية الباحثين والأكاديميين من غير المسلمين، تجزم بأن القرآن ما هو إلا نسخة عربية قبلية من الأحداث التاريخية وأنه أدى إلى نشر ثقافة وحشية متعصبة مُثبّتة على التحكم فى النساء، والضراوة فى الحروب. وفى الواقع، فإن هيرسى على ومنجى تتجاهلان الحقائق التاريخية بأن الإسلام منح النساء حقوقا أنكرتها عليها الثقافة قبل الإسلامية بل والثقافة الأوربية حتى بعد ظهور الإسلام بقرون طويلة، وأن الحجاب مستورد من الثقافتين الساسانية والبيزنطية.

ومن الواضح أن أيا من هاتين «المطلعتين على بواطن الأمور» لم تقرأ الشعر الكلاسيكى ما قبل الإسلامى الذى يصور ما تمتعت به النساء آنذاك من حقوق مثل حق الاجتماعات والحركة والتعبير عن آرائها السياسية واختيار شركاء حياتها. لم تذكر أى منهما أن الثقافة العربية الإسلامية لم تؤد إلى ظهور ثقافة أحزمة العفة أو حرق الساحرات، أو أن الإسلام كدين لم يحرم النساء من إنشاء المساجد أو دخولها كما حرمتهن البروتستانتية والكاثوليكية من إنشاء الكنائس.

من المغالطات التاريخية الزعم بأن الرسول كان من أوائل دعاة التوجهات النسوية كما نعرفها الآن أو أن مقدم الإسلام عمل على تحرير نساء الجزيرة العربية فى القرن السابع بالمعنى الذى يسعى إليه النسويون الغربيون فى القرن الحادى والعشرين. بيد أن «المخبرات المحليات» المتحذلقات يرفضن الاعتراف بالأبحاث والدراسات الأكاديمية، التى تناقش أهمية النساء فى حياة الرسول بمن فيهن زوجته الأولى خديجة التى كانت سيدة أعمال تكبره بخمسة عشر عاما- أو الدور النشط الذى لعبته آخر زوجاته، السيدة عائشة. من المفارقات أن دعاة الإسلاموفوبيا الغربيين يستخدمون خطبة الرسول لعائشة وهى فى التاسعة من العمر ليجرمونه بدلا من أن يتحدثوا عن الدور السياسى والاجتماعى التكوينى المركزى الذى لعبته السيدة عائشة فى مجتمعه المسلم بسبب ما أوتيت من علم وما تمتعت به من مكانة.

تحكم «المخبرات المحليات» من أمثال هيرسي على على الخبراء المتخصصين بأنهم «محللون أغبياء بدرجة تثير الحنق وبخاصة هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مستعربين ولا يكادون يعرفون شيئا عن واقع العالم الإسلامي». وبالطبع، لا ينطبق هذا إلا حينما تُثبت الأبحاث الأكاديمية عدم صدقية مقولاتهن الخطابية الجازمة.

وفيما ترفض هؤلاء المدعيات الأبحاث والدراسات الأكاديمية الحديثة التى راجعها وعرضها أقران من قاموا بها ونظراؤهم، فإنهن يقبلن الدراسات الزائفة التى يستنبطها الخبراء «المحليون» مثل المدعو ابن الوراق الذى تمتلئ أعماله باستشهادات من القرآن ومن مصادر كلاسيكية، خارجة عن سياقها وبذلك - وبحسب المتخصصين فى الدراسات الإسلامية من المسلمين وغير المسلمين - تعمل على تحريف تلك المادة تماما وتسئ استخدامها من أجل خدمة الأهداف الأيديولوجية. لكن من الأمور الأكثر دلالة أن هؤلاء المدعيات، وفيما يشهّرن بمعظم الدراسات المعاصرة، نجدهن يُلوّحن بأعمال سفهاء الأكاديميين والمرتزقة من الصهاينة اليمينيين من أمثال لويس وفريدمان وزكريا ودايفيد برايس - جونز وبات يئور بصفتهم مصادر أكاديمية مصدّقة.

تتم شيطنة الرسول بأساليب لابد وأن ينظر إليها على أنها عمل فاضح مشين وغير مقبول إذا تعلق الأمر بالرموز الأكثر قداسة لأى دين آخر. يعمد مدعو العلم والمعرفة العنصريون هؤلاء إلى قلب ما قام به الرسول رأسا على عقب كى يضمر معنى نقيضاً لمقصد الرسول. يقال، مثلا، إن رسالته حظرت وأد الإناث وذلك لأنه كان يعشق صغار الفتيات. وإذا قيل إنه كان «سياسيا ممتازا محنكا» وإنه انفتح على اليهود ومدّ الأيدى لهم قيل إن تلك «الإيماءات المحببة» كانت مجرد حيل سياسية «لإبعاد الانتباه عن جانب الإسلام الخبيث الخفي». وبحسب هيرسى على ومنجي، فقد كان محمد النموذج الأصلى للرجل العربى الذى أضفى انحرافاته وسلطويته على الدين الذى جاء به. إضافة إلى هذا فهما يريانه «رجلا قاسيا تطلّب السلطة المطلقة ومنع نمو الإبداع بأن وضع قيودا على الخيال وقصره على المسموح به فقط». وإلى جانب ميوله الجنسية ونزعاته الشخصية، فقد خلق الإسلام فى صورة ثقافته العربية

وكلاهما مستمد من «العقلية القبلية» أو، وكما تكرر منجى دائما «عقلية العرب الصحراوية».

تسببت هذه العقلية الصحراوية فى «زواء» العرب فى العصر الحديث حيث تطاردهم عدم قدرتهم على «إقامة مؤسسات ديموقراطية تحمى الحق فى الحرية الغربية وتضع القيم النسبية للمعرفة العلمية والحكمة الدينية موضع الممارسة».

تذكّرنا منجى فى تحليل استلهمته من لويس وزكريا، ومن داڤيد پرايس - جونز المستعرب البريطاني الذى ينتمى للمحافظين الجدد، والمستمد مباشرة من أعمال بات يائور التي تَبث كراهية العرب، تذكّرنا أن «الذهنية العربية قامت بتصنيع مفهوم أهل الذمة» الذى يثبت أن العرب فيما كانوا يقدرون مهارات الأقليات المسيحية واليهودية وذكاءهم ويستغلونهم، فقد كانوا فى ذات الوقت يشعرون بالغيرة والارتياب منهم، هذا على الرغم من اعتراف مرشدها لويس بأن اليهود ظلوا دائما يشعرون بالأمن فى العالم الإسلامى بأكثر مما يشعرونه في الغرب. لكن الأسوأ من كل هذا بحسب منجي، هو أن عدم كفاءة العرب ودونيتهم لا تحتويها حدود جزيرتهم وثقافتهم المنغلقة فقط بل إنها انتشرت من خلال هيمنتهم على الإسلام. تزعم منجى أن هذه الذهنية العربية هى مصدر شرور الإسلام والتى غدت تغذيها الآن البترو دولارات: «أتقنت السعودية فن استعمار المسلمين» من ثم غدا المسلمون الآن فى جميع الأنحاء يعانون «ضربات سياط الصحراء» وفتونة «الثقافة العربية الإمبريالية»، ويُجبرون على الخضوع «للتخلف الأخلاقى المتوطن فقط فى سياق التاريخ العربي».

أنتجت أخطار تلك العقلية الواقع السياسى الكوكبى حيث نجد، على سبيل المثال أن «إسلام الصحراء قد شوّه واقع أفغانستان وقولبه فى هيئة الحكومة الدينية فى السعودية». يجعل هذا المزيج المؤلف من «عقلية الصحراء» التى هى جوهر الإسلام التقليدي، والجيوب العميقة من الوهابية، من الإسلام خطرا كوكبيا وذلك لأن المسلمين اليوم «ليسوا مجتمعا دوليا بقدر ما هم قبيلة عربية».

حينما يتعلق الأمر بربط التطرف الإسلامى المعاصر بثقافة التيار السائد العربية

لا نجد أى لبس لدى هيرسى على ومنجى حيث تقول الأخيرة بوضوح إن أسامة بن لادن، هو النتاج الطبيعى للثقافة العربية الإسلامية، ثم تتساءل بعبثية وابتذال «أهى مجرد صدفة أن يقضى بن لادن كل هذا الوقت فى الكهوف مثلما كان يفعل محمد فى خلواته التأملية. إن لاهوته [بن لادن] لاهوت قبلى يساوى بين الوحدة والتنميط، وكل ما يقدمه هو مزيد من ديكتاتورية الصحراء». الرسالة واضحة للجماهير العربية والأمريكية: إن مبررات «الحرب على الإرهاب ثقافية وحضارية.

الفشل والسياسات الارتكاسية:

بصفتهما «مخبرتين محليتين» توفر هيرسى على ومنجى بعدا جديدا، للآراء الجازمة التى تعترفان بأنهما اقتبستاها من لويس وزكريا وتطرحانها باستخدام ضمير المتكلم. وبصفتهما شاهدتين مزعومتين من الداخل، يصبح بإمكانهما سرد أصول كراهية المسلمين للغرب وملابساتها ودوافعها بصوت «مسلم» و«حقيقي» تتقبله الجماهير. ترويان قصة دونية ثقافية تعيق الثقافة العربية الإسلامية عن الاتساق مع الحداثة. ومن داخل إطار الثقافة الإسلامية، تمدنا الاثنتان بمشاهد تدعم ما يقال عن غباء المسلمين وتعصبهم، وميولهم الجنسية العدوانية والعنف الذى يمارسونه. وعلى حين أن هذه المشاهد تواكبها أحيانا أمثلة عابرة من تخلف المسلمين فى إفريقيا وجنوب آسيا، إلا أن بؤرة تركيز هيرسى على ومنجى هى المسلمون العرب. المقصود بالمشاهد والأمثلة هى أن تكون نظائر لعدم تكيف العرب والمسلمين مع المجتمع العالمى الحديث. بتعبير آخر، فإن سبب جهل المسلمين فى العالم الإسلامى هو تخلف الثقافة العربية، وأن أصول كل فشل اجتماعى وسياسى للمسلمين هى «الأخلاقيات الخانقة» الكامنة فى بنية العرب الأساسية».

وفى واقع الأمر فإن لويس يفسر التضمينات الكاملة لهذا الفراغ الأخلاقى فيقول «مازالت الذرية غير الشرعية للقومية العربية والاشتراكية العربية موجودة فى عدد من الدول الإسلامية التى حافظت على أسلوب حكم فاشي/ نازي/ وعلى تلقين تلك المبادئ الاستبدادية لمواطنيها. تتكرَّر تلك الاتهامات وهذا المنطق فى جميع أعمال

دعاة الإسلاموفوبيا و«المخبرات المحليات» حيث نجد هيرسى على تقول إن مقاومة الإسلام تعنى مقاومة النازية ومعاداة السامية وبالمثل، تتهم منجى الفلسطينيين بأن لهم ميولا نازية بل وبالتواطؤ فى الهلوكوست، وتؤكد أن المبادئ النازية تلهم العرب وبخاصة معاداتهم للسامية. كما يروج العرب الأساطير والبروباجندا النازية فى تصويرهم لإسرائيل والجنود الإسرائيليين.

وباستنادهما إلى لويس وزكريا، تؤكد هيرسى على ومنجى وأمثالهما أن النزوع الخطر للثقافة الإسلامية ليس صدفة تاريخية. ومن جانب آخر، يوضحن أن سجل الغرب البشع وما يحويه من حربين عالميتين، وإمبريالية واستعمار وأعمال القتل الجماعى والتطهير العرقى هو مجرد أمور عابرة فى تاريخ من الالتزام المتسق بحقوق الإنسان والحرية والتعبير عن الذات، إذ إن الفرق بين الغرب والشرق الإسلامى هو أن التطرف والتعصب خصائص ثقافية ناجمة عن «إسلام الصحراء»، أى متأصلة فى حضارة العرب المعاصرين عصر الأوسطية التوسعية الكارهة للنساء.

تنتهى منجى إلى أن القرآن «لا يعبر عن جهل شمولى فقط بل عن تخلف أخلاقى أيضا فى سياق التاريخ العربى». تجتزئ فكرة أن العرب هم أصل تخلف المسلمين مباشرة من أعمال لويس الذى يقوم باختزال عقود من كتابات المستشرقين والصهاينة المعادين للعرب فى روايته لما بعد الحرب الباردة. وفى واقع الأمر، فإن لويس يعتبر مسئولا عن بث فكرة أن العرب يسيطر عليهم هاجس الماضى الاستعمارى كما أنهم يبالغون فى تأثير الصهيونية ومن ثم، ينبغى عليهم «التخلى عن الشكوى والظهور بمظهر الضحايا»، بثها فى أوساط التيار السائد وذلك بعد مقاله «أصول الحنق العربى» الذى أصدره فى شكل كتاب بعنوان «أين الخطأ؟». هنا، تصبح الأصوات المحلية مثيرة ومؤثرة بخاصة حينما تؤكد على مقولات لويس وزكريا، حيث تتفق هيرسى على ومنجى على أن التطرف والتعصب والعنف وبغض النساء ليست نتاجا للفقر المنتشر فى العالم الإسلامى. تقول هيرسى على ساخرة «إن إفريقيا هى القارة الأشد فقرا، ومع ذلك، لا يتسبب الفقر فى الإرهاب» متجاهلة بذلك الوقائع التاريخية فى أوغندا عيدى أمين، وليبريا تشارلس تايلور، وأعمال الإبادة العرقية التى ارتكبها

الهوتو فى حق التوتسى، ثم أعمال القمع برواندا فيما بعد الإبادة العرقية للتوتسى، والإرهاب الجنسى فى الكونغو، والبشاعات التى حدثت فى سييراليون.

إن خطابات الدونية الثقافية العربية/ الإسلامية، ورثاء الذات، وصدمة الحداثة وهاجس الإمبريالية، وكره النساء المتأصل فى تلك الثقافة هى خطابات استمدت بُناها تحديدا من أعمال لويس وزكريا. وبالمثل، تكرر هيرسى على ومنجى المزاعم القائلة بأن العرب والمسلمين يلقون باللوم على الاستعمار والفقر والتمييز العنصرى والصهيونية بدلا من النظر إلى الداخل والقيام بإصلاح ممارسات الإسلام أو رفضها. تذهب منجى إلى أبعد من ذلك فى دفاعها عن الولايات المتحدة بصفتها حامية حقوق الإنسان فى المنطقة وتصر على أن «أصول تعاسة المسلمين وبؤسهم لا تكمن فى إسرائيل أو أمريكا». نجد أن المقولات التى توردها للتقليل من شأن مظالم العرب والمسلمين وشكاواهم المشروعة منتحلة من كتابات أمثال لويس ودانييل بايبس، بيد أنها حينما تقول بها نساء محليات، سرعان ما يتلقفها «الليبراليون» و«التقدميون» الذين يؤيدون الحروب على المسلمين. مثلا، يكيل كريستوفر هيتشنز النجم الإعلامى والذى تأثرت به الدوائر الثقافية الجمهورية والديموقراطية، يكيل المديح لمنجى وهيرسى على بصفتهما «أصواتا هادئة عقلانية» فى الحرب على الإرهاب.

يشعر المرء بالصدمة لدى قراءته لمنجى وهيرسى على وذلك بسبب درجة العنصرية الصريحة التى تميز تحليلاتهما، حيث تبدى المرأتان توجهات تكاد تكون مَرَضية فى تجاهلهما الحقائق الواقعة وإنكارها، ومعها كل المتون البحثية والأكاديمية الموجودة، وأيضا بسبب تعميماتهن الفجة الناجمة عن تضليل مقصود أو عما يشبه الجنون. بيد أنهما ليستا المشكلة. بل المشكلة تتمثل فى حقيقة أن مزاعمهما يتلقفها التيار الرئيسى ويُعلى من شأنها بصفتها تحليلات جادة. وفى واقع الأمر فإن قيمة هيرسى على ومنجى الحقيقية لدى تيار الإسلاموفوبيا السائد هو أن أسلوب الصحافة الصفراء الذى تستخدمانه كأصوات محلية مطلقة يجد قبولا سهلا من الجمهور الجاهل بأكثر مما يجده الذين ينقدون الغرب على أسس من التاريخ والواقع. تقوم عملية جعل الإسلاموفوبيا جزءا من التيار السائد فى عصر العولمة على أساس التجاهل الضرورى لسنوات عديدة من الأبحاث النظرية والإمبريقية التى بينت كيف

أن المسلمين العرب وغير العرب قد أصبحوا «الآخر» من خلال الأعمال الأدبية والبروباجندا والإجراءات السياسية وانخفاض التنمية الاقتصادية. تقول هيرسى على «يمضى الناس يُنظِّرون للفقر وكيف يدفع الناس إلى الإرهاب؛ وللاستعمار والتوجهات الاستهلاكية، وثقافة البوب وتفسّخ الغرب، بيد أن هذا التنظير الزائف لا علاقة له بالواقع». ومن سوء الحظ، تتشارك هيرسى على ومنجى فى النهج الذى يذهب إلى إنكار السجل التاريخى والتنصل منه ومن الأبحاث الأكاديمية الصارمة.

من ثم، فإن نهج «أنا أعتقد إذن فهذا حقيقي» هو التكتيك الذى يشكل الأساس التحتى لكتابات جميع «المخبرات المحليات»- وذلك لعدم قدرتهن على تقديم ما هو أفضل. ليست مكانتهن كـ «محليات» هى التى تحوّل تفاهاتهن إلى حقائق وتحليلات، الأحرى هو أن الوسائط الإعلامية المحترمة للتيار الرئيسى هى التى تنشر أعمالهن وتروج لها وتتعاطى مع «نهجهن» بجدية أكثر مما تتعاطى به مع الأبحاث الأكاديمية الصارمة والوقائع والسجل التاريخى الذى يتم التوصل إليه نتيجة العمل الشاق من قبل الباحثين الغربيين أنفسهم.

تعمل مثقفات الصحافة الصفراء هؤلاء وسائل مباشرة أكثر مضاءً لنزع الصدقية عن عقود من الأبحاث التى تحدد أسباب الإسلام السياسى وتخلف التنمية السياسية والاقتصادية وتعزوها إلى فرض التنمية الرأسمالية على العالم اللاغربى وفى سياسات الحرب الباردة، والسياسات الخارجية والاقتصادية للولايات المتحدة وحلفائها وجرائم إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني.

تؤكد هيرسى على ومنجى بما لا يدع مجالا للشك على أن المظالم المشروعة للعالم الإسلامى والعربى وشكاواهم من الصهيونية والكلونيالية مثلا ما هى إلا ذرائع لتبرير تخلف العرب وسلطويتهم، وكما عبرت منجى فى دفاعها الوقح المهين عن التنميطات العنصرية بأن قالت إن الشعوب السمراء لا تستطيع توجيه اللوم إلى «البيض» و«اليهود» لتنميطهم جميع المسلمين على أنهم إرهابيون، إذ إن اللوم يقع على المسلمين العرب الذين يثبتون صحة هذه التنميطات. وبالمثل، تلقى هيرسى على

بمسئولية الفشل فى التقدم واللحاق بالحداثة على العالم العربى وتؤكد أن «أفضل أسلوب تتحرر به الثقافة الإسلامية من تخلفها هو توقفها عن لوم الآخرين على هذا التخلف». وبالطبع، فإن هذا الجزم ما هو إلا ترديد لما جاء بالجمل الأخيرة لمقال لويس «جذور حنق المسلمين» و«أين الخطأ؟» وأيضا لموضوع جميع المقالات التى كتبها دانييل بايبس فى هذا الصدد.

لا تستند أهمية أمثال هيرسى على ومنجى إلى محتوى أعمالهن الذى يفتقد أية بصيرة أكاديمية أو إمبريقية أو تحليلية وإلى التفكير السليم بمثل ما تفتقد حسن العرض والأداء الكتابي، بل إن هويتهن كنساء مسلمات وأوجههن الجذابة إعلامياً وقدرتهن على التحدث بالإنجليزية هى التى تشجع الكتّاب الأكفاء على اقتباس ما يُقلنه فى أعمال أكاديمية وصحفية زائفة. الأهم من هذا كله هو الترويج لهن والإعلاء من شأنهن كوسيلة لإضفاء نغمة أخلاقية على الآراء العنصرية للإعلاميين وصناع السياسة الذين يصبح باستطاعتهم النطق بآراء نيوليبرالية مستبطنة من خلال أفواه «مسلمات حقيقيات» آراء تحمل الفكرة المضمرة بأن المذابح وأعمال الإبادة الجماعية التى ترتكب ضد الشعوب الإسلامية هى أمور مُبرّرة عادلة.

«الخضوع» فى الإسلام مقابل الجهاد الرأسمالي

تناقض لهجة الادعاء التى تتبناها هيرسى علي، ولهجة منجى المتعالية مقصدهما الذى يرمى إلى إذكاء نيران الإسلاموفوبيا فى أمريكا الشمالية وأوربا. لو وُجدت أية درجة من الإخلاص أو الأمانة فى أعمالهما لكان بإمكانهما بذل جهد طفيف لترك مجال لوجود ظلال من الفروق فى آرائهما عن العالمين العربى والإسلامي. كان بإمكانهما، ولو عرضياً، ذكر التاريخ الثرى والمتنوع للحركات النسوية وللنشطاء/ ناشطات حقوق المرأة فى العالم الإسلامي، بدءا من قاسم أمين وهدى شعراوى ونوال السعداوى بمصر إلى ملالاى جويا ومرشحة الرئاسة مسعودة جلال بأفغانستان. وإن كانت منجى وهيرسى على تُلمان بالعربية كما تزعمان، لأشارتا، ولو على سبيل المجاملة للنسويات/ النسويين العرب والمسلمين العلمانيين منهم والمتدينين. ولو أنهما

كما تزعمان مفكرتان ناقدتان تهتمان حقا بقضايا النساء فى العالم الإسلامي، لأمكنهما الاستعانة بعينات من التعليقات والافتتاحيات فى الوسائط الإعلامية المطبوعة والإلكترونية والناطقة بالإنجليزية والتى تكتبها نساء ناشطات مسلمات بارزات، وباحثات وأكاديميات ولأنصتتا إلى تلك التنويعة الهائلة الثرية من أصوات المسلمات بدلا من الاقتصار على سماع رطانتهما الرتيبة المملة. تفضح حقيقة أنهما ومثيلاتهما لا يطلعن على أنشطة النساء المسلمات العلمانيات التقدميات أو المتدينات ويشتبكن فى حوار معهن على الرغم من وجود ترجمات بالإنجليزية لأعمال الناشطات النسويات العربيات والإيرانيات والإفريقيات وجنوب الأسيويات – حقيقة أن هيرسى على ومنجى ومثيلاتهما لديهن أجندات لا مكان فيها للصرامة الفكرية، أو الثقافة، أو نصرة الحقيقة.

بتعبير آخر، إن تجاهل تنوع أصوات الرجال والنساء المختلفة فى الشرق الأوسط ليس أمرا عابرا أو من قبيل المصادفة. فعلى الرغم من كل أحاديثهن عن حقوق النساء، وكراهية الإسلام للنساء وظلمه لهن، إلا أن «المخبرات المحليات» ومثل نظرائهن من الأكاديميين المغرضين، والمنظّرين المؤدلجين المأجورين هم جوهريا نيوليبراليون كارهون للنساء. فإلى جانب انتهازيتهم/ هن، فهم يضمرون كراهية رجعية للحركات التقدمية والنشطاء/ الناشطات والمفكرين/ المفكرات الذين يمارسون/ سن ما أسماه عبدالكبير الخطيبى «نقدا مزدوجا» بحيث يُسائل العرب بطريركية مجتمعاتهم وأيضا إمبريالية الغرب ورأسماليته فى آن. من ثم، فإن «المخبرات المحليات» تتجاهلن الأنشطة التقدمية للمسلمين والمسلمات بمثل ما تتجاهلن أنشطة المسلمات المُتديّنات اللاتى يلقين الضوء على تناقضات ممارسات الغرب وتعريفاته. علاوة على ذلك، تعمد هيرسى على ومنجى ومثيلاتهن إلى طمس أية معلومات عن شبكات التكافل التى تقيمها التنظيمات النسوية الغربية والمسلمة، العلمانية والدينية، النسائية والذكورية، قبل ١١/٩ وبعده، على المستوى الدولى والمحلى فى أمريكا الشمالية وأوربا. تقوم هيرسى على ومنجي، بأكثر من غيرهن، بجدْلِ طمس المعلومات عن أنشطة النساء

المسلمات، وشيطنة جميع الثقافات الإسلامية، وإنكار حقوق الفلسطينيين مع ولعهما بالنيوليبرالية والفردانية والرأسمالية المطلقة. وفي هذا الصدد، فإن أعمال زكريا تؤطر تفكيرهما، تؤكدان في كتاباتهما على أن معتقداتهما السياسية الليبرالية، وبخاصة هيمنة الحريات المدنية، والفردانية وحرية إقامة المشاريع، كلها تتناقض مع «العقل» المسلم والذهنية «القبلية الصحراوية». تبين هيرسي وهي تردد برنامجها الانتخابي حينما كانت مرشحة عن حزب VVD الهولندي، في كتابها وأيضا في حوارات عديدة، أن السوق الحر هو السلاح الذي سيحوّل المهاجرين المسلمين إلى أفراد، والوسيلة التي تؤدي إلى تعريفهم بمفهوم الفردانية الغريب على «ذهنيتهم القبلية». ثم تذهب لتقول إنه وفقا للإسلام «ليس من الضروري أن ينمو الشخص ليصبح فردا متفردا حتى أن الكثيرين، والنساء بخاصة، لا يطورون أبدا إرادة فردية واضحة. عليك أن تستسلم، وهذا هو المعنى الحرْفي للفظ «إسلام». نجد أن مجاز الاستسلام يتكرر كثيرا في جميع أعمال هيرسي علي ومنجي بصفته من الممارسات المهيمنة المتأصلة في بنية الإسلام الاجتماعية لبطريركية التراتبية، حيث يربي الوالدان المسلمان بناتهن ليصبحن فتيات طيعات مستسلمات.

ترى منجي أن الإسلام يعزز عادة الاستسلام دونما أي تفكير أو تمحيص وأن هذه الظاهرة هي نتاج «إسلام الصحراء» الذي تحذر من أنه آخذ في فرض نفسه على جنوب شرق آسيا مثلما حوَّل الإسلام السعودي أفغانستان إلى دولة دينية مشوهة. وفيما أن عدد المسلمين في العالم يبلغ ١.٦ مليار نسمة منتشرين في جميع القارات ويتحدثون العديد من اللغات وينتمون إلى إثنيات كثيرة تتخطى حدود الطبقات والانتماءات السياسية، ولديهم ممارسون خبراء في مجالات علمية وتقنية وفنية مهنية، فإن منجي تمضي في تأكيدها بأن «المسلمين اليوم لا يشكلون مجتمعا دوليا بقدر ما هم قبيلة عربية». تعتقد منجي أن إسلام الصحراء هو ثقافة عربية وتتساءل «أيمكن فصل معايير الصحراء عن الإسلام؟» مؤكدة أن الإمبرياليين الثقافيين العرب قد فرضوا ثقافة الصحراء بقوة «السياط» على المسلمين في أنحاء

العالم وسعوا إلى تسيد اللغة العربية وهيمنتها، وأجبروهم على التوجه نحو مكة فى صلواتهم. ليست شتيمة منجى العنصرية للعرب مجرد أداة أسلوبية أو بلاغية بل إنها تشكل الفحوى الحصرى لأطروحات أعمالها بعامة.

تستخدم منجي وهيرسى مفهوم «العقلية» الصحراوية استخداما أيديولوجيا يضمن أن يُفهم المسلمون بصفتهم النقيض المطلق للغرب، وبخاصة فيما يتعلق بالقيمة الغربية الأساسية أى «الفردانية». وفى واقع الأمر فقد كانت منجي ماهرة فى ابتداعها «الشخصية» المستقلة التى تتقمصها والتى ترحب بالتوجهات الفردية وبالاختلاف، والتي، وكما تذكرنا باستمرار، تعكس جسارة «رحلتها كمنشقة على الإسلام». تكمن جذور «مشروع الشجاعة الأخلاقية» الذى تبنته منجي فى عصر أوباما، فى «عملية الاجتهاد» التى تبنتها فى عصر بوش والتى كانت تهدف إلى تحرير عقل المسلمين من ذهنية الصحراء العربية وتقتضى «وجود نظام رأسمالى تقوده نساء يراعين الله كوسيلة لبدء الإصلاح الليبرالى للإسلام». وبما أن المسلمين غير قادرين على إنجاز مثل هذا التغيير، فعلى الغرب أن يسعى كهدف أول، إلى أن «يستحث التغيير فى الإسلام من خلال دعم صاحبات المشاريع من النساء وتمكين عدد أكبر من المسلمات من أن يصبحن سيدات أعمال»؛ وفى هذا فإن منجى تنتحل حرفيا مزاعم زكريا الذى يذهب فيها إلى القول بأن وجود طبقة رجال/ سيدات أعمال حقة تقيم المشاريع ستكون أهم قوة مفردة تحدث تغييرا فى الشرق الأوسط.

تتضح الأهمية الأيديولوجية لكتابات «المخبرات المحليات» حينما نتبين كيف أن تحليلاتهن السطحية تؤدى إلى استنتاجات سياسية حتمية تتسق مع مصالح الإمبراطورية الأمريكية. يذهب استنتاجهن إلى أنه إذا كان العالم الإسلامى أسير الثقافة الإمبريالية العربية والقائمين عليها الذين يعملون على هيمنة الإسلام وتسيده، وليس أسير الحكومات العميلة التى تتقبلها الولايات المتحدة فى السلطة كأمر واقع، إذن تصبح المشكلة التى تواجه المسلمين الإصلاحيين والغرب النبيل واضحة: لا يستطيع المسلمون وحدهم تحرير أنفسهم سياسيا أو ثقافيا أو نفسيا، وإقامة الديموقراطية.

تكمن الحالة المنحطة للعالم العربي، وللعالم الإسلامى بمجمله فى «عدم قدرة المسلمين على إقامة مؤسسات ديموقراطية تحمى حق الأفراد فى الحرية وتضع القيم النسبية للمعرفة العلمية والحكمة الدينية فى المنظور الصحيح وتعمل على القضاء على التبعات الاجتماعية والنفسية الناجمة عن إخضاع النساء واستعبادهن»، ترى منجى أن «معايير الصحراء» هى المعايير الخبيثة الشريرة للعقل الإسلامي، وللمجتمع الإسلامى ونظام حكمه وثقافته.

تنصّب منجي وهيرسى على نفسيهما «مصلحتين» للإسلام، وتبينان بوضوح أن مهمتهما هى إثبات أن المسلمين «مذنبون» لتغاضيهم عن العنف المتأصل فى دينهم، ومذنبون للخداع والأكاذيب التى يروجونها عن دينهم وطبيعته الحقة.

استخدام القوة ضد النساء، ومن أجل النساء:

مسئولية المسلمين ومسئولية الغرب

يستخلص قراء منجي وهيرسى على استنتاجا واحدا مفاده أنه ينبغى تحرير المسلمات من مجتمعاتهن الإسلامية التى هى عبارة عن «مزيج من اللاعقلانية والخزعبلات» حيث تترسخ القسوة ويسود الظلم وعدم المساواة. وعلى حين تتخيل هيرسى على نفسها فيلسوفة وتتخيل منجى نفسها عالمة اجتماع ديني، تريان معا، وبأسلوب لا لبس فيه، أن «التحرير» يعنى «إصلاح» المجتمعات المسلمة من خلال الوسائل الاقتصادية والسياسية، بل والعسكرية إذا اقتضى الأمر. يتخذ ذلك الإلمام الأيديولوجى قالبا واقعيا لأنهما تصوران الحكومات المسلمة والجموع المسلمة بصفتها متواطئة فى وجود هذا الاعتماد المتبادل بين السلطوية وقمع النساء وخمول المسلمين وكسلهم. يتجسد خط التفكير هذا فى كتابات زكريا حيث يقول إنه إذا كان «العالم العربى هو النموذج الأمثل للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمان. فإن المعونات السخية التى تقدمها لها الولايات المتحدة تجعلها أكثر كسلاً وبلادة. لقد شجعت تلك الدخول التى لم يبذل فى سبيلها أى جهد الأنظمة شرق الأوسطية على ألا تتطلب الكثير من شعوبها، وبدورها، على ألا تعطيهم الكثير».

تغلّف «المخبرات المحليات» اللاتى ينتمين إلى التيار السائد بالإسلاموفوبيا الكامنة فى كتاباتهن بتحليلات أكاديميى التيار السائد من أمثال زكريا وكثير من أنداده فى مراكز الأبحاث بواشنطون ونيويورك. تتبنى منجى وهيرسى على خطابات التيار السائد المهيمنة وترددان الآراء الأيديولوجية الجازمة التى تبرر سياسة الولايات المتحدة الخارجية وسياسة مسئوليها؛ بل وتجعلها ضرورية. وبدفعهن قضايا النساء إلى المقدمة، تضيف المخبرات المحليات، فى أفضل الأحوال، مستوى من الصدقية. تلقّى كتبهن رواجا بدرجة أن يصبح باستطاعة صناع السياسة والسياسيين وجمهور القراء الأمريكيين إثبات شكوكهم بأن النساء المسلمات أسيرات «حبيسات الأقفاص» دونما حرية أو شخصية فردية مستقلة. فى برنامجها الوثائقى على PBS، بعنوان «العقيدة بدون خوف» تؤكد منجى أن «الوحدة تعنى لهن التماثل والنمطية»، و«التطابق يأتى فى المقدمة قبل التعبير الشخصي»، وأن النساء يشكلن الصف الأول حيث يطلب منهن التطابق. أى أن أعراف القرن السابع تستخدم للتحكم فى نساء القرن الحادى والعشرين لضمان امتثالهن. تروى هيرسى على نفس المشاعر من خلال قصتها الملفقة، حيث تبين موحية بالثقة من خلال استخدامها ضمير المتكلم، أن النساء فى المجتمعات المسلمة تمارَس عليهن الأساليب البوليسية من خلال الدول القامعة، بحيث ينتهى أمرهن بالتماهى مع المعتدين ويقمن بدورهن بممارسة الأساليب البوليسية مع أطفالهن.

لا تخوض هيرسى على ومنجى عميقا فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة بالشرق الأوسط، أو تناقشان التشريعات المحلية، أو المجتمع المدنى المحلي، أو مجموعات القوانين أو الثقافة السياسية فى أى بلد مسلم، بل إنهما، وكما رأينا، لا تكادان تكونان مؤهلتين للتعليق على مثل هذه الأمور. إننا وقد قلنا هذا يتضح أن عملهما سياسى محض، كما أنهما بدعوتهما إلى معالجة خارجية مباشرة لمشاكل الإسلام، تعملان أبواقاً دعائية للسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط التى يحركها الصهاينة. وباتباعهما خط لويس وفريدمان، تقومان بدعوة المجتمع الدولى

للتأكد من إجبار العالم الإسلامى على الارتقاء والعيش وفقا لقيم ما يسمى بالعالم المتحضر. تستشهد منجى بـ «خطاب مفتوح إلى أسامة بن لادن» الذى كتبه عزت مجيد، المليونير ورجل البر المستفز فى دورية ذا نيشن بعد ٩/١١ حيث نقد المسلمين لفشلهم كمجتمع مدنى وذلك من خلال عدم مواجهة «شياطيننا التاريخية والسياسية والاجتماعية التى تكمن داخلنا». تستخدم منجى هذا «الخطاب المفتوح» وثيقة تثبت بها أن المسلمين، فى بؤسهم وتخلفهم قد «تخلوا» عن مسئولياتهم. يعتبر استخدام منجى هذا مثالا على كيفية تعاطيها بانتقائية شديدة مع جميع مصادرها حيث تنتقى بعناية أسطرا من خارج سياقها لدعم ما تقوله. فى حالة «خطاب مفتوح» تتجاهل منجى كيف يذكِّر مجيد بن لادن أن الغالبية العظمى من المسلمين لا يلقون بالا إلى أقواله وإعلاناته ورسائله، وكيف أنه يقترح عليه أن يطور نظرة إلى العالم أكثر قوة وإيجابية وإقناعا عسكرياً وسياسيا واقتصاديا وثقافيا إن هو أراد أن يكون «ثوريا» ذا أهمية.

يذكرنا استدعاء منجى «المتعالي» لعدم تحمل المسلمين المسئولية باعتماد هيرسى على على أعمال توماس فريدمان كى تطرح رأيا مماثلا حيث تحيل إليه مباشرة حينما تطلب من المسلمين، وهى التى تتقمص شخصيته الداعية إلى تحررهم، أن يتبنوا نفس المعايير الأخلاقية السامية التى يتبناها الغربيون. تهاجم هيرسى على النسبية والتعددية الثقافية لأن ذلك يعمل على تنامى التعصب فى أوربا حيث إن المسلمين الذين يعيشون هناك يفرضون على أنفسهم العزلة. لذا، فهى ترى أن على البلدان الغربية أن تعوض عن ترسيخها للتسامح والتساهل بأن تفرض معايير أخلاقية حضارية على العالم الإسلامي.

يعتبر هذا التحليل تسليما جدلياً بإجابة عن سؤال أورده زكريا فى كتابه، وظل لويس يثيره بكيدية منذ عاصفة الصحراء: ماذا نفعل إزاء دين يهدد بتصدير فساده الأخلاقى ونشر عدوى أمراضه الاجتماعية المتوارثة (إما من خلال الإرهاب أو السياسة الخارجية أو الهجرة)؟ كيف يمكن للغرب أن يفرض على الإسلام، والعالم

الإسلامى والمسلمين القدر القليل الأساسى من السلوكيات الأخلاقية التى تتشارك فيها الأمم المتحدة؟ كيف نُجرِّد المجتمعات المسلمة من «معايير الصحراء» ونخلصهم منها؟ إذا لم نوقفها، ستؤثر مشاكل الإسلام وأمراضه (كره النساء، السلطوية البطريركية، معاداة السامية.. إلخ) فى العالم الغربى وتنتقل إليه. إن تخلف الإسلام ليس من بقايا الماضى غير المؤذية التى تُتَداول تداولا حميدا فى العالم المتخلف، بل إن ممارسات الإسلام ومعتقداته هى التهديد الأساسى لأسلوب الحياة الغربى والأمريكي، وستنتشر عدواها فى أنحاء العالم من خلال الهجرات غير المكبوحة والتعددية المُضلَّة، بل وحتى التحول إلى الإسلام. تؤكد منجى من خلال كتاباتها فى عهد أوباما بوضوح وحزم على خطر الإسلام القائم فعلاً على العالم المتحضر. وفى هذا الصدد تشارك هيرسى على ومنجى بأصواتهما التنبئية المنذرة بمنظور محلى فى حملة ترويج التهديدات السياسية التى يمثلها الإسلام للغرب، وتسهمان فى النوع الأدبى الفرعى المتنامى من كتابات الإسلاموفوبيا.

وعلى الرغم مما تتسم به كتابتهما من حذلقة وتلفلف وعدوانية، بل وعدم فهم لدين الإسلام، فإنهما توفران تفسيرات سهلة الاستيعاب للتيار السائد الذى يخفى تحيزه بحذر ويتوق إلى أسباب يعفى بها نفسه من الإجابة عن سؤال «لماذا يكرهوننا؟». وفيما أنهما لا تتحدثان عن التغير الديموقراطى أو الديموقراطيات الدستورية، فإنهما تتحدثان جازمتين عن استخدام القوة كأسلوب ضرورى لتغيير الإسلام والرجال المسلمين. وعلى حين يرى زكريا أن النيوليبرالية هى الوسيلة التى من خلالها ستحرر النساء المسلمات أنفسهن سياسيا واجتماعيا واقتصاديا من هذا الدين البدائى العتيق، يقدم لويس لهن، متبعا نهج رفائيل بطى الإرشادات الأيديولوجية لهذا التحرير، والتى يختزلها فى أن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة.

ومذكِّرة إيانا بدعوة زكريا للاستعانة بالديموقراطيات اللاليبرالية، تدعو منجى الحكومات الغربية إلى الاعتماد على الحكومات السلطوية التى تعمل نيابة عنها لداهمة الأصوليين واستخدام القوة ضدهم. نجدها، وعلى الرغم من كل حديثها عن

القيم الليبرالية تدعو بحماس إلى «استخدام قانون الطوارئ كي تتمكن الشرطة من مداهمة الفتوات والبلطجية الأصوليين وسحقهم». ترى هيرسي على ومنجي، وبالتقابل مع آراء بعض مرشديهما من المحافظين الجدد الذين يحوزون أعظم درجات الإعجاب منهما، أن على واشنطون استخدام ثقلها لدى حلفائها العرب من أجل قمع الاختلاف، وسحق الإسلام السياسي، والقضاء على التوجهات المعادية لأمريكا، فيما تقوم أيضا بإدخال إصلاحات «السوق الحر» النيوليبرالية واللبرلة السياسية إلى المنطقة، بل والتطبيع مع إسرائيل إن أمكن. من ثم فقد ساعدت هيرسي على ومنجي بهذا على تيسير العثور على ما يستند إليه لتبرير سياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وفى واقع الأمر، فإن بساطة مقولاتهما و«موثوقيتها» الظاهرية حيث إنها صادرة عن مصادر «داخلية» مطلعة أضفت مزيدا من «المصداقية» على الخطابات حول الإسلام والشرق الأوسط والنساء والمجتمع المدنى التى كان يروجها زكريا ولويس فى أوساط التيار السائد من الشبكة الإعلامية، والمأجورين السياسيين، ومراكز الأبحاث ومجموعات المصالح. تروج الأسس الأيديولوجية لتلك الخطابات منطق الإمبراطورية، وبخاصة منطق «التحرير» من خلال الاستعمار، والحروب من أجل السلام وتحرير النساء بواسطة دعم حكام تابعين شبه إقطاعيين أو مساندة الأحزاب الدينية. مازالت تلك الأسس والدعامات الأيديولوجية حية نشطة فى ظل السياسة الخارجية لأوباما مثلما كانت من قبل.

استيعاب الحركات النسوية وحروب تحرير (النساء):

تميز العقد الأول من القرن الحادى والعشرين بالعودة إلى خطاب شن الحروب ضد «أعداء» أمريكا ليس فقط من قبل المُنظّرين والإعلام والمستشارين السياسيين بل أيضا من قبل كل أفرع الحكومة على المستوى الفدرالى ومستوى الولايات المتحدة، والمستوى المحلي. ليست استراتيجية الحوافز والعقوبات، والعصيّ والجزر، حصرا على سنوات بوش بل إنها تميز أيضا أسلوب «القوة الذكية» المخملى الذى يتبعه باراك أوباما. ليس ثمة اختلافات تُذكر فى السياسة الداخلية والخارجية بين العهدين إذا استثنينا الدولة الأمنية لجورج بوش ودولة أوباما «الاشتراكية». وعلى حين أنه لم يكن ثمة الكثير من الحديث عن «الاشتباك» أثناء سنوات بوش مع شن الحروب

وتوسعها، تميز بيت أوباما الأبيض بكثرة الحديث عن الاشتباك مع عدم اتخاذ سوى قليل من الإجراءات. وفى الواقع، فإنه بالإمكان القول إن بوش هاجم التعصب الذى تبدّى أثناء فضيحة ميناء دبى العالمى عام ٢٠٠٦ باتساق أكثر من ذاك الذى تبناه أوباما للدفاع عن حق المسلمين فى إقامة مركز إسلامى على مسافة غير ملاصقة لموقع أحداث ٩/١١. مازال أوباما مستمرا فى إرث وسْم الحكومات الأجنبية التى ترفض التعاون مع الأجندة النيوليبرالية الأورو/أمريكية متهما إياها بأنها «أنظمة مارقة» علاوة على لجوئه لاستدعاء شبح العنف الإسلامى من أجل تنفيذ أجندته السياسية الداخلية والدولية. من ثم، يستخدم التيار السائد الأمريكى رواية منجى وهيرسى على لتبرير الإسلاموفوبيا الثقافية التى ينتهجها أوباما ودعم تدخل حكومته العسكرى والسياسى والاقتصادى المستدام. وهنا تلعب المخبرات المحليات دورا مزدوجا إذ إنهن يشجعن الغرب على انتهاج سياسات فاعلة تجبر المسلمين على العيش وفقاً للمعايير «المتحضرة» من ناحية، وأيضا يعملن كمشجعات «محليات» سمراوات للحروب التى تشن على العرب والمسلمين ويبررنها، كما فعل لويس، بصفتها ضرورة أخلاقية. ولأن هذه الظاهرة هى تشكيل أيديولوجى تغذيه الانتهازية، نجدها تمتد عبر الإدارات وينتهجها جميع الرؤساء.

ولو بدا هذا الجزم مفرطاً فى تجريده، فما علينا إلا النظر للدور المهم الذى لعبته «المخبرات المحليات» فى الحملة الإعلامية المكثفة لتبرير الحرب على العراق ناهيك عن الإنذارات المضللة المبتذلة مثل حرق نسخ القرآن أو مساجد مانهاتن، أو شائعات تفجيرات الكريسماس.. إلخ.

وفيما بعث الحديث المزدوج للبيت الأبيض ووزارة الخارجية عن المسلمين الأشرار بالتقابل مع المسلمين الأخيار برسائل مختلطة عن «الحرب على الإرهاب»، عملت أمثال هيرسى على ومنجى على التأكيد بما لا يدع مجالا للشك على أن ٩/١١ هى بمثابة بيرل هاربور وذلك لتبرير قيام حرب طويلة - متوقعة ضد الأشرار. لكن هذه الحرب على الإرهاب، وعلى الرغم من تراجع بوش اللفظى وتأرجحاته، هى حرب على «الإرهاب الإسلامى»، الإرهاب المتأصل فى الدين ذاته. تعترف هيرسى على قائلة إنه فى ٩/١١ «أُعلنت الحرب باسم الإسلام، أى عقيدتى، والآن على الاختيار: على أى

جاب أقف؟ هل نساند إمبرياليةِ الإسلام وفلسفة أهل الذمة حيث يحتل غير المسلمين منزلة أدنى من المسلمين، وحرب ذلك الدين عصر الأوسطية على النساء التى أصبحت حربا ضد الغرب والحضارة بعامة؟ من ثم، فهى ترى أى تدخل فى الشرق الأوسط مبررا وذلك «لأننا فعلا فى حالة حرب، ليس ضد التأسلم فقط، بل ضد الإسلام ذاته». لا ترى أن سبب الحرب يكمن فى الغرب الذى توجد قواته، بالفعل، على الأرض فى بلدان إسلامية عديدة، بل لأن الحرب قد «أعلِنت باسم الإسلام ضد الحضارة الغربية».

وفى واقع الأمر فقد كانت مسألة حقوق النساء فى الجبهة الأمامية لغزو أفغانستان ومُكوّنا رئيسيا فى احتلال العراق، وتظل هى الحال فى ظل إدارة أوباما. مازال البعض يتذكر أن لورا بوش لعبت دوراً قياديا فى الحملة الدعائية لغزو أفغانستان باسم حقوق النساء الأفغانيات، فى خطاب لها بثته الإذاعة ولقى اهتماما كبيرا. قالت السيدة الأولى إن النساء الأفغانيات كن «مبتهجات» وهن يشاهدن تراجع طالبان. بينت قائلة «نشاهد فى أفغانستان ما يود إرهابيو العالم أن يفرضوه على بقيتنا». شرحت للجمهور الأمريكى سياسة حرب الولايات المتحدة قائلة إن الحرب ضد الإرهاب هى أيضا حرب من أجل حقوق النساء وكرامتهن، وأضافت قولها بأنها ابتهجت لأن النساء الأفغانيات لم يعدن سجينات منازلهن وذلك بسبب الانتصارات العسكرية التى حققتها الولايات المتحدة مؤخرا. بيد أنها حذرت من أن على الولايات المتحدة أن تبقى على عزمها ويقظتها لأن «الإرهابيين الذين ساعدوا فى حكم هذا البلد يخططون الآن ويتآمرون فى بلاد عديدة. ومن الواجب وقفهم والتصدى لهم».

ليس تبنى لورا بوش لقضية النساء الأفغانيات أمرا منعزلا أو من قبيل المصادفة. فلا شك أنه كان قد تم تعيينها امرأة مكلفة بهذه الحملة، حيث إن إدارة بوش كانت قد كلفت «مكتب الديموقراطية وحقوق الإنسان والعمل» بجمع تقارير عن حالة النساء الأفغانيات وبث خطابِ لورا بوش الإذاعى فى نفس اليوم.

لا غرو أن كررت أحاديث لورا بوش عن حالة النساء الأفغانيات مقولات زوجها حول الموضوع ذاته بأسلوب كاد يكون حَرْفياً، ورددت رسالته القائلة بأن النساء الأفغانيات حبيسات منازلهن حيث ينكر عليهن الحصول على الرعاية الصحية الأساسية والتعليم

وأن الولايات المتحدة ستواصل مطاردة العدو الذى يختبئ فى الظلال والكهوف. أدى خطاب النساء الأفغانيات إلى تمرير مشروع قانون إغاثة الأطفال والنساء الأفغانيات لتمكين رئيس الولايات المتحدة من «توفير المساعدة التعليمية والرعاية الصحية للنساء والأطفال فى الداخل الأفغانى واللاجئات/ اللاجئين فى البلدان المجاورة»، طُرح هذا التشريع من قبل الحزبين وقدمته فى مجلس الشيوخ باربرا مكولسكى من الحزب الديموقراطى وكاى بايلى هتشينسون من الحزب الجمهورى وتبنته جميع النساء فى المجلس. وإلى جانب الرئيس، كانت إلينور سميل رئيسة الغالبية النسوية الليبرالية حاضرة مع لورا بوش. غدا المقصد الأيديولوجى من ذلك القانون واضحا حينما بيّن الرئيس بوش بعد التوقيع عليه قائلاً «إن الهدف المركزى للإرهابيين هو قمع النساء الوحشى – وليس فقط نساء أفغانستان. إن الإرهابيين الذين يساعدون فى حكم أفغانستان موجودون بالعشرات والعشرات فى جميع البلاد حول العالم».

كان استخدام النساء الأفغانيات ذريعة لغزو البلد تكتيكا فاعلا لنظام بوش، وعلى حين أن تبنى قضايا النساء بواسطة عناصر معادية للنسوية واكبت «حروب الثقافة» منذ الثمانينيات، فقد أتاح غزو أفغانستان والعراق للتنظيمات والنشطاء اليمينيين اختطاف قضايا تعليم المرأة، وسلامتهن وصحتهن التى كانت قد ظلت تقليديا من اختصاص الحزب الديمقراطى. أحد الأمثلة التوضيحية هى أن شبكة النشطاء، ومراكز الأبحاث والمنظمات غير الحكومية ساعدت إلى حد كبير فى حملة البيت الأبيض لنيل المصداقية لغزو أفغانستان والعراق واحتلالهما من خلال نشر الانطباع فى أوساط التيار السائد، وبفاعلية، بأن إدارة بوش هى حامية النساء المسلمات ومحررتهن.

كان تفاعل إدارة بوش مع منتدى النساء المستقلات هو المثال الأبرز على هذه الظاهرة. والمنتدى منظمة مقرها واشنطون وعُرف عنها أنها تعمل تقليديا منذ نهاية الثمانينيات على تقويض الأجندة السياسية للحركات النسوية.

فى عام ٢٠٠٦، منحت المنظمة جائزة «المرأة الجسورة» لكونداليزا رايس، التى بينت فى خطاب تسلمها الجائزة أن إدارة بوش تقود «حركة إلغاء استرقاق» جديدة للقضاء على الاتجار فى البشر وبخاصة النساء وكيف أن إدارته قد فتحت إمكانات أمام النساء فى أفغانستان والعراق وعملت على إصدار تشريعات لصالحهن

واستمرت فى الضغط من أجل إعطاء النساء حق التصويت فى الكويت. ليس من قبيل المصادفة أن «منتدى النساء المستقلات» كان قد تلقى ١٠ ملايين دولار من وزارة الخارجية لإنشاء «معهد تعليم النساء العراقيات» قبل ذلك بعامين. علاوة على ذلك، لدى كثير من قيادات المنتدى روابط مباشرة بإدارة بوش/ تشيني. كانت لين تشينى مديرته السابقة، وكانت رئيسته وقت منح رايس الجائزة ميتشل برنارد وهى محامية أفروأمريكية يمينية عملت عضوا فى لجنة مراسم تدشين رئاسة بوش/ تشيني. عملت أن تريئلون، مديرة السياسة الخارجية بالمنتدى، مع السلطة الانتقالية التى تولى أمرها برمر بعد غزو العراق كما عملت في هيئة العاملين التابعة للورا بوش. تفسر هذه الروابط بين البيت الأبيض فى عهد بوش / تشينى وبين المنتدى الهمة الفائقة التى روج لها المنتدى للإنجازات التى تحققت فى مجال الرعاية الصحية والتعليم للنساء بعد «تحرير» العراق.

وإذا كان المنتدى منظمة ظلٍّ عملت على إضفاء المصداقية على حروب بوش من أجل «النساء» فى العراق وأفغانستان، فإن البيت الأبيض قد عمل منذ وقت مبكر أيضا على تشكيل مجموعات عمل، وإصدار تقارير حكومية، وإقامة مجالس لمناقشة أحوال النساء فى أفغانستان والعالم الإسلامي، كان الأبرز من بينها «مجلس النساء الأفغاني/ الأمريكي»، وهو «شراكة خاصة/ حكومية تهدف إلى حشد الموارد من أجل تقدم النساء الأفغانيات وتمكينهن»، وقد أقامه جورج بوش عام ٢٠٠٢. وأثناء تولى إدارة بوش، كان «مجلس النساء الأفغانيات» عمليا مبادرة حكومية واكبت الغزو والاحتلال وكان يعمل به مسئولو وزارة الخارجية. فيما ظلت لورا بوش، وحتى بعد ٢٠٠٨، مستشارة شرفية للمجلس وإحدى الشخصيات البارزة به. كانت مبادرات المجلس تعليمية بشكل أساسي، مثل تعليم الأفغانيات التحدث بالإنجليزية، وإمدادهن بمبالغ نقدية تأسيسية وقروض صغيرة لإقامة مشاريع ربحية حسب ما تقوله منجى ممتدحة إياه. وعلينا ألا نخلط بين هذا المجلس ومجلس النساء الأفغانيات الذى شكلته الناشطة فاتنة جيلانى ويشكل جزءا من شبكة التنظيمات الجامعة القاعدية التى ترأسها الأفغانيات وتديرها وتستهدف قضايا تمكين النساء وحقهن فى التعليم والرعاية الصحية.

ومما لا ريب فيه أن البيت الأبيض فى عهد بوش، والذى كان إحدى الإدارات

الأكثر عداء لحقوق النساء الإنجابية، قد علم أن تبنيه لقضايا «المرأة» سيُكسبه تأييد التنظيمات النسوية مقابل منافسيه. وكان هذا التكتيك فاعلا ومؤثرا حيث دعمت مجموعات النساء شمال الأمريكية غزو أفغانستان والعراق، وأبدت موافقتهن على رؤية الرئيس بوش بشأن وضع قوة الولايات المتحدة العسكرية فى خدمة حقوق النساء وحقوق الإنسان. وفى واقع الأمر، فإن عضوات الكونجرس عن الحزب الديمقراطى واللاتى كن العليبات صوتا فى الدفاع عن حقوق النساء، كن أيضا العليبات صوتا فى تأييد غزو العراق وكان من بينهن هيلارى كلينتون وديان فينستاين اللتان تبنتا معا مشروع قانون الوطنية Patriot Act وعملتا على تمريره.

كانت ذريعة تحرير النساء مؤثرة بخاصة فى إقناع الكونجرس بالموافقة دونما تساؤل على غزو الولايات المتحدة غير القانونى لأفغانستان. تلقى البيت الأبيض برئاسة بوش معونة كبيرة فى هذه الحملة من الديموقراطيين وعلى رأسهم السناتور هيلارى كلينتون وباربرا بوكسر التى كانت قد ظلت لوقت طويل تدعو للتدخل العسكرى فى أفغانستان من أجل تحرير النساء. كتبت كلينتون مقالا بتايم مجازين جاء به «شكرا لشجاعة جيش أمريكا ولحلفائنا وإقدامهم الذين ساعدوا كثيرا من نساء أفغانستان وعائلاتها على استعادة الأمل» مبينة أن الرئيس بوش وزوجته عملا على إلقاء الضوء على سوء معاملة النساء الأفغانيات. ولهذا المقال دلالاته إذ إنه يوجز أطروحات لويس وزكريا، ويستبق كتابات هيرسى على ومنجي. تتبنى كلينتون أطروحات الضرورة الأخلاقية والحضارية التى تصور الولايات المتحدة على أنها «محرِّرة»، وبصفتها هذه، فإن لها حق توفير «الفرصة والحرية» للأفغانيات اللاتى أُنكرت عليهن حقوقهن بواسطة «المخططات الشريرة» لأسامة بن لادن ورفاقه من جماعة طالبان.

طلبت لورا بوش من جمعية «ڤايتال ڤويسز» أن تمد الفتيات الأفغانيات بالأزياء المدرسية فى أعقاب الغزو، والجمعية هى منظمة غير حكومية كانت هيلارى كلينتون قد بدأتها حينما كانت سيدة أمريكا الأولي، وتعمل كاى بايلى هتشينسون عضو الكونجرس عن الحزب الجمهورى والتى شاركت فى تبنى مشروع قانون إغاثة أطفال أفغانستان ونسائها، تعمل رئيسة شرفية للمنظمة بينما تشارك فى إدارته بوبى جرين مكارثى رئيسة العاملين بمكتب هيلارى كلينتون حينما كانت السيدة الأولي. كانت كلينتون التى دعمت غزو أفغانستان والعراق قد تذرعت بالنساء الأفغانيات طوال

تلك الحملة كسبب ضرورى لاستمرار الاحتلال. عملت، كوزيرة للخارجية، على وضع قضايا النساء على قمة أجندة أولويات السياسة الخارجية الأمريكية، هذا على الرغم من أن محنة النساء العراقيات والأفغانيات مازالت تشكل ذرائع لتبرير تدخل الولايات المتحدة العسكرى فى مختلف البلدان.

وفى واقع الأمر، فإن موقف كلينتون الإمبريالى المتعالى تجاه النساء المسلمات، وعلى الرغم من احتمال حسن نواياها، يدعم أوهام الحزبين الديموقراطى والجمهورى فى النظر إلى الولايات المتحدة بصفتها قوة تحرر. بالطبع، فإن موقفها ينجم عن النظرة الأيديولوجية إلى الإسلام بأنه يحوى جوهريا عناصر معادية للنساء لابد من السيطرة عليها وتصويبها بواسطة المسلمين المتغربنين التقدميين. نجد هذا النموذج يتكرر فى ممارسات الناشطات، والوكالات والمنظمات غير الحكومية التي، ورغم معارضتها لبرنامج إدارة بوش الانتخابى المعادى للمرأة، فقد دعمن سياساتها التدخلية والعسكرية. مثلا، من المفارقات اللافتة أن «مؤسسة الغالبية النسوية»، وهى منظمة مكرسة لمساواة النساء وصحتهن الإنجابية وعدم العنف ضدهن، ظلت بين الأعلى صوتا فى مناصرة الاستعمار، إذ إنها بدلا من أن تطالب بانسحاب القوات، فإنها تؤكد باتساق على الحاجة لإرسال المزيد من القوات إلى أفغانستان من أجل حماية النساء هناك وتحريرهن.

حاولت بعض تنظيمات حقوق النساء الأخرى السير على جانبى الجدار السياسي، حيث إنهن صادقن على الغزو بدون أن يؤيدن إدارة بوش. دعمت منظمة حقوق النساء المسماة «المساواة الآن Equality Now»، بأسلوب غير مباشر غزو أفغانستان وطالبت بتدخل الأمم المتحدة. وفى العام التالي، دعت المنظمة «إلى توسع مُلحّ لقوات حفظ السلام فى أفغانستان من أجل توفير الأمن للنساء الأفغانيات». ومن المفارقات أنه على حين أن كثيرا من المنظمات النسائية بالولايات المتحدة انتقدت بتزايد تدهور أوضاع النساء فى العراق وأفغانستان بعد الغزو، إلا أنهن يقترحن أن السبب هو سوء إدارة الولايات المتحدة للأوضاع بعد الاحتلال، موحيات بذلك أن قوات الولايات المتحدة وقوات الناتو على الأرض لم تتعاط بحزم مع نظامهم العميل وسمحت لكرزاى بعقد صفقات سياسية مع العناصر الرجعية فى المجتمع السياسى الأفغانى مما نجم عنه إعادة أسلمة البلد.

يظل هذا التحليل نوعا من الإسلاموفوبيا المضمرة التى تستند إلى التسليم بأن ثمة حاجة إلى التدخلات الأبوية الأجنبية المباشرة لضمان حسن معاملة النساء من قبل أشقائهن القبليين المتخلفين. فى عام ٢٠٠٩، ألقت منجي، فيما كانت تتأمل إمكانية انسحاب القوات من أفغانستان، بالمسئولية على الثقافة العربية وذلك للتأثير الذى مارسته على القبائل الأفغانية، الذى نجم عنه تطبيق الشريعة الإسلامية فى ظل كرزاى واغتيال الناشطات من النساء. لا تذكر سوى القليل من هؤلاء الناشطات والسياسيين/ السياسيات والمنظمات نسبة المشاركة العالية للنساء العراقيات فى الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية فى ظل حكم البعث بمثل ما تتجاهل أن المعدل العالى لاندماج النساء فى المجتمع المدنى الأفغانى قبل طالبان كان نتيجة لجهودات الحكومة الاشتراكية الموالية للسوفييت. وبالمثل، يمكن هنا ذكر تقدم أوضاع النساء وارتقائها فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية مقارنة بأوضاعهن فى ظل حكم الشاه المتغربن.

الخاتمة:

رسم هذا الفصل كفاف بند أساسى فى برنامج الإسلاموفوبيا أى العداء المزعوم الذى يناصبه الإسلام للنساء. ظلت قضية قمع النساء وتحريرهن جسرا فاعلا يربط بين الجماعات السياسية المتنافسة فى الولايات المتحدة، حيث إننا، وفيما نجد الديموقراطيين والجمهوريين والليبراليين وغيرهم مشتبكين فى التجاذبات والتناحرات السياسية، نجدهم متوحدين فى توجسهم من المسلمين، ناهيك عن كراهيتهم لهم. ليست أيديولوجيا الإسلاموفوبيا لديهم مجرد مصادفة أو جهل منهم، بل إنها تقوم على أساس الرغبة فى الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية على الكوكب وتوسيع نطاقها. كانت قضية النساء مركزية فى تبرير غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، وأيضا فى إضفاء المصداقية على وجوب الحفاظ على اليقظة فى الحرب الكوكبية على الإرهاب. يدلنا استغلال انتهازية أمثال هيرسى على،ومنجي، وأيضا الصف الثانى من قائمة المخبرات المحليات، على أن حكومة الولايات المتحدة ومراكز الأبحاث، والمنظمات السياسية والجامعات والمنافذ الإعلامية الأمريكية لا تلقى بالا إلى استمالة الأصوات التى لا تخدم الرأى القائل بأن الرجال المسلمين يقومون بقمع النساء المسلمات وتؤكد عليه من منطلقات أيديولوجيا الإسلاموفوبيا.

ولنكن واضحين. لا يدافع هذا الكتاب عن أى شكل من أشكال التمييز ضد النساء

أو قمعهن. وفى واقع الأمر، يسهم الرجال المسلمون، وبالتعاون مع النساء المسلمات فى الحفاظ على البطريركية وإعادة إنتاجها فى ثقافتهم المحلية والقومية. لكن العقائد المسيحية واليهودية والهندوسية والبودية، جميعها، تميز ضد النساء، ولديها جميعها أشكالها الخاصة للحفاظ على الامتيازات الذكورية البطريركية. بيد أن تلك الديانات تُمنح الاحترام الذى تستحقه. لا أحد ينكر الموروثات الأمومية أو العناصر التقليدية. في تلك الديانات. ولا أحد ينكر أيضا محاولات النساء للتغلب على هيمنة الرجال ومقاومتهن لها إلا حينما يتعلق الأمر بالإسلام. لا يتعرض أى من تلك الأديان لتشويهه واتهامه بأن التمييز ضد النساء وكراهيتهن سمة ثقافية له بل وأنها من ضمن تعاليمه سوى الإسلام.

حينما تفرض أديان أخري، بما فيها اليهودية الأرثوذكسية، الحجاب على النساء لا تؤلف كتب حول الموضوع. حينما تربط بعض الدول المميزات والحقوق السياسية بالدين الرسمى للدولة لا يسميها أحد دولة دينية. حينما يُنصّب المؤمنون الأرثوذكس فى بلد ما أنفسهم «حراسا للحشمة» ويخصصون «حافلات محتشمة» تفصل فيها النساء عن الرجال، لا يُلطخ دينهم بتهمة التمييز ضد النساء وكراهيتهن إلا إذا كان ذلك الدين هو الإسلام. حينما يبصق المتعصبون المتطرفون على السكان والسياح المسيحيين ويكيلون لهم الإهانات لا يعتبر هؤلاء ممثلين لدينهم أو يتم الطعن فى موروثهم التاريخى للتسامح والتعاطف إذا لم يكن هؤلاء مسلمين.

ذلك لأن القول بأن التمييز بين الأديان وكراهية النساء سمات ثقافية وتعاليم يلتزم بها المؤمنون بالمسيحية أو اليهودية سيكون خطأ وعبثا. بل إنه فى واقع الأمر فإن المثقفين الفلسطينيين والنشطاء والمقاتلين الذين يناضلون من أجل تحرير فلسطين يوضحون مرارا وتكرارا أن إسرائيل لا تمثل اليهودية أو اليهود جميعهم هذا على الرغم من رغبة إسرائيل فى تقديم نفسها ممثلة لليهودية العالمية. وكما سنري، لم تمتد هذه المجاملة من قبل الغرب لتشمل الإسلام وذلك لأن كراهية المسلمين مكوّن أيديولوجى ضرورى للنظرة الأمريكية الراهنة إلى ذاتها كحامية للنظام العالمي، ورعاية النساء ذوات البشرة السمراء إضافة إلى حمايتها للديموقراطية والسوق الحر.

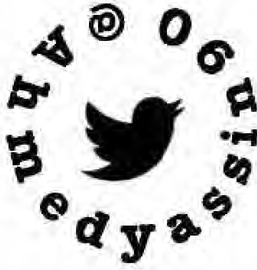
الفصل الرابع

النشطاء والأساتذة في مواجهة قمع السلطة

في الخامسة من صباح ٢٠ فبراير ٢٠٠٣ داهمت قوة مهمات خاصة مشتركة من عملاء الإف بي آي والأمن الداخلي بأسلحتها الثقيلة منزل البروفسور سامي العريان وألقت القبض عليه أمام زوجته وأطفاله الخمسة. كان العريان أستاذًا لعلم الحاسبات مُعينا في جامعة جنوب كاليفورنيا. وكأحد المدافعين البارزين عن القضية الفلسطينية، كان العريان عضوا مؤسِّسا لمشروع الدراسات الإسلامية العالمي، والجمعية الإسلامية بأمريكا، وتحالف تامبا باي للعدالة والسلام، ومنظمة هيلزبورو للتقدم والمساواة. بعد مجرد أسابيع من ٩/١١، هاجم بيل أوريلي البروفسور العريان مُصورًا إياه على أنه إرهابي في وقت كان الجمهور الأمريكي يبحث عن كباش فداء.

كان العريان ناقدا مُفوّها لاحتلال إسرائيل لفلسطين، ومناصرا لحقوق الفلسطينيين، وناشطا فى مجال الحقوق المدنية. كان قد التقى الرئيس بوش وكلينتون، وحضر مع كارل روف مؤتمرا بالبيت الأبيض لاستعراض المعلومات. كان مواظبا على العمل مع الحكومات الفدرالية والمحلية، ويحسب ما يبين ألكساندر كوكبيرن، كان كثيرا ما يلتقى «بالقيادات الاستخباراتية والعسكرية والقيادة المركزية بمكتب أمريكا الفدرالى بمكنديل، ويدعو «مسئولى الإف بى آى وغيرهم لحضور اجتماعات المجموعات التى ينتمى إليها». من المفارقات أن العريان مارس الضغوط على الكونجرس من أجل إلغاء القانون الذى يسمح باستخدام الأدلة السرية (HR2121)، وكان الدافع لحملته هو احتجاز مازن النجار، صهره ومدرس اللغة العربية بجامعة جنوب فلوريدا، بأسلوب غير قانونى وبناء على أدلة سرية، حيث لم توجه إليه أى تهم بإطلاقه.

بعد أن وضعته تحت المراقبة لعشر سنوات، اتهمت وزارة العدل العريان بأنه



يترأس العمليات شمال الأمريكية للجهاد الإسلامى الفلسطينى (PIJ). وفيما كانت جانيت رينو قد ظلت تُخضعه هو والنجار للمضايقات والتحرشات طوال التسعينيات، إلا أنها استجابت للقانون الدستورى لدى إلغاء تشريع الأدلة السرية. أما چون آشكروفت، فقد جعل شخصيا، من العريان هدفاً رئيسياً له بعد ٩/١١. ظهر على شاشات التلفزة فى اليوم التالى لإلقاء القبض عليه وأعلن قائمة من الاتهامات الموجهة إليه وعددها ٥٠ تهمة من بينها مخططات مزعومة لشن هجمات إرهابية بالولايات المتحدة وإسرائيل. سبقت محاكمة العريان التى استغرقت ستة أشهر، فترة حبس انفرادى وحشى مدتها عامان كلفت الحكومة ٥٠ مليون دولار. تتضمن التفاصيل المغثية للمحاكمة وجود قاض منحاز بفجاجة للادعاء؛ واستخدام ٢٠٠ من ٢١٠٠٠ ساعة لمحادثات تليفونية عددها ٤٧٠٠٠ تم التنصت عليها وتسجيلها، ومُنع محامى الدفاع من الاطلاع عليها فى البداية؛ والاعتراف بقرائن ظرفية تضمر الجُرم بالتلازم،

وتوظيف كتيبة من الشهود المنحازين يتضمنون عشرات العملاء الإسرائيليين. وفى النهاية تمت تبرئة العريان واثنين من المتهمين معه من ثمانٍ من تلك التهم، وصوّت ١٠ مقابل اثنين من المحلفين على براءة المتهمين من باقى التهم. وعلى الرغم من دوافع المحاكمة السياسية الواضحة وتبرئة الغالبية الساحقة من المحلفين للمتهمين إلا أن المدعى العام للولايات المتحدة أقسم على إعادة محاكمة البروفسور.

أجبرت الضغوط النفسية والمالية على أسرته، العريان على القبول بأحد الدفوع حيث اعترف بأنه مذنب بإحدى التهم - أى أنه كان على اتصال بأناس «مرتبطين» بالجهاد الإسلامى الفلسطيني، كما اعترف بأنه وكّل محامياً للدفاع عن صهره فيما كان محتجزا بناء على قرائن سرية، مما يعنى أنه وفّر الاستشارة لمتهم لم توجه له أية اتهامات ناهيك عن إدانته بأية جريمة. كان لهذا الدفع أن يؤدى إلى الحكم عليه بأقل عقوبة تتضمن الفترة التى قضاها فى الحبس على أن يجرى ترحيله من الولايات المتحدة فى أعقاب ذلك. بيد أنه أثناء المحاكمة أكد القاضى جيمس موودى أن محكمته لم تراع مبادئ العدالة وذلك من خلال اتهامها العريان بأن «يديه ملوثتان بالدماء» هذا على الرغم من جميع الأدلة التى تثبت عكس ذلك، ثم الحكم عليه بالعقوبة القصوى.

احتجت منظمة العفو الدولية قائلة إن ملابسات احتجاز البروفسور كانت «قاسية وعقابية» وبينت أنه أُخضع لمضايقات عنصرية، ولأنواع من الحرمان والترهيب الجسدى بواسطة حراس السجن والمسئولين. وفى تلك الأثناء، قام جوردون كرومبرج المدعى الفدرالى المعروف بكراهيته للإسلام بإصدار ثلاثة أوامر استدعاء للعريان للإدلاء بالشهادة أمام هيئة المحلفين العليا بفرجينيا والتى كانت تُجرى تحقيقات عن منظمة خيرية إسلامية. رفض البروفسور المثول أمامها فى كل مرة لأن الطلب كان ينتهك «اتفاق عدم التعاون» الذى يسمح له بالامتناع عن الادلاء بالشهادة فى قضايا أخري. وبعد إضرابه عن الطعام لمدة ٦٠ يوما فى عام ٢٠٠٧، بدأ العريان إضرابا آخر فى مارس عام ٢٠٠٨ احتجاجا على قرار كرومبرج بإعادة تشكيل هيئة محلفين

عليا ثالثة عشية الإفراج عنه فى إبريل. وبحسب ما قاله جون تورلى كبير مستشارى العريان فإن «وزارة العدل، وبعد أن خسرت القضية بفلوريدا سعت بصراحة إلى مدّ أمد احتجازه من خلال تشكيل سلسلة متصلة من هيئات المحلفين العليا».

لم تكن معاملة العريان على الجبهة الأكاديمية أقل بشاعة. قامت جودى جنشافت رئيسة جامعة جنوب فلوريدا، وذات التطلعات السياسية بإلغاء تعاقد الجامعة مع البروفسور العريان مع تجاهل مطلق للإجراءات المناسبة. لم تتخذ جنشافت أى احتياطات لحماية العريان حينما تدفقت التهديدات بموته على الجامعة بعد اضطهاد أوريلى له وتشهيره به. بدلا من ذلك، قامت دونما إبطاء بتجاهل الإجراءات، ووبخته، وأنهت تعاقده جورا وبمخالفة للقوانين هذا على الرغم من احتجاجات اتحاد الأساتذة الجامعيين. وبالمثل، أسمى ديك بيرد رئيس مجلس أمناء الجامعة العريان «إرهابيا» و«سرطانا» وألغى بذلك حقه فى التحكيم العادل. كان جيد بوش هو من عيَّن بيرد ومعظم أعضاء المجلس، وثمة شكوك كثيرة فى أنه هو من دفع وزارة العدل لاتخاذ الإجراءات ضده.

وطوال تلك المحنة عملت معظم وسائل الإعلام المحلية والقومية ابتداء من تامبا تريبيون وحتى نيوزويك وفاكتور التى يترأسها أوريلي، على إثارة حفيظة الأمريكيين وحنقهم ضده. نُشرت عدة مئات من المقالات حول قضية العريان، خلطت جميعها بين المزاعم والاتهامات والوقائع وشيطنت العريان حتى بعد تبرئته بل إن بعض المقالات أوحت بأن قبوله بأحد الدفوع كان اعترافا منه بالجرم هذا على الرغم من الأدلة الساحقة على عكس ذلك. تعتبر قضية البروفسور العريان نموذجا على قيام الولايات المتحدة بمأسسة ثقافة التخويف والتهديد والتى كانت موجودة من قبل ضد المعارضين المفوهين لإسرائيل ولسياسة أمريكا بالشرق الأوسط. ظل اضطهاد الناشطين والأكاديميين المناصرين للحق الفلسطينى قائما منذ عقود. بيد أنه، فقد قامت الدولة وإعلام الإثارة وأعضاء من الحزبين الجمهورى والديموقراطى بتشكيل رابطة مع المجموعات الموالية لإسرائيل، والإنجيليين المتطرفين، والتنظيمات الطلابية

ومراكز الأبحاث اليمينية والأكاديميين الفاشلين والانتهازيين من أجل خلق بيئة مستساغة لتخويف وترويع النشطاء والأكاديميين المناصرين للحق الفلسطيني في الولايات المتحدة منذ عام ٢٠٠١. يركز هذا الفصل إلى حد كبير على محنة الأساتذة والطلبة المسلمين الذين يُستهدفون بالمضايقات والتحرشات ناهيك عن احتجازهم. وعلى الرغم من أن هذا القمع لا يقتصر على الأكاديميين والطلبة والناشطين العرب والمسلمين حيث إن الجاليات العربية والمسلمة الأمريكية تعاني من «ثقافة القمع» هذه بدرجة تفوق غيرها كثيرا.

ترمز قصة سامي العريان إلى الضغوط التي يرزح تحتها أفراد الجالية والأكاديميون. سبق اضطهاده ٩/١١ حيث قامت وزارة العدل بمطاردته وتوجيه تهم تدميرية إليه، ثم قامت بتبرئته في التسعينيات، لكن براءته حفزت مكتب المدعي العام الأمريكي والإف بي آي على الاستمرار في التنصت على هواتف عائلته وإبقاء أفرادها تحت الرقابة. وفي واقع الأمر، فقد كان كلما ظهر صدق شخصيته العامة ونشاطه السياسي، عمدت الحكومة والإعلام ومجموعات المصالح والولاءات على تصويره على أنه إرهابي يُتقن أساليب التخفي. في عصر «الحرب على الإرهاب» ظهرت بصمات الرابطة المكونة من الشرائح الحكومية العليا، واللوبيهات ومجموعات المصالح والولاءات، ومراكز الأبحاث و«خبرائهم» والإعلام لتثبت تورطهم في قضية العريان. كان الرئيس بوش أثناء انتخابات عام ٢٠٠٠ قد استخدم مصداقية البروفسور لخطب ودّ المسلمين بفلوريدا، لكنه سرعان ما انقلب عليه وحوّل العريان إلى «بعبع» متطرف وأرسى بذلك مسابقة لانتهاك حقوق الناشطين والأكاديميين المدنية. وإلى جانب أساليب ستيف إمرسون وبيل أوريلي المكارثية، تجاهل الإعلام بأسلوب صارخ وفج حقوقه المدنية وخرق افتراض براءته وأدانه في أعين الجماهير وتغاضى متعمدا عن الحكم ببراءته وجعل من إخفاق هيئة المحلفين في التوصل إلى إجماع رغم الغالبية الساحقة التي أيدت براءته، وكذلك استخدام العريان لأحد الدفوع، جعل منها حكما بالإدانة. كرست مجموعات المحافظين الجدد والصهاينة، والخبراء والمواقع الإلكترونية

(بدءا من فريدوم سنتر لدايفيد هو رووبتز، وميدل إيست فورم لدانيل بايبس إلى مواقع الناشونال ريفيو وهيرتدج فاونديشن وميليتانت إسلام مونيتور) كرست طاقاتها ومواردها اللامحدودة لتجعل من العريان أمثولة. وفيما أنه من المحتمل أنها جميعها كانت تعمل مستقلة عن بعضها إلا أن مجمل أثر جهود تلك المؤسسات، والنشطاء والمنظمات مجتمعة وكذلك جهود البيت الأبيض والكونجرس أدى إلى إرساء مناخ من الترويع المضمر ناهيك عن القمع التام. كان لهذا المناخ أثره الفاعل فى إثباط المعارضة الصريحة المعلنة من قبل المجموعات العربية والمسلمة والأكاديمية للحرب على الإرهاب واحتلال العراق وأفغانستان ومعاملة إسرائيل الوحشية للفلسطينيين.

التحكم فى دراسات الشرق الأوسط:

بعد ٩/١١، وفقا للوثائق القانونية تم احتجاز ٥٠٠٠ عربى ومسلم، دون توجيه أية تهمة لمعظمهم. تم احتجاز كثير منهم فى سجون سرية وإجراء محاكمات سرية لهم، وترحيلهم أو تسليمهم لبعض الأنظمة القمعية الحليفة لسجنهم وتعذيبهم.

وكما توضح حالة البروفسور العريان، يشعر الأكاديميون العرب والمسلمون بالضغوط الحادة العميقة لثقافة القمع القومية هذه، وينتمى كثير من الأكاديميين الذين مروا بضغوط مهنية وخبروا الترويع، وتلقوا تهديدات بالموت، وواجهوا مشاكل تتعلق بعقودهم الدائمة مع الجامعات، ونقاشات خلافية حول التعاقد معهم، وعدم منحهم تأشيرات سفر، كثير منهم ينتمون إلى الجاليات العربية والإسلامية الأمريكية. كانت نادية أبوالحاج، وشهيد علام، وكڤين بارت، وبشارة دوماني، وحميد دباش، ورشيد الخالدي، وسارى مقديسي، وجوزيف مسعد، وعلى مزروعي، وأمينة بڤرلى مكلود ووديع سعيد من بين أبرز الأكاديميين الذين تعرضوا لتلك الضغوط. وبالمثل، استهدفت مجموعات المصالح السياسية والإعلام والحكومة، علناً، الأكاديميين فى مجال دراسات الشرق الأوسط.

كان الاضطهاد قد بدأ منذ فترة، حتى قبل أن ينشئ جوزيف ليبرمان، وهو من صقور المحافظين الجدد، ولين تشيني، وشاؤول بيلو الصهيونى اليميني، وهانك براون

السناتور السابق وعضو المحافظين المتشددين، والذى كان، وبصفته رئيس جامعة كلورادو قد أنهى عقد وارد تشرشل دون سند قانوني، قبل أن ينشيء هؤلاء «مجلس الأمناء والخريجين الأمريكى ACTA» الذى يزعم أن «تهديد الحرية الأكاديمية يأتى من الداخل. وأن البرابرة ليسوا على الأبواب، بل داخل الأسوار». المقصود بهذا الكلام المُشفَّر هو إخضاع الأبحاث والدراسات النقدية فى المجال الأكاديمى والتى قد تواجه سياسة الولايات المتحدة الأمريكية بل وتسائل فرضيات سمو الثقافة الأمريكية البيضاء، إخضاعها للوائح والتنظيمات الرقابية. بعد ٩/١١، وجد السياسيون الموالون لإسرائيل والأكاديميون المزيفون، واللوبيهات، ومجموعات الولاءات والمناصرة أرضا خصبة فى إطار تلك الثقافة. انضمت كثير من تلك المجموعات والسياسيين إلى ACTA على أمل التحكم فى دراسات الشرق الأوسط وصادقت على مشروع قانون الدراسات الدولية فى التعليم العالى «الذى تبناه عضو الكونجرس باتريك تيبرى ومعه ثلاثة عشر عضوا من الحزبين.

كان مشروع قانون مجلس النواب H.R.509 نسخة أعيد تشكيلها H.R. 3077 التى كتبها العضو اليمينى بيتر هوكسترا وطرحت على المجلس فى الذكرى الثانية لأحداث ٩/١١. قصد بالتشريع أن يكون «تعديلا» على عنوان تشريع [يلخص محتواه] Title IV لقانون التعليم العالى عن العام ١٩٦٥ الذى يقضى بتوفير التمويل الفدرالى لبرامج دراسات المناطق. لا يمول Titel IV فقط مراكز أبحاث دراسات المناطق بل أيضا يوفر منحا دراسية لمئات الطلبة الذين يحتمل لهم أن يصبحوا بعدئذ أكاديميين ومهنيين ومسئولين حكوميين. تمت الموافقة على الفور على H.R3077 وأحيل إلى مجلس الشيوخ حيث دخل طى النسيان بعد إرساله إلى لجنة الصحة والتعليم والعمل والمعاشات فى ١٣ أكتوبر ٢٠٠٣. ظهر التشريع مرة أخرى مع H.R 509 الذى كتبه تيبرى وتم تعديله فى ١٦ يونيو ٢٠٠٦ فى اللجنة الفرعية للتعليم المختار وبُعث به إلى لجنة التعليم وقوة العمل حيث يظل هاجعا إلى الآن.

فى واقع الأمر فإن المقصد من ذلك التشريع كان إعادة ضبط دراسات الشرق

الأوسط ووضع معايير لها أو بحسب ما قاله تيبرى فإن مشروع القانون «سيشجع مؤسسات التعليم العالى لأن تكون أكثر استجابة للمناخ الكوكبى الراهن»، وأضاف أن «مشروع القانون يوضح أن البرامج المندرجة تحت العنوان ٧١ من قانون التعليم العالى عليها أن تدعم البرامج الفدرالية فى مجال اللغات الأجنبية ودراسات المناطق والبيزنس الدولى وتنسق معها». ذلك لأن التشريع يهدف إلى إنتاج «الجيل القادم» من المتخصصين «الذين باستطاعتهم توفير المساعدة للحكومة وللقطاع الخاص».

وإلى جانب نظرة التشريع النفعية والشركاتية والسياسية لدراسات الشرق الأوسط، فهو يحتل أرضا جديدة فى رغبة الدولة فى التحكم فى المجال الأكاديمى وبخاصة فى الدراسات البحثية والأبحاث الناقدة فى قاعات الدراسة وفى أوساط أعضاء هيئات التدريس والطلبة الذين يدرسون الشرق الأوسط. لا يُخفى كاتبو التشريع رغبتهم فى إدارة دراسات المناطق جزئيا، بما فى هذا تشكيل مجلس استشارى يمد وزير التعليم والكونجرس بالمشورة حول ما تحتاجه الحكومة من خبرات وكذلك القطاع الخاص والتعليم وذلك من أجل الارتقاء بفهم أمريكا للعالم والاشتباك معه». سيقوم ذلك المجلس بإصدار «توصيات تعكس وجهات نظر منوعة ومدى كاملا من الآراء بشأن مناطق العالم واللغات الأجنبية والشئون الدولية». وهذا المجلس بوتقة سياسية تتكون من ثلاثة أعضاء يعينهم وزير التعليم واثنين يعينهم مجلس النواب واثنين من قبل مجلس الشيوخ، وينبغى أن يمثل اثنان من هؤلاء السبعة «الوكالات الفدرالية المسئولة عن الأمن القومي». من ثم سيكون هؤلاء مفوضين بدراسة عينة من الأنشطة المدعومة المندرجة تحت هذا التشريع ورصدها وتقويمها وتقييمها وذلك لإصدار توصياتهم إلى وزير التعليم والكونجرس من أجل تحسين تلك البرامج والتأكد من أنها توفى بمتطلبات هذا العنوان. وفيما أن «المجلس» غير مسئول أمام أحد، إلا أن اللغة الشركاتية للتحكم فى الجودة هى الوسيلة التى بها يكتسب الكونجرس، ووزير التعليم، والأمن الداخلي، ومجموعات الموالاة واللوبيهات نفوذا على الأبحاث الأكاديمية والطلبة وقاعات المحاضرات. باستطاعة المجلس التهديد بإبطال استحقاق

إحدى المؤسسات لـ Title iv للتمويل إذا لم تمثل نظرة «متوازنة»، أى تقوم بتكريس وقت متساو للنسخة الأمريكية والإسرائيلية الرسمية للسياسة والتاريخ.

يشترط H.R.509 أيضا على البرنامج المتلقى [للتمويلات] أن يتيح الهيئات التوظيف الحكومية والوكالات الخاصة لقاء الطلبة وإعطاءهم معلومات عنهم وذلك بهدف منح الطلبة فرصاً للدراسات العليا أو الوظائف بعد تخرجهم» وإذ لم تذعن الجامعات المتلقية لتفسير المجلس الاستشارى لمهمة Title IV تُمنع عنها التمويلات. نقدت معظم كبرى الجمعيات المهنية فى هذا المجال مثل جمعية اللغات الحديثة MLA، واتحاد أساتذة الجامعات الأمريكية AAUP واتحاد دراسات الشرق الأوسط MESA، نقدت هذا التشريع لأنه «يخفى أجندة سياسية خلف اهتمامه بالكفاءة».

يعمل قانونا H.R509 و3077 بتناغم مع تشريع آخر من أجل إدارة حرية الكلام، والتقصى الناقد فى قاعات المحاضرات، والأبحاث الموضوعية حول الشرق الأوسط. يستهدف «قانون الوطنية PATRIOT Act» الأكاديميين العرب والمسلمين فى مجال دراسات الشرق الأوسط. تسمح الفقرة ٤١١ من القانون للحكومة بترحيل الأجانب ممن لهم أوضاع قانونية (بما فيها الإقامة الدائمة) بالولايات المتحدة على أساس «الارتباط» بمنظمات متهمة بوجود صلات لها مع «الإرهاب». استخدمت إدارة بوش هذا النص لمنع حصول طارق رمضان على تأشيرة دخول.

رمضان من مواليد سويسرا، وهو حفيد حسن البنا وأكاديمى فى مجال الدراسات الإسلامية ومثقف عام. وفيما تركز أبرز أعماله على المسلمين فى أوربا، إلا أنه كتب مقالات ناقدة لإسرائيل ولاحتلال العراق، ولاستخدام التعذيب، وسجون السى أى إيه السرية وإجراءات الحكومة لتقويض الحريات المدنية الأساسية. كان قد قبل منصب أستاذ كرسى بجامعة نوتردام بالولايات المتحدة لكن وزارة الخارجية ألغت تأشيرة دخوله على أساس أنه كان قد تبرع بتسعمائة وأربعين دولار لمنظمتين خيريتين (مجموعة فرنسية وفرعها فى سويسرا) ترعيان شئون الفلسطينيين. أيضا، لجأ مكتب المدعى العام للولايات المتحدة للاستناد إلى الفقرة ٤١١ من قانون Patriot

لمقاضاة سامى عمر الحسين طالب الدكتوراه السعودى بجامعة إيداهو البالغ من العمر ٣٤ عاما والأب لثلاثة أطفال، وذلك لأنه تطوع لإدارة عدد من المواقع الإلكترونية الإسلامية، وكان بعضها قد امتدح العمليات الانتحارية بإسرائيل والشيشان. لم يقدم المدعون الفدراليون أية أدلة أو قرائن على أنه كان يدعم العنف بالخارج أو بداخل الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن هيئة المحلفين بايداهو برأته، إلا أنه، ومثل النجار، ظل معتقلا ثم تم ترحيله رغم قانونية إقامته بالولايات المتحدة.

ومثل قانون پاتريوت، يسمح قانون REAL ID لعام ٢٠٠٥ للحكومة الفدرالية بترحيل أى شخص ينتمى إلى جماعات ترى الولايات المتحدة أنها مرتبطة بنشاط «يتصل بالإرهاب» أو يمدها بالمال، أو يصادق عليها، أو يتواجد مع أعضائها أو مناصريها، ترحيلهم وعدم منحهم حق اللجوء. تبين منظمة العفو الدولية أنه وفقا للفقرة ١٠٣ من هذا القانون يصبح أى شخص عرضة للترحيل إذا عجز عن إثبات، وفقا «لأدلة واضحة ومقنعة» أنه/ أنها لم يكن يعرف/ تعرف أن المجموعة التى يؤيدونها لم تتورط فى أية أنشطة إرهابية وفقا للتعريف الفضفاض لهذا اللفظ، وأن هذا النوع من التشريعات لا يقلب فقط مبدأ أن «الإنسان برىء حتى تثبت إدانته» رأسا على عقب وذلك بإلقائه مسئولية إثبات البراءة على المتهم، بل أيضا يعرض الأكاديمين والباحثين الذين يَدْرسون التنظيمات السياسية فى الشرق الأوسط لمخاطر جمة.

يقترح مشروع قانون «منع الردكلة العنيفة والإرهاب المحلي» الذى وافق عليه مجلس النواب مع معارضة ستة أصوات فقط إقامة «مراكز امتياز وفضائل» فى الأحرام الجامعية وذلك لنقل «الحرب على الإرهاب إلى مستنبتاته المحلية» لمواجهة «الإرهاب الذى ينمو محليا» و«العنف القائم على أسس أيديولوجية». كتب بريان جنكينز عضو مؤسسة راند والذى يُطلَق عليه «صائد الإرهابيين» مشروع القانون هذا الذى ينص صراحة على أنه يطمح لقمع العصيان المدنى وأنشطة العدالة الاجتماعية التى يقودها داخل الأحرام الجامعية وخارجها مجموعات الطلبة المسلمين، والمنظمات المناوئة للعولمة والبيئيون والأناركيون.

أدت التشريعات القومية وتشريعات الولايات المتحدة إلى إرساء مناخ دفع الأكاديميين والنشطاء، وبخاصة غير المواطنين منهم، إلى ممارسة الرقابة الذاتية على أحاديثهم واعتراضاتهم، وإلى التقييد الذاتى لأفعالهم وإجراءاتهم العامة والعلنية، وإلى الحذر والحيطة البالغة لدى اختيارهم لرفاقهم ومعارفهم. تُبدى الحكومة علنًا عزمها على مطاردة الأكاديميين الذين يتجاسرون على بث نقدهم لسياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط فى أوساط التيار السائد. عمل هذا المناخ بفعالية على إخراس أصوات الأكاديميين العرب والمسلمين، وخاصة شباب الباحثين منهم، والمهاجرين القانونيين، ومن لديهم إقامات دائمة أو من هم مواطنون مُجْنسون.

التنسيق من أجل خلق مناخ الخوف:

بدأ اضطهاد الأكاديميين والمثقفين مع صعود إدوارد سعيد واحتلاله مكانة مرئية مرموقة فى وسائط الإعلام السائد الأمريكية وفى الحياة السياسية فى ثمانينيات القرن الماضي. أُطلق على سعيد، فى الثمانينيات والتسعينيات، بصحافة نيويورك والصحافة القومية لقب «بروفسور الإرهاب» وغير ذلك من النعوت العنصرية، ويُعتبَر هذا خيّرا مقارنة بتفجير مكتبه فى جامعة كولومبيا بالقنابل الحارقة عام ١٩٨٥، أو بمخططات عصبة مكافحة التشهير اليهودية لقتله هو ورشيد خالدى عام ١٩٩٠. تصور «كتائب الصدمة» التى تشن تلك الهجمات أساتذة دراسات الشرق الأوسط أشخاصا معادين للسامية، يساريين متطرفين ومتعاطفين مع الإرهابيين، بل يكادون يكونون متحالفين مع القاعدة. انهال البُحاث المتعصبون العنصريون من أمثال دانييل پايپس ومارتن كرايمر وفؤاد عجمى وبرنارد لويس ودعاة الإسلاموفوبيا من السياسيين «الأرزقية» من أمثال دايڤيد هوروويتز وروبرت سبنسر، انهالوا بالاتهامات على أساتذة دراسات الشرق الأوسط والأكاديميين فى المجال بأنهم يسوغون «الإسلام المتطرف» ناهيك عن «تمكين» التطرف ذاته. فضح عدد غير قليل من التعليقات والمقالات أمر هؤلاء النقاد بصفتهم «أرزقين» سياسيين وكتّاباً عنصريين، كما تم نشر عدد من المصنفات الجيدة التى تبين تآكل حرية الكلام فى الأوساط الأكاديمية و«حصار» دراسات

الشرق الأوسط، ومن أهمها تلك الدراسات التى قام بها بشارة دوماني، وجويل بينين وزخارى لوكمان رئيس اتحاد دراسات الشرق الأوسط، وكلها دراسات لافتة وذلك لأهمية القائمين عليها وتمكنهم من هذا المجال.

وبما أن «اتحاد دراسات الشرق الأوسط MESA» هو أهم اتحاد مهنى فى هذا المجال على مستوى العالم، نجد أنه الهدف الرئيسى للهجمات. وبصفته المهنية هذه، فقد دافع بشدة عن حرية أعضائه الأكاديمية، وعرَّف الجمهور بمحنة كثير من الزملاء فى مجال دراسات الشرق الأوسط. وبالمثل، فقد قام اتحاد أساتذة الجامعات الأمريكية AAUP بإعلان إدانته للتشريعات القومية التى تهدف بوضوح إلى إخضاع دراسات الشرق الأوسط للوائح التنظيمية ناهيك عن التجسس على أعضاء هيئة التدريس بها. وفى هذا الصدد، فقد غدا هذا الحصار لأقسام دراسات الشرق الأوسط وهيئات التدريس بها مصدر قلق معلن فى الأوساط الأكاديمية. تتراوح الهجمات على الأكاديميين بين المضايقات، وتقويض إجراءات التعاقد معهم، سواء التعاقدات المؤقتة أو الثابتة، والتهديدات بالقتل، وإثارة القلاقل بقاعات الدراسة، والرقابة، وإلغاء الأحاديث أو التراجع عن الدعوات لها، إلى منع الأكاديميين خارج الولايات المتحدة من الحصول على تأشيرات دخول إلى البلاد. تأتى كثير من تلك الإجراءات والمضايقات من خارج الجامعات، تحفزها حملات مكارثية تقوم بها مجموعات المصالح والموالاة والنشطاء المتطرفون. من بين أكثر هؤلاء شراسة مشروع دايفيد، ومرصد الأحرام الجامعية التابع لمنتدى الشرق الأوسط، وفرونتبيدج مجازين، ورابطة بروين للخريجين، وجمعية «قف معنا Stand With Us» و«تحالف إسرائيل بالأحرام الجامعية»، و«المفكرون من أجل السلام فى الشرق الأوسط». تتضمن تكتيكات تلك التنظيمات التى لا تنتمى للجامعات إطلاق حملات كلامية ضد من تستهدفهم وذلك من خلال نشر متزامن لمقالات ملتهبة على شبكة من المواقع الإلكترونية، وفى النهاية تجد تلك المقالات طريقها إلى إعلام التيار السائد. يقوم هؤلاء «الأرزقية بالطعن فى الصدقية الأكاديمية لأهدافهم، ويستخدمون لغة ملتهبة تحريضية، ويجتزئون مقولاتهم من خارج سياقها

أو يعمدون إلى اقتباسها بأسلوب خاطئ، أو يفبركون الأدلة والقرائن. وبناء على تلك المتون من المقالات والقوائم الاتهامية مثل «الحقراء الثلاثين» أو «المائة أستاذ الأشد خطورة» يقوم مهندسو تلك الحملات بترويج كل جامعة على حدة، أو استمالتها من أجل اتخاذ إجراءات تأديبية ضد من يستهدفونهم. يقومون بالضغط على الخريجين والمانحين لاستخدام نفوذهم للتدخل فى العمليات الأكاديمية للجامعات مثل إجراءات التعاقدات، أو منح عقود دائمة، أو يقومون بتهديد تلك المؤسسات بالمقاطعة أو باتخاذ إجراءات قانونية إذا لم تُلغ الدعوات أو التعاقدات غير المرغوب فيها.

ثمة تعليقات كثيرة على حالات المشاهير من الأساتذة مثل الإجراءات العقابية والتأديبية ضد العريان، و وارد تشرشل وجوزيف مسعد؛ وإلغاء تأشيرة رمضان؛ والاحتجاجات ضد تعاقد جامعة كولومبيا مع الخالدي؛ والعمل على إلغاء تعاقد جامعة ولاية واين مع وديع سعيد، وجامعة ييل مع چوان كول؛ والحملات ضد تعاقد جامعة دوپول مع نورمان فينكلستاين وجامعة برنارد مع نادية أبوالحاج. تشمل الهجمات الشاملة ضد الأكاديميين الناقدين لإسرائيل حميد دباشى وچيل أنيجار بجامعة كولومبيا، وچون إسپوزيتو بجامعة چورج تاون، وسارى مقدسى وساندرا هايل وجبرييل پيتربرج بجامعة يوسى إل إيه، وأمينة بقرلى مكلواد بجامعة دوپول، وعلى مزروعى بجامعة صانى بينجامتون، وشهيد على بجامعة نورث إيسترن، وسنهال شينجاڤي ببركلي، ومارك لڤاين بيوسى إرڤين، وچوان كول بجامعة ميشيجان. أما الهجمات الشرسة الأخرى على أعضاء هيئة التدريس الأقل شهرة فهى أكثر من أن تحصى و نكتفى هنا بالحملات ضد كڤين بارت بجامعة ويسكونسين وحاتم بازيان بجامعة كاليفورنيا بركلي، وناتانا دولونج - باس بجامعة برانديز، ودوجلاس جايلز بجامعة رووزفلت.

تقوم جماعات المحافظين الجدد والصهاينة ونشطاؤها، وإلى جانب حملات التشهير المباشرة، بممارسة الضغوط على الجامعات من أجل مقاطعة الأكاديميين والفنانين والنشطاء والسياسيين الذين ينقدون السياسات الإسرائيلية علناً. لم توجه الدعوة

إلى دزموند توتو وحنان عشراوى للتحدث بجامعة سان توماس وجامعة كلورادو على التوالى كما لم يُدع جون ميرشايمر وستيفن وولت كاتبا المقال الشهير الذى يهاجم لوبى إسرائيل إلى مجلس شيكاغو للشئون الكوكبية. وبالمثل، تم إلغاء الأحاديث التى كان من المفترض أن يلقيها طونى چودت، أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك، إلغاؤها بالقنصلية البولندية بنيويورك سيتي، وكلية مانهاتن وذلك لمعارضة «عصبة مناهضة التشهير ADL الصهيونية، واللجنة اليهودية الأمريكية. كان چودت قد أدى الخدمة العسكرية بالجيش الإسرائيلى وأصبح منذ آنذاك ناقدا مُفوّها لدولة إسرائيل، ودعا فى مقال جسور له بدورية نيويورك ريڤيو أوف بوكس إلى إقامة دولة تضم الفلسطينيين واليهود معا.

لا يجوز أن يغرى المرء بإلقاء مسئولية حملة «اصطياد الساحرات» الراهنة والمحاكمات الصورية الظالمة وحملات التشهير على المنظرين المتعصبين والنشطاء المتطرفين ومنظمات اللوبيهات، ومجموعات الموالاة فقط، إذ إن وزارات العدل والخارجية والأمن الداخلى والتعليم ظلت تمارس أنشطة استباقية فى إعاقة قدرة أساتذة دراسات الشرق الأوسط على التحدث والتدريس وإجراء الأبحاث. وكما بينتُ فإن أكثر الأكاديميين عرضة لإخضاعهم لتلك الإجراءات والضغوط هم ذوو الأصول العربية و/أو الإسلامية، ومن هم من مواطنى الدول الأجنبية. ومثلما حدث فى حالة طارق رمضان عملت وزارة الخارجية على تعقيد الزيارات الأكاديمية أو تعيين عدد من المفكرين المسلمين أو منعها.

حينما سافر محمد رمضان حسن سلامة أستاذ اللغة العربية بجامعة سان فرانسيسكو إلى تورنتو من أجل تجديد أول تأشيرة دخول له إلى الولايات المتحدة وإطالة مدتها رفضت السلطات طلبه وحُظر عليه دخول الولايات المتحدة مرة أخرى، ثم، بعد ثلاثة أشهر من الاحتجاجات سُمح له بالدخول. وفيما أن العنصرية كانت أساس محنة سلامة، فقد تم منع أكاديميين عرب ومسلمين آخرين من الدخول ومن بينهم آدم حبيب الأكاديمى جنوب الإفريقى والدكتور رياض لطفة. كان حبيب فى

طريقه لزيارة المعهد القومى للصحة، ومراكز التحكم فى الأمراض والبنك الدولي. ولأنه كان معارضا مفوها للحرب على العراق فقد اتهم بأن له روابط مع الإرهابيين وتم احتجازه لدى دخوله نيويورك ثم ترحيله. وبالمثل، فقد تم رفض منح الدكتور لطفة، وهو متخصص فى الأوبئة ويحظى بمكانة رفيعة فى الأوساط الطبية، تأشيرة دخول للولايات المتحدة بعد أن نشر مقالا أكد فيه أن ما يربو على ٦٥٠٠٠٠ عراقى قد قتلوا منذ «تحرير» الولايات المتحدة للعراق.

تظهر الرابطة بين مجموعات مناصرة الصهيونية، والإعلام وإدارات الجامعات والحكومة فى أقصى تجلياتها فى حالتى مسعد والعريان.

مسعد تلميذ سابق لإدوارد سعيد ومازال ناقدا للولايات المتحدة وإسرائيل والسلطة الفلسطينية لكنه هدف سهل. وُضِعت محاضراته بجامعة كولومبيا تحت المراقبة من خلال «مشروع دايڤيد» وهو تنظيم صهيونى يمينى مكرس لقمع أى حديث أو أعمال أكاديمية تنقد إسرائيل. فبرك ذاك التنظيم شهادات دامغة على أن مسعد معاد للسامية ولإسرائيل يزيف الحقائق التاريخية ويلقن طلبته الأفكار المناهضة لإسرائيل، وفيما بدأت كولومبيا تحقيقا لقى دعاية واسعة، كان مسعد وزملاء له بالقسم يتلقون عشرات الآلاف من الإيميلات البذيئة، والخطابات المروعة، والتهديدات الشفاهية. الأدهى من ذلك والأكثر إثارة للقلق أنه تعرض للتحرشات والمضايقات من قبل الطلبة وأعضاء هيئة التدريس بكلومبيا وكان من بينهم أستاذ بكلية الطب قال لمسعد «ارحل عن أمريكا واذهب إلى الجحيم، إنك مدعاة، للعار، وكذاب عربى نمطي...». ومما فاقم الحملة ضده قيام بعض المتطرفين الصهاينة بسرقة بطاقة هويته واستخدموها وأرسلوا باسمه تهديدات إرهابية إلى البيت الأبيض والكونجرس. وفى تلك الأثناء، طالب أنطونى وينر عضو الكونجرس بفصل مسعد بفظاظة ودونما إبداء أسباب فيما هدد مجلس نيويورك سيتى بالقيام بتحقيقاته الخاصة مع البروفسور والقسم الذى يعمل به. توضح الحملة ضد مسعد والعريان تلاقى مصالح جماعات

مناصرة إسرائيل وتابعيها المتعصبين، ومسئولى الحكومة، وإعلام التيار السائد بدءا من النيويورك تايمز وإلى ڤيلدج ڤويس، ناهيك عن التنسيق بين جهودها.

كُتيبات القمع والترويع:

ليس من قبيل نظرية المؤامرة القول بوجود جهود متسقة لقمع الآراء الناقدة لإسرائيل وسياسات أمريكا شرق الأوسطية، الأحرى أن هذا القول يوضح أنه ثمة رغبة مشتركة لدى المسئولين الحكوميين والهيئات والإعلام، وجماعات النشطاء لقمع المعارضة وذلك من أجل الدفع بأجندتهم الخاصة. توضح البرامج والمشروعات والاستشارات والمخططات الصريحة للمجموعات المناصرة لإسرائيل كيف تتناسج السياسات الجامعية مع نظيراتها التى تتبناها مجموعات المصالح والهيئات الحكومية. تقوم تلك التنظيمات الصهيونية، والتى ليست يهودية بشكل حصري، بنشر الطلبة ليعملوا جنود مشاة فى حملاتها للرقابة والتحكم، وتمول أنشطة الطلبة وتقدم لهم منحا لحضور ورش عمل فى واشنطون وإسرائيل. الأنكى من ذلك أنها تقوم بتوزيع كتيبات وكتب إرشادية تمدهم بالتعليمات عن كيفية ترويج «الأجندة المناصرة لإسرائيل» ورصد الأنشطة والأحاديث المعادية لإسرائيل بالأحرام الجامعية.

قيل الكثير عن حملات دايڤيد هوروويتز الفاشية الصريحة ضد أعضاء هيئة التدريس والطلبة والمنظمات العربية والإسلامية، لكن دوره لا يخرج عن نطاق تيسير تلك الأنشطة وتحفيزها ليلتقطها بعد ذلك الصهاينة الملتزمون والتنظيمات اليمينية مثل منظمة «يونج أمريكاس فاونديشن» النازية. تدير التنظيمات من أمثال إيباك برامج تدريب بالأحرام الجامعية، وورش عمل ومعسكرات تدريب صيفية تعلن عنها بالقول «بإمكانك التأثير فى مستقبل إسرائيل وتعزيز مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط من داخل جامعتك». تبعث تلك المعسكرات وورش العمل بالطلبة إلى إسرائيل فى «بعثات مدتها عشرة أيام» وتقوم بإقامة شبكات بين الطلبة وأعضاء الكونجرس وذلك لمساعدتهم على «تحديد مجالات الجدل ونوعيته» و«التأثير فى مناخ الرأى بالجامعات».

ليست العلاقات بين مجموعات الطلبة، ومجموعات مناصرة إسرائيل والتنظيمات الصهيونية، والمراكز، ومراكز الأبحاث، ليست سرا. تقوم مراكز الأبحاث بزرع مجندين للدفع علناً بأجندات مؤازرة إسرائيل داخل الحكومة الفدرالية وفى الأحرام الجامعية، ويُشّجع هؤلاء المجندون على رصد أنشطة الأساتذة والطلبة الذين يعتقدون أنهم معادون لإسرائيل ناهيك عن ترويعهم. يتضح التنسيق بين تلك التنظيمات والمعاهد ومجموعات الطلبة بمجرد إلقاء نظرة عابرة على مواقعها الإلكترونية حيث نعلم «مثلا» أن «تحالف إسرائيل بالجامعات Israel on Compus Coalition» يتكون من منظمات قوية تشمل هيلل، والمنظمة الصهيونية بأمريكا ZOA وإيباك وعصبة معاداة التشهير ADL وتموله التدفقات المالية من مركز تشارلس آند لين تشوسترمان. يجتذب ذلك التحالف، المنظمات اليمينية المتطرفة مثل أمريكان إسرائيلى كوئيتراتيف إنتربرايز وهاماجشاميم ومعها تنظيمات ليبرالية مثل حركة السلام الآن. يعلن هذا التحالف، متباهيا، عن علاقته بدولة إسرائيل وسفارتها وتنسيق أنشطته معهما. من بين أنشطة الترويع التى يمارسها التحالف فى الجامعات نشر كتيبات تحمل تهديدات لا تكاد تخفى مثل «تحديد دور هيئة التدريس فى دعم إسرائيل بالجامعات» ويزعم أنه يثير «قضايا مقلقة تتعلق بدولة إسرائيل، وهيمنة أعضاء هيئة التدريس المعادين لإسرائيل، وندرة الأساتذة المناصرين لإسرائيل، وما ينجم عن هذا من أثر على ما يتعلمه الطلبة عن إسرائيل، والمناخ الذى يسود الحرم الجامعي». يطرح الكتيب «مقترحات ملموسة لكيفية دعم أعضاء هيئة التدريس للطلبة المناصرين لإسرائيل، ومقترحات بمبادرات استباقية تهدف إلى تعزيز الدراسات والأبحاث المناصرة لإسرائيل بالجامعة».

ينصح هذا الكتيب الإرشادى مجموعات الطلبة، وأفراد هيئة التدريس المتعاطفين، والمواطنين المهتمين بالتحكم فى عمليات التعاقد مع الأساتذة بحيث يرفضون التعاقد مع «الأساتذة المعادين». يقدم الكتيب إرشادات لإدارة الجدل الصهيوني/ الفلسطينى ودعم العناصر الموالية لإسرائيل وحلفائها فى الجامعات والإعلام والدوائر الانتخابية بحيث يتم إنجاز ذلك من خلال تنمية صلات مع إدارات الجامعات، وممارسة الضغوط

على الممثلين المنتخبين من أجل «إصلاح» «قانون التعليم العالي» مع الإصرار على تمثيل «المنظور الإسرائيلي» فى جميع مناهج دراسات الشرق الأوسط، وإغراق الجامعات بالمناسبات الثقافية الإسرائيلية، ودعوة أعداد كبيرة من الأساتذة الإسرائيليين الزائرين. يتم توجيه الطلبة والخريجين الصهاينة والمانحين إلى «تقوية» العلاقة بين جامعات الولايات المتحدة وإسرائيل من خلال إرسال بعثات من الطلاب والإداريين وأعضاء هيئة التدريس إليها، وزيادة برامج الدراسة بالخارج، وتشجيع الأبحاث والمشاريع المشتركة مع الجامعات والبيزنسات الإسرائيلية. وفى إطار رؤية الكتيب طويلة المدي، يوحى بتجميع قاعدة بيانات للمانحين المحتملين، ومصادر التمويلات من أجل إيجاد مناصب أساتذة كرسى للدراسات الإسرائيلية والتحكم بها. أيضا، ستوفر قاعدة البيانات تلك المعلومات عن مصادر للتمويلات، ورعاية شباب الطلبة الصهاينة من أجل خلق مستودع «للتعاقدات الأكاديمية الجذابة»، وفى نفس الوقت إيجاد التمويلات «لتدريب الأكاديميين الحاليين المتخصصين فى مجالات أخرى والذين يمكن أن يتعلموا قدرا كافيا عن شئون الشرق الأوسط يسمح لهم بطرح مناهج تعليمية فى هذا المجال فى الأقسام التى يعملون بها».

تعطى مثل هذه الكتيبات الموجودة فى متناول الجميع التعليمات للطلبة عن كيفية استهداف الأساتذة الناقدين لإسرائيل والربط بين توجهاتهم التقدمية والإسلام المتطرف. مثلا، تؤكد الإصدارات من أمثال الكتيب الاستعراضى الذى ألفه چون تيرنى بعنوان «سياسات السلام: ما يكمن خلف الحركة المناهضة للحرب» تؤكد رأى إلن شوكر التى تذهب إلى أن أساتذة دراسات الشرق الأوسط أهداف للمكارثية الجديدة. يقول تيرنى فى كتيبه إن «السلام فكرة يستخدمها منظمو الحركة استخداما تكتيكيا حيث يستعملونها رافعة سياسية فى مواجهة صناع السياسة الأمريكيين، علاوة على كونها رد فعل أيديولوجياً على إخفاقات المجتمع الأمريكي...».

يضيف قائلاً إن أهداف حركة السلام «الشيوعية الجديدة» تتضمن «النضال» ضد «القمع» و«الإمبريالية» وكل هذه «مفردات كودية فى معجم الاشتراكية الثورية».

أيضا يحذر جارى توبين وأريه وينبرج فى كتيب «صورة جانبية لأستاذ جامعى أمريكي: السلوك والمعتقدات السياسية» [الجزء الأول] من أن «أعضاء هيئات التدريس ينقذون، من منطلقات أيديولوجية، أمريكا وعالم البيزنس، ويعتنقون عددا من الأفكار المنحرفة الضالة من بينها نقد كثير من السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية؛ ولديهم نزوع لتحميل أمريكا المسئولية عن جميع مشاكل العالم ويميلون بقوة لدعم المنظمات الدولية من أمثال هيئة الأمم المتحدة ، ويعارضون بشدة أحادية أمريكا، وينقدون البيزنسات الكبيرة، ويرتابون فى قدرة الرأسمالية على المساعدة فى التعاطى مع مشكلة الفقر فى البلدان النامية». يطلق المؤلفان صيحة إنذار من أن هؤلاء الأساتذة الليبراليين ذوى التوجهات الإنسانية هم فى حقيقة الأمر يساريون متطرفون متنكرون يشنون حربا أيديولوجية بالجامعات «إنهم مناهضون للحروب، معادون لإسرائيل، وللعولمة وللبيزنس، وتلك المواقف جزء لا يتجزأ من الخبرة فى الجامعات، يصورون العراق فيتنام الجديدة، وإسرائيل جنوب إفريقيا الجديدة، والبيزنسات هى الاستعمار العالمى الجديد»، ثم يضيفان القول إنه حينما تصبح تلك «الأيديولوجيات السياسية هى المعيار» يتفاقم خطرها وذلك لأن «الأساتذة الأقل تديناً يحتمل لهم القول بأن سياسات الولايات المتحدة هى السبب الرئيسى لظهور التوجهات الإسلامية القتالية».

يؤكد كنث سترن أن سبب هذا التمثيل المضلّل هو انتشار معاداة السامية التى يروج لها الأساتذة التقدميون والتنظيمات الطلابية المناصرة للفلسطينيين: سترن هو عضو باللجنة اليهودية الأمريكية AJC متخصص فى معاداة السامية والتطرف. يروى فى إصدار له بعنوان «التعصب الأعمى فى الأحرام الجامعية» قرائن حكائية عن أحداث معادية للسامية ويربط بين نقد إسرائيل وأحاديث الكراهية المعادية لليهود. ومرة أخرى، يتم إدماج تصوير وضع اليهود كضحايا فى الماضي، بالنقد المعادى للصهيونية ويُستَخدم لحرْفِ الانتباه عن هذا النقد من خلال طرح أسئلة بلاغية من قبيل «إلى أى حد يمكنك أن تشعر أنك موضع ترحيب كطالب يهودى إذا كانت

صحيفة الكلية تزعم أن الصهيونية ضرب من العنصرية ونقارن إسرائيل اليوم بألمانيا النازية؟». يوضح سترن فى كتيب بعنوان «لِم ترسب الأنشطة الجامعية المعادية لإسرائيل فى اختبار منهج التعصب الأعمى الاستهلالى» يوضح ما يزعم أنه عدم الدقة الدعائية والأكاذيب التى يُعمل على استدامتها فى قاعات الدراسة والتى ترعى معاداة السامية وتُنميها. يقول «تتجاهل الجماعات التقدمية المعادية لإسرائيل حقيقة أن مصطلح الفلسطينيين كان يُشير فى واقع الأمر إلى الوجود اليهودى فى فلسطين ما قبل ١٩٤٨ وليس الوجود العربي. يتصيد الأساتذة المنحازون إسرائيل ويتهمونها بارتكاب البشاعات لكنهم لا يوجهون النقد للحكومات المسلمة. الأسوأ من هذا أنهم يدعمون التنظيمات الإرهابية التى تتسم بالفساد المطلق مثل تنظيم الجهاد الإسلامى وحماس وحزب الله». وبناء على هذا يصبح «المعادى للصهيونية» تعريفيا «معاديا للسامية»؛ ويصبح مصطلح «صهيوني» لفظا «كوديا» لتسويغ التشهير بمجموعة ما، وكشف المواقف والأنشطة وتعريتها و«أداة للتعصب الأعمي».

يفتح تفنيد اللغة («الصهيونية» مثلا) وأدوات المقاومة (الكشف والتعرية أو المقاطعة) الباب أمام مجموعات على غرار «لجنة توخى الدقة فى كتابة التقارير عن الشرق الأوسط فى أمريكا Committee for Accuracy in Middle East Reporting in America CAMERA» للدخول إلى المؤسسات الأكاديمية. ما كتابات سترن إلا كتيبات إرشادية تستجدى العون الخارجى من أجل «الدفاع» ضد مروجى الكراهية المعادين للسامية والأساتذة الإرهابيين. كانت CAMERA قد أنشئت لترويج الأكاذيب حول اجتياح إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ وتبريره، وهى عبارة عن منظمة للرصد الإعلامى تصدر مجلة موجهة للطلبة اسمها كاميرا CAMERA داخل الجامعات. تقوم بإرشاد الطلبة لكيفية مجابهة الأدبيات والأنشطة والهجمات الدعائية الأخرى فى الأحرام الجامعية، تلك التى «تخلق مدركات مضللة عن إسرائيل». يقوم موقع CAMERA الإلكترونى بتوجيه الطلبة وتعليمهم كيفية «رصد» الأنشطة والأشخاص بجامعاتهم لاكتشاف «المقالات المشوهة وغير الدقيقة

عن إسرائيل، وتوثيق مشاكل الجامعات وذلك بجمع الأدبيات الشائهة أو المثيرة التى توزع بالأحرام الجامعية» وتتناقض مع «الرواية الإسرائيلية». تجند CAMERA الطلبة وأعضاء الجالية اليهودية كى يصبحوا «نشطاء» وتشجعهم على عقد تحالفات دائمة مع تنظيمات الطلبة المسيحية والجماعات السياسية من خارج الجامعات. ومثل كتيبات سترن، يوجه كتيبها الإرشادى الطلبة ويحثهم على «مجابهة الإجراءات المعادية لإسرائيل» بالأحرام الجامعية من خلال اجتذاب الإدارة والحكومة للعمل لحساب إسرائيل، يذكر الكتيب أن «الوسيلة الأبسط والأكثر فعالية للتعاطى مع البيئة المعادية [لإسرائيل] فى كُلّيتك هى التقدم بشكوى لمسئولى إدارة الكلية والبحث عن حلول معهم». تشمل تلك الاستراتيجيات تكوين شبكات مع مسئولى الجامعة، وشرطة الحرم الجامعي، والصحف الجامعية ومع مجموعات أخرى يهودية وغير يهودية، وينبغى أن تتخذ المجموعات الطلابية إجراءات استباقية بتقديم الشكاوى إلى وزارة التعليم، ومكتب المدعى العام وأعضاء الكونجرس المحليين، ومسئولى الولايات. تضيف التعليمات القول بأنه «ينبغى دعوة متحدثين مناصرين لإسرائيل إلى الجامعة ووضع برامج لهم مرة واحدة على الأقل كل فصل دراسى وذلك لمجابهة الرسائل المعادية لإسرائيل». كتيب «المجابهة Fighting Back» منذر وذلك لقدرته على إثارة مناخ من الترويع وذلك بخلطه المتعمد بين أنشطة التضامن من القضية الفلسطينية والإجراءات والأفعال المعادية للسامية بحق مثل رسم الصليب المعقوف على خلفية ذات دلالة يهودية على الجدران.

حَكُّ السلطة الشُغلي:

يعتبر التشهير بالمجموعات والنشطاء والمفكرين المعادين للصهيونية بصفتهم معادين للسامية حيلة دعائية مؤثرة لغواية الحكومة الفدرالية كى تتدخل بالأحرام الجامعية لحساب الجماعات المناصرة لإسرائيل، وهذا تكتيك صريح للكتيبات المذكورة أعلاه. يتضمن الكتيب الإرشادى لعصبة مجابهة التشهير الصهيونية المعنون «المجابهة: كتاب إرشادى للرد على التظاهرات المعادية لإسرائيل بأحرام الكليات والجامعات»، نصائح عن كيفية هندسة «مناظرات» إسرائيلية/ فلسطينية ثم حفز سلطات الولايات المتحدة على تعقب الأساتذة والمجموعات الطلابية المناصرين للفلسطينيين ومعاقبتهم»

تكمن خطورة الكتيب فى قدرته على التحدث دونما ذكر أسماء أو اقتراح إجراءات محددة. مثلا، فعلى حين أن التعديل الدستورى الأول يحمى الأحاديث غير المستساغة فى المؤسسات العامة فإنه أيضا يبين أن «الحديث ذا الطبيعة الإجرامية – مثل الذى يحفز التحرشات أو يوجه إنذارات أو يبعث على الترويع – ليس موضع حماية من التعديل الأول». والدرس واضح هنا: إذا حُكِم على الحديث المعادى لإسرائيل بأنه مفعم بالكراهية والبغضاء، أو مؤجج للمشاعر المعادية فإن الدستور لا يوفر له الحماية». يطمئن الكتيب القراء إلى أن «للجامعات الخاصة طرقا جانبية متوفرة يمكن من خلالها إخضاع الحديث للتنظيم والرقابة، بل وحظره بأكثر من الجامعات العامة». بأسلوب مضمر، يرشد الكتيب القراء إلى كيفية استيعاب الأساليب التى بها يمكن إلغاء دعوات الزائرين للتحدث بالجامعات، وكيفية استخدام «قوانين الطلبة» بالجامعة رافعة للتحكم فى الاحتجاجات والمظاهرات أو استهدافها. وبالمثل، يتم تشجيع الطلبة على التواصل مع وسائط الإعلام المحلية والقومية وإبراز الإعلانات «المعادية للإرهاب» فى الصحف وتنظيم تظاهرات «تطالب بوضع حد للإرهاب».

بيد أن الغاية القصوى هى أكثر من مجرد التشهير وسوء السمعة، إذ إنها وكما تهدف «المنظمة الصهيونية لمركز أمريكا للقانون والعدالة» هى دفع الحكومة الفدرالية لمقاضاة من يتحدثون ضد إسرائيل داخل الجامعات، وقد حققت تلك التنظيمات نجاحا خاصا بإقناع «مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية» بإجراء التحقيقات حول الأحاديث المعادية لإسرائيل داخل الجامعات. فى ١٨ نوفمبر ٢٠٠٥، دعت المفوضية الحكومية «هيئة من الخبراء» للاجتماع للإدلاء بشهادتهم حول الأنشطة المعادية للسامية داخل الجامعات، وبخاصة السلوكيات التمييزية بين الأنشطة حول الشرق الأوسط. تشكلت «هيئة الخبراء» من جارى توبين (رئيس معهد الأبحاث اليهودية والمجتمعية) وسوزان تاتشمان (مديرة المنظمة الصهيونية لمركز أمريكا للقانون والعدالة ZOA) وسارا سترن (مديرة المركز الأمريكى اليهودى AJC للشئون الحكومية والعامة). تروج تلك المنظمات لنفسها بصفتها «مجموعات مناصرة إسرائيل» وهى متحالفة مع العناصر اليمينية الأكثر تطرفا على الساحة السياسية الإسرائيلية، وتكرس نفسها، أولا وقبل كل شىء للحفاظ على «أمن إسرائيل وسلامتها». تطالب المجموعات من

أمثال ZOA بضم الضفة الغربية [يهودا والسامرة] إلى إسرائيل وترفض مسمى «الضفة الغربية»، بل إنها حتى تعارض «خارطة الطريق» التى اقترحها چورچ بوش، وقامت برفع قضايا ضد وزارة الخارجية لأنها رفضت كتابة «أورشليم إسرائيل» على جوازات سفر مواطنى الولايات المتحدة الذين ولدوا بالقدس التى تعتبر عاصمة فلسطين الأبدية وجزءاً لا يتجزأ منها. شهد أعضاء تلك الهيئة بأن معاداة السامية متفشية فى الأحرام الجامعية وخلطوا بين وقائع معاداة السامية الحقيقية وبين الأنشطة الطلابية المؤيدة لحقوق الفلسطينيين، وبين ما يزعمون أنه تحيز الأساتذة فى قاعات المحاضرات الذى يحول دون طرح مقاربة «متوازنة» لقضايا الشرق الأوسط.

شرطة الجامعات والإف بى آى بالأحرام الجامعية:

فى مارس ٢٠٠٦ قام محمد رضا طاهرى - آزا، وهو طالب إيرانى أمريكى بقسم الدراسات العليا بجامعة نورث كارولينا/ تشاپل هيل، بقيادة سيارته رباعية الدفع إلى مكان مزدحم بالجامعة وكان هدفه المعلن قتل عدد من الأمريكيين جرّاء سياسات حكومتهم فى العالم الإسلامى. وبمجرد أن أدان اتحاد الطلبة المسلمين بالجامعة هذا الفعل المستنكر، ارتفعت الصيحات المعادية للإسلام والتى ألحت إلى التواطؤ بين المتهم وبين الاتحاد. ظل الاتحاد مستهدفا فى أمريكا الشمالية منذ فترة، وكان فرعه بجامعة نورث كارولينا قد أخذ موقفا واضحا من عدة قضايا خلافية بدءا من الرسوم الكارتونية الدانماركية وحتى تضمين كتاب مايكل سِل عن الإسلام ضمن الكتب المقررة على الطلبة المستجدين.

يوجز أحد دعاة الإسلاموفوبيا تلك الحملة الكلامية على المجموعة الطلابية [اتحاد الطلبة المسلمين] بقوله «سواء دعم الاتحاد التنظيمات الإرهابية مثل حماس، أو لعب دورا بارزا فى الاحتجاجات المناهضة للحروب، أو شجع عدم التقارب مع إسرائيل، أو دافع عن قتلة رجال الشرطة المدانين من أمثال الإمام جميل الأمين (إيتش. راپ براون سابقا)، فإن اتحاد الطلبة المسلمين يدعم جماعات معادية لأمريكا وينشر تعاليم إسلامية أصولية تبدو غير مناسبة للحياة الأكاديمية».

شنت مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية (USCCR) عدة حملات للتحقيق فيما يجرى بالأحرام الجامعية مستهدفة اتحاد الطلبة المسلمين والجماعات الطلابية

المناصرة لحقوق الفلسطينيين. الاتهامات الموجهة هى أن «الجهاديين» قد اخترقوا الجماعات الطلابية ومضوا يرسخون «فلسفة الاستشهاد» فى «الداخل الأمريكي» ويلقنونها للشباب. تتلاقى التنظيمات المناصرة لإسرائيل السابق ذكرها، وقانونا باتريوت، والسياسيون الانتهازيون، وإعلام الإثارة لتشكل «كتائب» القرن الحادى والعشرين، التى تجزم بوجود «رابطة» بين الطلبة والأساتذة الأجانب منهم والمواطنون وبين الأنشطة الإرهابية وتلك ذات الصلة بالإرهاب بالولايات المتحدة، هذا على الرغم من جميع الأدلة على عكس ذلك. والطلبة أهداف سهلة معرضة للأخطار وذلك لافتقادهم الموارد والمعونة المهنية لدى تلقِّيهم الضربات. وقعت أحداث «اصطياد الساحرات» الأكثر بشاعة بجامعة كاروليانا الشمالية، وجامعة كاليفورنيا سانتا كروز، وجامعة جنوب فلوريدا، وجامعة كاليفورنيا/ إرفين. بناء على تقرير مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية قام مكتب الحقوق المدنية التابع لوزارة التعليم بالتحقيق مع طلبة جامعة كاليفورنيا/ إرفين، لأنهم ارتدوا تى شيرتات عليها شعارات التضامن مع الفلسطينيين وأركان الإسلام الخمسة أثناء أسبوع مخصص للاحتجاجات والندوات عن القضية الفلسطينية، حيث أُتهِم الطلبة بأنهم أفاضوا فى «أحاديث الكراهية» ضد «اليهود الصهاينة».

اعترف الإف بى آى بأنه، أثناء تلك المناسبة، قام برصد أنشطة اتحاد الطلبة المسلمين ومضايقة أعضائه والتحرش بهم. فى نهاية الأسبوع ذاك، قاد ياسر أحمد سيارة نصف نقل داخل الجامعة للمساعدة فى تفكيك ماكيت لجدار الفصل العنصرى أقامه اتحاد الطلبة المسلمين. تبع عميل للإف بى آى بعربته مركبة أحمد، الذى قام بمغادرة الشاحنة بعد أن رأى أن سيارة الإف بى آى تتبعه وحاول النظر من خلال زجاجها الغامق. أنزل العميل زجاج السيارة معلنا أنه عميل فدرالي، ثم قام على مرأى من شرطة الجامعة والطلبة بدفع أحمد خلفا بالسيارة ثم قادها مسرعا واختفي. وفيما قامت مفوضية الحقوق المدنية بالتحقيق فى الاتهامات بمعاداة السامية، فإنها لم تحقق فى ترويع الإف بى آى لأحمد. لم يجد تقرير المفوضية أية دلائل أو قرائن على معاداة السامية بجامعة كاليفورنيا/ إرفين، لكن «قوة المهمات» الخاصة بمعاداة السامية بالجامعة ذكرت فى تقاريرها أن «أحاديث الكراهية» ضد الطلبة اليهود لا

تهدأ. تمثل «قوة المهمات» نفسها زيفاً بصفتها مستقلة ومرتبطة بجامعة كاليفورنيا/ إرفين، على حين أنها تابعة لمكتب هيلل فاونديشن بكاليفورنيا. أدان تقريرها، فى مجمله، الطلبة وأعضاء هيئة التدريس والإدارة بمعاداة السامية فى تكرار لموقف مفوضية الولايات المتحدة للحقوق المدنية بأن حرية شجب الصهيونية ما هى إلا «ستار» لأحاديث الكراهية.

الحفاظ على التهديد بتدخل الحكومة فى المؤسسات الأكاديمية هو إجراء استراتيجي. فى كاليفورنيا، كان هدف «مشروع قانون الحقوق الأكاديمية» (SB5) هو وضع التنظيمات لأنشطة الأساتذة، «وحماية الطلبة» ضد تلقينهم مبادئ وتعاليم معينة وتوفير الوسائل التى يعبر بها الطلبة عن «شكاواهم». هُزِم مشروع القانون بأغلبية ضئيلة، لكنه وبمساعدة مركز المعلومات لمكافحة الإرهاب التابع للمدعى العام بكاليفورنيا عمل على ترسيخ مناخ من الرقابة الحكومية والتشريعية. قام الإف بى آى واستخبارات الجيش بالتحقيق مع الطلبة والأساتذة والنشطاء والمهنيين (المحامين مثلا) الذين يشاركون فى مؤتمرات إسلامية أو مناهضة للحرب. قامت الجماعات المناصرة لإسرائيل بجامعات ميشيجان، وروتجرز، وولاية أوهايو، وجورج تاون وديوك، بالاحتجاج، بل ورفع قضايا فى محاكم الولايات المتحدة لمنع عقد المؤتمر الطلابى القومى لحركة التضامن مع الفلسطينيين. أجبر الطلبة المنظمون للمؤتمر الخامس لحق «العودة» على عقد المؤتمر خارج حرم جامعة كاليفورنيا ريفرسايد وذلك لأن إدارة الجامعة أعاقت عَقْده داخل الجامعة. تباهت المنظمات من أمثال «قف معنا Stand With Us» و«حركة التضامن مع إسرائيل» و«فرنت بيدج Front Page» بأن تلك الخطوة عملت على تهميش «حركة التضامن مع الفلسطينيين».

وعلى خلفية هذا المناخ، أصبحت الجامعات نفسها أكثر نشاطا فى اتخاذ الخطوات الاستباقية لقمع المعارضة وحركات الناشطين وبخاصة من جانب الطلبة المناهضين للحروب والمناصرين للفلسطينيين. حينما قامت مجموعة صغيرة من الطلبة المناهضين للحروب بجامعة جورج تاون بتعليق مُلْصق يسخر من عنصرية «أسبوع إيقاظ الوعى بالفاشية الإسلامية» الذى ينظمه هوروويتز، قامت الشرطة الجامعية بإلقاء القبض على أحد أعضائها وضربه، كما جرى التحقيق مع سبعة آخرين، فيما سارعت الوسائط

الإعلامية القومية بتجريمهم بصفتهم مثيرين للشغب بدون أن يمثلوا للمحاكمة. حدثت أيضا مداهمات مماثلة من قبل شرطة الجامعة على الأنشطة والأحاديث المناهضة للحرب بجامعات كلمسون، وبايس، وهامبتون، وسنترال فلوريدا. ارتكبت الشرطة الجامعية فعلا أكثر بشاعة بجامعة ميشيجان حيث قامت «الحركة الأمريكية من أجل إسرائيل» بدعوة رايموند تانتر، مستشار الأمن القومى فى عهد ريجان، للتحدث عن ردود الأفعال على برنامج إيران النووي. تحدث تانتر مطالبا بتغيير النظام الإيرانى من خلال تسليح الجماعات المناوئة له وتدريبها بالداخل الإيرانى من أجل العمل على إذكاء حرب أهلية. حينما جهر المحتجون بمعارضتهم، تعاملت شرطة الجامعة بقسوة مع امرأة إيرانية ضئيلة الحجم. ووضعت طوقا خانقاً حول رقبة أحد المتظاهرين مما أدى إلى فقدانه الوعى وتدفق الدماء من أنفه. وفيما بعد، ألقت الشرطة القبض على أحد الأطباء، وعلى كاثرين بابايان أستاذة التاريخ والثقافة الإيرانية بجامعة ميشيجان لاحتجاجهما على إجراءات الشرطة، ثم قام تانتر، وكان أيضا أستاذا سابقا بجامعة ميشيجان، بالاتصال بمجلس أمناء الجامعة للاحتجاج على دور بابايان فى المظاهرة. علاوة على ذلك، قامت صحيفة الجامعة «آن آربور نيوز» المعروفة بانحيازها لإسرائيل، وديان براون، المتحدثة رفيعة المستوى باسم الجامعة، بتزييف التقارير عن الحادث، وإدانة البروفسور بابايان، دونما إجراء تحقيقات.

الخلاصة:

مؤخراً تميزت أعمال القمع فى الأوساط الأكاديمية بالدرجة التى تمارس بها جميع أجهزة الدولة فى الولايات المتحدة تلك الحملة المستدامة وبحدتها: تشارك فى تلك الحملة الأجهزة الحكومية، والحزبان الحاكمان، والإعلام، والإدارات الجامعية، ومجموعات مناصرة إسرائيل ومصادر التمويلات، وغيرها وغيرها. مكّن تأثير أحداث ١١/٩ القوى النخب الحاكمة من الذهاب بعيدا بالأحاديث الأروبلية المُبهمة المشوشة التى تساوى بين «الحرية» و«التوازن» وبين قمع التحليل الناقد، والفكر البديل، والسياسات المعارضة. لكن تلك الحملة لا تعمل من خلال التركيز على الهجوم على جميع الأكاديميين الناقدين فى مجال دراسة الشرق الأوسط، أو على كل مفكر عربي، حيث إنها إن فعلت ذلك فإنها، كحملة إرهابية وقحة، لن تتسق مع الصورة الذاتية

للأمريكيين كمجتمع ليبرالى تلك الصورة التى يتدثرون بها وتعمل على رضاهم عن أنفسهم. الأحرى أن الجهود الموحدة المتسقة لجماعات المصالح الخاصة، والإعلام، الدولة، نجحت في ترسيخ مناخ من الخوف يسوده التهديد بالقصاص. أصبح خطر فقدان الأشخاص لوظائفهم، أو تصويرهم كمنبوذين، أو معادين للسامية، أو «إرهابيين» أو حتى خطر احتجازهم، كلها دوافع لممارسة الرقابة الذاتية فى الأوساط الأكاديمية، وبين الجاليات العربية والمسلمين الأمريكيين، حيث توظف مجرد إمكانية المقاضاة، أو التعرض للمضايقات والتحرشات، أو فقدان الوظائف والترحيل، توظف كعامل ردع للمعارضة العلنية.

من ثم، يؤدى استهداف أعضاء هيئة التدريس بجامعة كولومبيا، ويوسى إل إيه بواسطة كتائب الترويع مثل «دايڤيد پروچيكت» و«كامباس ووتش»، وظيفة حيوية ومكملة. إحدى هاتين الجامعتين خاصة، نخبوية وتقع فى منطقة الشاطئ الشرقي، فيما أن الأخرى جامعة عامة شعبية وتقع في منطقة الشاطئ الغربي. من خلال استهداف هاتين الجامعتين المكملتين لبعضهما، يرسل هؤلاء العازمون على قمع أى أحاديث «معادية لإسرائيل» رسالة واضحة للجامعات فى جميع أنحاء البلد مفادها أن باستطاعتهم الوصول إلى جميع الجامعات النخبوية منها والعامة واستهدافها. نجح هذا الأسلوب في ترويع عدد لا يحصى من الأكاديميين، وبخاصة هؤلاء الذين ليس لديهم عقود ثابتة مستدامة مع الجامعات، حيث يفتقدون الأمان الوظيفي، وكذلك الموارد اللازمة لمجابهة عزم التنظيمات المناصرة للصهاينة وتصميمها والتى تعمل دون كلل أو ملل. تباهى دانييل پايبس بفاعلية الحملة القومية لقمع الحديث، والأبحاث والأنشطة المعارضة، وقال إن «تدخل» المتهمين من خارج الجامعات فى عمليات توظيف العاملين والتعاقدات والقرارات التى تتخذ قد بدأ «مسيرة خلاص الجامعات». تعمل حالات المشاهير من أمثال سامي العريان ووارد تشرشل، ونورمان فنكلستاين نماذج لافتة لما يمكنه أن يحدث إذا جَرُؤ أعضاء هيئة التدريس والطلبة على قول «الحقيقة فى مواجهة قمع السلطة».

الفصل الخامس

العيش في حالة من الخوف

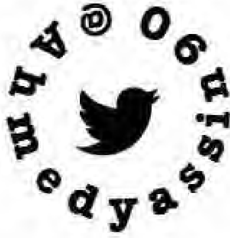
«من المثبط أن تكون عربيا مسلما تعيش فى الولايات المتحدة هذه الأيام. حينما تذهب إلى الشرق الأوسط، يُنظر إليك على أنك دافع ضرائب أمريكى تعمل، من خلال نقودك، على تدمير منازل الناس. وحينما تعود إلى الولايات المتحدة، يُرتاب فيك بوصفك إرهابيا محتملا وخاطفا للطائرات».

رائد جرار

ناشط عراقى أمريكى

ثقافة القمع القومية:

فى الذكرى الأربعين لاحتلال غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، أصدرت مجموعة من المثقفين والنشطاء والكتاب الأفارقة الأمريكيين البارزين «خطابا إلى أمريكا السوداء حول الحقوق الفلسطينية وتنظيم مسيرة ١٠ يونيه» وطلبت من الجالية الأفروأمريكية الاضطلاع بدور قيادى للفت الانتباه إلى الأعوام الأربعين من انتهاك حقوق الشعب الفلسطيني. وكما كان متوقعا، هاجم دايفيد هوروويتز الموقعين، والذين كان من بينهم كورنيل وست، ومانينج مارابل، ومحمود ممداني، وباربرا رانسبى وبركسى سبيت وسدريك روبينصون، هاجمهم بصفتهم «محبين للإرهابيين» و«معادين للسامية» و«كارهين لإسرائيل». وبدلا من شجب أربعين عاما من الاحتلال الإسرائيلي، نجده يقول إنه كان ينبغى على هؤلاء الأساتذة والنشطاء والشخصيات الدينية المعادين للسامية إحياء ذكرى خمسين عاما من «الحروب القذرة التى شنها



العرب» على إسرائيل التى كان ينبغى عليها [إسرائيل] طرد الفلسطينيين من الضفة الغربية فى عام ١٩٦٧ لولا أن تغلب عليها نزوعها للخير.

مثل هذا الهجوم مألوف ومجرَّب. وفيما أن هوروويتز الذى لا يتمتع بالمصداقية وليس له سوى القليل من المسوغات، ما هو إلا مهووس بجنون العظمة متخصص فى التشهير، فإن مثل هؤلاء «الأرزقية» المؤدلجين، يقومون بدور حاسم فى حشد التنظيمات والمؤسسات وتأجيج المشاعر الجماهيرية. فى الفصول السابقة، تم إلقاء الضوء على الأجندة العامة للأكاديميين المارقين، والمرتزقة المؤدلجين، والمخبرات/المخبرين المحليين الانتهازيين، والصحفيين الشركاتيين، و«مراكز الأبحاث»، واللوبيهات، وجماعات الموالاة، وأجندة الحكومة المحلية والفدرالية، للتحكم فى النقاشات حول الولايات المتحدة وإسرائيل وفلسطين والعراق. تعمد الكتب الإرشادية والتى تكتبها الجماعات المناصرة لإسرائيل بشكل أساسى إلى إعطاء التعليمات

لكوادر الطلبة عن كيفية العمل بنشاط ويقظة لإشراك إدارات الجامعات، ومجالس الأمناء، والخريجين، والمانحين ومجموعات هيئات التدريس والزملاء من الطلبة، إلى جانب المجتمعات المحلية، والإعلام، والحكومة، إشراكهم فى حملاتهم لوقف الأبحاث الأكاديمية الأخلاقية الصارمة، والأنشطة، والنقاشات الناقدة لسياسات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط ولجرائم إسرائيل فى حق الفلسطينيين، بل وتجريمها.

ليس بالأمر الصعب اصطناع الاشتراك فى الحركة المعادية للفلسطينيين ودعمها فى وجود التحيزات القائمة السائدة المناصرة لإسرائيل فى إدارات الكليات، والصحافة والدوائر السياسية بالولايات المتحدة والتى هى ثمار أنشطة مماثلة ظلت تعمل لعقود عدة. تم إثبات العلاقة بين لوبى إسرائيل، والسياسيين، بل والأكاديميين أيضا، على المستوى العلنى والعام من خلال مقال جون ميرشايمر وستيفن وولت الشهير. بيد أن هذا الكتاب وبدلا من إلقاء المسئولية على لوبى ماكر يعمل ذيلاً يحرك الكلب السياسى الأمريكي، فإننا نزعم أن كراهية العرب والإيقاع بالمسلمين، هى من العناصر الأيديولوجية الثابتة فى اللاوعى السياسى للولايات المتحدة. سأناقش فى الفصل السادس بإيجاز كيف أن تحالف الولايات المتحدة وانحيازها الطبيعى لإسرائيل، ودعمها الاقتصادى والعسكرى والسياسى للدولة الصهيونية، لا يرجع فقط إلى رغبة كليهما فى التحكم بالمنطقة، بل هو ناجم أيضا عن أيديولوجيا الاستيطان/ الاستعمارى وتاريخ البلدين المتماثل.

تُجسّد حالة البروفسور العريان، ومحنة الأكاديميين العاملين فى مجال دراسات الشرق الأوسط (وغيرهم من ذوى العقائد المبدئية حول العدالة الاجتماعية فى الشرق الأوسط)، تجسد محاولة النظام القانونى للولايات المتحدة - بالتناغم مع الهيئات والوكالات غير التابعة للدولة بدءا من المجموعات المناصرة للصهيونية ومراكز الأبحاث التابعة للمحافظين الجدد وحتى إعلام التيار السائد والمؤسسات الأكاديمية- محاولاتها التى لا تقتصر على منع الأحاديث والأنشطة الناقدة للولايات المتحدة وإسرائيل من خلال الإجراءات القانونية التى تستند إلى اتهامات أخرى، بل وتجريم الذين يسعون

إلى ممارستها. لم يلتزم النظام القانونى بمراعاة الحقوق المدنية الأساسية بما فيها «الحريات» التى نص عليها الدستور وكفلها وبخاصة التعديل السادس والثامن والرابع عشر.

ومثل ما هو حادث مع كثير من الأقليات الأخري، نجد أن النظام القانونى مُسيَّس وهناك العديد من حالات ازدواجية المعايير. بيد أنه فى حالة العرب والمسلمين الأمريكيين، فإن الكثيرين غالبا ما يؤيدون هذا التسييس ولا ينتقده سوى القليلين وذلك تحديدا لأن التيار السائد الأمريكي ملتزم أيديولوجيا بأمن إسرائيل على حساب حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره - ناهيك عن حقه في الحياة وعدم خضوعه للتعذيب والعقاب الجماعى وتجويعه من خلال الحصار. وفى أفضل أحواله يفتعل النظام القانونى قضايا ضد المشاهير والقيادات البارزة الإسلامية والعربية من أجل مكاسب سياسية على الجبهة الداخلية، أما فى أكثر الحالات خبثا وشرا، فإن هذه الممارسات تستغل إحدى الأدوات المفتاح فى حملة مستدامة تقودها الحكومة من أجل قمع المعارضة والاختلاف بالداخل الأمريكي.

تعتبر قضية العريان نموذجا لأنها سبقت أحداث ٩/١١، حيث مضت وزارة العدل، وبأسلوب متكرر، فى مطاردته، منذ التسعينيات، واتهامه هو ومجموعاته من النشطاء بمخالفة القانون، وبعد كل مرة يُبرئه فيها القضاء، كان مكتب المدعى العام الأمريكى والإف بى آي، يضاعفان الجهود لتوجيه تهم جديدة ومحاكمته. ومن المفارقات، وكدليل على العداء المسبق ضد العريان، أنه كلما كانت التهم الموجهة إليه واهية هشة بدت صورته العامة الإنسانية السائدة قناعا محكما فى نظر الإعلام الأمريكى والجمهور المتعطش لضبط المتهمين بالإرهاب. تعكس حقيقة أن دماثة خلق العريان شديدة الوضوح وبراءته تم تفسيرهما على أنهما يؤشران إلى وجود خلية هاجعة تتآمر ضد الحريات الأمريكية، تعكس الإسلاموفوبيا الثقافية المتأصلة فى الإعلام وفى المجتمع الأمريكي. ظل العرب، والعرب الأمريكيون، المواطنون منهم والمهاجرون القانونيون يعيشون فى الولايات المتحدة طوال عقود فى حالة من الحصار، وغالبا ما كان هذا

حصارا حرفياً ساده العنف ومارسته التنظيمات المتطرفة اليهودية الموالية للصهيونية مثل عصبة الدفاع اليهودية (JDL) ووثقته المنظمة المنافسة لها أى عصبة مكافحة التشهير (ADL). فإلى جانب التخطيط لاختطاف طائرة عربية عام ١٩٧٠، قامت JDL بمهاجمة النشطاء والسياسيين والتنظيمات الأمريكية العربية طوال سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وتهديدهم وتدمير ممتلكاتهم وتفجير مقارهم، قاموا بترويع المُصلين فى المساجد، وزرعوا قنبلة فى مكتب داريل عيسى العضو العربى الأمريكى بالكونجرس، وقتلوا فى عام ١٩٨٥ ألكس عودة، الناشط العربى الأمريكي. فى الفترة الممتدة من السبعينيات وحتى التسعينيات، سعى مُخطِّط إرهاب ADL بنشاط إلى اغتيال القيادت البارزة من العرب الأمريكيين والمتحدثين باسم القضية الفلسطينية ووصل مخططهم الإرهابى ذروته حينما استهدفوا ألكس عودة وقتلوه بزرع قنبلة بمكتبه عام ١٩٨٥. قامت عصبة مكافحة التشهير المستهدفة من JDL بتاريخ سجل حملة العنف والإرهاب التى قامت بها تلك المنظمة، ومن المفارقات أن ADL الناقدة لـ JDL قامت فى التسعينيات بتجميع استخبارات عن اللجنة العربية الأمريكية المناهضة للتمييز ADC وإخضاع أعضائها للرقابة، وبتواطؤ من شرطة سان فرانسيسكو وسان دييجو، جمّعت سجلات شاملة عن أعضائها.

كراهية «الآخر»: السياق المعاصر لأفعال الكراهية وإجراءاتها:

بعد ١١ سبتمبر، تفجرت مستويات جرائم الكراهية ضد العرب والمسلمين وتدمير ممتلكاتهم بل وقتلهم (ومعهم غيرهم من غير البيض الذين اعتُقد خطأ أنهم عرب أو مسلمون) مما استدعى الاعتذارات والدعوة إلى التعقل بل والاستنكار أحيانا. وكما ذكرنا من قبل، بينت هيومان رايتس ووتش أن جرائم الكراهية ضد العرب تزايدت بمعدل ١٧٠٠٪ ومضت تتدحرج ككرة الثلج على خلفية من التعليقات وكتابات الرأى المليئة بالطعن والذم التى نشرتها وبثتها جميع وسائل الإعلام المحلية والقومية. لم يتصد سوى القلة القليلة للمشاعر التي عبر عنها المذيع مايكل سافيدج وما كاله من قدح للعرب والحط من شأنهم واصفا إياهم بأنهم «لا آدميون» و«متعصبون فاشيون

عنصريون» يستحقون القصف بالقنابل النووية. فى عام ٢٠٠١، طغت تلك المشاعر وانتشرت كالفيروسات فى جميع أنحاء الولايات المتحدة و أدت إلى ارتكاب عدد كبير من جرائم الكراهية. أصدرت ADC تقريرا عن جرائم الكراهية ضد العرب الأمريكيين التى ارتُكبت فى الفترة ما بين عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٨، وهو تقرير مثير للاهتمام لأن المنظمة تؤكد على التراجع فى أعمال العنف ضد العرب والمسلمين فى سياق ذكرها أن العنف تراجع من مستوى «المذابح» المنظمة حيث بلغ عدد الضحايا ٧٠٠ سنويا إلى متوسط يتراوح بين ١٢٠ و١٣٠ حالة سنويا. وعلى الرغم من لهجة التقرير المتفائلة إلا أنها تورد قائمة كبيرة من أعمال التحرش والمضايقات والتمييز التى استمرت ضد العرب الأمريكيين طوال العقد الأول من الألفية الجديدة. بيد أن ثمة تقريراً عن أعمال العنف ضد المسلمين فى الغرب لمنظمة هيومان رايتس فيرست يذكر أن جرائم الكراهية ضد الأفراد، والمجموعات، والمؤسسات المسلمة تزايدت بين عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦. تذكر إحدى الدراسات أن عدد جرائم الكراهية التى ارتكبت ضد المسلمين أعلى من العدد الذى ارتكب ضد السود الأمريكيين ويكاد يماثل عدد جرائم الكراهية ضد اليهود وضد المثليين والمثليات.

لكن ما لا تذكره هذه الدراسة هو أن معدل جرائم الكراهية ضد المسلمين والعرب هو الأعلى عن كل فرد على مستوى الولايات المتحدة.

وفيما تحاول الجماعات العربية والمسلمة الأمريكية التى تنادى بالاندماج أن تؤكد على الجانب الإيجابى بإشادتها بتراجع عدد جرائم الكراهية ضد العرب والمسلمين الأمريكيين، هذا على الرغم من الواقع الذى يشهد على استمرار الهجمات واستدامتها. ليس من الصعب إثبات العلاقة المتبادلة بين حملات الإسلاموفوبيا وبين جرائم الكراهية. فى خريف عام ٢٠٠٨ وأثناء الانتخابات الرئاسية، وكما سترى فى الفصل القادم، كان يتم تقاذف مقولات الإسلاموفوبيا وتبادلها بأسلوب فج وقح. قامت ميامى هِرالد فى سبتمبر من العام ذاك بتوزيع دى فى دى مجاناً بعنوان «الهاجس» مع ملحق الأحد الأسبوعى يحتوى على «تحليل» للإرهاب الإسلامى والتعصب الإسلامى

بالداخل الأمريكي وبالخارج. أعدّ الدى فى دى ما أسمته إحدى الدراسات «الدستة القذرة» ممن يجيدون إطلاق البذاءات والتشويهات. كتب مادة «الهاجس» وأنتجها «كلاريون فاند» وهو تنظيم مشبوه مناصر للصهيونية، قام بتمويل ٢٨ مليون نسخة من الدى فى دى وتوزيعها فى الولايات المتحدة علاوة على توزيع ٧٠ صحيفة متحيزة ضد المسلمين ومعها الدى فى دى أثناء حملة انتخابات ٢٠٠٨ بما فى هذا توزيعها فى كبرى مدن ولاية أوهايو. وبنهاية هذا الشهر كان قد تم إطلاق الغازات على أحد مساجد دايتون/ أوهايو فى وجود ٣٠٠ شخص داخله. وعلى الرغم من أن مقر الجمعية الإسلامية بدايتون الكبرى تعرض لهجوم بمادة كيميائية مهيجة حُدِّدت على أنها «رذاذ الفلفل» إلا أن الإف بى آى وقوة شرطة دايتون رفضوا تصنيف الهجمة رسميا على أنها «جريمة كراهية».

ظلت الهجمات على المساجد تحدث طوال عام ٢٠٠٨، وارتكب غالبيتها مجموعات فاشية مثلما حدث فى كولومبيا، تنيسى فى فبراير حينما تعرض المسجد المحلى لهجمات بالقنابل الحارقة ورسم الفاشيون الصليب المعقوف على جدرانه. وعلى حين أن القنابل الحارقة وإطلاق الغازات قد لا تكون أحداثا مستدامة فإن التحرش بالمسلمين ومضايقتهم، وأعمال التخريب التى تلحق بالمساجد تقع يوميا. وفى هذا السياق، يعتبر المركز الإسلامى بميامى أحد الأمثلة الدالة حيث تعرض للأعمال التخريبية ست مرات خلال بضع سنوات وشمل ذلك إطلاق وابل من الرصاص فى يناير عام ٢٠٠٩. لم تتراجع تلك الهجمات منذ تولى أوباما، حيث جرى اقتحام عدد من المساجد، وتدميرها، وتدنيسها وكان من بينها المركز الإسلامى بسايبراس كاليفورنيا فى يونيو ٢٠٠٩، حيث جرى رش عبارات تشهير عنصرية بالألوان على جدرانه ومعها تهديدات من قبيل «سنقتلكم جميعا». وفى وقت لاحق من العام ذاك تعرضت أربعة مساجد فى كارولاينا الشمالية وأوريجون وكاليفورنيا للهجوم.

المضايقات والتشاحنات وحديث الكراهية، والهجمات التى يتعرض لها الطلبة المسلمون العرب، والمحجّبات والملتحون والمساجد، والمراكز الإسلامية المحلية أكثر

من أن تحصى. وأيا كان عددها، فإن جرائم الكراهية ضد الأفراد والمؤسسات ظلت مفرطة، ومع الأخذ فى الاعتبار الجدل الخلافى حول ما عُرف باسم «مبادرة قرطبة» التى اشتهرت أيضا تحت مسمى «مسجد موقع الحدث Ground Zero Mosque»، فإن العداء ضد المسلمين يبدو فى تصاعد فى سنوات أوباما. ظلت اللجنة العربية لمناهضة التمييز، والمؤسسة العربية الأمريكية ومجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية CAIR ناشطين فى تسجيل تلك الانتهاكات، لكن يجدر القول إن ملفاتهم ليست شاملة أو مكتملة وبدلا من أن نستعرض القائمة المطوّلة للانتهاكات الصادمة لحقوق المسلمين والعرب الأمريكيين المدنية (ناهيك عن اللاتينيين، والأفروأمريكيين، والأمريكيين والهنود الهندوس، والسيخ والأرثوذوكس اليونانيين الذين يُظَن خطأ أنهم مسلمون)، فقد تعاطينا فى الفصول السابقة مع خطابات الإسلاموفوبيا التى تمت صياغتها ثم أعيد توجيه مسارها خلال «الحلقات الخارجية من المعلقين» الآخذة فى الاتساع على مدى العقدين الأخيرين وذلك كى نُفسّر سبب تكرار حدوث المضايقات والتحرشات والانتهاكات ضد المسلمين والعرب وانتشار تلك الممارسات بالداخل الأمريكي. وكما أوضح مايكل ولش بإقناع فإن لوم العرب والمسلمين واتخاذهم كباش فداء أصبح ملمحا مفتاحا فى «ثقافة التحكم» – ليس فقط التحكم فى العرب والمسلمين، بل ومن خلال بث الخوف والترويع، فى الآخرين الذين قد يضطلعون بالتعبير عن آراء معادية للحكومة، أو مجرد آراء غير مُحبّبة.

أهم حقيقة ينبغى أن نُبقى عليها نصب أعيننا هى أن هذا المناخ الذى تقع فيه جرائم الكراهية والترويع والتحرش لم يوجده فقط الإعلام، وجماعات المصالح الخاصة والسياسيون، ولا إدارة بوش والإدارات السابقة التى كانت تتشارك فى نفس الأهداف فى الشرق الأوسط، بل إنه أيضا – وكما سنرى فى الفصل القادم، قد استمر واضحا فى خطاب أوباما «مفتوح اليد/ محكم القبضة»، بالرغم من تغير شكله.

سيكولوجية الاعتقال والاحتجاز:

ظل المسلمون والعرب، وعلى الرغم من احتجاجات المجموعات المناصرة وتنظيمات

الحقوق المدنية وأيضاً الليبراليون الذين يدافعون عن «التسامح» و«التفهم» - ظلوا يعيشون في حالة من الخوف في السنوات التي أعقبت ٩/١١. وصل هذيان الإسلاموفوبيا في صورته الفجة المضخمة إلى مستوى هذيان معاداة السامية الجماهيرى بألمانيا النازية في ثلاثينيات القرن الماضي. يعتبر كتاب ميتشل مولكين المخيف وعنوانه «دفاعا عن الاعتقال» جوهرة النقاشات اليمينية حيث تطرح المؤلفة بوضوح تام لا تشويه شائبة المنطق الوقح المريض لهؤلاء الذين يصادقون على تجريد الأقليات الإثنية والعرقية بالولايات المتحدة من حرياتهم المدنية. يعتبر الكتاب نموذجا للنقاش القياسي المبهم المبتسر لهؤلاء الذين يدعون إلى عمل ملفات عنصرية لملامح العرب والمسلمين الأمريكيين ووسمهم وإلى التمييز ضدهم باسم الأمن القومي الأمريكي. في مقدمة كتابها بعنوان «حان وقت التمييز». تدافع مولكين بصراحة عن حق الحكومة في أن تدرس مسألة احتجاز الأمريكيين العرب والعرب من غير المواطنين، بل وحاجتها إلى التخطيط لذلك وتنفيذه فورا. وفي نفس الوقت، وباتباعها تكتيك اليمين المُجرَّب منذ القدم، تقلل من شأن الذين «يثيرون المخاوف من الاحتجاز» والذين يتخوفون من إمكانية، أو مخاطر، احتجاز الأمريكيين العرب واعتقالهم بمجملهم وفقا لما تدعو له.

كسب كتاب مولكين دعما كبيرا من جانب المُعلقين الموالين لإسرائيل والمحافظين من أمثال دانييل بايبس الذي دافع عن الاعتقال غير القانوني لليابانيين الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية بصفته سابقة ناجحة للاعتقال بالجملة. لدى العرب الأمريكيين أسباب وجيهة للاعتقاد بأن مثل تلك المشاعر ظلت سائدة في الولايات المتحدة بعد ٩/١١. مثلا، قام بيتر كيرسانو من مفوضية الحقوق المدنية الأمريكية USCCR، علنا بتهديد قيادات العرب الأمريكيين أثناء زيارة له لميشيجان أكثر مراكز العرب الأمريكيين نشاطا في أمريكا الشمالية، بدلا من الدفاع عنهم، حيث قال إنه ليس ثمة من سيعترض أو يبدي أسفه حول الاعتقال الجماعي للعرب الأمريكيين إذا وقعت هجمات أخرى على أرض الولايات المتحدة. بدت دعوات الاعتقال الجماعي

تأخذ شكل الواقع الملموس لدى إعلان شركة هاليبرتون في ٢٤ يناير ٢٠٠٦ أن وزارة الأمن الداخلى تعاقدت لبناء «مراكز احتجاز» جديدة تابعة للوزارة من أجل «مواكبة التطور السريع للبرامج الجديدة».

تنهال على الجالية العربية بانتظام تهديدات مبطنة من جانب وسائل الإعلام والمعلقين اليمينيين والسياسيين بحدوث مذابح وهجمات واعتقالات.

الشيء المرّوع والمفيد فى آن فى كتاب مولكين هو أن الأمثلة التى تستخدمها للدفاع عن احتجاز العرب الأمريكيين - الذين تزعم أنهم فى غالبيتهم طابور خامس من دعاة الفتنة الهدامين- أن تلك هى الأمثلة ذاتها التى يجدها غالبيتنا نماذج للتعصب البغيض بل والفاشي. نجدها، مثلا، تستشهد بما قاله هوارد كوبل النائب عن كارولاينا الشمالية والذى يترأس اللجنة الفرعية القضائية للجريمة والإرهاب والأمن الداخلي، حيث قال فى دفاعه عن احتجاز اليابانيين الأمريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية، إن تركهم فى الشوارع كان خطرا على الأمن وذلك لأنهم كانوا يمثلون تهديدا للولايات المتحدة «تماما مثل العرب الأمريكيين العازمين وفقا لجميع الاحتمالات، على الإضرار بنا».

وإذا أمكننا التغاضى عن مولكين لأنها وعلى الرغم من أنها بغيضة منفرة، فهى غير قادرة على إحداث الأذي، فإن التصريحات المؤججة العلنية التى يدلى بها مسئولو الولايات المتحدة المنتخبون أخطر من أن يتجاهلها المرء بسهولة بصفتها تافهة غير مؤثرة. ألمحت سو ميريك، وهى نائبة أخرى عن كارولاينا الشمالية، عامدة عن وجود «رابطة محتملة بين العرب الأمريكيين والإرهاب العالمي» وهؤلاء الذين يديرون «جميع محلات المعونات فى أنحاء البلاد». وبعد احتجاج كثير من تنظيمات العرب الأمريكيين على تعليقاتها، تراجعت ميريك قائلة إنها أرادت فقط أن تذكر الجاليات بالخطر الحقيقى للإرهاب بما فى ذلك «الاتجار غير القانونى فى كوبونات الأطعمة من خلال تلك المحال بهدف غسيل الأموال لصالح بلاد معروف عنها أنها تأوى الإرهابيين». وإذا بدا خطر الاحتجاز الجماعى ضربا من الخيال للتيار السائد فى أمريكا، فإن النظرة العابرة تكشف عن الخطاب العنصرى السائد الذى يرى فى جميع المسلمين

والعرب الأمريكيين طابورا خامسا مخربا، وأن كل رجل وامرأة وطفل مسلم، بحسب ما قاله كنت أونو «إرهابى محتمل».

يستخدم الخطاب المعادى للعرب والمسلمين لمحاولة تحقيق أهداف أخري: الفوز فى الانتخابات كما فى حالة مصادقة المرشح دان فانيلى على التمييز العنصرى بل والتعذيب، أو ما دعا إليه المرشح تي. بوون بيكنز من إطلاق الحملات ضد العرب لتشجيع الأمريكيين على الإقلال من استهلاك النفط الأجنبى [أى العربي]. أثار فوز ريما فقيه، الأمريكية المولودة بجنوب لبنان، فى مسابقة ملكة جمال الولايات المتحدة عاصفة كلامية حيث قال البعض إن هذا الفوز يثبت عدم وجود تمييز عنصرى فيما سخرت وسائط إعلام التيار السائد وذكرت أن ملكة الجمال «العربية» تمثل حزب الله وهو يرتدى البكيني. أما دانييل بايبس فقد رأى مؤامرة فى زيادة تواتر فوز المسلمين والعرب فى مسابقات الجمال وألمح إلى أن أنشطة «الفعل الإيجابي» فى عالم الاستعراضات ما هى إلا فرصة لخلايا الإسلام المتطرف الهاجعة لمزيد من تهديد الولايات المتحدة بهجمات إرهابية. وصل حصار المسلمين والعرب فى الولايات المتحدة درجة إطلاق بعض الشخصيات الإعلامية من أمثال جلين بيك، على الهواء مباشرة التهديدات والتوبيخات لكيث إليسون، أول عضو مسلم بالكونجرس (عن نيويورك) قائلا إن على المسلمين «أن يكونوا فى مقدمة الصفوف أمام مكاتب التطوع من أجل إطلاق النار على رءوس المسلمين الأشرار بالخارج». ثم مضى فى مصادقته الصريحة على احتجاز المسلمين الأمريكيين قائلاً: «أبلغكم، والله شاهد على ما أقول، أن البشر، ولسوء الحظ، ليسوا من القوة بحيث يستطيعون كبح أنفسهم عن إقامة أسوار من الأسلاك الشائكة حادة الأطراف واحتجازكم داخلها».

أيضا، يقوم مسئولو فرض القانون والعدالة بتأييد فكرة أن العرب والمسلمين أقلية يحتمل لها إثارة الفتنة والبغضاء، ومن بين هؤلاء، إعلاميون ورجال قضاء بارزون مثل كبير قضاة ألاباما السابق القاضى چورچ موور الذى كتب مؤخرا افتتاحية بأحد المواقع الإلكترونية اليمينية جاء بها «يوجد الخطر الأكبر على بلدنا حينما تُفتح

المكاتب والمؤسسات الحكومية أمام التأثير الإسلامى الذى يقوم غالبا على أساس الافتراضية الزائفة بأن الله هو نفس الرب المذكور بالإنجيل. أيضا يبلغ عدد المسلمين فى جيشنا ١٠٠٠٠ فرد وهو عدد آخذ فى التنامى هذا على الرغم من التحذير الداخلى من جانب وكالة استخبارات الدفاع بأن الجنود المسلمين يمثلون تهديدا أمنيا محتملا. إن الحفاظ على ثقافتنا وإيماننا بالرب أمر حاسم إذا أردنا الانتصار فى هذه الحرب الجديدة».

تتناغم عقيدة رئيس القضاة عن تسيد المسيحيين البيض فى الجنوب الأمريكى مع بارانويا الإرهاب المُستنبت محليا التى تم غرسا ورعايتها لأعوام طويلة فى الولايات المتحدة. ظل الإعلام يسارع إلى اتهام العرب بارتكاب الأعمال الإرهابية الداخلية. مثلا، أصر يَد كويل، وكونى تشانج ووولف بليتزر المراسل السابق لصحيفة چيروسالم پوست، والذى التحق فيما بعد بالعمل فى منظمة إيباك، أصروا جميعهم على مسئولية «شرق الأوسطيين» عن تفجيرات أوكلاهوما هذا على الرغم من الأدلة والقرائن المتزايدة على أن مرتكبى الحادث هما اثنان من الأمريكيين البيض. وجد دانييل پايپس، فى إطار هذا المناخ، أرضية ممهدة للّعب بورقة القتاليين «المستنبتين داخليا» بُعيد ٩/١١ بشهرين. وبحسب پايپس فإن المسلمين مجموعة من المهاجرين الخطرين من دعاة الفتنة والتخريب الطبيعيين الذين يعملون بسرية، لأن «التقية» والغدر من الممارسات المتقبلة فى الإسلام.

بعد أن قام الميجور نضال حسن بإطلاق النار بقاعدة فورت هوود بالولايات المتحدة، تسارعت وتيرة التخويف من الغدر والمطالبة بتجميع ملفات عرقية وإثنية بذريعة وجود «إرهابيين مستنبتين محلياً». فى مداخلة على فوكس نيوز بعد حادثة فورت هوود، قال چيرالدو ريڤيرا بحماس، فيما كان غاضبا من وجوده على قائمة المحظورين من ركوب الطائرات ومن أن ركبته الاصطناعية تسترعى كثيرا من الانتباه والحذر، قال «إننا بحاجة لتجميع ملفات عرقية بملامح المسلمين وأخذ بصماتهم ووسمهم، وعلى الرغم من أن هذا أمر مهين إلا أن على المسلمين أن يقبلوا التضحية

ويكونوا على استعداد للتعاون لأنهم أيضا يريدون الوصول إلى وجهتهم». أتت دعوات مماثلة من السناتور جوزيف ليبرمان وهو من صقور الحزب الديموقراطى سابقا ومن أكثر الشخصيات المفوهة حيث أسمى حسن «إرهابيا مُستنبتا داخليا علّم نفسه التطرف».

سنرى فى النصف الثانى من هذا الفصل أن الخوف من أن الجاليات المسلمة الأمريكية، ومن أن مساجدهم بخاصة، هى أوكار للإرهابيين «المستنبتين محليا»، وللخلايا الهاجعة، وللمتطرفين الذين يقومون بتجنيد الشباب. هذا الخوف هو أساس التشريعات التى تهدف مباشرة إلى التحكم فى العرب والمسلمين بالولايات المتحدة، حيث إن دعاة الإسلاموفوبيا قد فاقموا هذا الخوف منذ ١١ سبتمبر. هذا على الرغم من أن التنظيمات الإسلامية الأمريكية تبذل جهدها لأبعاد المخاوف المتحيزة التى لا أساس لها والتى يبثها التيار السائد. وفى واقع الأمر، فقد أوضح استطلاع الرأى الذى أجرته مؤسسة پيو فاونديشن أن القلة القليلة فى أوساط الجاليات المسلمة الأمريكية هى التى تدعم الإرهاب، وبالمثل، فقد أوضحت دراسة مستفاضة أجراها مجلس العلاقات الخارجية أن العرب والمسلمين الأمريكيين يبذلون جهدا كبيرا مع هيئات فرض القانون المحلية والفدرالية لاكتشاف مصادر التهديدات الحقيقية. تبين هذه الدراسة أيضا أن مسلمى الولايات المتحدة أكثر اندماجا فى المجتمع من الجاليات المهاجرة فى أوربا، وأكثر ازدهارا من الناحية الاقتصادية. وعلى الرغم من ذلك، فقد كتب پايپس فى الأسبوع التالى لهجمات ٩/١١ يقول «إن الجالية المسلمة فى هذا البلد لا تماثل أية مجموعة أخرى لأنها تضم بين ظهرانيها مجموعة كبيرة من الأشخاص – يبلغ تعدادها أضعاف عملاء بن لادن – يشاركون الخاطفين الانتحاريين كراهيتهم للولايات المتحدة والرغبة فى أن يرونها، وقد تحولت إلى بلد يرزح تحت قيود الإسلام القتالي. وعلى الرغم من عدم مسئوليتهم عن بشاعات سبتمبر، إلا أنهم يُضمرون مخططات لهذا البلد تستدعى الانتباه الجاد المُلحّ». بعد ذلك، يورد پايپس حفنة من الأمثلة توضح كيفية تصوير المسلمين الأمريكيين (ومعهم

المسلمون غير المقيمين وغير الأمريكيين) الإسلام لجمهور التيار السائد الأمريكى على أنه دين منطقى محب للسلام، لكنه يذهب إلى أن تصوير الإسلام المتسامح الذى يدعو إلى السلام هو مجرد قشرة خارجية تخفى الطبيعة الحقة للدين ولمعتنقيه وأهدافهم ومكائدهم.

وبالطبع، يذهب بايبس فى مقاله بعنوان «الخطر بالداخل» إلى أن الأهداف الحقيقية ليست أقل من «الغزو»، وتحويل الشعب الأمريكى إلى الإسلام والهيمنة على البلد. يذكر بايبس أن تكتيك الإسلام القتالى فى الداخل الأمريكى هو استخدام استراتيجية «قانونية» بعيدة عن العنف. وواقعيا، هكذا يقول، فإن هذه الاستراتيجية تقوم على الدعوة والوعظ ثم تحويل الناس إلى الإسلام. ومن المفارقات أن المخطط الذى يصيغه بايبس يتطابق تماما مع أساليب المسيحية الإنجيلية التبشيرية لتحويل الأمريكيين فى الداخل والمسلمين وغيرهم فى الخارج، بل فى الواقع هو مأخوذ عنهما مباشرة. لا يقتصر الأمر على تماثل الاستراتيجية التى يستخدمها الدعاة المسلمون والمبشرون المسيحيون، بل إنهم يستخدمون نفس المصطلحات اللغوية مثل «إنقاذ أمريكا» من الخطيئة و«الانحطاط» الثقافي. ما لا يذكره بايبس من منطلق نيته السيئة المعتادة هو أن اللغة التى يستخدمها هؤلاء الدعاة المسلمون تأتى فى سياق التعاطى مع قضايا العِلَل التى يعانى منها المجتمع والتى ترافق بؤس التنمية الاقتصادية المتخلفة التى ظلت أمريكا السوداء الحضرية تعانى منها بصفة دائمة على مر التاريخ.

إن تمثيلات بايبس المزيفة محسوبة ومتعمدة كما أنه يجتزئ الأمثلة خارج سياقها. فعلى خلاف ما يقوله، فإن رجال الدين والنشطاء المسلمين من أمثال سراج وهاج لا يهاجمون «الحريات الأمريكية»، بل إن أساليبهم تنجم عن موروث إفريقى أمريكى يفهم الإسلام كوسيلة لمجابهة العلل الاجتماعية والثقافية (مثل إدمان الكحول والمخدرات، والبغاء، والبطالة، والعنف الأسري) المتفشية بين المجموعات الحضرية السوداء المحرومة والمُعدمة. سبب تفشى هذه الأحوال هو التخلف التنموى التاريخى

والعنصرية البنيوية للثقافة الأمريكية البيضاء المتعالية. علاوة على ذلك، يستشهد بايبس بإسماعيل الفاروقي كنموذج لتمرد المسلمين «السلمي»، متناسيا أن يذكر أن الفاروقي كان أكاديميا يحظى بالتقدير والاحترام وكان مسئولا عن تشكيل مجموعات الحوار الإسلامي/ اليهودي/ المسيحي بفلادلفيا. أيضا، لا يذكر بايبس أن الفاروقي وزوجته ذهبا ضحية العنف المعادي للعرب والمسلمين عام ١٩٨٦، حيث قام قاتل محترف بطعنهما حتى الموت، وبطعن ابنتيهما التي نجت من الموت بأعجوبة. ليس من قبيل المصادفة أن يتجاهل بايبس اغتيال الفاروقي وزوجته الوحشي، ونجده في المقابل يكتب تحذيرا لاذعا من خطر الإسلام المتطرف على الأمريكيين حينما أشاد البعض بطعن ثيوفان جوخ الهولندي داعية الكراهية والبغضاء وقتله.

لا تتسم كتابات بايبس بأية صيغة أكاديمية أو إبداعية، كما أنها ليست على قدر كبير من الأهمية. كتاباته الصحفية غير متقنة وتفتقد الأمانة والموضوعية. نجده يلجأ إلى تزييف تمثيل حياة البعض، ويجتزئ أحاديث الآخرين خارج سياقها، ويصور جميع المسلمين الأمريكيين بصفتهم تهديدا وذلك من خلال ربطهم بشخص هامشي أو شخصين ممن لا تواجد لهم في أوساط الجاليات الأمريكية. تكمن أهمية مقاله المشار إليه سابقا في أنه يوضح كيف أن أحداث ٩/١١ سمحت بالآراء التي كانت هامشية في الثمانينيات، بل وحتى في التسعينيات بالمرور بسلاسة لتصبح جزءا من التيار الأمريكي السائد، وكيف أن بالإمكان إعادة اختراع المقولات الاستشراقية العنصرية القديمة وإدخالها إلى المناخ السياسي الجديد وكأنها مستحدثة ومُلحّة. وفي واقع الأمر، فإن تبجحات اليمين تخلق الأوضاع التي من خلالها تصبح هذه الهجمات الفجة اللاذعة ذات أهمية وعلاقة بما يحدث وتفقد مظهرها المتعصب، ناهيك عن جنونها.

وفي مجملها، فقد عملت تعليقات أعضاء الكونجرس والقضاة ومسئولي الحكومة من دعاة الإسلاموفوبيا والمعادين للعرب على تشويه سمعة الجاليات العربية والإسلامية الأمريكية وعزلتها. تردد الإهانات والاتهامات التي تنهال من المسئولين الحكوميين والمرتزقة الأيديولوجيين أصداء الهجمات المتواصلة التي تصدر عن إعلام

التيار السائد ومجموعات مناصرة الصهاينة وبحسب ما يقوله الباحثون من أمثال نادين نابر، نجم عن تلك الحركة، وبعد أن تنامت لتصبح علنياً، حالة من «الاحتجاز النفسي» فى أوساط الجالية العربية والإسلامية، وما پايپس، ومولكين، وروبرت سپنسر، وپول سبري، وپاملا جلر، ودبى شولسل إلا حفنة من الأسماء ضمن قائمة طويلة من الانتهازيين السياسيين المُفوّهين الذين يقتاتون على خلق جو من البارانويا معادٍ للمسلمين ويُبقون عليه. وعلى الرغم من أن هؤلاء يمثلون التطرف الأيديولوجى إلا أنهم يتحركون باتجاه الوسط والمركز. أنتج زكريا ولويس الروايات الرئيسية للإسلاموفوبيا التى انبثقت عن الأيديولوجيين الذين يحتلون المركز، فيما أنتجت شخصيات مثل هيرسى على ومنجى المنظور النسائى من الداخل. وفى تلك الأثناء، يخلق الأرزقية المؤدلجون الذين يتقيأون البذاءات والرطانات التى تحض على كراهية العرب والمسلمين على الفضائيات والمواقع الإلكترونية والإنترنت وفى الإصدارات المطبوعة كتلة ضخمة من الإسلاموفوبيا ويطلقون ضوضاء صاخبة تزود إعلام التيار السائد والسياسيين وصناع السياسة بمادة لتحليل المسلمين والإسلام تقوم على أساس تهديد مضمر، تحليل يرى أن المسلمين والعرب هم «الآخر» ناهيك عن اعتبارهم طابورا خامسا مثيراً للفتنة والبغضاء.

أساليب الدفع بالإسلاموفوبيا إلى التيار السائد:

كان هدف الفصول الأولى من هذا الكتاب تعريف تيارات فكر الإسلاموفوبيا المهيمنة كما تعبر عنها خطابات متماثلة ومتشعبة فى أن يمثلها برنارد لويس وفريد زكريا. رأينا كيف يرتبط هؤلاء المعلقون بمستويات عديدة فى أوساط السلطة والنخب الاقتصادية. وبصفتهم هذه، رأينا كيف أصبح هؤلاء شخصيات إعلامية عامة يعملون كمرجعيات عن الإسلام والثقافة العربية والسياسات العربية والعالم الإسلامي. تشكل خطاباتهم أساس برامج اليمين واليسار معا المتعلقة بسياسة أمريكا فى الشرق الأوسط، نظرة الحزبين الديموقراطى والجمهورى المتماثلة جوهريا إلى المسلمين ثقافيا واجتماعيا وسياسيا.

تسرى خطابات الإسلاموفوبيا السائدة بجنون فى أوساط اليمين الدينى والمحافظين الجدد والصهاينة، بل إنه من السهولة بمكان إبراز مقالات مماثلة من مجلات مثل الويكلى ستاندارد، وفرنت بيدج وكومنترى بل حتى الأمريكان سبيكتاتور والنيوريبابليك والناشونال ريڤيو أو التركيز على الهجمات اليومية المحمومة البذيئة التى يكتبها المدونون من أمثال پاملا جلنر ودبى شلوسل. وبالمثل، فإن بإمكاننا التركيز على أنشطة «المراصد Watches» الشوڤينية مثل الجهاد ووتش لروبرت سبنسر (والمرتبط بفريدوم سنتر التابع لداڤيد هوروويتز) أو مرصد أهل الذمة Dhimmi Watch، أو كامبوس ووتش ومرصد الجماعات الإسلامية لدانييل پايپس، أو عرض هذيان الإسلاموفوبيا الذى يبثه الإعلام لكتّاب من أمثال جلين بيك، وبيل أوريلى ومايكل ساڤيدج وآن كولتر وميتشل مولكين وراش ليمبو. لكن هذا سيكون بالغ البساطة حيث إنه يمكن تجاهل هؤلاء العناصر بصفتهم يمثلون أقلية متعصبة داخل شريحة محددة من الجمهور الأمريكي. وفى واقع الأمر فإن بعض المحافظين السياسيين والمدونين والمعلقين بمن فيهم چورچ دبليو. بوش ديك تشينى ودينيش دسوزا وتشارلس چونسون بل وبعض المدونين الموالين لإسرائيل قاموا بإقصاء أنفسهم علنا عن معسكرات الإسلاموفوبيا الأكثر تطرفاً.

تذهب أطروحة هذا الكتاب إلى أن إعلام التيار السائد عمل على تشبّع المجال العام الأمريكى بتقارير وتحاليل كان لابد وأن ينظر إليها على أنها عنصرية فجة ومُتحيّزة وقحة لو أنها تتعلق بأى دين آخر. والإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجى يخترق الثقافة الأمريكية ويتغلغل فيها، وبصفته هذه فإن له تداعيات واقعية جداً وآثار استطرادية مادية وسياسية ونفسية على العرب والمسلمين الأمريكيين وعلى شعوب جنوب غرب آسيا. من ثم، يتخطى هذا الفصل محاولة فهم الهامش العنصرى لليمين الأمريكي. ويتخطى تفحص القائمة اللامتناهية من المواقف المتعصبة، وتنمطيات العرب والمسلمين داخل المجتمع المدنى الأمريكى وإعلام التيار السائد. يشير التزايد الحالى فى الخطاب العنصرى المعادى للمهاجرين وأيضا تزايد التشريعات ضدهم

والعمل على الدفع بها وجعلها تيارا سائد إلى أن الهجمات على المهاجرين اللاتينيين قد تتجاوز سياسات وهذيانات الإسلاموفوبيا وتخلع عنهم لقب «البعبع» رقم واحد. يعكس تصاعد السياسات والخطابات المعادية للمهاجرين واللاتينيين نفس الأساليب التى من خلالها تمت شيطنة المسلمين والعرب طوال العقدين الأخيرين. ففى حالتى المسلمين واللاتينيين الأمريكين سرعان ما انتقل خطاب المحافظين الجدد حولهم إلى التيار السائد واكتسب شرعية بصفته حقائق يستند إليها فى النقاشات حول الهجرة والأمن الداخلي، لكن الفرق هو أن العناصر التقدمية فى الحزب الديموقراطي، وعلى النقيض من ردود أفعالهم تجاه انتهاك الحريات المدنية للمسلمين، عبروا عن غضبهم وواجهوا بصراحة ووضوح المحاولات لنقل الهجوم على المهاجرين إلى التيار السائد. من ثم، يسعى هذا الفصل لتوضيح كيفية انبثاق السياسات والتوجهات المعادية للمسلمين من جميع أنحاء التيار السائد دونما أية معارضة تذكر. للإسلاموفوبيا الثقافية فى الداخل الأمريكى دور مفصلى فى تصنيع الإذعان والموافقة الصامتة بل والصاخبة أحيانا على التشريعات المعادية للعرب والمسلمين فى الداخل، والسياسات التدخلية الإمبريالية فى جنوب غرب آسيا التى تهدف إلى التحكم فى الموارد النفطية، ورعاية الدول السلطوية العميلة والحفاظ على التواجد العسكرى بما فى هذا الاحتلال العسكرى والدعم المستمر لقمع الشعب الفلسطيني.

لا تقتصر الإسلاموفوبيا على جماعات يمينية هامشية، أو على الأحرام الجامعية الأمريكية، أو تنظيمات الفعل السياسى التى تحاول تشويه صورة الناقدين لسياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين أو لاحتلال الولايات المتحدة للعراق وأفغانستان. إن الإسلاموفوبيا الثقافية تشكيل أيديولوجى تناسج بإتقان فى الثقافة الأمريكية منذ صعود العولمة بدرجة أننا نجد أن الإسلاموفوبيا وكراهية العرب تتداخل فى الخطابات الليبرالية. بدءا من خطابات الأمن القومى وحتى الأطروحات المدافعة عن الاقتصاد غير الضار بالبيئة.

مما لا ريب فيه أن اليمين والمحافظين الجدد يلعبون دورا مركزيا فى الإبقاء

على معايير الإسلاموفوبيا ويزودون روايات الليبراليين المعادية للمسلمين بإطار استطرادي. غالبا ما يُضيّقون حدود الجدل ويحصرونه فى نطاق الإفراطات المتطرفة غير المتقبلة فى المجالات الأخرى، والافتراءات، والانتحال، والفهم الخاطئ المتعمد. يستوعب التيار السائد تلك الرسائل القاسية التى لا تهدأ التى يبثها اليمين من مختلف الشبكات الإعلامية التى تتضمن الفضائيات الإخبارية والمنظرين والمدوّنين والمعلقين، والتى يتقبلها الكثيرون بمن فيهم الليبراليون. ومع أخذ هذا فى الاعتبار، فلا يمكن النظر إلى المحافظين الجدد، والمسيحيين الإنجيليين، والمتطرفين اليمينيين الصهاينة على أنهم عناصر هامشية، بل هم فى واقع الأمر لاعبون نشطاء داخل الهيئات السياسية الحاكمة بالولايات المتحدة، والذين يتسللون إلى أوساط الحزبين فى محاولة منهم لاكتساب المصداقية وأيضا لممارسة نفوذهم وتأثيرهم فى صياغة السياسة الحكومية.

بسيطة هى العملية التى من خلالها يحوّل اليمين الدينى والمحافظون الجدد والمنظمات والناشطون الصهاينة النقاط الجدلية الرئيسية إلى حقائق مزعومة. رأينا كيف أن إقامة «منتديات»، ومراكز بحثية، وتنظيمات ظل، و«مراكز» و«معاهد» أسلوب مفضل يضفى النشطاء اليمينيون من خلاله المصداقية على أنفسهم. بعد إنشاء تلك الهياكل المؤسسية الواقية، نجد أن دعاة الإسلاموفوبيا يجدون متعة كبرى فى تنظيم المؤتمرات وورش العمل وأسابيع المناسبات التى تدور حول تنويعات على تيمة الفاشية «الإسلامية» أو «الإرهاب الإسلامي»، أو الجهاد. جاء المؤتمر الذى نُظم برعاية منتدى الشرق الأوسط الذى يديره پايپس فى عام ٢٠٠٩ نموذجا فى هذا السياق. كان عنوان المؤتمر «حروب قوانين التشهير: إخراس نقد الإسلام المتطرف Libel Lawfare: Silencing Criticism of Radical Islam»، وتحدث فيه عدد كبير من مختلف أطياف الجناح اليمينى للمحافظين الجدد مثل فرانك جافني، وآلان درشووتيز، وأندرو مكارثى الزميل بمؤسسة الدفاع عن الديموقراطيات والمدعى العام السابق الذى أكسبته محاكمته لعمر عبدالرحمن منزلة رفيعة فى دوائر المحافظين

الجدد. كان هدف المؤتمر مواجهة ما أُطلق عليه تكتيك «الإسلاميين» الجديد بالولايات المتحدة، حيث زُعِم أن التنظيمات الإسلامية قد أطلقت حملة منسقة من أجل «كبح حرية الخطاب حول مواضيع مثل الإسلام، والإسلام المتطرف والإرهاب وتمويل الإرهاب وذلك من خلال رفع قضايا أمام المحاكم والعمل على إصدار قوانين ضد «أحاديث الكراهية» وتشويه السمعة».

تم الإعلان عن النائب الديموقراطى أرلن سپكتر متحدثا رئيسيا فى المؤتمر. كان سپكتر الذى كان جمهوريا وديموقراطيا أيضا، قد دعم سياسات الاشتباك مع بلدان مثل سوريا، وكان الإعلان عن اسمه كمتحدث بالمؤتمر مكسبا كبيرا لمُنظميه. بيد أنه، ومن سوء حظهم، أن قدمت منظمة CAIR التماسا أقنع عضو الكونجرس هذا بالانسحاب. لكن فشل منتدى الشرق الأوسط فى اجتذاب شخصيات سياسية من التيار السائد، لا يقلل من أهمية استراتيجياتهم. وفى واقع الأمر، فإنه يبدو وأن جزءا من تكتيك تنظيم المؤتمرات وورش العمل هو التجريب المستمر على ما يمكن إنجازه من خلال استغلال أنشطة مجموعات المصالح اليمينية التى تتبنى معايير التيار السائد المهني، لكنها، وبخلاف ذلك، تظل هامشية. توظف تلك الدعوات لإثارة أزيز يصل إلى أسماع الدوائر العليا من أجل معرفة ردود أفعالها وتقييمها، ناهيك عن اكتساب دعم منها للمشاريع المستقبلية.

وفى واقع الأمر، فسرعان ما حوّل منتدى الشرق الأوسط، مؤتمر Libel Lawfare الباهت – والذى لم يلق اهتماما على المستوى القومي باستثناء الكتابة عنه فى المدونات اليمينية – إلى مشروع قائم تحت مسمى «Lawfare Project». ظاهريا، يلجأ المشروع إلى انتحال لغة تنظيمات العدالة الاجتماعية ومناصرة الحقوق المشروعة بأن ينص على أنه مشروع لحقوق الإنسان. تذكر مديرته برووك جولدستاين أنها «محامية حقوق إنسان» فيما لا يعرف عنها سوى أنها اشتركت فى إخراج فيلم وثائقى مبتذل «معادٍ للفلسطينيين» بعنوان «صناعة الشهيد». تكشف النظرة العابرة على Lawfare Project عن الرطانة المستخدمة فى صياغة هدف المشروع وطبيعته

السطحية: استهداف الذين يواجهون أجندة الجناح اليميني في الشرق الأوسط وأمريكا الشمالية وإخراسهم. لدى بدء نشاطه، زعم موقعه الإلكتروني أن مهمته هي «العمل على حماية حق نقاش الإسلام، والإسلام المتطرف، والإرهاب، وتمويلات الإرهاب، بحرية في البلاد الغربية». وفيما بعد نص الموقع على أن منتدى الشرق الأوسط أقام المشروع لتكون مهمته «حماية الباحثين والمحللين الذين يعملون على مواضيع الإرهاب، وتمويل الإرهاب والإسلام المتطرف، حمايتهم من القضايا التي تهدف إخراس ممارستهم الحديث الحر». وهكذا فإن المشروع هو في واقع الأمر واجهة لمنتدى الشرق الأوسط بهدف توفير الدعم القانوني واللوجستي والمالي من أجل قمع التنظيمات المناصرة للمسلمين وترويعهم وإفلاسهم إن هم أرادوا اتخاذ الإجراءات القانونية لرد الظلم عنهم حينما يُشهَّر بهم وتُلطخ سمعتهم ويُفترى عليهم من خلال دعاة الإسلاموفوبيا من الصحفيين والمنظَّرين والتنظيمات ومراكز الأبحاث.

توليد الخوف من أجل هندسة الإذعان:

في واقع الأمر فإن مشروع الحروب القانونية Lawfare Projed هو محاولة هزيلة ودالة في أن يضطلع بها مقاتلو الإسلاموفوبيا من أمثال دانييل بايبس ودايفيد هورووبتز لكسب الاهتمام واختراق التيار السائد، وأيضا من أجل ترويع التنظيمات المناصرة للعرب والمسلمين الأمريكيين. بلا ريب فإن المشروع، ومثل «أسبوع الوعي بالفاشية الإسلامية» و«يوم يرسم فيه الجميع محمدا» و«يوم إحراق المصحف»، هو مناسبة هامشية، حيث إن دعاة الإسلاموفوبيا الأكثر تفانيا وخطورة موجودون بالكونجرس ووزارة الخارجية، ووزارة العدل، والأمن الداخلي والبيت الأبيض حيث يعملون معا على ترقيع سياسات وتشريعات تستهدف المسلمين الأمريكيين ووسمهم وتنميطهم ونبذهم، ومعهم المسلمون في الشرق الأوسط. وكحال اليمين الإنجيلي، تسري المواقف والتوجهات منتقلة من الهامش إلى الوسط. وإلى التيار السائد. وكما أوضح صعود «حزب الشاي Tea Party» فإن تلك الأصوات الهامشية هي التمثيلات الأكثر نقاء للتشكيلات الأيديولوجية، وتفتح حيويتها ووضوحها للعيان

المجال أمام الإسلاموفوبيا لتصبح تيارا طبيعيا، وتتيح للأصوات الليبرالة الفرصة لتجهر بالحديث ضد أعمال وإجراءات الكراهية الصريحة فيما تحافظ على نُسَخِها المدجّنة من الإسلاموفوبيا وتبقى عليها.

ظلت التنميطات المعادية للعرب والتعصب ضدهم موجودة طوال عقود عديدة. عمل الإعلام، وأفلام هوليوود، ومجموعات الولاءات السياسية، والحكومة بل وحتى النظام التعليمى بتناغم واتساق للحفاظ على تنميطات العرب والمسلمين بصفتهم إرهابيين، غير عقلانيين، يضطهدون النساء، شهوانيين «يدمنون العنف، جهلة، ويتكسبون من النفط». بلا ريب، فإن هذه الصورة لم تخرج إلى حيز الوجود نتيجة مكائد المحافظين الجدد واليمين الصهيونى بعد ٩/١١، فقد ظلت تتداول منذ عقود مع إجراء التعديلات عليها على مر السنين. فى الأفلام الكلاسيكية المبكرة كانت هوليوود تصور العرب أحيانا على أنهم نبلاء ومشبوهون فى آن، مفرطو الشهوانية، بَدْو ذكوريون، كما صورهم سيسل بي. دوميل فى فيلم العرب (١٩١٥) أو فيلم «الشيخ» الشهير (١٩٢١). وفى السبعينيات، ومع حظر النفط وظهور حركة التحرير الفلسطينية، سارعت هوليوود والإعلام المطبوع إلى تصوير العرب على أنهم أشرار، يتظاهرون بالقوامة الأخلاقية، وإرهابيون يساريون. كما جاء فى فيلم «الطبّالة الصغيرة» لديان كيتون. ومع ظهور الإسلام القتالي، ساعدت هوليوود مرتادى دور العرض فى أمريكا الشمالية على تخيل أنه بالإمكان مجابهة هذه النزعة القتالية من خلال شوارزنجر وتشاك نوريس. وفى واقع الأمر فإن النماذج الدالة على التنميط العنصرى للعرب والمسلمين على مدى الأعوام الأربعين الأخيرة على درجة من الضخامة يتعذر معها حتى البدء فى فتح ملفها. من ثم، يمكن القول إن تمثيلهم إعلاميا بعد ٩/١١، لم يُمثل نقلة بقدر ما كان تنفيساً كاملا عن اللاوعى الأمريكى المكبّل بالإسلاموفوبيا. قامت دراسات عدة بمناقشة تقلبات المشاعر المعادية للعرب والمسلمين بعد ٩/١١ من منطلقات الإسلاموفوبيا فى أمريكا الشمالية وتداعياتها، مبينة أن الموضوع معقد ومتعدد الأوجه. تشمل تدفقات نتائج الخوف والكراهية جاليات ومجموعات عديدة

وتؤثر فيهم بأساليب عميقة ومهمة، حيث ترسخ الصور المعادية للإسلام والعرب مناخاً من الخوف والصمت والتهميش فى أوساط العرب والمسلمين الأمريكيين. لا يعمل التنميط فقط على جرح المشاعر، والعزلة الاجتماعية، وتنامى ذهنية الاحتجاز بل إنه أيضا يعمل على خلق جماعة مذعنة راغبة فى إرضاء الغير، يمكن للسلطات الفدرالية ترويعها بحيث تتمكن من مراقبتها والتحكم فيها وتجبر أفرادها على التزام الصمت إزاء سياسات الحكومة الداخلية والخارجية.

الأهم مما يُحدثه التنميط، واصطياد المسلمين وتوليد الخوف من آثار على الأقلية العربية والمسلمة، فإن لهذا تداعيات أكثر خطورة على السكان الأمريكيين بعامة، إذ إن الإسلاموفوبيا لا تؤدى فقط إلى هندسة التوافق فى أوساط التيار السائد وأمريكا البيضاء على السياسات المعادية للعرب والمسلمين بالداخل والخارج، بل أيضا على السياسات التى تعمل على تقليص الحريات المدنية للجميع، وتعتبر السرعة التى مُرِّرَ بها قانون پاتريوت شهادة على فعالية الخوف و الپارانويا لانتزاع موافقة الجماهير على تقليص حرياتهم الدستورية عن طيب خاطر. وفى واقع الأمر، فقد أوضحت دراسة كورى روبين عن الخوف وسياسات الحكومة الأمريكية أنه، وقبل ٩/١١ بسنوات طويلة، ظل الخوف حافزا جوهرياً يُستخدم فى الثقافة السياسية والحكومية من أجل هندسة الموافقة على سوء توزيع السلطة، وعلى عدم المساواة بين الطبقات والأعراق، ومن المفارقات أن روبين يعمد إلى تكرار فرضية زكريا بأن الإسلام المتطرف ينجم عن «القلق العصابي» من الحداثة، لا عن أوضاع سياسية وتاريخية حقيقية وملموسة، وأيضا، فإن ما يسىء إلى كتابه القيّم هذا، هو استشهاده بفؤاد عجمى الذى يجزم بأن المسلمين المتطرفين يشعرون بالاغتراب جراء التقدم الحداثي، والحقوق المدنية، والتوجهات الفردانية والاستهلاكية، متجاهلا أن يعزو ذلك إلى المذابح التى تُرتكب فى أوساط المدنيين العراقيين والأفغان، واليمنيين؛ وجرائم الحرب التى مازالت تمارس ضد الفلسطينيين؛ والحملة الغربية الحكومية وغير الحكومية النيوليبرالية المهيمنة العازمة على تقويض الاقتصادات المحلية والقومية. ويوضح هذا أيضا أن الخطابات

التى تفحصناها فى الفصول السابقة قد اخترقت حتى الأبحاث والدراسات الناقدة رفيعة المستوى.

فى دراسة تبدو وكأنها مجاز تاريخى، يتفحص روبين أيضا فترات تتضمن الأيام الكارثية ليلقى الضوء على كيفية استخدام الحكومات بما فيها إدارة بوش للخوف، كوسيلة معقدة لتصنيع الموافقة الشعبية. الأطروحة واضحة، حيث إنها تذهب إلى أنه إذا كان الإسلام، أو معتنقوه المتطرفون، معادين لكل ما هو حديث، وإذا كانت الحداثة ومكتسباتها مسيرة حتمية من المستحيل «عكسها»، مسيرة ينبغى على الغرب والولايات المتحدة حمايتها مهما بلغت التكلفة، فإن «أفضل الوسائل لقمع عدم الرضا عن الحداثة والاستياء منها، وبخاصة إذا اتخذ هذا شكلا قاتلا مدمرا، هو قتل تلك الظاهرة». يوضح روبين أنه يتم استغلال الخوف حافزا رئيسياً لتطبيع «الحرب الدائمة على الإرهاب التى تعمل على تحويل القلق الداخلى إلى خوف يؤدى إلى تنشيط المجتمع المنهك ويسترد له حسه بالهدف الجماعى والفردي».

على مدى بضع السنوات الأخيرة، دعم كثير من الصحفيين والأكاديميين فرضية روبين، بل ورأوا، وكما كان الكثيرون يرتابون، أن الخوف يستخدم عاملا حافزا فى الانتخابات. لا يتردد الجمهوريون الذين يتحدثون بصراحة ودونما مواربة، ولا يخفون نوازع الإسلاموفوبيا الفجة لديهم، واستعدادهم التام للانقلاب على الحريات المدنية، لا يترددون فى الاستفادة من حالة الخوف لدى الجماهير، ومخاوفهم الأمنية، بل ويعملون على إثارتها. نجم عن تزايد التحذيرات من الهجمات الإرهابية، تزايد متسق فى الدعم الجماهيرى لبوش أثناء رئاسته. ليس ثمة شك فى أن الأمريكيين يجدون أن ثمة علاقة تبادلية بين الخوف والإرهاب من ناحية وبين المسلمين والعرب من ناحية أخرى وأن الاعتقاد بوجود هذه العلاقة التبادلية يترجم إلى أعمال وإجراءات عنصرية وإلى تحيزات تسهل تمرير سياسات داخلية تستهدف المسلمين والعرب الأمريكيين. أوضحت استطلاعات الرأى التى أجراها پيو فاونديشن، ومركز زغبي، وجالوب وكير CAIR وإيه بى سي، أن الأمريكيين يرتابون فى العرب والمسلمين، بل ويعبّرون

أحيانا عن آراء منحازة ضدهم. أوضحت إحدى الدراسات أن ستة من بين كل عشرة أمريكيين يعتقدون أن العرب والمسلمين ينزعون جوهريا إلى العنف فيما اعترف واحد من بين كل أربعة بالتحيز ضدهم. وبيّن مسح آخر أن خمسة وأربعين في المائة من المشاركين يعتقدون أن الإسلام يشجع العنف فعليا كما أظهرت نفس الدراسة أن ٣٠٪ من الأمريكيين لديهم نظرة سلبية إزاء العرب والمسلمين الأمريكيين.

تحذير أمريكا البيضاء:

تعمل هيمنة ثقافة الإسلاموفوبيا على تحرير الخطاب العام من مستوى الكياسة السياسية التي لابد وأن يراعيها المجتمع المدني إزاء غالبية الأقليات الدينية والعرقية الأخرى. نجح كثير من المدونين والمخبرين/ المخبرات المحليين من الدرجة الثالثة في اكتساب مكانة وظيفية مرموقة من خلال هذيانات الإسلاموفوبيا التي يروجونها. كما يستخدم الممثلون والمطربون الهزليون التنميطات المسلمة والعربية لاجتذاب جماهير جاهزة. عزّز كارلوس منشيا استعراضه «عقل منشيا» الذي لم يستمر طويلا بعدد كبير من النماذج البلهاء العنصرية الفجة، وكذلك عمد الكوميديان جون دنهام، الذي أقام شهرته على الإسلاموفوبيا، إلى تقمص شخصية «أحمد، الإرهابي الميت» التي ابتدعها المتمثلة في هيكل عظمي لمفجر انتحاري مُلتح معمم، شخص غبي غاصب جبان منذر، تعوزه الثقة بالنفس، وينزع إلى القتل. يمضي يردد بلكنة عربية «اخرس، سأقتلك Silence, I keel you». حققت أهزوجة دنهام الساخرة «Jingle Bombs»، والتي هي محاكاة داعرة لترنيمة أعياد الميلاد «Jingle Bells» نجاحا عارما بما تحتويه من مقاطع بذيئة مهينة:

شققتُ رمال الصحراء وقنبلتي إلى ظهري مشدودة
لأفجرها احتفالا بالكريسماس بعد دقائق معدودة
مررت من نقطة تفتيش A، وفي نقطة B أوقفوني
أطلق الجنود الأمريكان النار على مؤخرتي وقتلوني
انفجري ياقنابل، انفجري ياقنابل، واصدحي في الأجواء
فلم يتبق مني سوى فوطة رأسي المبللة بالدماء

ذكرت التقارير فى عام ٢٠٠٩ أن استعراض «أحمد، الإرهابى الميت» احتل المركز الرابع فى الفيديوهات الأكثر مشاهدة أون لاين.

يحقق مقدمو تلك الاستعراضات والمعلقون والمدونون نجاحهم المتمثل فى تخدير تيار أمريكا البيضاء السائد ضد آثار التعليقات البغيضة المؤلمة، من ثم تتلاشى العوائق أمام المحظورات بحيث تصبح الأعمال والإجراءات العنصرية المتعصبة حتمية، بل ومتقبلة أيضا. ينجم عن ذلك إجراءات يومية من تجميع المعلومات عنهم وأخذ بصماتهم ولالتقاط صور لهم ووسمهم. أيضا، يطلب من المحجبات خلع الحجاب لدى دخولهن البنوك مثلا بذريعة التعليمات التى تمنع ارتداء القبعات هناك. يُستهدف تلاميذ المدارس المسلمون من قبل المدرسين بانتظام، حيث طلبت إحدى المدرسات، مثلا، من تلميذها الباكستانى الأمريكى تمثيل دور إرهابى حينما كانت تسعى إلى توضيح كيفية إمكانية صعود إرهابى إلى الطائرة وهو يحمل حقيبة ظهر مفخخة ليفجرها بالطائرة.

من جهة، يرسم المعلقون والصحفيون والإخصائيون النفسيون الانتهازيون للجمهور الأمريكي، صورة لأمريكا وقد تلقت صدمة مروعة يوم ١١ سبتمبر، صورة مفعمة بمشاعر الانتهاك والغضب العارم والعجز والاضطراب والخوف. والنتيجة هى أنه يحدث أحيانا «أن توجه مشاعر الغضب والخوف والحاجة الماسة إلى الفهم التى تنجم عن الأفكار التى تصور إمكانية الموت فى أية لحظة، توجه إلى أشخاص لا يماثلون عن قرب مرتكبى الهجمات». فإلى جانب توجيه التعصب الأعمى والتحيز والرغبة فى العنف إلى العرب والمسلمين، تنسحب تلك المشاعر أيضا وتوجه ضد من يماثلونهم فى الشكل مثل الهندوس، والسيخ، واللاتينيين والسود. لكن كتاب «فى أعقاب ٩/١١: سيكولوجية الإرهاب» الذى ألفه طوم بيسنجسكي، وشلدون سولومون وجف جرينبرج (٢٠٠٢) والذى يعالج نظرية إدارة الإرهاب، يزعم أن ردود الأفعال هذه تقتصر على أقلية ضئيلة من الشعب الأمريكى الذى يجب تهنئته وذلك لأن «قيمهم الجوهرية» حَصّنتهم من ارتكاب أعمال عنف جماعية أخرى ضد العرب والمسلمين

الأمريكيين، كما أنه من المحتمل للإجراءات والأعمال السلبية اللااجتماعية الموجهة ضد الأقليات من ذوى البشرة السمراء، من المحتمل لها أن «تتراجع وتقفز قيمنا الأكثر إيجابية لتحتل مقدمة وعينا».

قد يكون لهذا الإدراك الظرفى درجة من الصدقية، لولا حقيقة أن هؤلاء المعلقين والإخصائيين النفسيين يتجاهلون ذكر سياقات العنف التاريخى والصدمات المروعة والرضوض التى عاناها المسلمون على أيدى الغرب، إما مباشرة من خلال الاستعمار والنيوكلونيالية والتدخلات العسكرية الجارية حاليا، أو بأسلوب غير مباشر من خلال دعم الأنظمة السلطوية الوحشية مثل نظام الشاه ومشايخ الخليج وصدام حسين ومبارك، ناهيك عن الترويع القائم، والعنف والإذلال اليومى الذى يعانيه الفلسطينيون. وباتباع نهج برنارد لويس، نجد أن بعض تلك النظريات النفسية متواطئة مع أشد النظريات عنصرية والتى تصور الذات العربية والمسلمة على أنها تفتقد حس «تقدير الذات» الذى يتمتع به الغربيون. يتحاشى علماء النفس الذين يعتنقون هذه النظرية أن يتسقوا على طول الخط مع نظريتهم الخاصة بالصدمة والرضوض النفسية لأن تتبع عواملها السببية ستضفى درجة من المسئولية على ضمير «نحن» الذى يستدعونه باستمرار وينزع المصداقية عن نظرة الأمريكيين إلى العالم وقيمهم الجوهرية، واحتفائهم بسماتها الأخلاقية البارزة. بدلا من ذلك، نجدهم يستندون إلى كتابات فريد زكريا وبرنارد لويس وصمويل هنتنجتون الذين يذهبون إلى أن المسلمين يعانون القهر والمهانة من أنظمتهم (دونما ذكر لدعم الولايات المتحدة لتلك الأنظمة) وأن قادتهم الأشرار يتلاعبون بمقدرات جماهيرهم، وأن القادة الدينيين وعظاء دهماويون يجعلون من الولايات المتحدة كبش فداء ويحملونها مسئولية جميع الإخفاقات المتأصلة فى المجتمعات العربية والإسلامية. وبذلك فهم يعملون على تخدير أمريكا البيضاء كى لا تشعر بتواطئها، ويمحون بصماتها من على مسرح جرائم الكراهية.

وفيما يظل الأمريكيون بالغى اليقظة فى التفتيش عن المسلمين تحت كل صخرة وخلف كل عامود، فإن الأمثلة لا تحصى على أفعال وإجراءات وأحاديث الإسلاموفوبيا،

وبعد مرور عقد على أحداث ٩/١١، تؤدى وظيفة أيديولوجية هدفها إضعاف حساسية التيار السائد في أوساط أمريكا البيضاء المسيحية إلى درجة يصبح معها التمييز العنصرى ضد المسلمين والعرب متقبلا. ولا يجوز أن يثير هذا الدهشة حيث إن وابل الهجمات والاتهامات التى تنهال من اليمين الأمريكى على التيار السائد تعمل على توسيع مدى خطاب الإسلاموفوبيا وتعميق مستواه. تُمرِّر الكتب الدعائية التى تهاجم الإسلام والمسلمين وتحط من شأنهم على أنها تحليلات سياسية أو أبحاث تاريخية، ويصوِّر الكتاب من أمثال روبرت سپنسر وبرووس باور وميلانى فيلس الإسلام والمسلمين على أنهم أنجاس منبوذون.

العمل على جعل أمريكا البيضاء مفرطة الحساسية:

على حين أنه تم تجريد الجمهور الأمريكى من الحساسية إزاء أحاديث وأعمال الإسلاموفوبيا التى يأتيها، فقد أصبح الأمريكيون مفرطى الحساسية إزاء أى فعل عنيف أو تافه يرتكبه المسلمون. يُثبِّت توجه هذا المناخ مفرط الحساسية، الذى تفاقمه إطلاق الإنذارات من أعمال إرهابية، والتفجيرات الخرقاء التى يقوم بها أفراد إرهابيون معزولون تعوزهم الكفاءة، يُثبت باتجاه التفتيش عن أية مقولة متطرفة ينطق بها أى شخص يدّعى أنه مسلم واستخدامها مادة للإثارة التى تعمل على الارتقاء بمكانة المعلقين فى الفضائيات الإخبارية التى تبث يوميا طوال الساعات الأربع وعشرين، والمواقع الإلكترونية التى لا تحصى، بل إنها توظف أيضا لتسويغ التنمطيات التى تمتلئ بها تلك الوسائط الإعلامية وإضفاء المصداقية عليها.

فى واقع الأمر، عندما يجهر المسلمون بالشكوى من الإهانات غير المسوغة التى تنهال عليهم، يتهمون بأن ردود أفعالهم مبالغ فيها وأنهم يحاولون قمع حرية الكلام من جانب من يهاجمونهم، ويوردون أمثلة من أوربا معروفة للجميع، وبخاصة ردود أفعال المسلمين على الرسوم الدانماركية، واغتيال ثيوڤان جوخ اليمينى المحرض المستفز العنصرى الذى كرس حياته السياسية لتشويه سمعة الإسلام والمهاجرين المسلمين والتحريض عليهم. وبدلا من الاعتراف بأن هدف دعاة الإسلاموفوبيا وكارهى العرب

هو إثارة المسلمين تحت غطاء ممارسة حرية الحديث بحيث يلجأون إلى أعمال العنف، يعمل الكتاب والمعلقون على إقناع الجماهير بأن المسلمين مفرطو الحساسية وبأن العنف من سماتهم المتأصلة.

المسلمون والسفر بالطائرات:

«تُجسِّد» تنمطيات المسلمين والعرب، بالمعنى الحرفى للفظ الخطابات الأكاديمية المفترضة التى روّجها لويس وزكريا، ثم رددتها أعمال المخبرات/ المخبرين المحليين، والمرتزقة المؤدلجين، والنشطاء السياسيين، هذا على الرغم من أن تلك الأعمال تفتقد الخيال وتعمد إلى التكرار. فى عصر العولمة توظف صورة العرب والمسلمين كمتعصبين لا يتوافقون مع الحداثة والديموقراطية فى خدمة أهداف واضحة تتصل بمنطقة للولايات المتحدة والغرب فيها مصالح استراتيجية وذلك بسبب إدمانهم للنفط والمنتجات النفطية. وكما رأينا، فقد عمل التنميط على زيادة حساسية الجمهور الأمريكى من أجل مفاقمة خوفهم من التهديدات الإرهابية غير المحددة وكلية الحضور فى أن. يصادق نمط المسلم المتطرف الكاره للحرية، والعربى المعادى للسامية على مشروعية مشاعر الخوف، ويعمل على تخدير الجمهور الأمريكى بعامة ضد المشاعر المضادة للانتهاكات المتزايدة من جانب الحكومة لشريحة مستهدفة من السكان المحليين ومراقبتها لهم، وتجميع المعلومات الشخصية عنهم، مع تصنيع موافقة عامة السكان على تلك الإجراءات. حينما يصرح چرالدو ريڤيرا بأن عمل ملفات عرقية تحوى معلومات وصوراً شخصية للمسلمين الأمريكيين ووسمهم «تضحية» عليهم قبولها فإنه يتبع خطى مواقف عبر عنها أشخاص فى إدارة بوش وأعضاء الكونجرس فى أعقاب ٩/١١. أكد طوم ريدج للأمريكيين وهو يتحدث عن قانون پاتريوت، أن انتزاع الحقوق المدنية هو أفضل وسيلة للإبقاء على «رؤية نحافظ بها على حرياتنا، ونحمى بها أمريكا، ونحفظ بها أمن وطننا».

فى أعقاب تفجيرات الكريسماس الفاشلة التى قام بها عمر الفاروق عبدالمطلب الذى كان قد خبّأ المتفجرات فى ملابسه الداخلية، تعالت المطالبات بإجراء التفتيش

الذاتى وأخذ بصمات وصور المسلمين الذين يسافرون جوا، كان الأبرز ما صرح به الفريق طوم ماكإنرى- وهو جنرال سابق صدّره البنتاجون لترويج مبررات لغزو العراق فى الإعلام حيث قال إنه ينبغى أن تحذو الولايات المتحدة حذو ما تفعله إسرائيل مع الفلسطينيين، ومضى يطوف على المؤسسات الإعلامية مطالباً بأن يجرى تفتيش إجبارى لجميع المسلمين الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين وهم عراة قبل صعودهم إلى الطائرة. ظل دانييل پايپس وميتشل مولكين منذ وقت طويل من أنصار اتخاذ هذه الإجراءات ضد العرب والمسلمين الأمريكيين. بلغت جريمة «سفر المسلمين بالطائرات» و«سفر العرب بالطائرات» مبلغا يتم فيه بانتظام احتجازهم، هم ومن يشبهونهم، وإنزالهم بالقوة من على الطائرات، ومنع صعودهم إليها واستهدافهم لإجراء مزيد من إجراءات التفتيش الإضافية بحجة الأمن. تلقى هذه الإجراءات ذيوعا عندما تستهدف شخصيات بارزة، كما حدث فى حالة منع أحد الطيارين حارس چورج بوش الشخصى وكان عربيا أمريكياً من الشرطة السرية، منعه من دخول الطائرة، أو حينما احتُجز شاهروك خان سوپر ستار السينما الهندية لاستجوابه فى مطار نيووارك حينما كان فى طريقه إلى الولايات المتحدة للدعاية لفيلمه الذى يعالج قضية الاستهدافات العرقية. أيضا هناك أمثلة أخرى كثيرة على الإجراءات التى تتخذ ضد الشخصيات العادية مثلما يحدث حينما تجبر السلطات عائلات بأكملها على مغادرة الطائرة، أو كما حدث فى حالة رائد جرار الناشط العربى الأمريكى المناهض للحرب والذى مُنع من الصعود إلى الطائرة لأنه كان يرتدى تى شيرت مكتوباً عليه بالعربية «لن نصمت بعد الآن».

إن الاستهداف العنصرى للعرب والمسلمين وتفتيشهم ذاتيا وتجميع معلومات شخصية عنهم وأخذ بصماتهم هو إحدى الممارسات التى تصل بين تحيزات الجماهير ضد العرب والإسلاموفوبيا وبين السياسات الإعلامية والحكومية. أطلق السياسيون من أمثال نووت جنجريتش دعوات لممارسة «التمييز» بفاعلية وذلك من أجل تطبيع الخطاب الذى يستهدف المسلمين من ذوى البشرة السمراء والسوداء وعزلهم عن

المواطنين البيض الأمريكيين. أثبتت استطلاعات الرأى أن الغالبية الساحقة من الأمريكيين تؤيد إجراءات التفتيش والاستعانة بالمعلومات الشخصية العنصرية عن العرب والمسلمين وبخاصة فى المطارات. وبالمثل، بيّنت الاستطلاعات أن حوالى نصف الأمريكيين المُستطلعين يدعمون تقييد حريات المسلمين المدنية بشكل أو آخر.

الإسلاموفوبيا بصفتها البعد الأيديولوجى لسياسة الولايات المتحدة الخارجية:

قد لا يُدهش المرء من الهستريا العنصرية الجماعية، والعنف، الذى مورس ضد المسلمين والعرب، والتحرش بهم، والإيقاع بهم فى أعقاب ٩/١١، لكن غالبية الأمثلة التى أوردتُها حدثت مؤخرا. غالبا ما يُبرر مناخ الترويع الذى يحيط بالعرب والمسلمين، المواطنين منهم أو المهاجرين القانونيين، على أنه ردود أفعال وضربات ثأرية مصدرها الإحباط وما لحق الأمريكيين من أذي. بيد أننى أجزم فى هذا الفصل بأن الهيئة التنفيذية والكرنجرس ووزارات الأمن الداخلى والخارجية والدفاع والعدل تعمل بتناغم لغرس ثقافة القمع ورعايتها وتنظيمها، على أساس شيطنة العرب والمسلمين. يساعد هذا التوجه الإسهام الجوهرى لإعلام التيار السائد، والإعلام الهامشى، ومعه مجموعات الولاء الصهيونية، والمسيحية الإنجيلية، والمحافظين الجدد، وأيضا السياسيين الليبراليين ونشطائهم ومراكز أبحاثهم. لا أجزم هنا أن ثمة مؤامرة حكومية صريحة تهدف إلى قمع جميع المسلمين وحرمانهم من حقوقهم، الأحرى أن خطابات الإسلاموفوبيا تترعرع فى ظل خطابات القوة الأحادية، إذ إن جميع جرائم الكراهية والتحرشات، والتعصب، والسخرية، والهجاء العنصرية وغيرها من الاستهدافات والمهانات بالقطاعين العام والخاص، ما هى إلا الآثار الاستطرادية للإسلاموفوبيا الثقافية بتداعياتها الواقعية الملموسة على أرض الواقع المصغر (الفردى والمحلي) والموسع (القومى والكوكبي). تعمل جميعها على تخدير الأحاسيس ضد القوانين العنصرية، وإضفاء المشروعية عليها ومأسستها، وعلى تآكل الحريات المدنية، وممارسة السياسة الخارجية الإمبريالية فى الشرق الأوسط.

إن إجراءات الوسم العرقى والإسلاموفوبيا الثقافية تشكيلات أيديولوجية ضرورية

فى عصر إمبراطورية الولايات المتحدة. حولت حرب عاصفة الصحراء واختفاء الاتحاد السوفييتى معاداة العرب من شكل بغيض من العنصرية كان يربط الفلسطينيين والعرب الآخرين بحركات التحرر ذات التوجهات الشيوعية إلى بند أيديولوجى مركزى فى محاربة من يُزعم أنهم متطرفون معادون للحداثة يُبرر وجود الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. كان «صدام الحضارات» لصامويل هنتنجتون، و«جذور غضب المسلمين» لبرنارد لويس صياغة كلامية لنقلة أيديولوجية مثلت جوهر سياسة بيل كلينتون وجورج بوش وباراك أوباما الخارجية. رأينا الروايات التى أكد لويس وزكريا وآخرون على صحتها للشعب الأمريكى والتى تذهب إلى أن الغزو والحروب هى الوسائل الوحيدة لتنفيذ الإصلاح فى الشرق الأوسط وذلك لأن العرب لا يفهمون سوى لغة العنف. غلّف بوش تبريره لغزو العراق بلغة الحرية والتحرير والديموقراطية وذلك لأن إعلام التيار السائد كان قد مضى ينشر خطاباته المعادية للعرب والمروجة للإسلاموفوبيا مما أضفى على «أجندة الحرية» التى تبناها إلحاحا وأهمية بارزة. كانت تلك الخطابات قد طُرِحت بقوة قبل ذلك بفترة، حيث يخبرنا بوب وودوارد أنه فى ٥ فبراير ٢٠٠١، أى فى اليوم السابع عشر من رئاسة بوش – ترأست كونداليزا رايس، مستشارة الأمن القومى اجتماعا لاستعراض وضع الإجراءات الديبلوماسية والعسكرية والعمليات السرية بالعراق وإمكانيات تغيير النظام والخيارات المطروحة. أتاحت هجمات ٩/١١ أن يتقبل الجمهور الأمريكى المزاعم القائلة بوجود روابط بين صدّام حسين والقاعدة دونما مساءلة أو ارتياب.

كان الجمهور الأمريكى آنذاك على استعداد للربط بين «أجندة الحرية» التى تبناها بوش (ضد ديكتاتور علماني) وبين التنميطات المُصنّعة للمسلمين كإرهابيين ورواية الإسلاموفوبيا التى تصور الإسلام المتطرف (القاعدة) بصفته معادياً للديموقراطية والحرية. وبالمثل، وفرت الإسلاموفوبيا الثقافية رابطة مكنت بوش أن يجمع كوريا الشمالية الستالينية العلمانية، والعراق القومى العلماني، والجمهورية الإسلامية الإيرانية فى سلة واحدة تحت مسمى «محور الشر» (الذى كان من إسهامات منتدى

دايفيد للمحافظين الجدد)، والذى أطلقه فى «خطاب حالة الاتحاد» لعام ٢٠٠٢، كما تمكن، بالتزامن مع ذلك من أن يشير إلى أن تلك البلدان التى تبغضها التنظيمات القتالية الإسلامية على أنها أنظمة مارقة تدعم الإرهاب الكوكبى (أى القاعدة). يكشف هذا الاستعداد للتغاضى عن الاختلافات الأيديولوجية التى تفصل بين الحركات العلمانية والقومية العربية وذات التوجهات الدينية الدرجة التى بها تتناسج رويات الإسلاموفوبيا للويس وزكريا وفريدمان وعجمى وغيرهم فى نظرة أمريكا البيضاء إلى العالم وتوجهاتها الخارجية. يُعتبر إدماج العناصر المتفرقة المتضادة فى عدو مشترك واحد مثالا على المدى الذى به عملت تجارة بث الخوف فى آخر تجلياتها، أى الإسلاموفوبيا الثقافية، على تخدير قدرة التيار السائد على تحليل العالم المعقد الذى يواجه أمريكا. منع عمق الإسلاموفوبيا الثقافية فى المجتمع الأمريكى واستعداده لتقبل منطق «الأنا» الذى يذهب إلى أننا وجدنا مصدر المعرفة، وأننا وجدنا الموجودون، كأساس للسياسة الخارجية والتدخل العسكري، منع حركة مناهضة الحروب من تجذير نفسها بعمق فى أوساط الطبقة الوسطى الأمريكية.

فى الستينيات، تماهت الحركات المناهضة للحرب، بمستوى ما، مع حق الفيتناميين فى تقرير المصير كما تبنت الحركات التقدمية حقوق شعوب أمريكا اللاتينية فى مقاومة الإمبريالية الأمريكية. لكن السبب الحقيقى فى حيوية تلك الحرب المناهضة للحروب هو أنه كان يتم تجنيد أفراد الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء للقتال فى حرب إمبريالية لا يمكن كسبها. بتعبير آخر، لم يكن الأمريكيون على استعداد لقتال الفيتناميين من خلال التضحية بأبنائهم وإخوانهم وأحبائهم. بيد أنه فى حالة احتلال أفغانستان والعراق، فإن الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء، تملك رفاهية المصادقة على تلك الحروب الأمريكية حيث إنهم يعتقدون أنها تهدف إلى حماية الأمن القومي، وأيضا، وكما يؤكد لهم أمثال لويس وهيرسى على ومنجي، فإن العسكرة الأمريكية تتدخل دوليا، وبدافع إيثاري، لإنقاذ المسلمين من الطغاة، وإنقاذ نساء المسلمين وأطفالهم من الذكور المسلمين فيما يتحمل فقراء الأمريكيين البيض والسود والسمر الأعباء القذرة لهذه المهمة «النبيلة».

التوقيفات الجماعية، والترحيلات، والتسجيلات الخاصة، و«قوائم الرصد»:

فى الوقت الذى أثار فيه الإعلام الجماهيرى حالة من الهستيريا الجماعية و«محارق» افتراضية، وشجع على التحرش بالعرب والمسلمين الأمريكيين ومضايقتهم والارتياب فيهم، مضت السلطات تلقى القبض على العرب والمسلمين بأسلوب جماعى بالولايات المتحدة تحت غطاء قانونى فى غالبية الأحوال. تم احتجاز خمسة آلاف مسلم يحملون وثائق قانونية دونما توجيه تهم لغالبيتهم، وكان يتم سجن الرجال الذين يوصفون بأن «لهم أهمية» على أساس معلومات وإلماحات سرية تقول مثلا «إن ثمة أعدادا مفرطة من الرجال شرق الأوسطيين يعملون بأحد محلات البضائع المخفضة والمعونات». وعلى حين أنه قد تم «احتجاز هؤلاء سرا ومحاكمتهم سرا» فلم يُدَن أى منهم بأى نوايا إجرامية أو أفعال مخالفة. علاوة على ذلك، تم استدعاء ٨٠٠٠ أجنبى يحملون وثائق قانونية إلى مصلحة الهجرة ووزارة العدل، ونتج عن تلك «المقابلات» طرد آلاف المسلمين وترحيلهم وكان غالبيتهم من بلاد عربية. كانت أسوأ الحالات تخص هؤلاء الذين رُحلّوا إلى بلاد تتولى تعذيبهم نيابة عن الولايات المتحدة - بلاد ينتمى إليها «المتهمون» وتحكمها أنظمة سلطوية مثل مصر والسعودية والجزائر وسوريا والمغرب والأردن واليمن. أيضا، نفذت إدارة بوش نظام «تسجيل خاص» لثمانين ألف عربى ومسلم يقيمون بأسلوب قانونى بالولايات المتحدة. وفى نفس الوقت، مازال مسئولو الحكومة، ونواب الولايات المتحدة والشخصيات الإعلامية يبررون اللجوء إلى إجراءات الرصد والوسم العرقى وتجميع الملفات والاحتجازات الجماعية كحلول لما يُسمى «الإرهاب الإسلامى».

اعترف الإف بى آى بأنه ضمّن ٢٤٠٠٠ شخص فى قائمة رصد للإرهابيين، فيما أنه، فى ذات الوقت، لم يُضِف متهمين «إرهابيين» حقيقيين، ظهرت هذه المعلومات فى جلسة استماع داخلية بوزارة العدل. واعتبارا من إبريل ٢٠٠٧، كانت «قائمة رصد الإرهابيين» تضم ٧٠٠٠٠٠ اسم على الأقل، وكانت تتنامى بإضافة ٢٠٠٠٠ اسم شهريا. وعلاوة على ذلك، شملت القائمة أيضا ما يربو على ١,١ مليون اسم بصفتهم

إرهابيين «محتملين» استخدمت هذه القائمة للتدقيق فى خلفيات المواطنين الأجانب الذين كانوا يسعون إلى دخول الولايات المتحدة بأسلوب قانوني، وللتدقيق أيضا فى خلفيات مواطنين أمريكيين. وفى جلسة استماع أخرى فى عام ٢٠٠٩، كشفت وزارة العدل عن أن ٣٥٪ من سجلات «الأشخاص المتضمنين فى قوائم الرصد كانوا مرتبطين بتصنيفات قضايا إرهاب قديمة أو تصنيفات قضايا غير متعلقة بالإرهاب وأن تلك القوائم كشفت عن أن كثيرا من السجلات كانت لأفراد كانوا قد شملتهم أصلا قوائم الرصد لكنهم حذفوا منها بعد أن تم إغلاق ملفات القضايا ضدهم».

يدلنا هذا على أن آثار الإسلاموفوبيا الثقافية لا يُوَلِّدها فقط المناخ العام والمجتمع المدنى أو تقتصر عليهما. وفى واقع الأمر، فإن أعمال العنف ضد العرب والمسلمين الأمريكيين والبذاءات اللفظية التى يتعرضون لها هى تداعيات مُلازِمة لسياسات تفوق كثيرا حالات العدوان الفردية والتحيزات المؤسسية أو التعصب الإعلامي، حيث إن التنميطات هى تجسيد لظاهرة أيديولوجية متداخلة فى سياسات الولايات المتحدة وتستخدم لإضفاء المشروعية على إجراءاتها السياسية الداخلية والخارجية، ولتصنيع الموافقة على تلك السياسات والإجراءات.

فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠١، مرَّر الكونجرس قرارا سهَّل به ما أصبح حرب بوش الشرسة ضد الحريات المدنية، وضد أفغانستان والعراق. يعنى التفويض الذى منحه الكونجرس للرئيس باستخدام القوة العسكرية ضد جميع إرهابيى ١١ سبتمبر مَنحه سلطة «استخدام جميع أشكال القوة الضرورية والمناسبة ضد جميع البلدان، والتنظيمات والأشخاص الذين يقرر هو أنهم خططوا لهجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أو ساعدوا عليها أو تلك التى تقوم بإيواء المنظمات الإرهابية أو الأشخاص الإرهابيين وذلك من أجل منع أمثال هؤلاء من القيام بأعمال إرهابية ضد الولايات المتحدة فى المستقبل». منح هذا التشريع تفويضا مطلقا للرئيس بوش الذى سرعان ما أصدر أمرا تنفيذيا بوضع جميع من يُلقى جيش الولايات المتحدة وجهاز أمنها القبض عليهم على قائمة «المقاتلين الأعداء» وينكر عليهم الحقوق التى يكفلها لهم الدستور واتفاقيات

جنيف. أيضا، حاول هذا الأمر فتح ثغرات قانونية من أجل تسليم المشتبه فيهم إلى بلدان تقوم بتعذيبهم، وتعليق مجموعة قوانين أوامر الإحضار لأغراض التحقيق والمحاكمة habeas corpus، ومراقبة الهواتف والتعذيب. وبناء على ذلك شهدت جاليات العرب والمسلمين الأمريكيين نتاج الإسلاموفوبيا الثقافية تأخذ شكل أجندة سياسية وممارسات متناغمة أصبحت فيما بعد واقعاً سياسياً.

قام العديد من الباحثين القانونيين وعلماء السياسة والأنثروبولوجى بدراسة الأساليب العديدة التى أُخضع بها المسلمون، الأمريكيون منهم والمهاجرون، للمحاكمة منذ ٩/١١، وكيفية استناد تدهور الحقوق المدنية بالولايات المتحدة إلى تلك المحاكمات. يكتب جيورجيو أجامبن، المفكر السياسى المرموق قائلا إن إدارة چورج بوش تعتبر نموذجا للأساليب التى تعيد الحكومات بها تعريف حقوق الأفراد، بل وتعمل على تآكلها، حيث إن بوش من خلال إعلانه الحرب الدائمة على الإرهاب أنتج «وصفاً أصبحت فيه الحالة الطارئة قاعدة راسخة». أيضا، يبين لويس فيشر كيف أن الحقوق الدستورية تعرضت للانتهاكات المستمرة بعد ٩/١١، وكيف سمحت الحرب على الإرهاب لبوش بتجاهل الممارسات القانونية، وبإقامة محاكم سرية، ومواقع سوداء، وممارسة الرقابة والتعذيب بالداخل، وتسليم المشتبه بهم إلى حكومات أخرى لتقوم بتعذيبهم. يبين فيشر أنه بعد ٩/١١ تم منع الحقوق التقليدية والضمانات الإجرائية عن الأفراد الذين بدوا وأنهم يتوافقون مع بعض التصنيفات: المسلمين، العرب، العرب الأمريكيين، شرق الأوسطيين، وغيرهم وغيرهم». تقول إلين كاسل فى دراسة لها بعنوان «الحرب على الحريات المدنية» إن «التاريخ سيذكر الأشهر التى أعقبت ٩/١١ مباشرة بصفتها أياما سوداء من حيث معاملة البلد للعرب الأمريكيين. والمواطنين المسلمين والأجانب. تم إصدار قوانين، ومهاجمة المسلمين والعرب واعتقالهم، وساد مناخ شبه هستيري». أيضا، توضح لويز كاينكر بأسلوب محدد كيف أن إدارة بوش بقيادة چون آشكروفت قامت خلال عام واحد بترحيل أكبر عدد من الأجانب فى تاريخ الولايات المتحدة، بمن فى هذا الذين رُحّلوا من خلال حملات بالمر فى عامى

١٩١٩ و١٩٢٠ إبان مناخ الذعر من الآناركيين الذى تم إبَّانه احتجاز بضعة آلاف من غير المواطنين وترحيل ٧٥٠ من بينهم إيما جولدمان دونما سند قانوني، فيما يبين لنا مايكل ولش كيف يمكن لهذه الانتهاكات أن تصبح جزءا من الإجراءات القانونية المعمول بها حيث تغدو صناعة كباش الفداء، وجرائم الكراهية جرائم ترتكبها الدولة من خلال مأسستها على شكل سلسلة من القوانين. يضيف ولش، وكما أوضحنا فى نقاشنا لثقافة التخدير، أن هذا يصبح ممكنا من خلال «ثقافة الإنكار» التى تسمح لقوانين التمييز، ولإجهاض الحريات المدنية أن تصبح ملامح ضرورية للحياة السياسية الأمريكية.

بزوغ دولة الأمن القومى:

يعتبر إنشاء وزارة الأمن الداخلى من أجل دمج المكاتب اللامركزية التابعة للدولة مثل مكتب الهجرة، والجمارك، وفرض القوانين الفدرالية، مع استحداث مناصب كثيرة مثل مدير الاستخبارات القومية، يعتبر شهادة على وجود دولة الأمن القومى فى الولايات المتحدة الآن. أثناء فترة رئاسة بوش، تم إصدار عدد من التشريعات تعيد تعريف الحريات المدنية وتعيد هندستها، ومعها الحقوق القانونية التى تكفلها الحكومة لغير المواطنين. تشمل تلك التشريعات قانون الأمن الداخلى لعام ٢٠٠٢، وقانون باتريوت «I» وقانون تعزيز الأمن الداخلى لعام ٢٠٠٢ (أو قانون باتريوت II) وقانون مراقبة الإرهابيين، وقانون المفوضية العسكرية لعام ٢٠٠٦، وقانون الإرهاب المُستنبت داخليا لعام ٢٠٠٧، وقانون حماية أمريكا وقانون تفويض الاستخبارات لعام ٢٠٠٨، وإنشاء محكمة الاستخبارات والرقابة على الأجانب. يقول فليب جيرالدى وهو يناقش قانون الإرهاب المستنبت داخليا إن «من السهل جدا إساءة استخدامه بحيث يمكن تحديد أى جماعة تمارس ضغوطا على النظام السياسى بأنها إرهابية، وتوجيهه بشكل رئيسى ضد المسلمين والتنظيمات الإسلامية؛ كما أنه من المحتم أن يكون بين المشتبه فيهم الأساتذة بمختلف الجامعات الناهضين للسياسات الأمريكية والتنظيمات الفلسطينية المعادية للاحتلال الإسرائيلى».

وللأسف، فقد ثبتت صحة رؤية فليب جيرالدي، حيث رأينا كيف تعقبت التنظيمات

الموالية لليمين وللصهاينة والمحافظين الجدد الطلبة والنشطاء الذين يشاركون في الحركات المؤيدة لحق الفلسطينيين في تقرير المصير.

تحاول تلك التنظيمات إشراك السلطات الفدرالية والمحلية في ترويع النشطاء الذين يجهرون بآرائهم، والتحكم في المناظرات حول الصراع الفلسطيني/ الإسرائيلي. وفرت التشريعات التي مُرِّرت منذ ٢٠٠١ إطارا قضائياً لهيئات فرض القوانين لتتعقب المسلمين الأمريكيين وتستهدفهم وتنصب الفخاخ لهم.

في واقع الأمر، تُضفي الإسلاموفوبيا الثقافية سمة عقلانية على نزع أهلية المسلمين للحقوق المدنية وحرمانهم منها، كما أن أثر وابل البروباجندا والتعليقات والصور المعادية للعرب والمسلمين شديد الوضوح: إن كان المسلمون عازمين على تدمير العالم الحر من خلال الإرهاب والغدر وتقويض الحريات المدنية إذن فهم غير مؤهلين، في ظل الحرب على الإرهاب لاكتساب تلك الحقوق ناهيك عن استحقاقها. بدا أوباما وأنه يوافق جوهريا على تلك الأطروحة إذ إنه قرر أن أنور العولقي، المواطن الأمريكي، يستحق الإعدام بدون مسوغات قانونية، أو الاغتيال المستهدف- تزعم الحكومة أن العولقي كان على صلة بنضال حسن المتخصص في علم النفس بقاعدة فورت هوود والذي قام بإطلاق النار هناك، وبفيصل شاهزاد صاحب تفجيرات تايمز سكوير الفاشلة، وفاروق عبدالمطلب الذي خبأ المتفجرات بملابسه الداخلية وفشلت محاولته. يرى الرئيس أن هذا الزعم كافٍ لتبرير إعدام مواطن أمريكي من مواليد نيومكسيكو دونما اتهام أو محاكمة. بعد شهر من هذا الإعلان، أعلن جو ليبرمان، في اتساق منه مع رأي أوباما، أنه يعد تشريعا ينزع المواطنة الأمريكية بمقتضى القانون عن الأمريكيين النين يحاربون في جيوش أجنبية، لكنه أوضح دونما لبس أن هذا لن يطبق على الأمريكيين الذين يخدمون في الجيش الإسرائيلي، بل فقط على الذين يخدمون في جيوش معادية لأمريكا. وهذا يبدو منطقا سليما فقط إذا وافقنا على أن المسلمين الأمريكيين هم طابور خامس يعملون على إثارة الفتنة، أشخاص موالون للبلاد الإسلامية، ناهيك عن أنهم يكنّون رغبة لإقامة «الولايات المتحدة الأمريكية الإسلامية» بحسب تصوير فصيل من معتنقي الإسلاموفوبيا الثقافية.

وفيما أن العرب المسلمين الأمريكيين كانوا قد خضعوا للتمييز العنصرى قبل ٢٠٠١، وتضمن هذا الإعدام دونما محاكمة فى الجنوب الأمريكي، والاحتجاز على أساس التزاوج من الأمريكيات/ الأمريكيين البيض، والتنميط فى أفلام هوليوود، فقد غطى ما حدث بعد ١١ سبتمبر على التعقيدات والصعوبات التى يواجهها السكان العرب والمسلمون فى علاقتهم بمجتمع التيار السائد وثقافته. تبين سونينا ميرا أن «إقصاء العرب والمسلمون الأمريكيين عن الانتماء الثقافى المعيارى هو أمر متعضون فى سياسات الدولة وفي المصنفات الاجتماعية السابقة على ٩/١١، لكنه تفاقم فى ظل قانون پاتريوت». بين الباحثون والأكاديميون أن تشريعات ما بعد ٩/١١ عملت بترادف مع حملة الإسلاموفوبيا الثقافية على إشعار العرب والمسلمين الأمريكيين بالاغتراب، وعلى تهميشهم، حتى أصبحوا مثل نظرائهم فى العالمين العربى والإسلامى يشعرون أنهم يعيشون فى ظل حصار ورقابة مستدامة. أدى ذلك إلى عكس نزوع العرب والمسلمين الأمريكيين لاستيعاب الثقافة الأمريكية والاندماج السريع فيها، وتسبب فى شعورهم بالعزلة.

لكن الأهم من الخطابات المؤججة، والشوفينية والترويع اللفظي، هو أن الحكومة الفدرالية، ناهيك عن هيئات فرض القانون فى جميع أنحاء البلاد، قد ظلت تقوم بمراقبة الجاليات المسلمة ورصدهم والتجسس عليهم منذ إدارة كلينتون، وهى ممارسات تفاقمت فى عهد بوش واستمرت فى عهد إدارة أوباما. ولقد رأينا كيف يتعقب الإف بى آى والأمن الداخلى مئات الآلاف من المسلمين وغير المسلمين وبخاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى بعض البلاد العربية، وإلى إيران وباكستان. والأكثر بشاعة هو أن للإف بى آى برنامجا مستداما للرقابة على المساجد بالولايات المتحدة واختراقها، كما يحاول أحيانا نصب الفخاخ لشباب المسلمين الأمريكيين وإشراكهم فى مخططات علاوة على تعقب عامة السكان المسلمين.

ظلت الرقابة والاختراق من الممارسات الشائعة لسلطات فرض القانون على مر العقود. فى مارس عام ٢٠١٠ تم توقيف ثمانية من الذين يدعون إلى تسيد المسيحيين البيض بمشيجان واتهموا بالتخطيط للإطاحة بحكومة الولايات المتحدة،

كانت التوقيفات قد تمت والاتهامات قد وجّهت لأن الإف بى آى اخترق صفوف تلك الميليشيا. لكن المثير للاهتمام هو عدم ذكر عضوية هؤلاء فى تنظيم مسيحى متطرف فى مذكرة التوقيف، كما لم يُبرز الإعلام تلك الحقيقة ويعتبر هذا نقيضا فاضحا لما يحدث حينما يتم توقيف المسلمين حيث يتم إبراز انتماءاتهم الدينية وتضخيم أثرها، وليس هذا بالأمر المستغرب حينما نعلم أن السلطات الفدرالية والمحلية تتلاعب بحساسية الجمهور المفرطة كوسيلة لإدانة المقبوض عليهم.

الحرب على أعمال البر:

منذ ٩/١١ والإف بى آى يحاول تجنيد المسلمين والعرب الأمريكيين للمساعدة فى «الحرب على الإرهاب» بالداخل الأمريكي، وبالفعل، فقد كان من الملاحظ تعاون العرب والمسلمين الأمريكيين، عن طيب خاطر، مع الحكومة للقيام بمهمات أمنية فى أوساط جالياتهم. وبدلا من أن يؤدى ذلك إلى إثبات ولاء مسلمى أمريكا، فقد تعرض الإف بى آى للهجوم لإشراكه بعض الجماعات الإسلامية مثل CAIR فى بعض المهام. وفى الوقت ذاته، ظلت السلطات الفدرالية تقوم بالتجسس على المساجد، والمنظمات الخيرية والجماعات المناصرة لمختلف القضايا والمراكز التعليمية من خلال المراقبة والتنصت والاختراق المباشر بواسطة مخبرين مأجورين.

كانت إحدى أكثر حملات الإف بى آى شهرة ونجاحا هى تلك التى شنتها ضد مؤسسة الأرض المقدسة، حيث تم اعتقال خمسة من أعضاء هذه المؤسسة التى تتخذ من دالاس مقرا لها، وإدانتهم والحكم عليهم بالسجن سنوات طويلة، بما فى هذا الحكم على اثنين منهم بالسجن مدى الحياة. شملت المحاكمة الأولى فى عام ٢٠٠٧ توجيه الاتهامات لعشرات من «المتآمرين المشاركين»، أى إلى عدد كبير من المنظمات الخيرية والتعليمية ومنظمات خدمة المجتمع الإسلامية والمساجد، وكانت CAIR أبرز تلك التنظيمات المتهمة رغم تعاونها مع الإف بى آى فى مناسبات عدة. انتهت المحاكمة بالفشل وذلك بسبب ما زعمته هيئة المحلفين من أن أحد أعضائها من دعاة الإسلاموفوبيا كان يضغط على بقية الأعضاء ويهددهم لاعتقادهم أن القضية

تقوم على أسس واهية. في ٢٠٠٨، قضت الحكومة بإعادة النظر في القضية بعد أن أسقطت اتهمات كثيرة في حق تنظيمات أخرى وعلى الرغم من أن الادعاء نفسه اعترف بأن أموال مؤسسة الأرض المقدسة كانت تستخدم في برامج إنسانية مثل تمويل المدارس والمستشفيات بالضفة الغربية وغزة فقد نجحت الحكومة في استصدار أحكام بالإدانة على أساس أنها كانت تمد حماس «بدعم مالي وموارد» وتقوم بعمليات غسيل أموال.

علاوة على ذلك، في عام ٢٠٠٤، سمحت محكمة أمريكية لأسرة المواطن الأمريكي دايفيد بويم الذي كان قد قتل بإطلاق النار عليه في الضفة الغربية، بمقاضاة مؤسسة الأرض المقدسة وحماس لطلب التعويض، هذا على الرغم من ثبوت أنه لا علاقة لأعضاء المؤسسة بالأنشطة الإرهابية، وحُكم للأسرة بتعويض قدره ١٥٦ مليون دولار. جاء هذا من نظام العدالة ذاته الذي أصدر أحكاما برد الطلب في نظر عدة قضايا ضد المسئولين والشركات والجيش الأمريكي لدورهم في الاعتقالات غير القانونية، وأعمال التعذيب، والاختطاف وتسليم أعداد كبيرة من المواطنين الأبرياء لحكومات عميلة كي تقوم بتعذيبهم أثناء حرب الحكومة على «الإرهاب».

وفي واقع الأمر، فقد حكم قضاة عدة من مستويات مختلفة، بما في هذا قضاة المحكمة العليا، برد طلبات نظر دعاوى جنائية ومدنية كان قد رفعها المحتجزون بجوانتنامو وأسرهم، وأسر ضحايا المذابح التي ارتكبها الجيش الأمريكي بالعراق وتنظيمات المرتزقة من أمثال شركة بلاكووتر، والأبرياء الذين سلمتهم السلطات الأمريكية لحكومات عميلة لتعذيبهم، وضحايا الاحتجاز والتعذيب في المواقع السوداء الأمريكية. يشمل هذا القضايا التي رفعتها أُسر ١٧ مدنيا بريئا قتلهم عملاء بلاكووتر في ميدان النسور ببغداد، و٢٤ رجلاً وامرأة وطفلاً قتلهم المارينز بالحديثة في العراق، والقضايا التي تم رفعها ضد مقاولين بسبب أعمال التعذيب في سجن أبوغريب، وضحايا الاختطاف والتعذيب من أمثال ماهر عرار وخالد المصري، وغيرها وغيرها. وفي واقع الأمر، فقد حكمت إحدى محاكم الاستئناف الفدرالية بأسلوب فوري

بحرمان جميع المحتجزين فى «الثقب الأسود» بقاعدة باجرام الجوية بأفغانستان من حقوقهم القانونية الدولية لاتخاذ إجراءات قانونية ضد الجيش الأمريكى والمسئولين والمقاولين الأمريكيين.

المثير للاهتمام إزاء قضية مؤسسة الأرض المقدسة هو أن الحكومة لم تقتصر على تجريم التبرعات الخيرية للمؤسسات والمنظمات الفلسطينية غير الحكومية، بل جرّمت أيضاً مؤسسات التبرعات الذى زعم أن حماس تديرها بدعوى أنها مؤسسات إجرامية، حيث قالت وزارة الخزانة إن «حماس تستخدم أموال مؤسسة الأرض المقدسة لدعم مدارس تخدم أهداف حماس من خلال تشجيع الأطفال على أن يصبحوا مفجرين انتحاريين، وتجنيد المفجرين الانتحاريين بتقديم المساعدات لأسرهم». غمر الادعاء المحلفين بوابل من صور «الإرهاب» فى إسرائيل فى محاولة منه لإيجاد صلة بين التبرعات الخيرية للمدارس والمستشفيات وبين المفجرين الانتحاريين. وبعد إدانتهم، تم نقل المتهمين إلى سجن جديد تراعى فيه أقصى درجات الإجراءات الأمنية يُسمى وحدة إدارة الاتصالات «UMC»، وكان الهدف من إقامة مثل تلك السجون عزل المعتقلين ومنعهم من الاتصال بأصدقائهم وأسرهم والعالم الخارجى بعامة، وهى إحدى إبداعات الحرب على الإرهاب أقامها بوش واستخدمها أوباما لإيواء المسلمين والسجناء السياسيين فيها بشكل رئيسي.

رسخت قضية مؤسسة الأرض المقدسة سابقة لوزارة العدل ومثلت أكثر من مجرد انتصار لاستغلال وقت الحكومة ومواردها ودعايتها حيث إنها اعتُبرت إشعارا قانونياً للتنظيمات الخيرية الإسلامية والمناصرة للفلسطينيين بأنها طرائد سهلة لسلطات الولايات المتحدة. نشر اتحاد الحريات المدنية الأمريكى ACLU تقريرا يوثق فيه محاولات المكاتب الأمريكية إغلاق المنظمات الخيرية الإسلامية ومحاكمة القائمين عليها، حيث إن الحكومة الفدرالية قد أغلقت ستة تنظيمات على الأقل، وأغارت على نصف دستة أخري، مشيرا إلى أن وزارة الخزانة تستهدف المسلمين لأنهم «أهداف سهلة رخوة» بحسب قول پول كريج روبرتس مساعد وزير الخزانة السابق. علاوة

على ذلك، يعترف مسئولو الخزانة بوضوح بجمع معلومات عن المسلمين ووسمهم واستهدافهم حيث صرح أحدهم، وفقا لما جاء بالتقرير سالف الذكر، بالقول «لا نذهب الآن إلى البارات الأيرلندية للبحث عمن يدعمون جيش التحرير الأيرلندى حيث إنه ثمة أسباب وجيهة للتركيز على الجاليات المسلمة لأن نسبة المسلمين الذين يقومون بأعمال إرهابية أكبر من نسبتهم فى الجاليات الأخرى. يعلم الجميع أن استهداف المسلمين ليس بدون أساس». وفى واقع الأمر فإن تعقب أموال المنظمات الإسلامية ظل وسيلة قوية الفاعلية شبه سرية لاستهداف المسلمين والمنظمات الإسلامية، وبخاصة من خلال «عملية جريت كوِست» التى تنفذها مصلحة الجمارك الأمريكية والتى تتقصى مصادر أموال المنظمات «الإرهابية» التى تدخل الولايات المتحدة، والتى غالبا ما يكون مصدرها البلاد العربية وباكستان.

تم إغلاق مؤسسة الحرمين الخيرية السعودية ووجهت إليها تهمة «التآمر للاحتيال على حكومة الولايات المتحدة» من خلال غسيل الأموال وإرسالها إلى الشيشان، وقام الاتهام على أساس التنصت على الهواتف دونما سند قانونى والذى أقره بوش. وفى النهاية قضى أحد القضاة الفدراليين برد دعوى الاتهام، وأصدر ڤون ووكر، أحد القضاة الفدراليين الآخرين حكما بأن الرقابة بالتنصت على الأحاديث الهاتفية أمر مخالف للقانون.

وعلى الرغم من ذلك، حُظِرت المؤسسة فى الولايات المتحدة، ووفقا لما جاء بتقارير اتحاد الحريات المدنية الأمريكية، فقد نجم عن إغلاق مكاتب الحرمين فى أنحاء العالم، إغلاق دور الأيتام بالصومال التى كانت ترعى ٣٠٠٠ طفل وفقدان ٧٠٠ وظيفة هناك. هنا، ينبغى أن نذكر أن إدارة أوباما تدافع عن استخدام «المميزات السرية للدولة» ضد «تمويل الإرهاب» والمشتبه بأنهم إرهابيون تماما مثل إدارة بوش.

أدى نجاح القضية ضد مؤسسة الأرض المقدسة إلى تعرض جميع الجمعيات الخيرية الإسلامية للارتياب وحملات التشهير. تتعرض منظمة CAIR، التى ظلت الأكثر نشاطا وشهرة فى تبنى حقوق المسلمين المدنية والدفاع عنها بأكثر من غيرها،

لحملات الهجوم المنظمة فى الإعلام من خلال مجموعات العمل السياسي، وهدفا للتشهير والقذف من قبل قناة فوكس الإخبارية ودانييل بايبس والمواقع الإلكترونية العدائية مثل جهاد ووتش، وقد أدى هذا الاهتمام السلبى المستدام إلى تشويه سمعة CAIR. مثلا، قامت باربرا بوكسر بسحب «شهادة إنجاز» شرفية كانت قد منحتها لمنظمة CAIR لمناصرتها الجالية المسلمة الأمريكية وتبنى قضاياها، حينما نبهها تشارلس شومر وريتشارد دربين، زميلاها بالحزب الديموقراطى لبعض تصريحات المجموعة وأفعالها فى الماضي، والتى أثارت قلقها، وكذلك تأكيدات مسئولى فرض القانون بأنها «تمنح معونات لتنظيمات إرهابية دولية». علاوة على ذلك، طالب عدد من النواب الحكومة بالقيام بالتحريات والتحقيقات فى أنشطة CAIR فى استجابة منهم لكتاب «المافيا الإسلامية: داخل العالم السرى الذى يتآمر لأسلمة أمريكا» من تأليف دايڤيد جاوبابتز وپول سپرى والذى يتضمن تشهيرا بالمنظمة حيث يقول المؤلفان إنها مجموعة متطرفة تآمرية تعمل واجهة لحماس وحزب الله والإخوان المسلمين والقاعدة وإنها قد اخترقت المراكز العليا فى السلطة، والإعلام، والكونجرس، بل والبيت الأبيض، وأنها تتألف من «إرهابيين يرتدون البذلات الأنيقة، ماهرين فى التلاعب بالسياسيين والإعلام من خلال الدعاية ذات الصياغة الماهرة» وخلاصة الأمر أنهم «كذابون متمكنون». يزعم الكاتبان أنهما حصلا على تلك المعلومات بتجنيد ابن أحدهما للعمل كمتدرب بالمنظمة حيث قام بسرقة بعض وثائق CAIR ثم قام المؤلفان بنشر مجموعة من الافتراءات والاتهامات التى لا أساس لها وأمثلة على الاقتتال الداخلي، والتنافسات والجدالات والخلافات فى الرأى والصراعات الداخلية.

نصب الفخاخ:

ظلت الرقابة واستخدام المخبرين أسلحة رئيسية فى ترسانة الإف بى آى للاستعمال ضد الجريمة المنظمة، كما تم استخدام الجواسيس على مدار التاريخ لإثارة الانشقاقات السياسية، وفى أوساط تنظيمات الحفاظ على البيئة والحقوق المدنية، والمجموعات المناهضة للحروب. اكتسب استخدام المخبرين والجواسيس

والعملاء المزدوجين فى برنامج COINTELPRO الذى وضعه هربرت هووفر وكان يعمل منهجياً على تحييد حركة السود وحركات التحرير الأخرى، اكتسب شهرة خاصة كأداة فاعلة لتحقيق هذا الهدف. كان الاختراق وسيلة رئيسية في حملة الاستخبارات المضادة لقلقلة الحركات التقدمية الراديكالية وتشويه سمعتها، سواء كان ذلك ببث الارتياب والخلافات بين أعضائها، أو بالمساعدة فى تنفيذ سلسلة من الاغتيالات، أو تلفيق التهم، أو الاحتجازات والضرب والترويع. قد لا يصل برنامج الاستخبارات المضادة الحكومى إلى مستوى الأبعاد المنذرة القاتمة لبرنامج COINTELPRO. لكن، وبأساليب عدة يجعل المدى الواسع الذى ينضوى تحت التشريعات التى صدرت بعد ٩/١١ مثل قانون باتريوت، وقانون الإرهاب المستنبت داخليا، وأيضا دمج هيئات الأمن الداخلى فى وزارة الأمن الداخلي، وبرنامج الرقابة واسع المدى الذى أنيطت مسئوليته بالرئيس ومجلس الأمن القومى NSA دونما تفويض أو سند قانوني، يجعل كل هذا برنامجا وحيدا مثل COINTELPRO غير ضروري.

أعلن الإف بى آى أنه قد أحبط عدة مخططات مزعومة لإرهابيين مستنبتين داخليا، والتى تم «اكتشافها» من خلال استخدام المخبرين والجواسيس وأعمال الرقابة والتنصت. بعد ٩/١١، قامت حملة مكافحة الإرهاب الداخلي، والإف بى آي، وNSA (مجلس الأمن القومي) وسلطات الولايات والسلطات المحلية بنصب الفخاخ للمسلمين الشباب فى الولايات المتحدة على أمل تحريضهم واستفزازهم. تهدف استراتيجية نصب الفخاخ إلى إجراء محاكمات يروج لها إعلاميا تشهد على نجاح نظام التشريعات الجديدة التى صدرت منذ ٢٠٠١ وأهميتها وضرورتها. نتيجة لذلك، تشعر الجاليات العربية والإسلامية بإجراءات وسمهم وجمع المعلومات عنهم والتجسس عليهم وعزلهم، وقاموا بالاحتجاج على استخدام «العملاء المحرضين» فى حملة الحكومة لمكافحة الإرهاب.

وعلى حين أن المخبرين السريين (CI) «قد أصبحوا ضرورة لنجاح كثير من تحريات الإف بى آى فى مجال الجريمة المنظمة، والفساد الحكومي، وتجارة المخدرات

ومكافحة الإرهاب، والمبادرات الأخرى» إلا أن جلسات الاستماع الداخلية للإف بى آى فى عام ٢٠٠٥ تذكر أن ٨٧٪ من حالات استخدام المخبرين تعتبر انتهاكا لبروتوكولات الجهاز وإجراءاته بأسلوب أو آخر. وعلى الرغم من أن الخطوط الإرشادية التي يتبعها المخبرون السريون غير محددة بدقة إلا أنها تحظر تحديدا دفع أموال لهم «مشروطة بإدانة أى شخص أو إنزال عقوبة به»، لكنها لا تحظر أن تكون الأموال التى تُدفع مشروطة بالاستخبارات التى يجمعها المخبرون بحيث تسوّغ اتخاذ الإجراءات القضائية ضد المتهمين. علاوة على ذلك يجتهد الإف بى آى «فى تقصى إنتاجية مخبريه السريين بواسطة تجميع إنجازاتهم الإحصائية، أى عدد الاتهامات والتوقيفات ومذكرات التفتيش، وتطبيقات قانون Title III والإسهامات الأخرى فى أهداف التحريات التى ينجزها المخبرون». وعلاوة على المكافآت المالية التى يتلقونها، يشهد تقرير صادر عن الكونجرس على أن المخبرين السريين فى قضايا الإرهاب مؤهلين أيضا للحصول على تسهيلات هجرة خاصة بحيث يحصلون هم وعائلاتهم على أوضاع هجرة قانونية.

أشهر نماذج المخبرين السريين شهرة وسوء سمعة والذى يبدو وأنه ينتهك الكثير من بنود العمل بالإف بى آي، حدث بكاليفورنيا حينما استخدم الإف بى آى عميلاً/ محرّضا ليقوم بدور أمريكى اعتنق الإسلام، بالمركز الإسلامى بإرفين. تثير هذه المحاولة الفاشلة التساؤلات حول نزاهة استراتيجية اختراق المخبرين للتجمعات بأن كشفت عن الوسائل الصبيانية الخرقاء التى تحدث بها هذه العمليات. علاوة على ذلك، فهى تنزع الصدقية والشرعية عن تصريحات الإف بى آى عن كيفية عمله عن كثب مع الجاليات العربية والمسلمة الأمريكية. أيضا، فقد ألقت التحريات فى تلك القضية الأضواء بقوة على عدم صدقية المخبرين ناهيك عن كفاءتهم. وتوضح القضية أيضا انتهاكات متعددة لسياسات الإف بى آى ذاتها.

فى عام ٢٠٠٦ اخترق كريج مونتيل، وهو محتال محترف ومخبر مشبوه كان قد سبقت إدانته فى عدة جنح وجرائم، اخترق مسجد إرفين، وصادق مرتاديه، وقام

بدراسة اللغة العربية وعرض عليهم أن يقوم بتدريبهم. في عام ٢٠٠٧. انزعج عدد من الأعضاء بالمسجد، من بينهم شخص يدعى أحمد نيازى من خطابات مونتيل الجهادية التى تعمل على تأجيج المشاعر. أبلغ المسجد فرع CAIR بجنوب كاليفورنيا مخاوفه، وقام الفرع بالاتصال بالإف بى آى وبشرطة إرفين. يبدو أن قسم شرطة إرفين قام بعمل تحريات أكثر من الإف بى آى وحصل المركز الإسلامى على أمر زجْرى يُحظَر بمقتضاه على مونتيل دخول المسجد. وحينما كُشِف أمر مونتيل كمحتال ومجرم، قام بنفسه باقتحام الوسائط الإعلامية ليروى قصته كمخبر لكن الإف بى آى رفض الاعتراف بأنه قد تم زرعه مخبرا إلى أن قام قاضى الدائرة الفدرالية بفض مظروف الاتهامات الموجهة إليه. وفى تلك الأثناء قام الإف بى آى بالاتصال بنيازى لإقناعه بأن يعمل مخبرا، وحينما رفض، تم اتهامه بسلسلة من انتهاكات قوانين الهجرة التى مازالت قيد النظر، لكن «تهمة الإرهاب» الوحيدة التى يمكن أن توجه إلى نيازى هى أنه لم يذكر فى طلب الهجرة أن شقيقته متزوجة بمواطن باكستانى صنفته الولايات المتحدة على أنه إرهابي. اتهم نيازي، بسبب ما يبدو من أنه ثار لعدم تغاضيه عن تحريض مونتيل ورفضه العمل كمخبر، بواقعتى حنث واحتيال وإساءة استخدام جواز سفر حصل عليه من خلال الاحتيال والإدلاء ببيانات كاذبة لهيئة فدرالية. وقد تؤدى تلك الاتهامات لدى ثبوتها إلى الحكم عليه بالسجن ٣٥ عاما. غدا هذا الاستخدام للقوانين التى صدرت بعد ٩/١١ أسلوبا شائعا تلجأ إليه الحكومة الفدرالية لاستدعاء غير المواطنين ممن لديهم وثائق قانونية، واستجوابهم، وترحيلهم بل وتحظر عليهم دخول البلد. تذكر ديبا فرناندز فى كتابها «المستهدفون: الأمن الداخلى وبيزنس الهجرة» أن الشرطة والإف بى آى استغلوا عدم معرفة الناس بحقوقهم «فى السنوات التالية لأحداث ٩/١١. كان خوف المهاجرين والمواطنين الأجانب وهشاشة أوضاعهم مبرَّرة وذلك لأن التفويض الذى منحه جون آشكروفت لسلطات الهجرة كان على درجة من عدم التحديد بحيث إنه لم يكن على تلك السلطات أن تثبت أية روابط بالإرهاب أو الجريمة، من أجل وقف العمل بقرار قاضى الهجرة».

تدهورت علاقات الإف بى آى بالجالية المسلمة الأمريكية على مر السنين ولم

يكن هذا بسبب عدم تعاون تنظيمات الحقوق المدنية المسلمة أو المنظمات التعليمية مثل CAIR وغيرها لأن تلك التنظيمات قد سعت بإيجابية ونشاط إلى مساعدة الإف بى آى ليس فقط فى ورش عمل «الحساسية الثقافية» التدريبية، بل أيضا فى مجال الاستخبارات والرقابة على المسلمين والعرب الأمريكيين داخل نطاق تنظيماتهم ومساجدهم ومجموعاتهم. لكن الإف بى آي، وقبل الكشف عن ورطة مونتيل، قام بقطع علاقته بتنظيم CAIR، ثم حددها واحدة من ثلاثمائة من المتآمرين فى قضية مؤسسة الأرض المقدسة.

تبين قضية المركز الإسلامى بوضوح كيفية اختراق الإف بى آى للتنظيمات الدينية والمناصرة السياسية والتعليمية الإسلامية من أجل استهداف المشتبه فيهم ويحدث هذا الاختراق على أساس افتراض وجود ممارسات غير قانونية بل وإجرامية ومحاولة تجميع الشواهد لإقامة «دعاوى استباقية». بيد أن الخط القانونى الذى يفصل بين تجميع الشواهد لإقامة «دعاوى استباقية» وبين نصب الفخاخ رفيع جدا. وعلى حين أن مونتيل فى قضية مسجد إرفين فشل فى تحريض أى عضو على ارتكاب أعمال إرهابية، إلا أن ثمة ثلاث قضايا شهيرة، على الأقل، نجح فيها المخبرون المأجورون على التحريض على أعمال إرهابية أو شجعوها أو وعدوا بتسهيلها.

تعتبر قضية إقليم أورانج مثالا على محاولات العملاء المحرضين المأجورين الإيقاع بأفراد من المسلمين الأمريكيين المحبطين الغاضبين المنعزلين من أجل التخطيط لارتكاب أعمال عنف، وهذه القضية واحدة من أمثلة عديدة نجحت فيها مخططات الحكومة. تظل مدينة نيويورك، المركز الرئيسى لهجمات ٩/١١، مفرطة اليقظة والنشاط فى «الحرب على الإرهاب» لكن سلطات شرطة نيويورك، والإف بى أي، وبدلا من أن تحقق نجاحات فى الكشف عن المهاجمين المحتملين، مثل شاهزاد مفجر تايمز سكوير، والذى كان على قائمة الممنوعين من السفر، فضلت إنفاق مواردها على إغواء المسلمين الساخطين المحرومين والإيقاع بهم.

لقيت قضية شاهوار ماتين سراج، ومحاكمته وإدانته اهتماما كبيرا من الإعلام

فيما بين عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٦، وتعتبر إحدى الأمثلة «الناجحة» لاستخدام سلطات شرطة نيويورك والإف بى آى للمخبرين السريين. تم اتهام سراج وإدانته بالتخطيط لتفجير محطة المترو في شارع ٣٤ بمانتهاتن. أقيمت دعوى الولاية بأسلوب شبه حصرى على أساس الاستخبارات والأحاديث المسجلة والتى جمعها المخبر أسامة الداوودي، وهو رجل فى العقد الخامس من العمر ومن مواليد مصر وكان الإف بى آى قد جنّده ليصادق سراج الذى كان فى الحادية والعشرين من العمر آنذاك. قام الداوودى باختراق مسجد باى ريدج الذى يقع فى أحد أحياء العرب الأمريكيين القديمة ببروكلين. تظاهر الداوودي، بصفته ممن يؤمون المسجد، بأنه متعصب متشدد، بُعث به، بحسب ما قال مدربه بشرطة نيويورك، لاستهداف الشاب سراج الذى يسهل التأثير عليه. كان سراج يشعر بالغضب من احتلال الولايات المتحدة للعراق وأفغانستان، واستغل الداوودى هذا الغضب ومضى يضرب على هذا الوتر و عرض عليه فكرة تفجير إحدى محطات المترو التى حدد موقعها، وموعد التفجير ووعده بإحضار المتفجرات. وفى واقع الأمر، فقد رفض سراج زرع القنبلة قائلاً إنه لا يستطيع المضى فى العملية حتى يستشير والدته. كسب الداوودى من عملية التحريض هذه أكثر من ١٠٠٠٠٠ دولار التى تدفع، وكما فى حالات معظم المخبرين، على أساس «قيمة» النشاط الاستخبارى القابل للتنفيذ. اتخذت العملية على أرض الواقع، مسار الإيقاع بشاب يسهل التأثير عليه وإغوائه واصطياده وتشجيعه، شاب ليس لديه شبكة دعم أخرى. وعلى الرغم من إدانة سراج والحكم عليه بالسجن ثلاثين عاما بتهمة التآمر على التفجير، إلا أنها لم تُرس سابقة حقيقية، لكنها تعتبر مثالا على طمس الخط الفاصل بين التحريض والقصد المتعمد.

وبالمثل، «كشف» الإف بى آى فى نيويورك، من خلال استخدام أحد المخبرين، عن مخططات للهجوم على المعابد اليهودية، شارك فيها (علاوة على العميل المحرّض) أربعة أفارقة أمريكيون – محتالون سابقون، بائسون، يعانى أحدهم من الشيزوفرانيا وفقا للتشخيص الإكلينيكى ويعانى آخر من إدمان المخدرات. كان أربعتهم قد اعتنقوا

الإسلام مؤخرا، ويكنّون غضبا عارما ضد مجتمع التيار السائد، وليس لديهم أى توجه محدد، أو معرفة تُذكر بالإسلام. وكما كان الحال فى قضية سراج، جمع كل القرائن تقريبا مُخبر لم يذكر اسمه، قام بتحريضهم، وتوجيه سخط المتهمين ومشاعرهم المعادية للسامية، وغضبهم من تدخل الولايات المتحدة العسكرى بالشرق الأوسط، توجيهها إلى جيش الولايات المتحدة والمعابد اليهودية بنيويورك. كان المخبر هو من اختار المستهدفين، ووعدهم بإمدادهم بالمتفجرات والذخائر وأعطاهم السلاح الوحيد الذى ضُبط لديهم وكان مسدسا صغيرا. سمحت قدرة المخبر على التردد بسهولة على أعضاء «الخلية» للحكومة بوضع أجهزة تجسس وكاميرات ڤيديو فى منزل المتهم الأول والتنصت على هاتفه، ومن ثم، فقد تم العثور على جميع أدلة الإدانة فى منزل المتهم.

من الواضح أن المتهم كان مفرط الحماس بدرجة أثارت ريبة الجالية الإسلامية المحلية، وبخاصة إمام المسجد الذى كان يؤمه المتهمون حيث لفت انتباهه حديث المخبر المتواتر عن الجهاد باستخدام العنف.

يكرر هذا النموذج نفسه دائما، لكن من المفارقات أن أكثر الأفراد عرضة للإيقاع بهم ليسوا هم العرب والمسلمين الأمريكيين الذين تربوا على الحيطة واليقظة إزاء رقابة الإف بى آي، بل من اعتنقوا الإسلام مؤخرا، والمهاجرين الذين يشعرون بالعزلة، والمسلمين من غير العرب والأسيويين (من إفريقيا والبلقان بخاصة) والذين يعانون من العزلة بأكثر من غيرهم. في نيوچيرسي، تم توقيف ستة متهمين ووجهت إليهم تهمة التخطيط للهجوم على قاعدة فورت ديكس وصدرت الأحكام بإدانتهم. كان المتهمون شبابا مهاجرين من الأردن والبلقان. بدا المتهمون مجموعة من الشباب العاديين، يمارسون الرياضة ويتحدثون فى السياسة ويتدربون على الرماية ويمارسون ألعاب الڤيديو العسكرية معا. وبخلاف ذلك، فقد كانوا من الألبان المتعصبين. وعلى الرغم من ذلك، فقد نسجت السلطات أنشطتهم البريئة فى رواية عن «التدريب على الإرهاب» حيث نجحت وزارة العدل والإف بى آى فى طمس الخطوط الفاصلة بين

ألعاب المحاكاة والمحاولات الشبابية لاستعراض الفحولة، وبين التدريب على عملية مليشياوية من منطلق أيديولوجي. يعمل هذا الأسلوب على طمس الخطوط الفاصلة تدريجيا وتحويل الأنشطة والأفعال البريئة، وإعادة توجيهها بحيث تصبح تهديدات فعلية للأمن. ومرة أخري، قامت قضية وزارة العدل على أساس شهادات مخبريْن سريين والاستخبارات التى قاما بجمعها (بما فى هذا أحاديث مسجلة على شريط). كان المخبران مجرمين مدانين، وكانا يواجهان تهما بانتهاك قوانين الهجرة، ويتوقعان ترحيلهما الوشيك. أدين أحدهما، أى محمود عمر بثلاث تهم احتيال على البنوك، وعلى الرغم من أنه تلقى ربع مليون دولار عن خدماته كمخبر إلا أنه اعترف بالتلاعب بأجهزة الاستماع كى يحمى أحد أصدقائه من بين المدعى عليهم. وهكذا، ومن خلال الاعتماد على التسجيلات السمعية كأدلة اتهام، نجح عمر والمخبر الآخر فى خلق قضية كسبوا من ورائها مبالغ مالية كبيرة وضمنا الحصول على إقامة بالولايات المتحدة.

كانت قضيتا نيويورك ونيوجيرسى تتعلقان برجال مسلمين يشعرون بالاغتراب والغضب من سياسة الولايات المتحدة الخارجية الاعتباطية وتدخلها العسكرى فى الشرق الأوسط. لكن الأكثر دلالة هو أن المخبرين فى القضايا سالفة الذكر لم يكتفوا فقط بتحريض المتهمين وتشجيعهم وتوجيههم، بل إنهم فى غالبية الحالات، كانوا الوسيلة الوحيدة التى من خلالها استطاع المتهمون الحصول على المواد القاتلة لتنفيذ العمليات الإرهابية. فى حالتى نيويورك وفورت ديكس، لم يكتف المخبرون بالتظاهر بالتماهى مع نوايا من يشتبه فيهم وأهدافهم كى يكتشفوا مزيدا من القرائن وفقا للإجراءات الرسمية التى يتبعها المخبرون السريون، بل الأحرى أنهم حددوا الأهداف وأثاروا دوافع المجموعة، ووعدوهم بالدعم اللوجستى، وبخاصة الأموال والأسلحة والمتفجرات، وتلك كلها كان لابد وأن تكون من شبه المستحيل على المتهمين الساخطين منخفضى الدخول الحصول عليها.

واضح هو الترابط بين التحريض ونصب الفخاخ والمخبرين. عادة ما يكون

المخبرون مجرمين يقومون بالتجسس من أجل تخفيف المدد المحكوم عليهم بها، وغالبا ما يكون هؤلاء، فى الحالات المتعلقة بالجاليات المسلمة، من غير المواطنين الذين يواجهون خطر الترحيل بسبب أنشطتهم الإجرامية. يتلقى المخبرون أجورا باهظة وتعتمد مصداقيتهم واستمرارهم فى العمل على النتائج التى يحققونها. وفى الحالات سالفة الذكر، وفرت النتائج تعزيزا كبيرا لفكرة أن الأمريكيين يتعرضون لأخطار داهمة، وتلطيف وقع السياسات والاستراتيجيات الداخلية غير المجدية المعادية للإرهاب والتى أتت بنتائج عكسية، وأدت إلى منع مشاهير المفكرين والاكاديميين من دخول الولايات المتحدة مثل المفكر طارق رمضان، والصحفى الفلسطينى محمد عمرو والحائز على عدة جوائز ومقاضاة المؤسسات الخيرية، وإنزال النساء والأطفال من على متن الطائرات، وإدراج أسماء أطفال فى الثامنة على قائمة الممنوعين من السفر بالطائرات، وإدراج أسماء عشرات الآلاف من المدنيين الأبرياء، على قوائم الإف بى أى لمراقبة الإرهابيين.

الاحتجاز فى الثقوب السوداء ظاهرة طبيعية جديدة:

يعمل نظام التشريعات والإسلاموفوبيا الثقافية بنجاح على ترسيخ مناخ من الخوف والتحكم، مناخ أضحت آثاره السياسية مستساغة. وفيما أن هذه القوانين تستخدم من أجل التحكم فى المعارضة السياسية وتوجيه الاتهامات إلى النشطاء من دعاة الحفاظ على البيئة ومناهضة الحروب، فإنها تبدو أنها تهيمن على مجالات المسلمين السياسية وحياتهم الاجتماعية اليومية، بما فى هذا الربط بين المساجد وأئمتها ومشاهدة بعض الفضائيات، وبين الأنشطة الإجرامية.

لم تُسمع احتجاجات تذكر حينما تم إطلاق النار على لقمان أمين عبدالله إمام مسجد محلى بدترويت وقتله أثناء إحدى غارات الشرطة. تقبلت الوسائط الإعلامية قصة شرطة دترويت والإف بى أى والتى مفادها أن الرصاص أطلق عليه لأنه أشهر سلاحا وقتل أحد كلاب الشرطة. بيد أنه، وبناء على مطالبات الفرع المحلى لمنظمة CAIR تم الكشف عن معلومات بعد عدة أشهر تقول إن أحد مخبرى الإف بى أى

كان قد أتى بعبد الله إلى أحد المستودعات بذريعة استعارة شاحنة الإمام الصغيرة، كما كشفت الصور وتشريح الجثة عن أن عبدالله تلقى ٢١ طلقة، اخترقت إحداها ظهره، فيما كان مُصفّد اليدين.

تؤكد أعمال قتل المشتبه فيهم من أمثال عبدالله والتى تتم دونما إجراء تحريات أو محاكمات الرأى القائل بأن إجراءات الشرطة هذه، واستهداف الإف بى آى للمسلمين أضحت ممارسات مُتقبلة. توفر ثقافة الإسلاموفوبيا مجالا متسعا للسلطات لإطلاق الاتهامات العشوائية بالإرهاب، ومن ثم، استدعاء استخدام القوانين، واللجوء إلى اليقظة وغيرها من المستلزمات التى أتت بها الحرب على الإرهاب. مثلا، ففيما أنه قد تم توجيه كثير من النقد إلى معتقل جوانتنامو، فقد أدى استدعاء وضع «المقاتلين الأعداء» وما تلاه من رفض تنفيذ الإجراءات القانونية المعتادة مثل مذكرات الاستدعاء، مع الاعتقالات لمدد مفتوحة، واستخدام المحاكم العسكرية، والاحتجاز بالثقوب السوداء [مثل ذلك الموجود فى قاعدة باجرام، أفغانستان] والتعذيب، وتسليم الأسرى المشتبه فيهم إلى حكومات تابعة لتعذيبهم، والمواقع السوداء التابعة للسى آى إيه وعدم تخلى الحكومة إلى الآن عن تلك الممارسات المروّعة، أدى كل هذا إلى وجود «معيار» جديد مُتقبَل للممارسات الحكومية.

وعلى حين أن الكونجرس كان قد أصدر تشريعات تجيز تلك الممارسات بناء على طلب بيت بوش الأبيض، فقد كان للإدارة الريادة فى ابتكار طرق جديدة لانتهاكات مواثيق حقوق الإنسان التى تتعلق بالأسرى والمعتقلين، علناً وأيضا من خلال برامجها السرية للاغتيالات والخطف والتعذيب والاعتقالات. بدأ ذيوع بعض الحالات يعمل ببطء على كبح جماح استخدام بوش غير المقيد لسلطاته الرئاسية، وقد تفحصت عدد من الدراسات الممتازة بأسلوب نقدى محاولات إدارة بوش المنهجية لإعادة تشكيل السلطات الرئاسية وتكبيل الحريات المدنية بالولايات المتحدة، ومن خلال الجيش والأجهزة الاستخبارية. وعلى حين أن أكثر قضايا «المقاتلين الأعداء» ذيوعا تبدو وأنها تطمئن الأمريكيين المسلمين وغير المسلمين إلى أن حرياتهم المدنية مازالت

سليمة، لكن علينا أن نلتزم الحذر فى الاحتفاء بنجاح النظام القانونى بالولايات المتحدة فى حماية حقوق المتهمين الأجانب، ناهيك عن حقوق المسلمين المتهمين فى الحرب على الإرهاب، إذ إنه، مثلا، مازالت هناك معركة قانونية طويلة يجب خوضها، فقط من أجل التأكد من تطبيق قوانين الولايات المتحدة على المعتقلين فى جوانتنامو. وعلى حين أن المحكمة العليا قامت بإبطال بعض قرارات محاكم أدنى قضت بإنكار حقوق المدعين التى تقضى بتطبيق قوانين الولايات المتحدة على معتقلى جوانتنامو البريطانيين والأستراليين، والذين كان لابد وأن يتم اعتقالهم فى بلادهم وتعذيبهم لولا هذا القرار. ثمة قرار آخر أصدرته المحكمة العليا فى قضية «حمدان ضد رمسفلد» والذى بمقتضاه يمكن اعتبار محاكم بوش العسكرية غير قانونية، لكن سرعان، وقبل أن يتمكن نشطاء الحقوق المدنية من الاحتفاء بالحكم، ما أصدر الكونجرس وإدارة بوش «قانون التفويض العسكري» لعام ٢٠٠٦، الذى بمقتضاه أقيمت محاكم عسكرية خاصة غير خاضعة للقوانين العادية، لمحاكمة «المقاتلين الأعداء» تحديدا.

وبالمثل، وجهت المحكمة العليا ضربة أخرى لاستخدام بوش الاحتجاز الوقائى الاحتياطى آلة للحرب على الإرهاب حينما حكمت فى قضيتين لصالح إعادة تفعيل حقوق إصدار مذكرات استدعاء قانونية فى حالة «المقاتلين الأعداء» المحتجزين بجوانتنامو». أيضا، قضت المحكمة فى قضيتى «بومدين ضد بوش» و«العودة ضد الولايات المتحدة» بحق المعتقلين من غير الأمريكيين إلى البحث عن العدالة برفع قضايا أمام محاكم الولايات المتحدة العادية وليس أمام المحاكم العسكرية الخاصة التى أقامها بوش بعد قضية «حمدان ضد رمسفلد». وعلى الرغم من ذلك، فقد تبع هذا الانتصار فى المعركة للحفاظ على حقوق المعتقلين القانونيين وغير القانونيين بجهود من قبل الحكومة الفدرالية، والسلطة التنفيذية والعسكرية والاستخبارات لإلغائها مرة أخرى، بعد عامين من آنذاك، لم تمد المحكمة العليا نطاق الحق فى إصدار مذكرة استدعاء والإجراءات الأخرى الملازمة لتشمل المعتقلين فى المواقع السوداء بقاعدة باجرام الجوية التى تستخدم أماكن ذات تحصينات أمنية مشددة لاحتجاز من يتم إلقاء القبض عليهم فى أى مكان بالعالم.

وعلى الرغم من أن إضفاء الكونجرس الصبغة القانونية على المحاكم العسكرية يعتبر إهانة لأية دولة ديموقراطية، إلا أن الأسوأ من هذا هو أن أول مدَّعى عليه يمثل أمام محكمة كهذه كان عمر خضر الذى كان فى الخامسة عشرة من العمر لدى إلقاء القبض عليه فى أفغانستان واحتجازه بجوانتنامو. قامت الحكومة بإخفاء هذه الحقيقة وأيضا حقيقة أنه كان مواطنا كنديا عن أعين الجمهور. كشفت شهادات قبل المحاكمة فى عصر أوباما أن خضر تعرض للتهديد بالاغتصاب وخضع لأساليب إثارة الخوف وكان من بينها وضع رأسه فى غمامة سوداء وربطها حول رقبته مما سبب صعوبة فى التنفس، وكانت تلك أساليب تتبع منهجيا مع الموقوفين. ونتيجة لفضح تلك المعلومات، تم طرد أربعة صحفيين من جوانتناموا ومنعهم من تغطية المحاكمة.

وعلى حين أن الصحافة قامت بتغطية عمليات التعذيب، وتمت مناقشاتها بالكونجرس إلا أنه لم توجه أية اتهامات ضد من أصدروا الأوامر بممارستها أو من نفذوها. وفى واقع الأمر، فإننا نجد أنه فيما يمضى اليمين الأمريكى بقيادة ديك تشينى وآلان درشوويتز أستاذ القانون بهارفارد، فى الدفاع عن التعذيب كوسيلة مشروعة لانتزاع المعلومات، تستمر هوليوود فى إنتاج الأفلام التى تبرره بوصفه ضرورة مؤسفة لابد منها، بل وتمجده، كما نشهد جدلا مستداما حول استخدامه فى إعلام التيار السائد وكأنما التعذيب قضية ذات جوانب متعددة وليس انتهاكا لا ريب فيه لحق إنسان غير قابل للتفاوض أو الجدل، ويعترف به عالميا بصفته جريمة وفقا للقانون الدولي. وفيما كانت قضية التعذيب تثار علنا، كان ثمة من يخضعون له بالولايات المتحدة، ومن أبرزهم على صالح خلاّل المرعي، وهو طالب قطرى كان يعيش مع عائلته بإلينوى حينما ألقى القبض عليه بعد ٩/١١، واُتهم بأنه عميل لخلية هاجعة وصلت إلى الولايات المتحدة قبيل ٩/١١ بانتظار الموجة الثانية من الهجمات على الولايات المتحدة. احتجز المرعى فى «الحبس الاحتياطي» فى سجن بسفينة فى قاعدة بحرية بتشارلستون، حيث تعرض للعزل، وتشويش حواسه وتعطيلها وأنواع التعذيب المختلفة دونما توجيه اتهام إليه. أصر المرعى على براءته وطالب بمحاكمة

جزائية وفقا لدستور الولايات المتحدة. وفى النهاية، و بعد ثمانى سنوات من الحجز الاحتياطى بجنوب كارولاينا، وجهت إليه إدارة أوباما تهما جنائية، وبعد توجيه الاتهام إليه ونقله خارج القاعدة البحرية اعترف المرعى بأحد الدفوع ضده من أجل تقليل سنوات الحكم عليه.

استُخدم ذلك السجن البحرى بشارلستون لإيواء ثلاثة مشاهير من «المقاتلين الأعداء»: المرعى، ياسر عصام حمدى وجوزيه باديللا مفجر «القنابل القذرة» الشهير وفقا لرمسفد. باديللا وحمدى مواطنان أمريكيان حرمتهما إدارة بوش من حقوقهما الدستورية، وأخضع باديلا للتعذيب فى السجن إضافة إلى حقنه بعقاقير هلوسة، مما أدى إلى آثار حادة على صحته الذهنية. وبعد ثلاث سنوات من الاحتجاز دونما توجيه تهم إليه، قدمته إدارة بوش إلى المحاكمة وأدانته بتهم تآمر لم تشمل «القنابل القذرة». بيد أن باديللا رفع قضية على چون يوو المدعى الأمريكى سيئ السمعة بسبب احتجازه بأسلوب مناف للدستور وإخضاعه لانتهاكات جسدية ونفسية جسيمة.

أيضا، أُنكر على ياسر حمدي، المواطن الأمريكي، حقه فى استصدار مذكرة لاستدعائه حيث تم أسره فى أفغانستان، ثم نُقل إلى جوانتنامو وانتهى به المطاف فى تشارلستون، حيث صُنف على أنه من الأعداء المقاتلين على الرغم من أنه مواطن أمريكى وحكم عليه بالسجن لأجل غير مسمي. كان «التحالف الشمالي» قد أسر حمدى بقندوز، أفغانستان، وسرعان ما وجد نفسه وسط تمرد المساجين العرب الأفغان الشهير بمزار الشريف الذى نجم عنه موت عميل للسى آى إيه واكتشاف چون ووكر ليند عضو طالبان الأمريكي. كان القرار الذى اتخذته المحكمة العليا فى قضية «حمدى ضد رمسفلد» مثْلماً حيث قضت بأن حكومة الولايات المتحدة لا تملك سلطة احتجاز المواطنين الأمريكيين لأجل غير مسمى دونما اتخاذ الإجراءات المرعية محددة المدة.

ومثلما تعمل الميكانيزمات والإجراءات التى تطبقها الولايات المتحدة فى سياستها الخارجية بالشرق الأوسط على تسهيل تفعيل السياسات النيوليبرالية بالخارج، فإن

الميكانيزمات التى تفعلها على الأرض بالداخل الأمريكى تسهل تحكم الدولة والإدارة السياسية على الأوضاع بالداخل، وتعتبر الإسلاموفوبيا الثقافية والتشريعات اثنتين من تلك الميكانيزمات، والمحنة التى يواجهها المدّعى عليهم من المسلمين والعرب غير الأمريكيين ما هى إلا نسخة أكثر قسوة من محنة العرب والمسلمين بأمريكا، الذين يواجهون انتهاكا لحقوقهم المدنية، بل ولحقوقهم الإنسانية فى بعض الحالات. وعلى حين يهدف المناخ السائد الآن والتشريعات التى تصدر إلى التحكم فى العرب والمسلمين بأمريكا ورصد حركاتهم وأنشطتهم، فإن النظام القانونى والمنطق القائل بحرمان الآخرين (الأقليات بخاصة) من حقوقهم كى يتمتع غيرهم بالحرية يشكل أساسا لموجة جديدة من التشريعات والمشاعر المعادية للهجرة بالولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن تجميع المعلومات عن الأمريكيين اللاتينيين ووسمهم ومضايقتهم وحرمانهم من حقوقهم المدنية واكبته جدالات واحتجاجات فلا يبدو وأن ثمة الكثير من المعارضة أو الحديث المضاد فى أوساط الجمهور الأمريكي، بما فى هذا الديموقراطيون والليبراليون حول حرمان المسلمين والعرب من حرياتهم المدنية. وعلى الرغم من ذلك فإن التشريعات العنصرية ضد اللاتينيين الأمريكيين، والذين يعيشون أوضاعا اقتصادية واجتماعية أكثر هشاشة بأمريكا الشمالية هى نتاج سياق تاريخى عنصرى بالولايات المتحدة استمر منذ «مبدأ مونرو» الذى أدى إلى الحرب المكسيكية الأمريكية والحرب الأمريكية الإسبانية، وانطلاق الولايات المتحدة قوة استعمارية. وبالتقابل، فإن الشكل الخبيث من الإسلاموفوبيا هو نتاج عصر العولمة، حيث إنه لا ينم فقط عن رغبة الولايات المتحدة فى التحكم بموارد النفط فى أنحاء العالم، بل أيضا عن الإسلاموفوبيا الثقافية واستعداد الجمهور الأمريكى لتنميط المسلمين العرب واستهدافهم وانتهاك حقوقهم وآدميتهم. انبثقت الثقافة الأمريكية من ثقافة المستوطنين وتطورت لتصبح ثقافة إمبريالية حيث يشعر الأمريكيون البيض أن العرب والمسلمين يمثلون آخر المعاقل الثقافية المقاومة لهيمنة الولايات المتحدة الكوكبية والتى تُسوّق على أنها تأتى بالحداثة والديموقراطية والازدهار الرأسمالي.

إن الادعاءات التى وجّهت ضد «الإرهابيين» المشتبه فيهم من المواطنين وغير

المواطنين ومحاكماتهم هى المثال الأكثر وضوحا على تآكل حريات المسلمين المدنية. فإلى جانب الأمثلة التى سبق ذكرها عن نصب الفخاخ والرقابة والمحاكمات، فقد عملت وزارة العدل، ووزارة الأمن الداخلى معاً وبكفاءة عالية على هندسة سحب الحقوق الدستورية والمدنية من المسلمين المدّعى عليهم وذلك بالدفع بعدم جواز تطبيق الحقوق الدستورية على كبار المتهمين بالإرهاب، وتستند مثل تلك الأطروحات على المنطق الذى يذهب إلى أن «الإرهابيين»، أى المسلمين، يرفضون قيم الأمم المتحضرة وبالتالى يفقدون أهلية التمتع بالحقوق التى تمنحها تلك الأمم. وما علينا إلا النظر إلى كتابات مستشارى بوش ودائرة مثقفيه المقربين لنرى كيف يروجون للنظرية القائلة بأن المسلمين والبلاد الإسلامية ليسوا فقط معادين جوهريا للقيم الغربية بل إن عداءهم هذا كلّى ولا أمل فى التخلص منه أو تعديله.

مؤخرا، تم التأكيد على عدم جدارة المسلمين والعرب الأمريكيين باستحقاق امتيازات الحقوق المدنية أثناء نظر بعض القضايا الشهيرة. فى عام ٢٠٠٥، أدين العربى الأمريكى أحمد عمر أبوعلى بارتكاب أعمال إرهابية كان من بينها التآمر لاغتيال الرئيس بوش، وكان قد ألقى القبض عليه أثناء دراسته بالمدينة المنورة واحتجزته سلطات الأمن الداخلى السعودية لمدة عشرين شهرا بدون الادعاء عليه بأى تهم. كان الإف بى آى على علم باعتقال أبوعلى بالسعودية وتعذيبه، وقام ممثلون عنه باستجوابه أثناء اعتقاله فى عدد من السجون السعودية. وبعد عدة أشهر من إخضاعه للتعذيب، اعترف أبوعلى بارتباطه بالقاعدة، وفى النهاية، تم تسليمه إلى الولايات المتحدة، وفى فيرجينيا تم توجيه تهمة التآمر إليه، وأيضا تهمة إمداد القاعدة بالمساعدات المالية، ومرافقة عملاء للقاعدة وتلقى أسلحة وتدريبات لوجستية من القاعدة. استندت أدلة الدولة إلى اعترافات أبوعلى التى انتزعت أثناء إخضاعه للتعذيب على أيدى رجال المباحث العامة السعودية سيئى السمعة فيما كان معتقلا بالرياض. وإلى جانب هذا الاعتراف، قدّم المدعى بعض القرائن الظرفية الواهية، مثل وثيقة من ست صفحات عن كيفية تحاشى الرقابة الحكومية، وأخرى من صفحتين

تمتدح الملا عمر قائد طالبان، وكتاب لأيمن الظواهري، وتسجيلات صوتية معادية للسامية ولأمريكا، واشتراك في مجلة «البنادق Handguns».

أكد أبوعلي أن اعترافاته انتُزعت تحت التعذيب أثناء اعتقاله قائلا إنه قد تعرض للضرب والحرمان من النوم والتموضع في أوضاع جسدية مرهقة. أيضا، جاء بشهادته أن الإف بي آي قاموا بزيارته عدة مرات بالمعتقل وأن لديهم علما تاما بالتعذيب الذي تعرض له وصادقوا عليه. رفض القاضي جرالد برووس لي السماح لمحامي الدفاع بأي نقاش للتعذيب الذي يمارسه السعوديون بمعتقلاتهم أو تقديم أدلة عليه، وفي نفس الوقت سمح بالاستماع لشهادة حارس عسكري بأحد السجون التي اعتقل فيها أبوعلي أقسم على أن التعذيب محظور في السجون السعودية. علاوة على ذلك، فقد رفض القاضي الشهادة التي أدلى بها أحد الأطباء والإخصائيين النفسيين والتي مفادها أن أبعاد الندبات الموجودة على ظهر المدّعى عليه وانتظام شكلها تؤكد أنها نتيجة للجلد بالكرابيج، وعلى النقيض من هذا، تقبل القاضي تقرير ممرضتين بمركز للاحتجاز وطبيب أمراض جلدية، والذين لم يقوموا بإجراء أي فحص جسدي لأبي علي، بل فحصوا صورا لظهره وقرروا أن الندبات هي مجرد تغيير طبيعي في لون خضاب خلايا جسده. أدين أبوعلي من خلال عدد من انتهاكات حقوقه المدنية، الأمر الذي يناقشه الباحث القانوني وديع سعيد بالتفصيل في مقال له بدورية إنديانا للقانون.

تم طمس حقيقة ما إن كان أبوعلي مذنباً بالتآمر على اغتيال بوش أم لا من خلال الانتهاكات الجلية لحرياته المدنية، وبخاصة حقوقه التي تكفلها له التعديلات الدستورية الرابعة والخامسة والسادسة، مثل عدم تحديد الادعاءات الموجهة إليه، وإجراءات التفتيش والضبط غير القانونية من قبل السعوديين الذين كانوا يعملون لحساب الإف بي آي، والأنكى من هذا كله، انتزاع اعترافات تجرمه تحت وطأة القمع والتعذيب. وكما صرّح الجوهري عبدالملك، إمام مسجد دار الهجرة وأحد القيادات المحلية والناشط السابق في حركة حقوق السود، فإن قضية أبوعلي هي «قضية حقوق

مدنية» بأكثر مما هى قضية جنائية، كما أصدرت منظمة العفو الدولية بيانا تعبر فيه عن قلقها إزاء الإجراءات التى اتُخِذت.

وليست هذه بالوقائع النادرة حيث تجرى الآن، وعلى سبيل المثال لا الحصر، محاكمة سيد فهد هاشمى بتهمة «التآمر لتزويد تنظيم إرهابى أجنبى بالدعم المادى أو الموارد»، لم يُدّعى على هاشمي، وهو مواطن أمريكي، بالاشتراك بأية جريمة أو فعل «إرهابي» على وجه التحديد، كما لم يتهم بأنه عضو بالقاعدة. الأحرى أن الادعاءات هى نتيجة تهم وجهها إليه جنيد بابار، أحد أصدقائه السابقين، والذى كان قد أدين بارتكاب جرائم إرهابية ثم تعاون مع المسئولين من أجل تخفيف الحكم الذى صدر ضده بالسجن سبعين عاما. كان بابار، فى عام ٢٠٠٤، قد أقام أسبوعين بلندن مع هاشمى الذى كان يدرس للحصول على درجة الماجستير وأودع عنده معاطف للمطر وجوارب ووتربرووف واستخدم موبايل هاشمى لمهاتفة شركائه فى المؤامرة. وبعد عامين من تلك الزيارة، ألقى القبض على هاشمى بمطار هيثرو بناء على طلب الإف بى آي، وهو فى طريقه إلى باكستان بلد مولده، وتم تسليمه بعد ١١ شهرا إلى سلطات نيويورك حيث استدعى إلى المحكمة للإجابة عن الاتهامات الموجهة إليه. ومنذ عودته إلى الولايات المتحدة ظل محتجزا فى سجن انفرادى تحت إجراءات مشددة وخضع لـ «الإجراءات الإدارية الخاصة SAMs» التى تفرض القيود على الحقوق المدنية الأساسية للمشتبه فيهم والتى كان جون آشكروفت قد طبقها وجعلها ألبرتو جونزاليس إجراءات دائمة. والجدير بالذكر أن جانيت رينو كانت لها الريادة فى استخدام SAMs وتطبيقها على الشيخ عمر عبدالرحمن أثناء احتجازه. تقيد بنود هذه الإجراءات حصول المدعى عليه على الاستشارات القانونية والعائلية، وتبقيه فى حبس انفرادي، وتحظر عليه الاشتراك فى صلاة الجماعة أو الحديث إلى غيره من النزلاء أو الحراس، تم تعيين محاميه بموجب موافقة أمنية مقبولة من الولاية، ولا تتاح المعلومات سوى للمحامى وفقا لقوانين السرية.

تلقى قضية هاشمى الضوء على الأسلوب الذى به تتواطأ عدد من الجهات

الحكومية، ناهيك عن تآمرها، لحرمان المسلمين الأمريكيين من حقوقهم وتشويه صورتهم بصفتهم طابورا خامسا. مثلا، استجاب القاضي لطلب المدعى بمنع الجمهور من حضور المحاكمة بذريعة أنه «من المحتمل للمحلفين أن يروا أعدادا كبيرة من مؤيدي المدعى عليه في مقاعد الجمهور مما يؤدي بطبيعة الحال إلى أن يفترض المحلفون أن بعض الحضور على الأقل يشاركون المدعى عليه في توجهاته الإسلامية الراديكالية العنيفة». وبقولهما هذا، فإن الادعاء والقاضي قد عملا تحديدا على زيادة حساسية المحلفين ومشاعرهم من الإرهاب الإسلامي، مما يعمل على تحيز المحلفين من خلال التلاعب بالمخاوف المتقبلة غير المحددة الناجمة عن الإسلاموفوبيا الثقافية وبعثا إليهم برسالة مغزاها افتراض الجُرم إلى أن يتم إثبات البراءة.

الخلاصة:

في أغسطس ٢٠٠٧، كان يوسف مجاهد وأحمد عبدالشريف محمد الطالبان بجامعة جنوب كاليفورنيا في طريقهما لقضاء إجازة بكارولاينا الشمالية. أُمر محمد بالوقوف على الطريق السريع ١٧٦ بسبب تجاوزه السرعة على بعد أميال من السجن البحري المدمج بجنوب كارولاينا، وهو ذات السجن الحربي المحتجز به باديلا والمرعي وحمدي. تم تسجيل صوتي للضابط الذي أوقف الطالبين به تعليقات عنصرية حيث قال إن محمد ومجاهد يشبهان رجال طالبان ويحتمل لهما أن يكونا مفجرين انتحاريين وأنهما «يبدوان إسلاميين». أمر الضابط المدعى عليهما بالخروج من السيارة ولدى تفتيشهما تم العثور على «متفجرات» و«قنابل أنبوبية». تم إغلاق الطريق السريع، ووُضعت السلطات المحلية والفدرالية في حالة تأهب عالية.

وعلى الرغم من توجيه الاتهام لمحمد ومجاهد بأنهما كان ينقلان موادا متفجرة، وموادا لصنع المتفجرات وبث معلومات عن استخدامها، إلا أن الطالبين في حقيقة الأمر، كانا يحملان ألعاباً نارية، وهذا أمر مشروع في كارولاينا الجنوبية. كان محمد، وهو طالب دراسات عليا بالهندسة، اعترف على نفسه بأنه صنع فيديو يوضح كيفية تحويل ريموت كنترول لعبة إلى آلية تفجير عن بُعد، وتلقى حكما مخففا بالسجن ١٥

عاما. وكما فى حالتى سامى العريان والمرعي، يلجأ كثير من المدّعى عليهم الأبرياء فى الغالب إلى الاعتراف بأنهم مذنبون بارتكاب جرائم أقل خطورة من المدعى عليهم بها كوسيلة لتجنب مشاق المعارك القضائية الطويلة ونفقاتها، والتى قد لا تُراعى فيها حقوقهم. دفع مجاهد بأنه غير مذنب فى الدعاوى الفدرالية التى وجهت إليه كما برأه المحلفون من دعاوى الإرهاب، لكن بعد ثلاثة أيام من تبرئته ألقت سلطات المهاجرين وفرض الجمارك (ICE) القبض عليه وادعت عليه بنفس التهم التى بُرِّئ منها، الأمر الذى كان من شأنه أن يؤدى إلى ترحيله، وكان لدى مجاهد إقامة قانونية منذ قدومه إلى الولايات المتحدة من مصر وهو فى الحادية عشرة من العمر، لولا أن الحكم صدر ببراءته من دعاوى ICEs أيضا.

لا يستطيع هذا الفصل أن يتضمن سوى نماذج قليلة من الإجراءات والأفعال العنصرية الشهيرة منها والعادية المعادية للعرب والمسلمين وأحاديث الكراهية الناجمة عن الإسلاموفوبيا الثقافية والتى تقع يوميا. وللأسف، فإن لدى الكثيرين الكثيرين، بل لدى غالبية العرب والمسلمين الأمريكيين قصصا يروونها عن التحيز والتعصب الأعمى والجهل، قصص مشاق ومحن ونقد ذاتى لا تخلو أحيانا من الفكاهة، تلازم مسيرة حياة المسلمين والعرب فى الولايات المتحدة، وتلك أمور يومية معتادة، بخلاف حالات مثل حالة مجاهد التى توضح مدى انتشار الإسلاموفوبيا فى الولايات المتحدة. فقد خضع مجاهد ومحمد للوسْم العنصرى كما أثبت التسجيل الصوتى للتعليقات العنصرية من قبل الضابط الذى ألقى القبض عليهما. أدى هذا الوسْم إلى تفتيشهما بأسلوب كان لابد وأن يُعتبر غير قانونى لو أنهما غير مسلمين أو عرب، تفتيش نجم عنه دعاوى ظرفية ظالمة ضد محمد. علاوة على ذلك، فقد سهلت الإسلاموفوبيا الثقافية إجراءات الوسم والتصنيف العنصرى والإيقاع بهما كمسلمين من جانب شرطة ولاية كارولاينا الجنوبية والإف بى آي، ثم أدت القوانين التمييزية إلى حرمان مجاهد من حقوقه الدستورية. ويبدو أن ICE شعرت أن مجاهداً، بوصفه مهاجرا مسلما، لا يتمتع بالحقوق التى كفلها التعديل الخامس والتى تحظر عدم محاكمة الشخص على ذات الجرم مرتين.

ليست الإسلاموفوبيا ظاهرة شاذة أو عرضية، كما أنها ليست رد فعل على رضوض الولايات المتحدة بعد ١١/٩ أو تعبيرا عن بارانوايا مبررة أو غير مبررة فى عصر «الحرب على الإرهاب». لقد حرصت على عدم جعل نظامى بوش وأوباما كباش فداء وإلصاق ظاهرة الإسلاموفوبيا بهما حصريا وذلك لأن هذا سيحرف النظر عن عمق هذه الظاهرة الحقيقى فى ثقافة الولايات المتحدة السياسية. الأحرى أن مصدر الظاهرة ليس حزبا بعينه، أو رئاسة بعينها، أو إحدى مجموعات الضغط أو أحد اللوبيهات، لأن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجى فى الثقافة الأمريكية ناجم عن وضع الولايات المتحدة كقوة هيمنة كوكبية. بتعبير الآخر، إن الإسلاموفوبيا مكون مستدام ومنهجى فى الثقافة الأمريكية تحول إلى تشكيل أيديولوجى فى عصر العولمة. تذهب أطروحة هذا الفصل إلى توسيع مدى النقاش والتفسيرات التى قدمناها فى الفصول السابقة لتشمل المستويات القاعدية للمسلمين والعرب فى أمريكا الشمالية وحياتهم اليومية.

ظل النشطاء، ورجال الدين والطلبة والمواطنون المسلمون يتعرضون للمضايقات والتحرشات وأحاديث الكراهية وأعمال العنف والتحقيقات وحملات تشويه السمعة والمحاكمات. كما ظلت المنظمات الخيرية والمؤسسات التعليمية والمجموعات الطلابية الإسلامية مستهدفة ومراقبة ومخترقة هذا إلى جانب شيطنتها ومحاولات الإيقاع بها وغوايتها. ليس من المهم إن كانت نسبة ضئيلة لا تذكر من السكان ترتكب أعمالا إرهابية، أو إن كانت نسبة كبيرة من المشتبه فيهم المدعى عليهم بارتكاب أعمال إرهابية مذنبين، حيث قد يقول الناقدون إن هذا الكتاب ما هو إلا محاولة لتبرئة من يشاركون فى أعمال إرهابية حقة ضد المدنيين الأبرياء سواء كانوا يعيشون فى أمريكا الشمالية أو أوربا أو الشرق الأوسط. وفى هذا، فإنهم يفضلون توجيه الاتهامات والقذف بدلا من محاولة فهم الدوافع السياسية والتاريخية خلف أعمال العنف اليائسة مثل تفجيرات ١١/٩، وتفجيرات المواصلات العامة بلندن ومدريد، أو تفجيرات المجمع السكنى بالرياض عام ٢٠٠٣ والتى أدت إلى وقوع عدد كبير من

القتلى غالبيتهم من العمال والعائلات العربية والأسيوية المغتربة وليس من الجنود الأمريكيين الذين كانوا مستهدفين، وأدت أيضا إلى اعتقالات جماعية بالسعودية وكان أحمد عمر أبوعلى أحد هؤلاء المعتقلين.

ليس بالإمكان مناقشة عوامل «الإرهاب» التاريخية أو دوافعه السياسية المحددة بالإعلام الأمريكى أو المؤسسات والمنتديات العامة بالولايات المتحدة بأسلوب ذى معني، حيث إن كلها عوامل يفضل الأمريكيون من مختلف الأطياف عدم تفحصها. تشمل تلك العوامل اقتلاع الشعب الفلسطيني الذين يخضعون لنظام مؤسس مستدام، وبمصادقة من الولايات المتحدة، من سوء المعاملة والظلم والإذلال والحرمان والتمييز العنصري. تشمل أيضا دعم الولايات المتحدة الاقتصادى والاستخباراتى والعسكرى والسياسى للأنظمة المستبدة والملكية فى البلدان العربية والإسلامية والقائمة على تحكم الأثرياء ونهب أموال البلاد من خلال فرض القوانين العسكرية والقوانين الجائرة، وحيث تتفشى المحسوبية والشللية والأوليجاركية وتسود النظم النيوليبرالية.أيضا، من بين هذه العوامل تدمير العراق من خلال فرض العقوبات أولا الذى أدى إلى وهَن اقتصاده ومجتمعه المدنى ثم اجتياحه فى عملية «تحرير» العراق من خلال «الصدمة والترويع» مما قضى على اقتصاده ومؤسساته العلمانية وتقاليده ليحل محلها السلطوية والشللية والطائفية والنيوليبرالية.

هدف هذا الفصل هو طرح أمثلة متنوعة حديثة توضح الإسلاموفوبيا الثقافية والمؤسسة فى الولايات المتحدة. لم تنجح الحكومة وهيئات فرض القوانين سوى فى اكتشاف حالات جد قليلة من المحاولات أو المخططات الإرهابية (والتى حظيت بتغطيات إعلامية واسعة) هذا على الرغم من ضخامة ميزانيتها الأمنية وادعائها الشائع بوجود تهديدات إرهابية كبيرة وخطيرة. وعلى حين أن تلك الجهات نجحت فى استصدار بعض الإدانات، إلا أن كثيراً من تلك الإدانات ضد «الإرهابيين المشتبه فيهم» تمت من خلال حرمان المدعى عليهم من حقوقهم المدنية قبل الادعاء عليهم ومحاكمتهم وأثناءها وبعدها. غدا هذا ممكناً لأنه تم تخدير مشاعر الجماهير ضد

حقيقة الانتهاك المنظم لحقوق المسلمين والعرب، أو حتى حرمانهم منها، لأن أصلهم كمسلمين يجعلهم غير مؤهلين للحقوق الأصيلة لكل إنسان «متحضر». وفي نفس الوقت، تحدث الانتهاكات لأن الجمهور الأمريكي غدا مفرط الحساسية لتهديدات متوهمة وشيكة من «الإرهابيين» الذين يتخيلونهم وهم يختبئون خلف كل شاحنة مؤجّرة، أو محطة بنزين، أو محل تجاري، أو مبنى جامعي أو مكتب سياسي!!

الفصل السادس

الإسلاموفوبيا فى عصر أوباما

تضمنت الفصول السابقة كافات روايات الإسلاموفوبيا وأوضحت كيف توظف في الولايات المتحدة لخدمة أهداف سياسية وأيديولوجية محددة، هذا مع حرصنا علي التمييز النقدي بين روايات «التيار السائد»، ونظيراتها اليمينية والصهيونية. يذهب هذا الكتاب إلي أن تحيزات التيار السائد المعادية للمسلمين وكراهية العرب المتأصلة والكامنة أتاحت لأشكال الإسلاموفوبيا المتطرفة أن تتجذر بسرعة وثبات في نظرة الأمريكيين إلي العالم بعد ٩/١١. تمكن النشطاء الموالون لإسرائيل ومعهم المتطرفون اليمينيون والإنجيليون من مفاقمة الخطاب السلبي عن الإسلام والمسلمين باستنادهم إلي كتابات برنارد لويس وأمثاله من اجل إضفاء المصداقية الأكاديمية من آرائهم العنصرية.

أعيد بث تلك الروايات التى تداخلت فى نسيج التيار السائد على جماهير الفضائيات من خلال مواضيع للجدل تُطرح على أنها حقائق زوّد الإعلام بها أتباع «فلاكنة» بوش. وكما رأينا، ظل المنظرون والسياسيون يكررون أن الحرب على الإرهاب، وعلى الإسلام القتالي، وعلى «الأسلمة» هى إلزام أخلاقى يناظر إلزام الحرب العالمية الثانية. استخدم البيت الأبيض، والصحفيون، والمتطرفون وأفّاقو الوسائط الإعلامية قضايا النساء والمثليين وحرية العقيدة والكلام والتعبير السياسى ذرائع لتدخل الولايات المتحدة فى العالم العربى والإسلامى بزعم مناصرة شعوبه المقموعة.

تُبثّ آراء الإنجيليين ومرتزقة المحافظين الجدد بالمدونات والإذاعة وتشكل جوهر خطابات التيار السائد المهيمنة عن الإسلام والعالم العربي، ثم توظف تلك الهذيانات والمناسبات التى يقيمها دعاة الإسلاموفوبيا آليات أيديولوجية فاعلة، حيث تعمل فى البداية على إقناعاً أكبر عدد من الأمريكيين بأن الإسلام دين عنف لا عقلانى وأن المسلمين يعادون كل ما هو خيّر وعادل فى العصر الحديث. وكما رأينا فى حالة



جرائم الكراهية. يشارك هؤلاء المنظرون والصحفيون والنشطاء والانتهازيون فى ترويج أشكال من أحاديث الكراهية يبثونها وتعمل على إضعاف حساسية الجمهور الأمريكى ضد اللغة والمفاهيم والصور التى لابد وأن تُدان بصفتها عنصرية فجة لو أنها استُخدمت فى سياقات أخري. بيد أن الروايات المتطرفة تعمل أيضا على فتح مساحة لـ «التنازلات» فى استخدام اللغة العنصرية، وكما يبين محمود ممداني، فقد اعترف شخص مثل برنارد لويس بأن «الأصولية ليست تقليدا إسلامياً بشكل حصري». يمكن للجماهير «المعتدلة» التغاضى عن أكثر تمثيلات الإسلاموفوبيا بشاعة وفجاجة إذا تم تقديمها فى سياق التمييز بين «المسلمين الأخيار» و«المسلمين الأشرار». وفى هذا الصدد، أمدت التعليقات المستفزة من قبل المخبرات/ المخبرين المحليين، والإنجيليين والصهاينة واليمينيين، بوش وتشيني ورايس بمساحة لاتخاذ موقف معتدل وأكثر «عقلانية» إزاء «أصدقائنا المسلمين» بحسب قولهم.

تمثلت عبقرية الاستراتيجية الخطابية لبيت بوش الأبيض فى أن مجمل «الخبراء» والأكاديميين المرتزقة والصحفيين والخبرات/ المخبرين المحليين عملوا على استقطاب الجدل مما أتاح للرئيس بوش أن يتدخل بوصفه صوتاً معتدلا يعمل على توحيد أصوات الشعب فى بيئة تتكون من المتطرفين والأكثر تطرفا، وكان ما زعم عن الدوافع الأخلاقية للحرب على الإرهاب وتدخل الولايات المتحدة العسكرى يهدف إلى إزاغة النظر عن مقاصدها الحقيقية. اعترف آلان جرينسبان بأن حاجة الولايات المتحدة إلى النفط وعزمها على التحكم فى إنتاجه الكوكبى مرتبط بأسلوب لا فكاك منه بأوضاع الشرق الأوسط عالية المخاطر، وأن مجرد احتمال حدوث أية أزمة نفطية بإمكانه أن يلحق دمارا بالغاً بالاقتصاد العالمي. من ثم، عبر جرينسبان عن أسفه من أن عليه أن يعترف بما يعرفه الجميع: أن سبب الحرب على العراق هو النفط إلى حد كبير.

لكن لا يُعزى نشاط الإسلاموفوبيا الثقافية الأمريكية فى الوقت الراهن إلى إدمان الولايات المتحدة للنفط واعتمادها عليه فقط، هذا على الرغم من أنه فى أعقاب الحظر الذى فرضته أوبك عام ١٩٧٣ هيمنت تنميطات العرب على شاشات التلفزة وانتشرت فى أفلام هوليوود. الأحرى أن الإسلاموفوبيا الثقافية تجسدت بالتزامن مع الظهور التدريجى للعالم أحادى القطب كى تحل محل الشيوعية ليس فقط كمصدر لإثارة مشاعر الخوف والكراهية لدى الأمريكيين، بل أيضا كتبرير لنشر سطوة الولايات المتحدة وقوتها. والآن، غدا بإمكان القوة العظمى الوحيدة تخطى الحدود والحواجز التى لم يكن من الممكن اختراقها من قبل فى وجود القوة السوفييتية الوازنة. لكن اختراق تلك المناطق والبلدان الجديدة ذات الغالبية المسلمة، كان يستوجب إعادة هيكلة اقتصاداتها القومية والمحلية واستمالة نخبها واستيعابها وإلا لكان على الولايات المتحدة مواجهة معاقل المقاومة تلك. يسرت الإسلاموفوبيا تبرير تلك المواجهة.

ليست العولمة مشروعا أمريكيا بشكل حصري، أو مشروعاً مركزه الدولة/ الدول. بيد أنه فقط كان لواشنطون الريادة فى تكريس إمكانيات الولايات المتحدة كاملة كى تدفع باتفاقيات تجارية ثنائية ومتعددة الأطراف عملت على تفعيل إعادة هيكلة بنيوية

كاملة. كان لجورج بوش الأب، ومع زواء الاتحاد السوفييتى الريادة فى توريط الأمم المتحدة واستخدام القانون الدولى ذريعة لاجتياح بنما والعراق، وبهذا أرسى سابقة حماية القانون الدولى للولايات المتحدة كقوة عسكرية غازية استباقية، ثم تبعه كلينتون كرائد للمشروع النيوليبرالى العالمي. تم استخدام الإسلاموفوبيا وتحويلها إلى ظاهرة أيديولوجية جماهيرية. من ثم، مكّن الارتياب فى كل مسلم وعربى بصفته «إرهابياً محتملاً» الولايات المتحدة من الدفع قدما بروايتها التى سوغت هيمنتها على منطقة رأها الجميع تهديدا محتملاً للنظام العالمى الجديد.

«معجم الحرب» لجورج بوش، و«قاموس مفردات» المتفقهين:

فى خطاباته الأولى بعد ٩/١١ أكد جورج بوش على أن السّمة الأخلاقية للإمبريالية توحد بين الولايات المتحدة وبين «المتحضرين» من أصدقائها المسلمين. بدا آنذاك غير مدرك بإطلاقه لما قد يفهم من مفرداته على أنه دليل على الإسلاموفوبيا المتأصلة، أو لرد الفعل المحتمل للمستمعين المسلمين». أسمى حرب أمريكا حربا صليبية فى تجاهل واضح منه لبغض المسلمين لتلك الأحداث التاريخية، وهدد، بلكنة الكاوبوى المميزة، بتدميرهم والقضاء عليهم. بيد أن «الرئيس الإمبريالي» طور تدريجيا رواية بسيطة ومستدامة لـ «أجندة الحرية» التى تبناها، ولـ «الحرب على الإرهاب» التى رافقتها. بدت هذه الرواية وأنها محاولة للتسامى على إدانة الجمهوريين والديموقراطيين معا للإسلام والمسلمين فى مجملهم.

من اللافت أن ذلك «التسامي» تعرض للنقد، من الليبراليين غالبا، الذين ذهبوا إلى أن بوش كان مفرط التسامح والحميمية مع العرب. استُهدِف بوش بخاصة لعلاقته بالأسرة المالكة السعودية. مثلا، مضى مايكل موور، وكان أحد أكثر الناقدين المفوهين لبوش، باتساق يهاجم بوش لعلاقته بالعرب، حيث وجّه إليه النقد، وهو يردد أصداء عقيدة اليمين بأن المسلمين ليسوا جديرين بالحقوق الدستورية الأساسية، لأن بوش «يحمى الحقوق المدنية للإرهابيين المحتملين» من خلال رفضه إجراء التحريات حول ما إن كان العرب والعرب الأمريكيون الذين احتجزوا فى أعقاب ٩/١١ قد قاموا

باقتناء أسلحة نارية. قد تبدو خطابات بوش وحتى موقفه من القيام بتلك التحريات (وبالتقابل مع موقف مايكل موور)، بأساليب عديدة، وأنها تموضعٌ ضد التحريات والوسم الذى ينادى به دعاة الإسلاموفوبيا، بل إن بوش قد قام بتوجيه اللوم إلى «عربوفوبيا» وإسلاموفوبيا الحزبين حينما منع السياسيون فى عام ٢٠٠٦ شركة مقرها دبى من الحصول على عقود إيجارية لإدارة ٢٢ ميناء بالولايات المتحدة. ومن المفارقات أن محاباة بوش لأصدقائه قد جعلت منه، بدون قصد، مدافعا عن النخب العربية الحليفة، تلك النخب التي، وفيما عدا تلك المواقف، كان هو قد قام وسياساته بتخطيها أو تجاهلها.

يماثل «دفاع» بوش هذا عن بعض العرب «تعاطف» برنارد لويس مع الشعوب العربية وقلق زكريا على الإصلاحيين العرب إذ إن علينا أن نفهم هذا الموقف بصفته رُمْحا خطابياً وأخلاقياً وسياسياً.. فعلى حين إن بوش ربما يكون قد قصد حماية نفسه من أن يبدو فى حديثه كارهاً للعرب أمام الأمريكيين الذين يقلقهم اتهامهم بالتمييز العنصري، فقد استخلص مجلس وزراء الحرب الذى شكله بوش ومرتزقة الصف الثانى من السياسيين من أعمال لويس وزكريا وغيرهما رواية تبرر العسكرة الأمريكية وتعقلن دعم واشنطون للأنظمة السلطوية بالشرق الأوسط. هدفت تلك الرواية إلى حماية البيت الأبيض وأيضا المستبدين والطغاة الذين يحكمون البلاد العربية والإسلامية من المعارضة الداخلية ومن جماهير شعوبهم البالغ عددهم أكثر من مليار شخص. أيضا، فقد ساعدت الولايات المتحدة على تنمية الصداقات وتوليدها مع مجموعات المعارضة فى بلدان إسلامية مثل لبنان وسوريا، مجموعات لم تكن من قبل «صديقة» للولايات المتحدة.

وكما يبين محمود ممدانى استمد خطاب بوش الخبرة والمهارات من فترة ريجان بتصنيفه المسلمين نوعين: «أخياراً» يدعمون الولايات المتحدة و«أشرارا» يعادونها. وحَد الرئيس، فى وجود مجلس وزرائه المؤلف من قدامى المقاتلين الريجانيين، ومن المقاتلين الريجانيين الجدد، الجمهور الأمريكى واسترضى ضمائرهم بتحميله المسئولية

للمتطرفين المسلمين وإعفائه المسلمين «الأخيار» من المسئولية. سعى بوش من خلال دفاعه عن العرب «الأخيار» إلى الربط بين سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وبين مصالح النخب الحاكمة في المنطقة، وبين «الشارع العربي» من خلال تركيز الانتباه على المعركة المشتركة لإنقاذ الإسلام كدين سلام. منذ أول خطاب له بعد ٩/١١، امتزج دفاع بوش عن «المسلمين الأخيار» بلغة معادية للعرب بوضوح نحتها له كُتّاب خطاباته من أعمال زكريا. وفى نفس الوقت، وجد الرئيس فى رواية لويس التاريخية والثقافية ذريعة لالتزام «أخلاقي» إمبريالى يحتم هزيمة الأشرار («من هم ضدنا») فى جميع أنحاء العالم، التزام ينبثق عن جوهر «القيم الأمريكية».

واكب «الحرب على الإرهاب» التى أطلقها بوش، والتى كان الالتزام الأخلاقى الذى قال به لويس وبرجماتية زكريا السياسية دعامتين لها، عقيدة حرية الولايات وديموقراطيتها التى هدفت إلى إظهار التناقض بين نسخة مثالية منقاة من المعتقدات الأمريكية وبين نسخة مُشَيْطنة من مقصد الإسلاميين بحيث عمل تواتر تكرارهما على إضفاء ما يشبه الصبغة اللاهوتية عليهما. مضى بوش يكرر القول بأن «الحرب على الإرهاب» هى حرب ضد الأشرار. حرب «ضد الشر» تكمن ضرورتها فى أن ثمة «عدوا جديدا يسعى إلى تدمير حرياتنا والقضاء عليها» . قال بوش إن «أمريكا» الآن فى حرب مع «أشخاص يكرهون ما تمثله أمريكا كراهية مطلقة» وإن «المتطرفين» لا يستطيعون فهم «الحرية» الأمريكية لأنها تناقض نظرتهم إلى العالم. وبأسلوب يقينى يجزم بوش قائلاً.. «إن هذه القيم هى التي تعرضت للهجوم فى ٢٠٠١/٩/١١ بواسطة عدو متوحش يزدرى الحرية».

وفى نفس الخطاب، يعيد بوش تكرار هاجس لويس إزاء حقد المسلمين على قوة الغرب العسكرية فيقول «نحن نساند هؤلاء الذين يتوقون للتحرر فى الشرق الأوسط لأننا نعرف أن الإرهابيين يخشون الحرية بأكثر مما يخشون قوة سلاحنا وسطوتنا العسكرية، وإننا، من خلال إتياننا بالحرية إلى تلك المجتمعات فإننا نزرع الأمل محل الكراهية».

وعلى الرغم من أن بوش يذكر باستمرار الحرية بصفتها «مبدأ أمريكا» إلا أنه يقول إنها قيمة يشترك فى اعتناقها العالم المتحضر بما فى ذلك العالم الإسلامي. كان هذا الخطاب هو رأس الحربة فى خطاباته لقوات الولايات المتحدة وقوات الحلفاء أثناء أولى جولاته فى الشرق الأوسط فى يناير ٢٠٠٨، والتى لقيت قدرا كبيرا من الإشادة حيث مضى «يُتهته» قائلاً:

«سيوضح التاريخ أن هؤلاء الذين ارتدوا البزات العسكرية فى مطلع القرن الحادى والعشرين فهموا حقيقة أبدية أن الأيديولوجيا القائمة على أساس الحرية ضرورية للسلام، إننا سنجد، فى هذه المعركة الأيديولوجية، وعلى المدى القصير، العدالة ونأتى بالأعداء أمام العدالة، لكن على المدى الطويل، فإن أفضل وسيلة لهزيمة أيديولوجيا الكراهية هى من خلال أيديولوجيا الأمل، التى لا تنفصل عن أيديولوجيا الحرية فى جوهرها الأساسي».

كان بالإمكان، وعلى الرغم من «تأتأة» الرئيس وجمله غير المفهومة، توصيل خطاب «أجندة الحرية» إلى السامعين، وذلك لأن الأكاديميين المأجورين، والمتفقهين واليمينيين والصحفيين المناصرين لإسرائيل كانوا بالفعل قد رسخوا فى الأذهان فكرة أن المسلمين لا يفهمون سوى لغة القوة، وطبّعوا الأفكار التى تذهب إلى أن «الحرب على الإرهاب ستكون مُحفّزا حقا لوجود شرق أوسط جديد» و«شرق أوسط ديموقراطي»، وأن ما يفعله الأمريكيون هناك سيفيد العالم أجمع، على الرغم من كل المظاهر التى تشير إلى عكس ذلك.

يستند خطاب «أجندة الحرية» إلى رسالتها «النبيلة» لإنقاذ العالم الإسلامى من المسلمين؛ وهى رسالة كان لويس وزكريا وأمثالهما قد حدّدوها. لا تعمل «أجندة الحرية» على التقسيم بنفس القدر الذى يعمل به المعلقون من الإنجيليين والمحافظين الجدد الذين يكسبون الدعم المحلى لسياسات الولايات المتحدة من خلال أساليب مثل الإيقاع بالمسلمين، وتنميط العرب والشوفينية. باتباعه السيناريو الذى وضعه لويس وزكريا، مضى الرئيس يستميل الحلفاء المحتملين فى العالم الإسلامى وقام

بصياغة عقيدة الولايات المتحدة التى تدافع عن المسلمين ناهيك عن الإسلام ذاته. قال «إن القتلة الإرهابيين يتخيرون ضحاياهم عشوائيا ودونما تمييز، وتخدم هجماتهم أيديولوجيا واضحة مُركَّزة. يُسمّى البعض هذا توجهات إسلامية شريرة، ويسميها آخرون الجهاد القتالي، والبعض الآخر الفاشية الإسلامية».

يهدف ترويج النموذج المعيارى للولايات المتحدة بصفتها منقذة بلدان الشرق الأوسط «المعتدلة»، إلى تسويغ تدخلها فى المنطقة، ويضعها فى موضع حامى حمى المسلمين والحريات والعقلانية والنساء والأطفال والمثليين. مصدر هذه التصريحات هى الكتابات التى حذّر فيها لويس من «حنق المسلمين وغضبهم». فالمسلمون الأصوليون الكارهون للحرية هم من حفزوا «الحرب على الإرهاب»، حيث يهدف «القتاليون» الإسلاميون إلى «إخضاع النساء وتلقين الأطفال مبادئهم وإقامة إمبراطورية إسلامية شمولية». ليس هؤلاء القتاليون مجموعة حرب عصابات منعزلة فى طورا بورا، وهذا ما تؤكده إيان هيرسى على وإرشاد منجي، حيث إن التهديد الإسلامى منتشر على نطاق واسع، والأفكار الإسلامية الخبيثة متوطنة فى التيار السائد فى أوساط المجتمعات والإعلام والحكومات العربية. ذكر الرئيس لنا، وهو يكرر ما أكده لويس، أن المتطرفين المسلمين «تساعدهم عناصر من وسائط الإعلام العربى تحث على الكراهية ومعاداة السامية، وتغذى نظريات المؤامرة، وتتحدث عما تُسميه «الحرب الأمريكية على الإسلام».

منذ الأيام الأولى بعد ٩/١١، أكد بوش على وجود «شبكة إرهاب»، حيث أعلن أن «عدونا هو شبكة الإرهابيين الراديكالية وكل حكومة تدعمهم»، وأنه على الرغم من أن شبكة الكراهية العنكبوتية متناسجة فى ثقافة حتى أكثر حلفائنا المسلمين موثوقية وسياساتهم، لكنها أكثر رسوخا فى سياسات «الأنظمة المارقة حيث يعمل المعاونون على توسيع نطاق تأثير الراديكالية الإسلامية وتضخيمه». فى أحد أحاديثه المُعلَنة أمام «الوقف القومى للديموقراطية» قال إن «الأنظمة السلطوية، وحلفاء المصلحة مثل سوريا وإيران تقوم بإيواء الإسلاميين القتاليين وتتشارك فى هدف إلحاق الأضرار

بأمريكا وبالحكومات المسلمة المعتدلة، وتستخدم الدعاية الإرهابية لإلقاء مسئولية فشلها على العرب وأمريكا واليهود، وإن تلك الأنظمة المارقة تناظر «الأهداف الشمولية» لتنظيمات مثل القاعدة، وإن «شبكة الإرهاب» هذه هى «المحصلة النهائية لمجموعات ميلشياوية، ومنافذ إعلامية، ورجال الدين، والحكومات التى «تمكنهم». وبما أن العراق لم تكن تجسيدا لتلك العناصر، كان البيت الأبيض على أتم استعداد لفبركة ما يثبت تورطها بما فى هذا خطاب زائف يربط بين التهديد الإسلامى كما جسده محمد عطا، وبين التهديد العربى الذى جسده صدام حسين.

إن الجزم بأن أجندة الحرية كما تبناها بوش قد فشلت يعنى أن الأهداف الظاهرة التى طرحتها خطابات بوش كانت هى مقصدها الحقيقي. لم يُقصد بالحرب على العراق أبدا الإتيان بالديموقراطية، أو تحرير نسائه أو تحقيق أى اهتمام آخر للعراقيين أنفسهم، الأحرى، فإن هذا الكتاب يذهب إلى أن «حرب» بوش أطلقت مرحلة جديدة من حملة أيديولوجية كانت قد بدأت فى التسعينيات، حيث نجحت تلك الحرب، ومعها خطاب لويس الذى استندت إليه، فى حشد تشكيل أيديولوجى محدد - الإسلاموفوبيا - لتبرير دور استباقى جديد للولايات المتحدة بالشرق الأوسط. قضت أحادية بوش، ودبلوماسية الكاوبوى التى اتبعها، على تعددية الأطراف التى استخدمها بوش الأب لتصنيع دعم دولى لسياسات الولايات المتحدة التدخلية، وأضفى عليها كلينتون الصبغة المؤسسية لترسيخ هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على العالم، لكن الأهم من ذلك هو أن بوش أضفى الصبغة المؤسسية على نماذج الإسلاموفوبيا التى أشاعها لويس وزكريا فى كتاباتهما الأكاديمية الزائفة الداعرة. حققت رئاسة چورج بوش نجاحا بالقدر الذى وفرت به «سقالات» عملت فيما بعد على تسهيل دخول الولايات المتحدة الاستباقى ونفوذها إلى البلدان الإسلامية وتوسيع مدى هيمنتها على العالم. وفرت لخليفته لغة أتاحت للتيار الرئيسى الأمريكى أن يرى احتلال الولايات المتحدة للشرق الأوسط، ودعمها لإسرائيل، واستمرار تحالفها مع الأنظمة العربية الفاسدة «المناصرة للغرب» رؤية كل هذا على أنه يقوم على أساس من القيم والضرورة بغض النظر عن الكيفية التى تَمكنّا بها من الوصول هناك.

الأمل والتغيير وأوباما

احتفى الكثيرون فى الغرب والعالم العربى بترشح باراك حسين أوباما كفرصة لحدوث «تغيير» ورأوا فيه «أملا» فى انتهاء العنف والقوة الباغية والعنصرية العارية. سرعان ما تبين الكثيرون، بعيد انتخاب أوباما وأدائه القسم، ما بدا وأنه سجلا متناميا من الحنث بالوعود. كشف التباين بين أقواله الحريرية وأفعاله المشبوهة عن جوهر الرئيس الجديد. علّق البعض على المدى الذى به تمثل تنازلات أوباما وصْفَةً للكوارث، وعلى أن رغبته فى التوصل إلى إجماع تأتى على حساب المبادئ و«التغيير» الحقيقى على المستويين القومى والدولي. ألقى آخرون الضوء على كيفية تأرجح أوباما بخصوص توفير محاكمات مدنية للمعتقلين بجوانتنامو وعلى عدم وفائه بأحد وعوده الأولى الخاصة بإغلاق المعتقل. لكن القلة القليلة هم من نقدوا مصادقته على تسليم المشتبه فيهم للحكومات السلطوية لتعذيبهم، وعلى شرعنته إعدام المسلمين المشتبه بأنهم إرهابيون واغتيالهم دونما إجراءات قانونية حتى لو كانوا مواطنين أمريكيين. لم يعترض أحد تقريبا على أن إدارته قد جعلت معتقل «الثقب الأسود» بقاعدة باجرام الجوية مركز احتجاز بديلاً يماثل جوانتنامو.

لم يجد النافدون اليمينيون أى سحر فى لغة أوباما الآسرة أو فى وجهه التليفزيوني. عبر فؤاد عجمى عن أساه حيث رأى أن انتخاب أوباما كان دلالة على التخلى عن «دبلوماسية الحرية» التى اتسمت بها إدارة بوش، وتنبأ بأن دعوة أوباما للحوار ستُفضح فى نهاية المطاف بصفتها «احتيالا مثيرا للشفقة» يسعى من خلالها فقط إلى إعادة ترسيخ مسار السياسة الواقعية وتقبل الحكومات الدينية والسلطويين المارقين، تقبلها على مضض. عمل انتماء عجمى للمحافظين الجدد واستشاره فى نظرتهم إلى العالم على منعه من الاعتراف بالأساليب القاطعة التى أشار بها أوباما، حتى أثناء حملته الانتخابية، إلى رغبته فى الاستمرار فى سياسات جورج دبليو بوش. تغاضى هذا المحلل الشهير للشئون العربية عن ولاء أوباما الصريح للإبقاء على هيمنة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط من خلال العمل على عزلة إيران والاستمرار فى

احتلال العراق، ومضاعفة الحرب الجوية الخفية فى باكستان وزيادة أعداد القوات فى أفغانستان وكذلك العمليات القتالية هناك.

وفيما ألبس اليمين أوباما زى الحاج المسلم، تزايدت أحاديث الليبراليين والمؤيدين المسلمين فى الداخل والخارج عن أن انتخاب أوباما، يمثل فرصة للخروج من الطريق المسدود الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والغرب، كما أثار الخطاب الاستهلالى الذى ألقاه أوباما لدى توليه مقاليد الرئاسة الأمل فى قلوب الكثيرين إذ أعلن قائلاً: «إلى العالم الإسلامي، نحن نبحث عن طريق جديد يقودنا قدما على أساس المصالح المشتركة والاحترام المتبادل»، وبدلا من التهديد الصريح مضى يقول «إلى هؤلاء المتمسكين بالسلطة من خلال الفساد والخداع وإخراس المعارضة، عليكم أن تعرفوا أنكم على الجانب الخطأ من التاريخ، لكننا سنمد إليكم يدا إن كنتم على استعداد لإرخاء قبضتكم».

وجد المسلمون الليبراليون الذين تربطهم صداقات بالإعلام، مثل رضا أصلان، أملا فى هذا الخطاب بعد السنوات العجاف للنظام السابق. قال أصلان «لقد مرت حوالى سبعة أعوام حتى تاريخه منذ أن حذر جورج دبليو. بوش العالم قائلاً من أنه لم تعد ثمه أرض محايدة بيننا وبينهم.

إن مجرد وجود أوباما على ذلك المسرح يعد إعلاناً بأنه لم يعد بالإمكان استدامة عقلية صدام الحضارات التى قسّمت العالم إلى مصنفات مُتخيَلة مثبّتة فى حرب كونية. قدم أصلان رؤية متفائلة لأمريكا «بدا فيها أوباما وقد موضع نفسه بين العالمين مثل جسر يصل الإسلام بالغرب معا كحضارة واحدة متحدة». زعم أصلان أن الوجود الرمزى لأوباما على درجة من القوة انزعج لها بن لادن والظواهري.

أعد هذا التفاؤل المؤيدين لسقطة قاسية وإن كانت مُستحقة. بلا ريب أن أيام جورج دبليو. بوش المتهورة العنيفة تمدنا بأمثلة لا حصر لها عن كيفية انتشار الإسلاموفوبيا وتعزيزها ناهيك عن الاحتفاء بها فى السنوات التى أعقبت ٩/١١، وغزو أفغانستان واحتلال العراق. أورد الفصل السابق سجلا لأحدث تجسيدات

الإسلاموفوبيا وأحاديث الكراهية وأعمال العنف ضد المسلمين وتحليلا لها. وعلى الرغم من عدم شموله إلا أن الفصل يؤكد على أعمال الإسلاموفوبيا وسياساتها، وعلى المحاكمات والاضطهادات التى حدثت فى عصر أوباما. فعلى الرغم من خطاب الرئيس عن «الأمل» و«التغيير»، فإنه وكما يبين فواز جرجس فى مقال له بدورية فورين بوليسى فى ٤ يونيو ٢٠١٠، بعنوان «السم بالعسل: كيف فقد أوباما عقول المسلمين وقلوبهم»، يبين أن العرب والمسلمين الأمريكيين قد علموا الآن أن أوباما سيواصل الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين وأنه «يدلى بالأحاديث» لكنه «لا يخطو على الطريق» ومن ثم فهم محبطون من الفجوة بين «الخطاب والفعل».

يوضح خطاب أوباما الاستهلالى الشهير وخطابه بعنوان «بدايات جديدة» بالقاهرة، وخطاب تسلمه جائزة نوبل للسلام أنه قد أصبح لرواية القوة الأمريكية وجها جديدا مموَّها يواكبه استعراض فج للقوة الأمريكية دونما تقديم أية مبررات. بيد أنه، وبدلا من ثأثأة سلفه برواية «معنا أو ضدنا»، يقدم أوباما رواية مطمئنة تتحدث عن تراخى القبضات ومد الأيادى المفتوحة. وبالتقابل مع بوش، يوجه أوباما حديثه لتلك النخب المناوئة لكن توجهاته إليهم محملة بالتهديدات بقدر ما هى إيماءات تصالح. توجه فى خطابه الاستهلالى إلى هؤلاء «المتمسكين بالسلطة من خلال الفساد والخداع وإخراس المعارضة» لكنه عرض عليهم اليد الممدودة إن كانوا على استعداد لإرخاء قبضتهم. وفيما تحدث بوش عن «القيم الأمريكية» بصفتها ضرورة للديموقراطية، يتحدث أوباما عن «القيم الأمريكية» بصفتها «قيما مشتركة» بحيث يبدو وأنه يعرض دعوة للمشاركة فى عالمية القيم الأمريكية وشموليتها. ليست هذه رواية أكاذيب أو خطاباً مزدوجا يهدف إلى الاحتيال على شعوب الشرق الأوسط وقاداتهم أو خطب ودهم. كما لا تتضمن لغة أوباما الخطاب المبهم المروّع الذى أقره نظام بوش وطبّعه. وفى واقع الأمر، فلا يجوز للمرء أن يرتاب فى صدق ما يقوله أوباما، مثلما لا يجوز الارتياب فى الصدق الوقح لخطاب بوش ورمسفلد وتشينى الإرهابى «الشعاراتي» الإمبريالي. كانت ثأثأة بوش وكلامه غير المفهوم انعكاسا

لاستخدامه الفج للقوة وعدوان نظامه المفرط على الشرق الأوسط كى يجعل منه انعكاساً متعثرا للإمبراطورية الأمريكية يفتقد الحياة والإرادة والحرية ومسخاً رهيبا يخدم رأس المال المعولم. وبالمثل، يجب تصديق المعنى الظاهرى لكلمات أوباما. وفى واقع الأمر، فإن كلمات الرئيس الرابع والأربعين تصوغ نفسها فى مسميات جديدة للقوة القديمة، وعلى حين أن تلك المسميات تشكل طبقة من البريق اللامع، إلا أنها مجرد إعادة صياغة فى عالم أحادية القطب لتعبيرات القوة الكوكبية الأمريكية. ولهذا السبب فإنه يجب فهم رواية أوباما الفصيحة كثيرة التفاصيل والخالية من المضمون غالبا حول سياسة أمريكا الخارجية، يجب فهمها حرفياً كما هي. حينذاك سنجد أن خطاباته تتبلور بأسلوب منهجي، بل وهجومى أحيانا فى أشكال أيديولوجية تلقى الضوء على القوة الأمريكية الحقيقية لكنها تُطلقها كشعاع النور الذى يمثل أفضل وسيلة للتعقيم والتطهير.

ظاهرة لويس / زكريا وتأثيرها:

يمدنا خطاب أوباما الشهير بالقاهرة ذو النبرة الإمبريالية والذى وجهه إلى العالم الإسلامى بتخطيط بيانى أيديولوجى لآرائه عن المسلمين ومكانهم فى النظام الكوكبى للإمبراطورية. يوضح أوباما دونما مواربة أنه ينبغى فهم كلماته حرفياً كما هى وأنها ستُفعَّل من خلال الإرادة والقدرة على «الفعل الجسور». وإلى جانب هذا، يوضح خطاب القاهرة ملامح كثيرة مثيرة للاهتمام حيث إنه بدا وأنه شخصية رئاسية يتحدث إلى رعايا كوكبيين لحكمه الإمبريالي، ومن ثم كان ثمة تماثل لافت بين صفاقة بوش وأوباما المشتركة. وفيما أن صفاقة بوش كانت تتخذ هيئة اعتداد الصبى الأبيض الأحمق عضو الأخويات الجامعية بنفسه، كانت صلافة أوباما تمثل استكبار أستاذ القانون بهارفارد ممزوجا بحس بالقوامة الأخلاقية الذى يستشعره الوعّاظ الدينيون.

بيد أن الملمح الأهم لوعظة القاهرة هو أنها تبدى تأثير ظاهرة لويس، أى أنها توضح الدرجة التى بها أصبحت روايات لويس والآخرين تشكل التيار التحتى الدائم للسياسة الخارجية الأمريكية ولأيديولوجيا القوة. مما لا ريب فيه أن تبريرات أوباما

للقوة والسطوة الأمريكية قد تخلت عن كثير من التعميمات الفجة العنصرية التى كان المحافظون الجدد يبدونها دونما مواربة، لكن بنية تخطيط أوباما البيانى الأيديولوجى الدقيق يبدو وأنه قد انتُحِل مباشرة من صفحات لويس وزكريا وغيرهما من عصبة المنظرين الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب. يبدّد أوباما أية شكوك تتعلق بأن الحروب الأمريكية هى حروب ضرورة بحسب ما كان يزعمه بوش، ويؤكد أنها حروب أخلاقية دفاعية من أجل أمن أمريكا الكوكبي. وبالمثل، أوضح أوباما فى خطاب منحه جائزة نوبل أن أمريكا مشتبكة فى حروب لم تسع هى إليها.

مهارات أوباما الخطابية أكثر رقيا وجاذبية بكثير من مهارات بوش، وتخدم أهدافا تكتيكية. تتنصل «صراحة» أوباما من سياسات الإدارة السابقة ومن الإسلاموفوبيا الفجة المنتشرة بالولايات المتحدة. يعترف أوباما بأن «مشاعر الخوف والغضب التى حفزتها أحداث ٩/١١ يمكن فهمها» لكن حتى إن كانت الإجراءات التالية التى اتخذتها الحكومة منطقية، فقد «أدت بنا فى بعض الحالات إلى التصرف بما يتناقض مع تقاليدنا ومُثلنا»، وتمثل تلك الصراحة الظاهرية نقيضا لإنكار بوش وشلته الدائم لارتكاب أية أخطاء أثناء إدارته. بيد أن الأسف الذى يبديه أوباما يصبح أساسا للتبريرات، حيث إن كل اعتراف بارتكاب أخطاء يخفف من وقعه الأعذار والتفسيرات والتبريرات، حيث توضح خطب أوباما تمكنه التام الصريح والمضمر من استخدامات و«لكن» و«بيد أنه»، فقد ورد هذان اللفظان ٣٩ مرة فى خطابه بالقاهرة و٣٠ مرة فى خطابه لدى منحه جائزة نوبل.

يعترف الرئيس، وهو يخاطب جمهورا مسلما، بتسامح الإسلام ويستدعى أمجاده الماضية وإسهاماته على مستوى العالم. لكنه يتبع هذا الإطراء الإلزامى بـ «بيد أنه» المميزة، حيث يقول، وكأنما ليعيد الربط بين الإسلام والإرهاب «بيد أننا سنواجه عنف المتطرفين الذين يمثلون تهديدا خطيرا على أمتنا، سنواجههم بلا هوادة». ثم يمضى قائلاً: «ليست الولايات المتحدة، و لن تكون أبدا، فى حرب مع الإسلام، لكن واجبى الأول كرئيس هو حماية الشعب الأمريكي». والإسلام دين سلام، لكن «المتطرفين

الذين يرتكبون أعمال العنف استغلوا هذه التوترات فى أوساط أقلية صغيرة لكنها فاعلة من المسلمين». مازال للمسلمين إسهاماتهم فى أنحاء العالم لكن عنفهم منذ ٩/١١ «أدى إلى أن ينظر البعض فى بلادى إلى الإسلام على أنه معادٍ ليس فقط لأمريكا وبلاد الغرب، لكن لحقوق الإنسان أيضاً». فى الواقع بإمكان الولايات المتحدة أن تجابه تنميطات المسلمين لكن ينبغى على المسلمين التوقف عن شيطنة أمريكا. على الرغم من رغبة أمريكا إعادة جميع قواتها إلى الوطن، لكن توجهات المسلمين القتالية تمنعها من ذلك. للفلسطينيين، مثل الأمريكيين السود، معركة يخوضونها من أجل الحقوق المدنية، لكن لابد لهذه المعركة أن تكون سلمية؛ إن بعض السياسات الإسرائيلية غير الحكيمة تعمل على إذلالهم، لكن ينبغى عليهم التخلى عن العنف؛ لديهم «جانب واحد» من القصة، لكن عليهم الاعتراف بالجانب الآخر وبإسرائيل. تم انتخاب حماس كما يجب لكن لديهم مسئوليات عليهم الاضطلاع بها. لقد قدمت الدول العربية مبادرات سلام، لكن عليها الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل؛ الولايات المتحدة مستعدة للدخول فى حوار مع إيران، لكنها قد وصلت بالفعل إلى وضع اللاتفاوض. لا يدعى أوباما أنه يعرف ما الأصلح للجميع لكنه سيتحدث باسم جميع من يتوقون إلى الحرية والديموقراطية. للنساء المسلمات الحق فى تغطية شعورهن وللمجتمعات التقليدية الحق فى ممارسة ثقافتها لكن للولايات المتحدة الحق فى التحدث باسم تحريرهن وتبنى المناداة بمساواتهن بالرجال.

احتفى الأمريكيون بخطاب أوباما فى القاهرة بصفته إيماءة مصالحة مهمة، حيث إنه، وبعد كل شىء فقد رأوا سفر رئيس الولايات المتحدة إلى رعاياه المسلمين فعل تواضع. لكن الخاضعين لسطوة الولايات المتحدة وسياساتها رأوا فحوى الخطاب الفعلية لا تخرج عن كونها وعظة أبوية متعالية متسامية تناست واقع مظالم المسلمين. نقل أوباما إلى جمهوره الرسائل ذاتها التى سبق لسلفه أن نقلها إليهم: أن الإسلاموفوبيا الأمريكية، والأساليب العسكرية والتدخلية للولايات المتحدة، وسياسات الاحتجاز، وتسليم المشتبهين لتعذيبهم، وانتهاك حقوقهم الدستورية والدولية، كلها

نتيجة عنف المتطرفين ضد الولايات المتحدة، أى أن تدخلات أمريكا العسكرية وما ترتكبه فى حق البلدان والشعوب ليس نتيجة رغبتها فى فرض سطوتها وتحكمها، بل هى نتاج فرعى لعبئها الثقيل وكرمها وفضائلها.

لا يقتصر تعضون ظاهرة لويس فى خطاب أوباما على خلطه بين أمن الولايات المتحدة وتدخلاتها العسكرية بل يبدو أثرها واضحا حينما تُحوِّل لُغة الأمريكيين من مبشرين يأتون بالحضارة إلى شعوب المنطقة كما كان يزعم بوش إلى مدافعين إيثاريين راغبين على مضض. ومثلما يلقى لويس وعظاته عن الإلزام الأخلاقى بالتدخل فى العالم الإسلامي، يذهب أوباما بوضوح إلى أن الأمريكيين يقبلون العبء على مضض ومن منطلق الضرورة الأخلاقية ويمضى يكرر أنهم يفضلون لو لم يكونوا قوة احتلال لكن عليهم مواجهة عنف المتطرفين فى أفغانستان وباكستان الذين يريدون قتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين.

وكما رأينا، كان ما يصرح به بوش عن «إصلاح» الشرق الأوسط يقوم على أساس أجندة تدخل استباقي، أما أوباما، فقد قام منذ الأيام المبكرة لرئاسته بوضع الخطوط العريضة لأجندته الخاصة بالشرق الأوسط. وإذا كان لويس وزكريا قد اعتاد إلقاء المحاضرات بالبيت الأبيض على مسامع رمسفلد وولفويتز وإبرامز وتشينى حول وجوب إصلاح العالم العربى ووسائل عمل ذلك، فقد قام أوباما بصفاقة بإلقاء محاضرته على المسلمين فى المقر الذى تُقرر فيه تشريعاتهم. فى ذلك اليوم كان أعضاء المجلس التشريعى المصرى الذين حضروا اللقاء فى وضع نواب عن العالم الإسلامى بأكمله، يستمعون إلى التعليمات الرئاسية حول أولويات الإصلاح. وفى هذا الصدد، ذكر أوباما الخطوط الرئيسية لمشروع «إصلاح» و«تقدّم» بالإمكان القول إنه قد انتُحِل حرفياً من أعمال لويس وزكريا. ألقى عليهم درسا فى الديموقراطية وحقوق النساء والتنمية والعولمة، وفى تاريخ الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. ثم مضى من هذا المنطلق ليقول «ظلت الولايات المتحدة أحد أعظم مصادر التقدم الذى عرفه العالم على مدى التاريخ. إن هذا التغيير الشامل الذى أتت به الحداثة هو نتيجة

لتقدم الغرب. ويجب أن يكون لبقية العالم نصيب فى هذا التقدم لأن التقدم البشرى لا يمكن إنكاره على الآخرين».

بقليل من التبصر، نجد أن كلمات أوباما محمّلة بخطاب الحداثة الذى ناقشناه فى أعمال زكريا، هذا علاوة على أن هذا الخطاب يلعب دورا أيديولوجيا وبلاغيا حاسما فى إرساء النظرة الكوكبية المعيارية لسياسة الولايات المتحدة. يُفهم من خطاب أوباما الاستهلالي، وخطابه بالقاهرة أنه ينبغى على العالم الإسلامى أن يكون له نصيب من ثراء الحداثة والتقدم وميزاتها، الأمر الذى لا يمكن إنجازه إلا بإقامة شراكة بين النخب الإسلامية القومية وبين النخب الشركاتية والسياسية الأمريكية. يتحدث فى القاهرة عن إقامة علاقة جديدة بين الولايات المتحدة والنخب الإسلامية تقوم على أساس «المصالح المشتركة» و«الاحترام المتبادل». ثم يمضى قائلا «لكى نُشرك الآخرين فى تقدمنا سنقوم بتشكيل فيالق جديدة من المتطوعين ليقيموا شراكة فى نظرائهم فى البلدان ذات الغالبية الإسلامية: سيكون بإمكان نسخة البيزنس هذه فى فيالق السلام «تعميق الروابط بين قيادات البيزنس، ومؤسساته وأصحاب المشاريع بالولايات المتحدة وبين المجتمعات الإسلامية فى أنحاء العالم». يتعهد الرئيس مستخدما «نحن» الملَكية بأن يقوم «بتعيين مبعوثين من مجالات العلوم الجديدة للمشاركة فى برامج لتطوير مصادر جديدة للطاقة، وخلق وظائف صديقة للبيئة، ورقمنة السجلات، وتنقية المياه وزراعة محاصيل جديدة»، ويتعهد أيضا بتدريب جيل جديد من العاملين والمسئولين فى العالم الإسلامي، وتقديم منح دراسية للطلبة المسلمين للدراسة بالولايات المتحدة، وإقامة نظام تبادل بين الطلبة المسلمين والأمريكيين. وعلى أرض الواقع، فإن التعهدات هى وعود باستيعاب المجتمعات الإسلامية فى نظام العولمة الذى تقوده الولايات المتحدة وتهمين عليه، وتحويل مسار وسائل كسب العيش فيها، واقتصاداتها وثقافاتها بحيث تتوافق مع مصالح الولايات المتحدة الاقتصادية الكوكبية.

من ثم، فإن سياسات أوباما وخطابه حول المصالح المتبادلة، والأيدى المفتوحة، والشركات والحوار والتعاون لا تتعلق باحتياجات الشعوب فى البلدان النامية

والمتخلفة بقدر ما هى وسائل لمزيد من ضم نُخَبها إلى حظيرة مجموعة الثمانية G8 والغرب والولايات المتحدة. يعنى بتعبير «المصالح المتبادلة» إيجاد شريحة شركاء من المتآمرين فى البلدان الحليفة بالفعل وفى تلك الجارى العمل على استيعابها. ولهذا السبب، تم دعوة المملكة العربية السعودية لتكون عضوا فى مجموعة العشرين G20 الجديدة على حين لم تتم دعوة إيران ذات الاقتصاد الأكثر تنوعا، و الأقوى سياسيا، والأكثر سكانا. لكن أيضا، تعمل الوعود بالإتيان بالعالم الإسلامى إلى مجال الهيمنة الأمريكية الكوكبية، تعمل على إضفاء الشرعية على متطلبات واشنطون السياسية والاقتصادية، وتلك متطلبات تم إدخالها إلى التيار السائد من خلال منظّرين ونشطاء وسياسيين يجدون فى لويس وزكريا وفريدمان ناطقين مؤثرين بآرائهم. لكن أوباما نفسه تحدث بتلك المطالب تكرارا فى القاهرة وأنقرة وأوسلو وأماكن أخري. يتطلب منح «الاحترام المتبادل» للعالم الإسلامى الطاعة التى تتخفى فى خطابه فى هيئة تعبيرات مثل «المسئوليات» و«التوقعات» و«حكم القانون» و«المؤسسات الدولية»، وتقاس وفقا لمعايير معينة والجوائز التى تمنح.

تتضمن «المسئوليات» التى على البلدان العربية الصديقة الاضطلاع بها التحكم فى المعارضة الداخلية التى تتحدى هيمنة أمريكا الكوكبية، والعولمة الاقتصادية والسياسات الإقليمية التى تسترضى إسرائيل. كان لويس وزكريا من أوائل من عملوا على شيوع لغة «المسئولية» التى تستخدمها إسرائيل كثيرا لممارسة الضغوط على السلطة الفلسطينية والحكومة اللبنانية من أجل إنزال الضربات بالمقاومة المسلحة ضد إسرائيل وقمعها. ومنذ فترة رئاسة بوش، استخدم جوزيف بايدن وهيلارى كلينتون وجو ليبرمان وجون كيري، وجون ماكين، بين آخرين، «المسئوليات»، كلفظ كودى لإجبار العراقيين والأفغان على معالجة الأزمات الأمنية والسياسية التى أوجدها اجتياح الولايات المتحدة البلدين واحتلالهما والمكائد السياسية التى تمارسها، معالجتها ووضع حد لها. وبالإمكان وضع خطاب أوباما بسهولة فى هذا السياق.

وفى اتباع منه لبرنارد لويس، نجد الرئيس يوبخ القيادات العربية بقوله إنه «لم

يعد مقبولا أن تُستخدم الحكومات العربية لإلهاء الأمم العربية عن المشاكل الأخرى»، ثم نجده، وبأسلوب لويس النمطي، يتجاهل آثار السياسات الأمريكية والإسرائيلية على الفلسطينيين ويتخطاها ويحمل الضحايا المسئولية ويقول إن عليهم «الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل وأن يختاروا التقدم بدلا من التركيز على الماضى الذى يؤدى إلى الهزيمة الذاتية».

اتسمت سياسة أوباما فى الشرق الأوسط بخطاب «المسئوليات» و«الاحترام المتبادل»، وهو خطاب يُقصد به في واقع الأمر نزع الشرعية عن مظالم الشعب الفلسطينى وتقويض دعم الحكومات العربية الفاتر للقضية الفلسطينية، على الرغم من دعم الشارع العربى الكلى والمتفانى لها.

ما «الاحترام المتبادل» و«المسئوليات» إلا دعوة للطاعة الصامتة. وفى أكثر أجزاء الخطاب تعالياً، وإهانة لمشاعر جمهور المستمعين، يُلقى أوباما فى وجه البرلمانيين المصريين بتأكيده على الرباط الذى «لا تنفصم عراه» بين الولايات المتحدة وإسرائيل، ويحاضر الجمهور عما لاقاه اليهود من بشاعات. وبدلا من تحميل الغرب مسئولية تاريخه الضارى العنيف المعادى للسامية، يقوم أوباما، بأسلوب غير مباشر، بتوبيخ العرب على موقفهم «الفظ» المعادى للصهيونية وإسرائيل. وعلى الرغم من كل حديثه عن «التطلعات المشروعة للفلسطينيين»، يظل أوباما راعيا وفياً للدولة الصهيونية، والأهم من هذا أنه يظل مخلصا لأيديولوجيا هيمنة الولايات المتحدة على الشرق الأوسط، وهى أيديولوجيا يجد معها أنه لابد من إسقاط موروث الغرب الدموى الشائن من معاداة السامية على الفلسطينيين لحرف الأنظار عما ارتكبه الغرب من جرائم فى حق الفلسطينيين بفلسطين، وفى حق اليهود بأوربا. يقوم أوباما بتقليص أى اعترفات بالحرمان الذى يعانى منه الفلسطينيون والبشاعات التى ارتُكبت ومازالت ترتكب ضدهم وتذويبها لتصبح «تاريخا أليما للشعبين»، وينتزع بذلك آلام أحد هذين الشعبين خارج سياقات السياسات المحسوبة المستدامة للشعب الآخر [صهاينة إسرائيل] وإجراءاتهم وأفعالهم. يصاعد أوباما نغمة محاضرته بالقاهرة

لتصبح توبيخا يلقيه «الواعظ» على أسماع الجمهور، مفاده أن الفلسطينيين هم من «ينبغى عليهم نبذ العنف» وليس الإسرائيليين الذين يمارسونه يوميا ضد الفلسطينيين من خلال آليات الحصار والتحكم والحرمان والقهر.

محاضرة الحرب لدى استلام جائزة نوبل والواقع الصلب للقوة الناعمة:

يمدنا معمار «البداية الجديدة» التى بشّر بها أوباما فى القاهرة برسم بيانى نفهم من خلاله الرواية الرئيسية لسياسته الخارجية بالشرق الأوسط. وبالمثل، تمثل المحاضرة التى ألقاها لدى تسلمه جائزة نوبل مانيفستو جديدا للسطوة الأمريكية فى عصر ما بعد بوش، إذ إن ما علينا إلا النظر إلى ردود الأفعال الإيجابية للصحافة الأمريكية كى نفهم كيف بدا هذا الخطاب وأنه محاضرة إمبراطورية إمبريالية. ومن المؤكد أنه بالإمكان إعادة تسمية هذا الخطاب ليصبح محاضرة تسلم أوباما جائزة نوبل للحرب، إذ إنه، وبدلا من أن يتعاطى بجدية مع قضايا السلام وسياساته، فقد ألقى أوباما ما يمكن اعتباره رأيا حاسما واضحا عن البرنامج الأيديولوجى الذى يحكم استخدام أمريكا للقوة ويبرر احتلال العراق وأفغانستان، والعنف الذى تُمارسه الدولة الأمريكية فى عشرات أخرى من البلدان الإسلامية بإفريقيا وآسيا. يُعرِّف أوباما السلام، وهو يتعاطى بوضوح مع ما يشير إليه على أنه «المعمار القديم لحفظ السلام»، يعرّفه كوظيفة للحفاظ على الأمن من خلال استخدام السلاح فيقول «لقد ظلت الولايات المتحدة تساعد على ضمان الأمن الكوكبى لما يربو على ستة عقود بدماء مواطنينا وبقوة أسلحتنا».

بالإمكان تقسيم محاضرة نوبل للحرب إلى جزئين يعبران عن صياغة أوباما الجديدة للدوغما القديمة الخاصة بسطوة الولايات المتحدة فى العالم أحادى القطب، وآرائه إزائها، هذا على الرغم من أن خطاب أوباما يبدو منعشا بعد خطابات الحرب الإمبريالية للإدارة السابقة وإدعائها للقوامة الأخلاقية. أدار أوباما حملته الانتخابية على أساس أفكار جوزيف ناى عن استخدام «القوة الناعمة» التى ستتحول فى النهاية، وكما سنرى إلى «القوة الذكية». كان ناى قد ظل لعقود بين القيادات الثقافية

بالحزب الديموقراطى وكان عظيم الأثر فى تشكيل الأفكار النيوليبرالية التى تبنتها إدارة كلينتون. وبصفته أكبر المفكرين «الليبراليين» الأعضاء فى مجلس إدارة مجلس العلاقات الخارجية، ومركز العلاقات الدولية، فهو عملياً المهندس الأيديولوجى لرؤية الهيمنة الاقتصادية والسياسة التى تبناها الحزب الديموقراطي. يؤكد ناي، فى الكثير من أعماله، على استراتيجيات التعاون والحفز من خلال تنويعة من الإجراءات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية، وأحياناء العسكرية. وفى عهد رئاسة كلينتون قام ناى بتغيير لغة القوة اللامتناسفة الصريحة التى تستخدم لاستيعاب الآخرين وإخضاعهم قائلاً إن أسلوب العصا والجزرة للقوة الصلبة أقل فعالية على المستوى الكوكبى من القوة «الناعمة» أو «الذكية». والقوة الناعمة، حسب قوله، هى «القدرة على تشكيل أفضليات الآخرين بحيث يريدون ما تريده أنت». والفكرة هنا هى أن الاستيعاب لا يحدث فقط على المستوى المادى وعلى مستوى إقناع النخب السياسية فى بلد ما، بل الأحرى أنه استيعاب بلد ما واستمالته بحيث «يريد» شعبه ما تريده الولايات المتحدة. أعلى خطاب أوباما فى أوسلو من شأن هذا الاستيعاب وهذه الاستمالة.

أوجدت حركة أوباما بالولايات المتحدة رواية مضادة لرواية القوة الصلبة التى استخدمتها إدارة بوش، وتبدو هذه الرواية المضادة وأنها قد انتُحلت من أعمال جوزيف ناي، ومن أعمال روبرت كوهانا، المُنظِّر السياسى المؤثر، والذى كان قد شارك ناى فى تأليف عدة أعمال. انتقى أوباما مفردات «الأمل» و«التغيير» وانتحلها من الجماهير المنهكة والقرفانة بالولايات المتحدة، والشرق الأوسط أيضا، ومزجها بقضايا «الاحترام المتبادل» وتعدد الأطراف، والمؤسسات الدولية، وتشييد المؤسسات، والحوار. استثمرت لجنة نوبل الجائزة فى رواية أوباما عن «التغيير» و«الأمل» مراهنة بأن هذا الاستثمار سيشجع أوباما على الوفاء بمزاعم سحب القوات من الشرق الأوسط أو تخفيضها. إننى أرى أن أعضاء لجنة نوبل لم ينصتوا إلى كلمات أوباما ووعوده من خلال السياق الذى تقترحه أعمال ناي، هذا إلى جانب عظيم اهتمامهم

أنفسهم بقوة الغرب المهيمنة ورهانهم عليها. الأحرى أنهم سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا أسرى روايته النبوئية المنذرة وذلك لأنها أمدت كل من سئم استراتيجية بوش الوقحة للقوة الصلبة، أمدتهم بشىء بديل.

يسعى أوباما بوضوح لتمييز «الاختلافات العملياتية» بين نهج القوى الناعمة المزعوم الذى يتبناه وبين نهج القوة الصلبة لإدارة بوش. فى خطابه الاستهلالي، مدَّ يداً مفتوحة لأنظمة العالم المارقة ذات القبضات المحكمة. أما فى خطاب أوسلو، فقد تعهد بإيجاد بدائل لأساليب «القوة الصلبة» التى يحتفظ بها لمن «يخرقون القواعد».

وكما جاء بخطابه فى القاهرة وأنقرة، وخطاب انتصاره الرئاسي، وخطاب الاستهلالي، فهو يعد بإقامة إجماع، وتحالفات، وشراكات. يزعم تمسكه بـ«قانون الحب» جوهر الإنسانية وإعجابه به. بيد أنه، وحتى فيما يعظ بقيمة الحب وقيمة اللاعنف، فإن النصف الثانى من محاضرته بعيد ترسيخ حرب بوش على الإرهاب ويدعمها بصفته حاكما إمبرياليا كضرورة أخلاقية وسياسية حيث يقول إن الولايات المتحدة تخوض «حربا عادلة» وهى الآن تشن «حربا على الشر». الأهم من كل هذا هو تأكيد أوباما على أن «استخدام القوة ليس ضروريا فقط، بل إنه أيضا مبرَّر أخلاقيا».

تتجسد «الاختلافات العملياتية» بينه وبين الإدارة السابقة فى مجاز اليد المفتوحة/ القبضة المحكمة. تقدم يده المفتوحة فرصة لغواية النخب واستيعابهم، سواء كانوا أصدقاء أم معادين، ومعهم أيضا مجموعات المعارضة. لكن فاعلية القوة الناعمة تصل أقصى درجات الفاعلية حينما تُدَعم أساليب الغواية بالتهديدات وبإمكان استخدام الأساليب العقابية بما فى هذا التدخل العسكرى والمقاطعة الاقتصادية والعزل السياسى من خلال استخدام الحلفاء فى البلدان النامية، والأمم المتحدة، وثقل الولايات المتحدة الهائل فى مجال الاقتصاد الكوكبى. ولا ينبغى لأحد أن يرتاب فى أن اليد المفتوحة ستتحول إلى قبضة مُحكمة توجه إلى من يجرؤ على رفضها. وفى هذا الصدد، نجد أن خطابى أوسلو والقاهرة يرددان أصداء اللهجة الحضارية

والأخلاقية التى اتسم بها خطاب أوباما الاستهلالى حينما أقسم موجها حديثه «إلى هؤلاء الذين يحاولون الدفع قدما بأهدافهم من خلال إثارة الرعب وممارسة الإرهاب وقتل الأبرياء، أقول إن إرادتنا أقوى مما يعتقدون ولا يمكن فلّها.. لا تستطيعون التغلب علينا أو مضاهاتنا، وسنهزمكم». من ثم، يمكن القول إن الاختلافات العملياتية فى رواية أوباما، وكما يبين بصراحة، لا تعنى أنه سيكون هناك أى تغيير فى عهده في السياسات الاقتصادية أو المواقف والإجراءات السياسية إزاء العالم الإسلامي، أو حتى على المستوى الكوكبي. وبعد كل شيء، فقد استند خطاب أوباما فى أوسلو إلى التزامه بإعلان أن الولايات المتحدة ستقاتل المتطرفين «الذين يشوهون الدين الإسلامى العظيم ويدنسونه، والذين هاجموا بلادى من أفغانستان». وإذا كان بوش قد أبلغ العالم أن الولايات المتحدة تشن حربا ضد الشر، فإن أوباما يؤكد لمستمعيه أن سلفه كان على صواب وأن «الشر موجود بالفعل فى العالم». وبناء على ذلك فإن «الحرب ضرورية أحيانا». ولهذا السبب، لا تستطيع الولايات المتحدة، تحت رعايته أن «تقف مكتوفة الأيدى فى مواجهة التهديدات ضد الشعب الأمريكي. ولا يجوز أن يرتاب أحد، فإن الشر موجود فى العالم ولم يكن بوسع حركة اللاعنف أن تصد جيوش هتلر». وفى خطاب يستعيد المبدأ الرومانى الإمبراطوري، يعيد أوباما تكرار ما نص عليه بالقاهرة، ويجعل من الأمن الأمريكى أمنا كوكبياً حيث لا يمكن فصل «دفاع» الولايات المتحدة عن نفسها عن دفاعها عن العالم المتحضر.

هذه الرواية هى انتحال مباشر من خطابات لويس وزكريا التى طبّعتها مقالة هنتنجتون الشهيرة. يكشف خطاب جائزة نوبل للحرب عن الدرجة التى بها تتناسج التشكيلات الأيديولوجية التى يمثلها لويس وزكريا، بإحكام، فى الروح السياسية الأمريكية وفى النموذج المعيارى العالمى للقيادات. ففيما يعد أوباما بـ «التغيير» ويتموضع كبشير بـ «الأمل»، لا تعدو تلك أن تكون مجازات يأمل من خلالها أن يستقطب الحلفاء والأعداء للانضمام إلى برنامج للسلام العالمى من خلال «الاحترام المتبادل» و«المصالح المتبادلة». وهذا هو جوهر القوة الناعمة.

وفى هذا الصدد، فإن أوباما لا يكذب. فلم يحدث أبدا أن وعد فى القاهرة أو أوسلو أو أنقرة بالانسحاب أو تقليل عدد القوات أو تلطيف التوترات العالمية أو الدخول فى حوار حقيقى غير مشروط مع الآخرين كأنداد. فى أوسلو، يؤكد للمسلمين والعالم النامى أن الولايات المتحدة تُشهِر قوتها من أجل «مصالحها الذاتية المستنيرة». يعبر تبريره «اللااعتذاري» عن «الحرب العادلة» التى تشنها أمريكا، عن مبدأ القوة اللامكبوحة، والامتيازات التى تمنحها الولايات المتحدة لنفسها خارج حدودها والتى تقوم على أساس قوامه القوة. يقول أوباما «القوة تنمو من خلال الاستخدام الحكيم، ولن نعتذر عن ذلك»، وفيما أننا لا نسعى إلى أن «تفرض الولايات المتحدة إرادتها»، فإنها تستخدم قوتها من أجل «الحرية والازدهار»، ليس فقط لأنفسنا، بل لأطفالنا وأحفادنا نحن والآخرين. يؤكد بلهجة يقينية أن لشعوب العالم الحق فى حريتهم وأحلامهم لكن «الولايات المتحدة هى التى ستظل دائما صوت تلك التطلعات العالمية الشمولية»، للمرء أن يتساءل عما إن كان الفلسطينيون، والأفغان، والعراقيون، ناهيك عن الشعوب التى تخضع لديكتاتوريات حلفاء الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأنحاء أخرى، يوافقون على ما يُصرح به أوباما.

لا تعدو محاضرة أوباما لدى تسلمه جائزة نوبل أن تكون تناسجا مُحْكَماً لخطاب لويس الحضاراتى الأخلاقي، وتثبيتاً لقوة الولايات المتحدة يبرر الدفاع عن الحداثة بصفته مسئولية أخلاقية، وبرجماتية زكريا وأسلوبه التدرجي. خلال حملته الانتخابية كان أوباما قد عبّر عن التزامه بالبرجماتية عدة مرات، ثم دعم هذا الالتزام باختياره فى ١ ديسمبر ٢٠٠٨ لفريق جديد للأمن القومى كان له أن يتبع أجندة تقوم على أساس خطاب القوة الناعمة يواكبه استعراض للاستعداد لإكراه من يرفضون أن يكونوا متواطئين مع إمكانيات القوة الصلبة. يقول أوباما وفى إشادة منه بخدمات أعضاء الفريق فى الماضى إن «هؤلاء النساء والرجال يمثلون جميع عناصر القوة الأمريكية» وعلاوة على ذلك فهم «يشاركوننى برجماتيتى فى استخدام القوة، وحسى بالهدف بشأن دور أمريكا كقائدة للعالم». تردد ترنيمة الحرب التى تغنى بها أوباما

فى أوسلو أصداء «البرجماتية» التى كان قد أعلنها، إذ إنه يذكر الجمهور بأن على جميع الأمم «التمسك بالمعايير التى تحكم استخدام القوة» فى رده على الاعتراف بطموحات البلدان النامية ومصادر استيائها واختلافاتها، أى أنه ينبغى أن يكون صوت الولايات المتحدة الشمولى هو الوسيط للتعبير عن مظالم تلك الأمم. بيد أنه من الشائق أن أوباما أبدى استعداده للإشادة بالمعايير الدولية التى تحكم سلوك جميع الأمم المتحدة بما فيها الولايات المتحدة إذ قال إن على الجميع «اتباع أحكام الطريق» لكنه أضاف يقول «إن المعمار القديم لحفظ السلام ينهار تحت وطأة التهديدات الجديدة».

وهكذا، يحاول أوباما استقطاب العالم لمشاركة من شيدوا المعمار السابق للسلام العالمى «رؤيتهم ذاتها»، وفى إطار تلك الرؤية، يذكرنا الفائز بجائزة السلام أن «لآليات الحرب دورا تلعبه فى حفظ السلام» لا يقل عن دور المؤسسات والمعاهدات والمواثيق والإعلانات الدولية. وهذه هى الخلاصة التى تبز بها أطروحة أوباما للأمن حقوق البلدان الأصغر واستياءاتها وتُسقطها حيث إن جوهر أطروحته هو أنه من المسوغ لمن «لديهم مصالح ذاتية مستنيرة» التحدث باسم «مستقبل» أطفال الآخرين وأحفادهم.

ليس تفحصنا لخطابيْ أوباما بالقاهرة وأوسلو مجرد لعبة بلاغية أو تدريب أدبي، حيث إن الخطابين أرسيا أجندة للوسائل القانونية والسياسية التى تنوى الولايات المتحدة اتباعها فى رسم سياستها الخارجية فى فترة ما بعد بوش. من ثم، فإنه وفقا لتلك الأحكام والأطروحات، فإن برنامج إسرائيل النووى غير القانوني، وانتهاكاتها المنهجية والمؤسسية، وحرمان الفلسطينيين من حقوقهم وإذلالهم، وخرقها لجميع قرارات مجلس الأمن، وانتهاكاتها للمواثيق الدولية، من خلال حربها على لبنان وغزة، كل هذا جميعه غير مهم ولا علاقة له بالأحكام والأطروحات. أما برنامج إيران النووى المحتمل، وما أُسمى «الإبادة العرقية» بدارفور، وبعض أعمال التمرد فى العراق وأفغانستان، فكلها تهديدات مستساغة للعالم ولـ «رؤيته المشتركة»، على الأقل وفقا لما عبر عنه رئيس الولايات المتحدة.

النقلات المعيارية فى إطار إدارة الإمبراطورية:

كان ثمة كثير من الأحاديث عن إعادة تجديد مهام أعضاء الوزراء والوزارات المختلفة، والتى أسئ استخدامها أثناء سنوات بوش. وسع أوباما حجم مجلس الأمن القومى برئاسة الجنرال چيمس جونز، بحيث يضطلع بأدوار ومسئوليات جديدة فى السياسات الخارجية والداخلية. كان هدف هيلارى كلينتون استعادة مصداقية وزارة الخارجية بعد أن كان رمسفلد قد همشها بحيث أصبحت مجرد واجهة للسياسات المنبثقة من العقول المظلمة المريبة لشلته المدنية من المحافظين الجدد الذين عاثوا فى وزارة الدفاع فسادا دونما كوابح. أرادت الوزيرة الجديدة تضخيم دور وزارة الخارجية وميزانيتها ليس فقط بحيث تكتسب ثقلا أكبر فى الشئون المتعلقة بالأمن القومي، بل أيضا لتتأكد من أن نفوذ وزارة الخارجية يترك أثره على الاقتصادات الدولية. أما چون بايدن فقد تحمل مهام إصلاح «إبعادية» منصب نائب الرئيس التى شهدت جموحا فى عهد تشيني، مع إضفاء الصبغة المؤسسية على دور مؤثر وراسخ لمنصبه فى مجال صناعة السياسة الاقتصادية والمحلية والخارجية. ان العامل المشترك فى إعادة تحديد المهام تلك، وإلى جانب التسابق على المناصب والسلطة، هو إشراك المستشارين والمسئولين الذين تولوا مناصب «مفتاح» فى مجلس الأمن القومي والعاملين فى مكاتب كلينتون وبايدن الشخصية، إشراكهم فى تصنيع فاعلية المسار الأيديولوجى لقوة الولايات المتحدة فى عصر ما بعد بوش. أى أن الكثيرين من مستشارى أوباما للأمن القومى كانوا فى طور الحضانة والإعداد والتطوير أثناء الانهيار التدريجى لفترة رئاسة بوش الثانية. ومثلما فرّخ «مشروع القرن الأمريكي» الجديد برنامج المحافظين الجدد للقوة الصلبة و«أجندة الحرية»، أمدّ بروكينجز إنسنيتيوت ومركز التقدم الأمريكى منظرى «القوة الذكية» بمنتدى يصيغون من خلاله ورقة عملهم والمانيفستو الخاص بهم. من ثم فإن النقلة فى النماذج المعيارية التى بدا أوباما وأن يكبسلها لم تنجم عن عبقريته الخاصة بقدر ما كانت نتاج مجموعة مركزية من شباب الأكاديميين، والمسئولين السابقين عن السياسة الخارجية فى إدارة

كلينتون والذين قاموا بإعادة تأطير أفكار ناى عن القوة الناعمة «والذكية» ليجعلوا منها وسائل برجماتية لإصلاح وزارة الخارجية وإعادة هيكلتها من أجل الإدارة الفطنة لقيادة الولايات المتحدة التى لا نظير لها للكوكب.

مبادرة فينكس:

فى عام ٢٠٠٨، أصدرت «مبادرة فينكس Phoenix Intiative» تقريرا بعنوان «القيادة الاستراتيجية: إطار لاستراتيجية الأمن القومى فى القرن الحادى والعشرين». هذه المبادرة هى تجمّع لمتهنى الأمن القومى الذين اجتمعوا معا للمرة الأولى فى عام ٢٠٠٥، وتقريرهم مثير للاهتمام لأسباب عديدة، كما أنه يستبق جوهر «النقلة»- التى حدثت في فترة ما بعد بوش. يشمل كُتّاب التقرير المجموعة سابقة الذكر من مستشارى أوباما وبايدن وكلينتون، وبخاصة أنطونى بلينكن مستشار بايدن للأمن القومي، وجيمس ستاينبرج، نائب وزير الخارجية، وآن - مارى سلوتر التى يبدو تأثيرها لافتا فى التقرير ولأسباب وجيهة: كانت سلوتر عميدة كلية وودرو ويلسون بجامعة برينستون، وتعمل حاليا مديرة تخطيط السياسة لكلينتون، وهى منظّرة وأكاديمية فى مجال السياسة الخارجية والقوة الأمريكية. وعلى الرغم من مماحكاتها «الليبرالية» فقد دعمت سلوتر غزو العراق واستخدام المحاكم العسكرية فى جوانتنامو. وفى التمهيد للتقرير الذى كتبته سوزان رايس، العضوة السابقة بالمبادرة، تعترف دونما قصد بإسهام سلوتر فى التقرير، هذا على الرغم من وجود تعارضات طفيفة بينه وبين مواقفها الصقورية المتطرفة كسفيرة للولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة. تقول رايس إن التقرير «طوّر مفهوما مختلفا للقيادة الأمريكية يمثل قطيعة مع المفاهيم التقليدية من أمثال الاحتواء والاشتباك والتضخيم ويرفض الثنائيات المعيارية لسياسات القوة الواقعية مقابل المثالية الليبرالية».

يعرض التقرير مقترحات بدت أثناء سنوات بوش عقلانية ومنطقية. يتحدث التقرير عن تخفيض عدد القوات بالعراق وسحبها فى النهاية، وإغلاق جوانتنامو، و«الاشتباك فى حوار مع الأعداء» وتقليص الفقر، والتنمية وأيضا تقوية العلاقات مع الأصدقاء،

وتطوير شراكات جديدة، وتشكيل تحالفات من أجل حل قضايا انتشار السلاح النووي، وقضايا الأمن الكوكبي والتغير المناخي. يؤكد التقرير على أن إشهار القوة الأمريكية يجب أن يكون من خلال «قيادة استراتيجية، تستند بقوة إلى فن إدارة شئون الدولة كبديل للقوة العسكرية وكمكمل لها».

وفي هذا الصدد، بالإمكان رؤية تأثير مبادرة فينكس بوضوح على خطابيْ أوباما في القاهرة وأوسلو. جمّع المثقفون والمفكرون السياسيون الذين شاركوا في التقرير «صندوق عدة» متنوعة ذات أطراف مُستدقة متعددة تستخدمها «القيادة الأمريكية». يزعم التقرير أن «الإدارة الناجزة لشئون الدولة» هو مفتاح «تعزيز الرخاء» بالداخل والخارج، رخاء يتوقف على العولمة الاقتصادية المستمرة وأيضا «نظرة موسعة إلى الديمقراطية. تشمل تطوير مختلف البلدان للمؤسسات السياسية مثل الإعلام المستقل، والنظام القضائي المستقل، وتنظيمات المجتمع المدني النشيطة، ونظام حزبي تنافسي». تعبر خطابات أوباما عن تعقيد الاستراتيجية الجديدة للقيادة في عصر ما بعد بوش، وتستخدم لغة تقرير فينكس وتأخذ «في الحسبان جميع أبعاد الأمن القومي – الاقتصادية والاجتماعية ومعها السياسية والعسكرية».

بتعبير آخر، تتناسج في التقرير العسكرة واستخدام القوة العسكرية مع الاحتياجات الإنسانية والسياسية والبيئية للنظام العالمي الذي ينبغي على الولايات المتحدة أن تقوده. وفي النهاية يقوم التقرير بإحكام وإيجاز، بإدماج رؤية جوزيف ناي للقوة «الذكية»، ونيوليبرالية روبرت كوهانا، والتوليفة العملياتية السياسية لسلوتر وجيمس ستاينبرج وينتهي إلى أن «الاختبار الإجمالي للقيادة الاستراتيجية في الشرق الأوسط هو المساعدة على نقل الدينامية من حالة كونها دينامية صراعات تدميرية تُشعل بعضها إلى دينامية بناءة للتقدم في مجموعة من القضايا تدعم التقدم في باقي القضايا».

تبدو استراتيجية القوة الذكية لمبادرة فينكس وأنها تحاول الخروج من إطار النماذج المعيارية الحضاراتية والأخلاقية التي طرحها برنادرد لويس ونفذها حرفياً

وبإخلاص المحاربون الصليبيون فى إدارة بوش. وبدلا من «نحن بالتقابل مع هم»، يُجمّع التقرير معاً «ثلاثة أنماط من اللاعبين داخل إطار الشبكات الإرهابية» ويميزهم عن بعضهم إذ إنه «ينبغى على سياسة الأمن القومى أن تعزل وتستهدف المنفذين الذين يخططون الأعمال الإرهابية ويرتكبونها؛ والمتواطئين من الدول وغير الدول الذين يمدونهم بالعون المالى واللوجستى وخلافه، والمتعاطفين الذين لهم ارتباطات ما بقضية الإرهابيين لكنهم لا يشاركون مباشرة». هذه المقولة دالة إذا أخذنا فى الاعتبار أن هذا التمييز التحليلي أتى به إلى إدارة أوباما الكثيرون من كتبة التقرير الذين يتولون الآن مناصب فى هذه الإدارة، أى أن مبادرة فينكس صنعت نقلة فى النماذج المعيارية من دون أى تحول أيديولوجي، حيث إنهم حددوا «الاختلافات العملياتية» التى ينبغى أن تميز عهد أوباما عن سلفه، وتلاعبوا بالأساليب والسياسات بهدف تحقيق الغايات ذاتها، أى هيمنة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية. مثلا، ثمة اعتراف بأن عملية اجتياح العراق كانت «حربا خاطئة» هذا على الرغم من القول بأن «ثمة حروباً ينبغى علينا أن نخوضها». وفيما يذكر التقرير «تخفيض التواجد العسكرى بالعراق وزيادة النشاط الدبلوماسي» فإن ثمة تغافلاً بيّناً عن احتلال أفغانستان. من ثم، نجد أن المفكرين وصناع السياسة المشاركين فى تقرير فينكس يسعون إلى إعادة توجيه مسار لغة «القوة الإمبريالية، وصلافتها وتكتيكاتها باتجاه إدارة المتغيرات العديدة فى اقتصاد قوة رأسمالٍ معولم ومتعدد المراكز بدلا من التحكم المباشر.

يبين رون ساسكيند فى مقال له بعنوان «عقيدة چورچ دبليو بوش ويقينه ورئاسته» نشره بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٤ بمجلة النيويورك تايمز، أن إدارة بوش كانت تؤمن بأننا «حينما نفعل فنحن نخلق واقعنا الخاص». يناقض «تقرير القيادة الاستراتيجية» هذا المبدأ ويأتى براوية يمكن أن تنطلى على الأصدقاء، و«الأصدقاء المحتملين» بل وحتى الأعداء، حيث تقدم استراتيجية تزيد من عدد حملة الأسهم فى النظام العالمى المهيمن، وبخاصة من العالم الإسلامي. تردد رؤية مبادرة فينكس للسياسة أصداء ألفناها فى مقترحات زكريا، حيث إنه، وفيما شعر زكريا أنه من المهم تبنى تغيير

النظام فى العراق وخلق عراق نيوليبرالى يمثل «قصة نجاح» أمام العالم الإسلامي، يدعو مفكرو تقرير فينكس الرئيس القادم إلى تقديم «بديل مقنع» للرواية المتطرفة التى تقدمها التنظيمات السياسية الإسلامية، حيث ينبغى على حكومة الولايات المتحدة تقديم «قصة إيجابية تؤكد على الميزات العديدة التى سيكتسبها الأفراد المسلمون، وبخاصة الشباب منهم، من ارتباطهم بالاقتصاد الكوكبى والمجتمع المعلوماتي».

إن شر مثل هذه القصة، ومعها الدعاية لرواية مزايا النيوليبرالية والعولمة وقيادة الولايات المتحدة للعالم تمثل على أرض الواقع سلاحا عملياتيا.

ليست اللغة الاقتصادية العقلانية للنقلة المعيارية المستعدة لفك اشتباكات المعركة الحضاراتية بل وإيجاد «فرص لتطوير علاقات محسّنة مع عناصر الإسلام السياسى الأكثر اعتدالا» ليست نوعا من الدهاء والحيلة، بل ضرورة سياسية. ومفهوم مبادرة فينكس هو هذا تحديدا، وسيلة جديدة لإيجاد «قيادة أمريكية» مقنعة، لاتصادمية إن أمكن، لاقتصاد كوكبى يتسم بانتشار القوة الاقتصادية والسياسية الموزعة على مراكز عدة. لا يهدف التقرير إلى تصحيح المظالم الاجتماعية والاقتصادية والبيئية وانعدام العدالة؛ حيث نجد وبما لا يدع مجالا للشك، أن التعقيد والكياسة والمشروعية التى تؤكد عليها استراتيجية القيادة كما وردت فى تقرير فينكس تنحصر فى «تعزيز مشروعية الأفعال والإجراءات الأمريكية وتوسع نطاق قوتنا ونفوذنا» فى ظل اقتصاد وواقع كوكبيين.

اتسم ترشح أوباما ورئاسته بأسلوب القوة الناعمة لمحاولة «جعل الآخرين يُريدون ما نريده نحن». كان خطاباه إلى العالم الإسلامى بأنقرة والقاهرة، وخطاباه إلى إيران بمناسبة عيد النيروز، كانت جميعها تحديدا محاولات للاستمالة والإقناع والتعاون. وباتباعه نصيحة سلوتر ومبادرة فينكس، خاطب أوباما، تتابعيا، جماهير المسلمين على أمل أن يصيب الخطاب الأيديولوجى للقوة الناعمة (الإنسانية المشتركة، والحقوق الشمولية، والمبادئ المشتركة.. إلخ) هدفه. وبأساليب عدة، فإن تكتيك الإقناع الذى يتبعه أوباما هو وسيلة لإبطال مراكز القوة الصلبة وممارساتها والتى أضفت عليها

الإدارة السابقة الصبغة المؤسسية وجعلتها واضحة مرئية بأسلوب أليم. بيد أن أوباما أيضا يذكّر العالم الإسلامى أنه على الرغم من الإنسانية والتاريخ الذى يشاركهما مع الغرب، والدعوة إلى تعددية الأطراف والحوار والفرص الاقتصادية والأيدى المفتوحة، فإن أساليب القوة الصلبة التى عُرف عن الولايات المتحدة استخدامها فى العالم أحادى القطب مازالت جميعها أدوات فاعلة قابلة للحياة فى السياسة الخارجية الأمريكية. لا يعتبر هذا مناقضا للغة «القوة الناعمة» وفلسفتها، بل، وحرفياً، فإنه جزء لا يتجزأ منها، وبخاصة وفقا لرؤية المرتبطين بمجموعة فينكس.

وفى هذا الصدد، لم تكن السنوات الأولى لرئاسة أوباما تخلياً عن خطاب النقلة الجديدة فى النماذج المعيارية، أو تغييرا فى السياسة، حيث كان خطاباه فى القاهرة وأوسلو صريحين صادقين. بيد أنه ينبغى أن يُقرأ من دون الفلتر المتفائل لداعميه الذين يشعرون الآن، ويتزايد، بخيبة أمل، ليس لأن أوباما قد نكث بوعوده، بل لعدم استعدادهم هم الانتباه إلى الوعود التى قطعها على نفسه بالحفاظ على نفوذ وتواجد الولايات المتحدة فى العالم وتوسيع نطاقهما. لم تخف خطابات أوباما التى ألقاها فى العواصم الأجنبية أو خطابه الاستهلالى الحقيقة النهائية والتى تشكل الأساس التحتى لها، وهى أن اهتماماته بالأمن الكوكبي، والرخاء، وحقوق الإنسان والديموقراطية تستند إلى ضرورة تغيير الاستراتيجيات من أجل إضفاء المشروعية والمصداقية على الإمبراطورية الأمريكية وإطالة عمرها.

هيلارى كلينتون، وفريق الأمن القومي، وذكاء القوة:

ورأينا فى الفصل السابق استمرار الإسلاموفوبيا وممارساتها على مستوى الدولة والمستوى الخاص. داخلياً، أعطى أوباما الأولوية للسياسات «الأمنية» على حساب الحريات المدنية، مثلما أدى تواطؤه مع وول ستريت إلى مناصرته على حساب الاحتياجات الاجتماعية لضحايا عدم مسئولية رجال المال والأعمال. رأينا كيف أن إدارة أوباما مازالت مستمرة فى مقاضاة المشتبه فيهم باستخدام تهم مضللة مثل تقديم «الدعم المادى للإرهابيين»، وشهدنا كيف استمر فى عزل المسلمين داخل وحدات

سجن خاصة تسمى «وحدات إدارة الاتصال» وحرمانهم من الحريات الإنسانية والمدنية التى يتمتع بها السجناء الآخرون، كما رأينا أن الإف بى آى فى عهد أوباما مازال يستهدف المسلمين ويُنفذ إعداما بعيدا عن سلطة القضاء مثلما حدث فى حالة الإمام لقمان. مازال المسلمون والعرب وغيرهم من ذوى البشرة السمراء يتعرضون للتوقيف والمضايقات والتشاحنات إلى جانب أخذ بصماتهم والتقاط صورهم. وفى ظل إدارة أوباما، اتسعت قائمة الممنوعين من الطيران والتى تضم فى معظمها أشخاصا مسلمين. وعددا من المعارضين اليساريين والنشطاء والمثقفين، بحيث تم منع عدد من المواطنين من السفر بالطائرات، ووجد آخرون أنفسهم بالخارج وقد مُنعوا من العودة إلى الولايات المتحدة. نعرف أيضا أن القوات التابعة لوزارة الأمن الداخلى ومصلحة الهجرة وفرض الجمارك ICE مازالت تُغير على المهاجرين وتحتجزهم وترحلهم بذريعة الأمن القومى وكان أوباما هو من أمر بعسكرة الحدود الأمريكية المكسيكية فيما يقوم حرس الحدود بإطلاق النيران على الصبية المكسيكيين وضربهم بحصانة تامة.

نعلم أيضا أن وزارتى العدل والخزانة فى عهد أوباما مازالت تضايق وتستهدف الأفراد المسلمين والمساجد والمؤسسات الخيرية الإسلامية. مازالت وزارة العدل مستمرة فى محاكمة المشتبه فيهم وسجنهم على أساس تهم مُضللة مستخدمة المحرضين والمخبرين، وتطبيق أساليب عقابية دونما سند من القانون مثل الحبس المنفرد. أيضا، استمرت الوزارة فى اتباع الإجراءات «الخاصة»، لعزل المتهمين المسجونين بناء على تهم غير محددة مثل «الدعم المادى للإرهابيين». نعلم أن المدعى العام فى عهد أوباما نجح فى زيادة القيود على حرية الكلام السياسى وحرية التجمع والارتباط حينما كسب قضية المحكمة العليا «هولدر ضد مشروع القانون الإنساني» الذى جعل التعامل أو التفاعل مع أية مجموعة تصنفها الولايات المتحدة على أنها منظمة إرهابية غير قانونى حتى لو تضمن ذلك «التدريب المباشر» لتلك المنظمات على «كيفية استخدام القانون الدولى لحل النزاعات». علاوة على ذلك استأنفت وزارة العدل فى عهد أوباما حكما بسجن لين ستوارت محامية حقوق الإنسان التى تولت الدفاع

عن كثير من مشاهير الموقوفين بمن فيهم الشيخ عمر عبدالرحمن. وحصلت من خلال الاستئناف على حكم بسجن تلك الناشطة والمحامية الحقوقية البالغة من العمر سبعين عاما لمدة عشر سنوات.

على المستوى الدولي، اتسمت قوة أوباما الناعمة بإيماءات طقوسية واستخدام لغة التبادلية، لكنها واكبتها دائما تهديدات استخدام إجراءات القوة الصلبة. وعلى الرغم من التوصل إلى اتفاقية مع إيران تم التفاوض عليها من خلال تحالف مستقل بين البرازيل وتركيا، مضت إدارة أوباما فى اتباع تكتيكات القوة الصلبة ضد الجمهورية الإسلامية وضغطت من أجل إصدار إجراءات عقابية ضد إيران بسبب برنامجها النووي. وفيما أعاد أوباما تصنيف احتلال العراق بأن أطلق على القوات الأمريكية المتبقية هناك وعددها ٥٠٠٠٠ جندى مُسمى قوات «غير مقاتلة»، فقد عمد إلى مصاعدة الحرب فى أفغانستان مما ضاعف من عدد القتلى من المدنيين بحيث وصل إلى مستويات غير مسبوقة. سمح الرئيس باستخدام الطائرات بدون طيار والعملاء السريين لقتل المدنيين دونما سند قانونى فى الداخل الباكستاني. استمرت إدارة أوباما أيضا فى شرعنة تسليم الموقوفين إلى حكومات عميلة تتولى تعذيبهم، وفى عدم محاكمة المسئولين الذين قاموا بانتهاكات فاضحة للمواثيق الدولية. تواصل إدارة أوباما أيضا سياسات الاحتجاز العشوائى والتعذيب فى المواقع السوداء بأفغانستان وأنحاء أخرى وفى حرمان ضحاياها وأسرهم من اللجوء إلى الإجراءات القانونية بالولايات المتحدة. مازال الرئيس مستمرا فى إجراءات الاحتجاز غير القانونى ومحاكمة «المقاتلين الأعداء» أمام محاكم عسكرية، وكان بين هؤلاء عمر خضر الذى تم احتجازه وتعذيبه وهو فى الخامسة عشرة من العمر. وبخلاف بوش، فقد أضفى الرئيس الشرعية على سلطة حكومة الولايات المتحدة لاتخاذ إجراءات خارجة عن نطاق القانون فى الداخل والخارج، بما فى هذا تنفيذ الإعدام دونما سند قانونى ضد مواطنين أمريكيين يشتبه فى تورطهم مع تنظيمات إرهابية. وبخلاف بوش أيضا أمر الرئيس أوباما بنشر قوات خاصة فى ٧٥ بلدا بأسلوب سرى فى حربه على الإرهاب، ومعظم تلك البلاد بلاد مسلمة.

وعلى الرغم من تأثير المفكرين وصناع السياسة الذين وضعوا مبادرة فينكس، فإن التشكيلات الأيديولوجية للإسلاموفوبيا تكوّن بنية تبريرات سياسة أوباما الداخلية والخارجية تماما كما كان الحال فى عهد سلفه. وكما رأينا فى خطابه بالقاهرة، فإن خطاب القوة الناعمة الذى استخدمه مُحمَّل بلغة حضاراتية مصقولة مُبطنة بحيث تتحول «اليد المفتوحة» لسياسة أوباما إلى «قبضة محكمة» باسم القيم الشمولية والمساعدات والازدهار الكوكبي. وبما أن أوباما لم يأت إلى منصبه ولديه سجل قوى في السياسة الخارجية، فقد استند طوال حملته، ورئاسته، كما يفعل الرؤساء، إلى هيئة العاملين معه، وإلى فريق الأمن القومي، من أجل تشكيل استراتيجيات سياسية، وتكتيكات عملية تتناغم مع خطابه الخاص عن القوة الناعمة.

ومن أجل إيجاد توازن بين وضع الإجماع الذى توصل إليه واضعو مبادرة فينكس، والذين أصبحوا مرءوسين أساسيين فى مجال السياسة الخارجية بإدارته، نجد أن سياسة أوباما فى الشرق الأوسط يشرف على وضعها مجموعة متنوعة. يتألف فريق الأمن القومى ومستشاروه من مجموعة تتراوح بين جون برنان والجنرال جيمس جونز، ودنيس روس مسئول إيباك السابق ومبعوث كلينتون إلى الشرق الأوسط، ورام إيمانويل الذى كان قد سبق له حمل الجنسية الإسرائيلية الأمريكية المزدوجة. علاوة على ذلك، يضم بيت أوباما البيت رئاستين قويتين للسياسة الخارجية تتنافسان على الهيمنة هما نائب الرئيس ووزيرة الخارجية.

توازن هيلارى كلينتون، وزيرة الخارجية، بين «القيادة الاستراتيجية» كما جاءت بمبادرة فينكس، وبين خطاب «القوة الناعمة» للرئيس مطعما باستخدام إرادى للمفردات الحضاراتية التى كانت قد أبقت عليها آمنة بمقعدها بمجلس الشيوخ والتى جعلت منها مرشحة محتملة للرئاسة. أحيانا تعمد كلينتون إلى التخفيف من الرواية الحضاراتية لكن، حينما يتعلق الأمر بقضايا الأمن والإرهاب «الإسلامي» تطغى هذه اللغة على خطابها. مثلا، بعد التفجيرات الدموية فى مترو موسكو التى نفذها الانفصاليون الداغستانيون فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٩، تعهدت كلينتون قائلة «إننا

نحارب نفس الأعداء، هؤلاء الذين يريدون إدارة عقارب ساعة الحضارة إلى الوراء». لا تذكر أى بلد غير غربى يخوض المعركة بل تقول تحديدا إن المتطرفين الإسلاميين يقفون «ضد أوربا، والأمريكيين، والروس، والكنديين». وعلى الرغم من كل حديثها أثناء ترشحها للرئاسة عن النقاشات الثنائية، والمؤتمرات الإقليمية والمحادثات المباشرة، وبناء الإجماع، فقد ظلت هيلارى كلينتون على الدوام من الصقور إزاء الشرق الأوسط. كانت، قبل أن تصبح وزيرة للخارجية قد صوتت لصالح غزو أفغانستان والعراق، وكذلك لصالح قانون باترويت ولصالح تجديده فى عام ٢٠٠٦. بيد أن الأكثر سوء سمعة من كل هذا، هو أنها أقسمت أثناء الانتخابات الأولية لاختيار الحزب الديموقراطى مرشحة للرئاسة، على «أن تمحوهم من الوجود تماما» إذا هاجمت إيران إسرائيل بالسلاح النووى الذى لم تنتجه، وفى متابعة لهذا أصرت على أنها تريد من الإيرانيين أن يعلموا أننى «إذا أصبحت رئيسة سوف أهاجم إيران (إن هى هاجمت إسرائيل)».

لا يجوز لمثل هذه الأقوال أن تثير الدهشة فقد ظلت هيلارى على مدى عقود داعمة متشددة لإسرائيل بما فى هذا دفاعها المُفوَّه عن جدار الفصل العنصرى الذى أقامته إسرائيل، هذا علاوة على تهليلها للإسرائيليين وتشجيعها لهم أثناء تدميرهم الوحشى للبنان، حيث إنه، وفيما كانت كونداليزا رايس، وزيرة الخارجية آنذاك تتحدث عن قصف المدنيين اللبنانيين وإراقة دمائهم بصفته «مخاض الديموقراطية والشرق الأوسط الجديد» كانت كلينتون تشارك فى تظاهرة تؤيد الاجتياح الإسرائيلى وتقول إن على الولايات المتحدة أن تُظهِر «دعمها لإسرائيل وتضامنها معها لأنها تمثل القيم الأمريكية والإسرائيلية معا». ثم مضت تضيف بعاطفة جديرة بدايفيد هوروويتز إن عنف إسرائيل ضرورى من أجل «البعث برسالة إلى حماس وحزب الله، وأيضا إلى السوريين والإيرانيين» حيث إن تلك الأنظمة ومعها المتطرفون الإسلاميون «شموليون: «إنهم الشموليون الجدد للقرن الحادى والعشرين».

ولكن، وكوزيرة للخارجية، اضطلعت كلينتون بدور البوق لسياسة أوباما الخارجية والإمبراطورية الأمريكية. وكما رأينا أعلاه، فقد قام أوباما كرئيس منتخب بتعيين «فريق الأمن القومي» بحيث يمثل استراتيجية الولايات المتحدة الجديدة كقوة عالمية. وبعد مقدمة أوباما، عرضت كلينتون بإيجاز وإحكام للقوة الأمريكية قائلة:

«إن الشعب الأمريكى بانتخابه باراك أوباما رئيسا قادما للولايات المتحدة قد طالبوا، ليس فقط بتوجه جديد بالداخل، بل بجهد جديد لتحديد وضع أمريكا فى العالم كقوة للتغيير الإيجابي. نعلم أنه لا يمكن حماية أمننا وقيمنا ومصالحنا من خلال القوة وحدها، أو، حقا، بواسطة الأمريكيين وحدهم. علينا اتباع دبلوماسية نشطة باستخدام جميع ما يمكن حشده من أدوات من أجل بناء مستقبل مع شركاء أكثر وأعداء أقل، فرص أكثر وأخطار أقل لجميع من يسعون إلى الحرية والسلام والازدهار».

تعتبر كلمات كلينتون وزيرة الخارجية مقدمة لوضعها القيادى فى سياسة أوباما الخارجية، وتعريفا بموقف وزارة الخارجية الاستراتيجى الجديد من «القوة الذكية». تعلمت كلينتون خلال سنوات طويلة من الاختلاط باليمين الأكثر تطرفا انتحال استراتيجيات «القوة الناعمة» ولغتها واستخدامها خارج مجالات المحافظين الجدد، أى أن أوباما وكلينتون تحاشيا تسمية «القوة الناعمة» باسمها الأصلى عن إدراك وحرص. توضح كلينتون فى سيرتها الذاتية، ودونما لبس، أنها مدركة تماما أن تدابير المنظرين اليمينيين من أمثال روبرت كيجان، والذين أطّروا النقاشات حول قوة الولايات المتحدة بعد ٢٠٠١ على أنها قضية للقوة مقابل الضعف. من ثم، فقد نصت بوضوح قائلة «علينا أن نستخدم ما يُطلق عليه القوة الذكية: المدى الكامل من الآليات الموجودة تحت تصرفنا – الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية والقانونية والثقافية – ونختار الآلية الصحيحة، أو مجموعة منها، وفقا لكل وضع». توضح الصفحة الإلكترونية لمكتب كلينتون للشئون العامة الخطوط العريضة للوسائل والتكتيكات التى من خلالها تأمل إدارة أوباما تنفيذ أجندتها. وفى واقع الأمر فإن لغة «القوة الذكية» تبدو منعشة

للنخب العالمية حيث إنها تتحدث عن «الإنسانية المشتركة» للأعداء، و«تتطلب محاولة الوصول إلى الأصدقاء والأعداء معا والتواصل معهم وتنشيط التحالفات القديمة وتصنيع أخرى جديدة». ومن هذا المنطلق فإن القوة الذكية وسيلة ماكرة لنشر مظهر القوة وليس نشر القوة ذاتها وتوزيعها؛ إنها تنشر المصادر الصارخة للقوة التى تشع من المراكز الإمبريالية لرأس المال والتحكم، أى تنشر المسئولية واستحقاق اللوم بعيدا عن الأقوياء وتوزعها بين حلفائهم الأكثر ضعفا، ومن ثم، نرى أن الحس بالتضمين هو الجوهر الفلسفى للانتقاء والاستيعاب، ويعد جوهريا فى رؤية أوباما الإمبريالية، إنه الوسيلة الدبلوماسية لجعل الآخرين «يريدون ما نريده نحن».

وبعد تسمية كلينتون وزيرة للخارجية، أشاد الكثيرون فى الصحافة باستراتيجية القوة الذكية و«البرجماتية المبدئية»، وواقعيا مزجت هذه الاستراتيجية «برجماتية» زكريا، مع «مثالية» لويس التى تستخدم «القيم الشمولية» مرشدا إلى «التغيير الإيجابى فى العالم». بصياغة أخرى، كانت روايتها مزيجا يغلب عليه مبادرة فينكس، مع عتاد (هاردوير) مُحسَّن ولغة واضحة محددة كتجهيزات للقوة الصلبة. وفيما أبقت وزيرة الخارجية على إمكانية توجيه الضربات العسكرية المهلكة خيارا حاضرا لا يتم التحدث عنه، كما ظل دائما، فقد مضت تستدعى آليات الإدارة الإمبريالية ووسائلها والتى لم تتوقف هى وأوباما عن تكرارها طوال توليهما مناصبهما، أى «البرجماتية»، «الفضائل والمبادئ الأمريكية»، «تعددية الأطراف»، «الشراكة» و«المؤسساتية» أو إقامة مؤسسات دولية وداخلية ودعمها والتحكم فيها. وإذا لم تكن هذه الشراكة والمؤسساتية ممكنة، تتوجه الولايات المتحدة نحو دعم التنظيمات الجماهيرية القاعدية، والنشطاء والتنظيمات غير الحكومية أى المنظمات المحلية وبرامج التدريب والإعلام المستقل. لا تذكر كلينتون أبدا مستشاريها أو الفريق الذى لعب الدور المفتاح فى مبادرة فينكس، لكنها تورد مقترحاتهم بإسهاب، وتقول إنه وبدلا من استخدام الولايات المتحدة قوة الدولة والتحدث عن ذلك بصراحة، فعليها أن تنمى مجموعات معارضة داخل الدول المارقة وتستوعبهم وتتودد إليهم من أجل المستقبل، و/أو تعمل على إثارة الضغوط

الداخلية. تذكر كلينتون أن تلك الاستراتيجية حكيمة (رغم أنها إمبريالية، وهذا ما لا تذكره)، وتستشهد بشاعر قديم لتوضح أن القوة الذكية والنزوع إلى الإقناع ليست أفكارا راديكالية، وأن الرومان كانوا من داعمى استخدام القوة والإقناع.

ما يميز زمن العولمة الذى بدأ مع بيل كلينتون هو أن آليات الاستيعاب والضغط والإقناع «طويلة» المدى ومرتبطة بـ «التنمية» فى المجتمعات المتخلفة واقتصاداتها وثقافاتها، وتغييرها وإدماجها فى الاقتصاد الكوكبي. تستخدم كلينتون، بما لا يختلف كثيرا عن الرومان، القوة الذكية لربط الديموقراطية وحقوق الإنسان بالسياسات النيوليبرالية، تحت غطاء «التنمية الاقتصادية». ليست حقوق الإنسان والأجندات السياسية بدرجة التصدع التى كانت عليه فى زمن بوش، بل هى مرتبطة فى خطاب القوة الذكية بوضوح بأسلوب لا ينفصم عراه بأجندة سياسية أكثر شمولا. تذكر كلينتون هذا تحديدا فى خطاب سياسى مبكر لها بجامعة جورج تاون حيث تقول «ليست حقوق الإنسان والديموقراطية والتنمية أهدافا ثلاثة منفصلة بأجندات ثلاث منفصلة». بصياغة أخرى، فإن الأجندة التكاملية الكلية، بحسب رؤية أوباما، الخاصة بالتواجد الكوكبى للولايات المتحدة، هى أجندة ليس بها مساحة للمعونات الإنسانية أو مناصرة حقوق الإنسان بأسلوب غير متصل بالأجندة السياسية. من ثم فإن «تبنى المستويات الأساسية لخير الشعوب - الطعام، المأوى، الرعاية الصحية، والتعليم - والصالح العام المشترك - مثل الحفاظ على البيئة والحماية من الأمراض الوبائية وتوفير احتياجات اللاجئين»، ليست من مسئوليات الولايات المتحدة المباشرة، بل هى مهمة الحكومات الديموقراطية التى تديرها الولايات المتحدة بواسطة «أدواتها وتكتيكاتها المرنة». ثم تمضى كلينتون لتقول إن واشنطون ستساعد تلك البلاد والتى تربطنا بها شراكة «كى تستطيع الحصول على السلطة والوصول إلى التقدم الذى ترغبه، أما تلك الحكومات غير المستعدة لإحداث التغييرات التى يستحقها مواطنوها، فينبغى علينا الضغط بقوة على قادتها لإنهاء القمع».

وكما رأينا فى خطاب كلينتون بجورج تاون، فإن عقيدة «البرجماتية المبدئية»

مغلفة بطبقة براقة من الاهتمام بحقوق الإنسان، والحريات للجميع، والأهم، بتبنيها لقضايا النساء وبخاصة فى العالم الإسلامي. ظلت كلينتون لفترة من الوقت من القيادات المناصرة لاستخدام قوة الولايات المتحدة العسكرية لتحرير النساء من قمع الذكور ذوى البشرة السمراء. وكوزيرة للخارجية فى عهد أوباما، لم تكتف كلينتون بالوعد بعدم التخلى عن النساء الأفغانيات، لكنها كانت أحد أكثر المشجعين المفوهين لاستخدام شجاعة جنود الولايات المتحدة وحلفائها لإعادة الأمل إلى كثير من النساء والعائلات فى أنحاء أفغانستان. وقد رأينا كيفية انتقاء قضية حقوق النساء واستخدامها لتصنيع الموافقة على استعمال سياسة خارجية تدخلية سواء كانت السياسات القائمة على أساس التدخل العسكرى أو «الإقناع». وتلك مسألة، بالنسبة لإدارة أوباما، دالة على النهج التكاملى الكلى لإشهار القوة السياسية على مستوى الكوكب. ومما لا شك فيه فبإمكان المرء أن يرى كيف تمثل مجموعات الأمن القومى التابعة لأوباما وكلينتون وبايدن التوترات الدقيقة التى لا تكاد تلاحظ حتى داخل إطار القوة الناعمة أو الذكية، حيث إن هؤلاء المستشارين والدبلوماسيين والمسئولين هم تنويعه من «البرجماتيين» من الصهاينة والحزب الديموقراطي، والذين لدى الكثير منهم علاقات منذ وقت طويل مع المجالس المعيارية المؤثرة، ومراكز الأبحاث والدراسات والتنظيمات «الليبرالية» مثل مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد بروكينجز. يتضمن المستشارون والمسئولون الدائمون والمؤقتون جميع منظرى الحزب الديموقراطى لقوة الولايات المتحدة الأحادية مثل دنيس روس، ومارتن إنديك، وبرووس ريدل، وجيمس ستاينبرج، وآن مارى سلوتر، وريتشارد هولبرووك، وأنطونى لايك، وسوزان رايس.

أوباما يتنصل من الإسلام:

أثناء الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨، اجتمع التلاقى الأيديولوجى بين عنصرية أمريكا البيضاء ضد السود وكراهية التيار السائد للمسلمين ليشكلا حملة دعائية قوية مضادة للمرشح الرئيسى عن الحزب الديموقراطي. كان استطلاع جالوب قد بين

أن ثمة انطباعا مؤيدا لأوباما فى العالم العربى والبلاد الإسلامية الأخرى. أضافت علاقة أوباما برشيد خالدى والمزاعم بأن حماس تدعم ترشحه مزيدا من الوقود الذى زاد إشعال تمثيلات أوباما، مرشح الحزب الديموقراطي، بوصفه إرهابيا، ومتعاطفا مع الإرهابيين، ومسلما فى السر، ومرشحا مناصرا للفلسطينيين وكارها لليهود. فسر الصهاينة الأمريكيون من أمثال مايكل أورينز، الذى أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل فى الولايات المتحدة، طريق أوباما للسلام فى الشرق الأوسط على أنه «الطريق إلى بغداد وطهران الذى يمر من خلال بيت لحم ونابلس».

فى وقت مبكر من عام ٢٠٠٨، أشاع كنث لامب، وهو قرصان مدوّن تافه، أن أوباما عربى بنسبة ٤٣,٧٥٪، وأنه لم يكتف فقط بفبركة جنسيته، بل أيضا قام بفبركة جذوره الأفروأمريكية ليحصل على أصوات السود، وأنه كعربى استغل فترة عضويته القصيرة بمجلس الشيوخ ليجمع حوله شلة سرية من «أثرياء العرب المعادين لإسرائيل» الذين يحتلون مناصب مرموقة. فى مقال لها بدورية كونسيرفاتيف فويس (صوت المحافظين) قبل شهر من انعقاد المؤتمر القومى للحزب الديموقراطي، كتبت ليندا كوان تقول «فكروا فقط فى الإمكانيات التى ستتاح له لتجميع محتالى العالم وأشراره وإرهابييه معاً فى بيتنا الأبيض». عملت جيوش جرارة من المدونين اليمينيين المرتزقة من أمثال دانييل پايپس وپاميلا جِلر ودبى شلوسل بمرافقة حشد من متحدثى القنوات الفضائية على التأكد أن مثل تلك الأحاديث العبثية، تجد آذانا خصبة مصغية فى أوساط المحافظين وصفوفهم لتشويه سمعة أوباما. عبّر المتظاهرون المؤيدون لماكين، وهم يحملون البنادق، عن خوفهم وغضبهم من أن أوباما مسلم وعربي، وأيضا عبرت مناصِرةٌ لماكين متقدمة فى العمر فى اجتماع ببلدية المدينة عن ارتيابها فى أوباما لأنه عربي. تم تداول أعداد مفرطة من صور أوباما وهو يرتدى الزى الإسلامى بدرجة أن نشرت ذا نيويوركر مجازين رسماً يسخر من تلك الترهات على غلافها يصور أوباما فى زى مقاتل إسلامى يصافح الزعيم الأسود ميتشل فيما تشتعل النيران فى العلم الأمريكى وتظهر صورة بن لادن معلقة على الجدار.

أحدثت الدفاعات بأن أوباما أسود، وأمريكى أصيل، ومسيحى ملتزم نفس الأثر

المنفر الذى أحدثه الهجوم عليه وتشويهه بصفته عربيا ومسلما. فى اجتماع البلدية ذاك، «دافع» ماكين عن أوباما قائلاً إنه ليس عربيا بل رجل عائلة ملتزماً ومواطناً.

تعتبر اتهامات أوباما بأنه عربى ومسلم التى واجهتها حملته الانتخابية ورئاسته، تحديدا، برهانا على الدرجة التى أصبح الخطاب الحضاراتى للويس وغيره من دعاة الإسلاموفوبيا متعضونا أيديولوجياً فى الثقافة السياسية الأمريكية، ومن ثم، يمكن القول إن تحاشى أوباما للخطاب الحضاراتى وتجنبه لغة «نحن مقابل هم»، هو مناورة سياسية ضرورية. وكرجل أسود كان والده مسلما، وقضى طفولته فى أكبر بلد إسلامى [إندونيسيا]، إضافة إلى أن اسمه الأوسط عربى واسم لأحد أكثر شهداء الإسلام نبلا من ثم، لا يملك باراك حسين أوباما التأكيد على الخلافات الحضاراتية الواسعة بين ثقافته المسيحية والعالم الإسلامي، وهكذا يجد من الأفضل له اللجوء إلى خطاب «إنسانيتنا المشتركة» الذى يزيغ الأبصار عن تاريخه العائلى كابن لإفريقى مسلم معادٍ للكولونيالية سُجن ستة أشهر لنضاله ضد حكم البيض.

كانت تلك النقلة إلى القوة الناعمة نقلة ذكية، وكانت أمريكا البيضاء الليبرالية تتوق للاحتفاء بتنوعها وحالة التضمين غير المقصودة بعد ثمانى سنوات من غرس الارتياب والفرقة بين أقلياتها المسلمة. بعد انتخابه، مضى الأمريكيون البيض يهنئون أنفسهم لانتخاب باراك أوباما رئيسا، إذ إنهم شعروا أنه قد تمت تبرئتهم، ليس فقط من عنصريتهم التاريخية، بل أيضا من عبء الصراع الحضاراتى والانتهاكات والأخطاء الفجة التى ارتكبت فى حق إخوانهم من الأمريكيين أثناء سنوات بوش، وأنه قد حان الوقت للنَّيل من الأشرار «الحقيقيين» تلك المجموعة الصغيرة من الإرهابيين الذين يبذرون استياء المسلمين والمسيحيين من بعضهم ويبغضون كل «ما نمثله». وبحلول موعد تنصيبه رئيسا، أسهب المعلقون من أمثال كريس ماثيوز فى الحديث عن كيف أن العالم الإسلامى لابد وأن يشعر بالسعادة حينما يعلن اسم الرئيس كاملا: باراك حسين أوباما، لدى أدائه القسم. بيد أنه وأثناء التنصيب تم الإعلان عن أوباما كالتالي «الرئيس المنتخب باراك إيتش. أوباما» مع حذف لفظ حسين. دعمت

الغالبية الساحقة من العرب والمسلمين الأمريكيين أوباما رئيسا. بيّن تقرير قوة المهمات المسلمة الأمريكية للحقوق المدنية والانتخابات أن ٨٩٪ من المستطلعين الأمريكيين المسلمين يدعمون أوباما. وعلى موقع «المسلمين الأمريكيين لمناصرة أوباما» كانت رسالة المجموعة هى «نحن ندعم أوباما لأنه، بين أسباب أخرى، يرفض سياسات الخوف، ويطالب أمتنا أن تتبنى هويتها الجماعية بحيث يكون لكل أمريكى نصيب فى نجاح ورفاه جميع الأمريكيين».

كان مصدر دعم الجالية العربية والمسلمة الأمريكية لأوباما هو حسها المطلق بالحصار الذى عانته فى ظل إدارة بوش. وعلى الرغم من هذا الدعم، حرص أوباما على التباعد عن العرب والمسلمين الأمريكيين إلا إذا كان سيفيد منهم سياسيا. مثلا، فى خطاب له أثناء حملته الانتخابية بدترويت التى يسكنها أعداد كبيرة من العرب الأمريكيين، لم يتردد فريق أوباما فى أن يطلب من امرأتين محجبتين الابتعاد، حيث كانتا تقفان خلفه، كى لا تظهر فى الصورة طوال فترة خطابه. وفيما بعد، ذكّر أوباما الجميع فى خطابه الاستهلالى قائلا: «إننا فى حرب مع شبكة بعيدة المدى من العنف والكراهية». وفى واقع الأمر، فإن المسلمين والعرب الأمريكيين – وأيا كانت درجة خداعهم لأنفسهم بالإمكانيات المبهجة لانتهاء مآسى زمن بوش – لم يكونوا بحاجة لمن يذكرهم بأن أوباما ترشح على أساس حملة أمن قومى تماما مثل جون ماكين، وأن خطاب القوة الناعمة ونغمة صوته الحريرية هى فقط التى جعلت الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين أقل غضاضة. وعلى الرغم من حرص أوباما على تحاشى اللغة الحضاراتية التى كانت قد أصبحت موضة قديمة إلا أن المعايير ظلت كما هى من حيث بنيتها ولم تتغير.

وكما رأينا، فإن سبب وجود الأمن القومى ذاته يربط معا الأجزاء المعقدة المتشابكة التى تُجملها القوة الذكية (بما فى ذلك الازدهار الاقتصادي، واقتصادات السوق الحر، والحقوق الشمولية، وبناء الديموقراطية، و«إصلاح» الهجرة، والشراكة وتعددية الأطراف، والطاقة المتجددة، وإصلاح الرعاية الصحية.. إلخ). وبناء على

ذلك، يتناسج شكل مبطن من الإسلاموفوبيا فى جميع القضايا تقريبا التى تم عرضها فى الحملة المبكرة لإدارة أوباما الذى استخدم بذكاء هذه الحقيقة لمصلحته، وقدم وجها جديدا للإمبراطورية يبدو وأنه يتحاشى السياسات التصادمية الصلفة لحكم بوش الإمبريالي، ومن ناحية أخرى يؤكد لأمريكا البيضاء أنه صديق لوزارة الدفاع والأمن الداخلى ووول ستريت وصناعات الرعاية الصحية. نجده يقول فى خطابه الاستهلالى إن «الأسلوب الذى نستهلك به الطاقة يقوّى أعداءنا ويدمر البيئة». علاوة على ذلك، نجده كثيرا ما يربط بين الأمن القومي وبين التهديدات التى يتعرض لها من خلال المسلمين الذين يتحكمون فى النفط الذى يقوم عليه الاقتصاد الأمريكي. نجده يُعلن وقد وَجد فى حفل تخرج بوستبوينت مناسبة ملائمة «علينا أن نطور طاقة نظيفة بحيث يمكننا الفكاك من قيود النفط الأجنبي». استُخدمت مرة أخرى خدعة الربط بين مصالح أمريكا العسكرية والدفاعية والقومية وبين تهديدات تكاد ألا تخفى قائمة على أساس الإسلاموفوبيا ومرتبطة بالنفط العربى والإيرانى حينما أعلن أوباما «التوسع فى التنقيب عن النفط والغاز بالقرب من الشواطئ الأمريكية». وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تستورد ١٠٪ فقط من احتياجاتها النفطية من الشرق الأوسط، أى أقل مما تستورده من كندا ونيجيريا والمكسيك، إلا أن الربط العلنى المستدام بين أمن أمريكا النفطى والتهديد الذى يتعرض له من البلاد العربية يكشف أن هذا يتعلق بالإسلاموفوبيا الأمريكية بأكثر مما يتعلق باعتمادها النفطى [على الدول العربية الإسلامية]. أعيد تسمية سياسة الطاقة الفدرالية وأُطلق عليها مسمى «أمن الطاقة الأمريكي» وأعلن ذلك فى قاعدة أندروز الجوية، حيث أنهى أوباما خطابه، وفيما أبقى على تيمة «النفط الأجنبي» طوال الوقت، بأن أكد كيف ستؤدى استراتيجية الطاقة الشاملة التى يتعاون فيها القطاع العام والقطاعات الخاصة إلى ألا تصبح الولايات المتحدة «مقيدة إلى أوتاد نزوات ما يحدث فى أماكن أخرى بالشرق الأوسط أو البلدان الرئيسية الأخرى المنتجة للنفط».

يتم التعبير عن موقف الرئيس إزاء «الطاقة والبيئة» فى موقع البيت الأبيض على

الشبكة الإلكترونية حيث جاء به «يعرّض إدماننا للنفط الأجنبي ولمصادر الوقود الأحفورية اقتصادنا وأمننا القومي وبيئتنا للأخطار»، ثم يؤكد لنا أن «الرئيس يعمل مع الكونجرس، ومن أجل أخذ بلدنا فى اتجاه جديد، على إصدار تشريع شامل للطاقة والمناخ يحمى أمتنا من المخاطر الاقتصادية والاستراتيجية الجادة المرتبطة باعتمادنا على النفط الأجنبي». وعلى حين أن «الاعتماد» على «النفط الأجنبي» و«إدمانه» ظلت مفاهيم تستخدم لإثارة الكراهية ضد العرب والإيقاع بهم منذ الحظر الذى فرضوه على النفط عام ١٩٧٣، فإن استدعاء أوباما للاعتماد على «النفط» الأجنبى مثقل بالمعانى والأهداف. فعلى حين أنه رئيس فى زمن الحرب وقائد أعلى للقوات المسلحة التى احتلت ثانى أكبر بلد منتج للنفط، نجد أنه بحاجة إلى أن ينأى بنفسه عن سلفه وعن «الحرب من أجل النفط» التى شنها، إذ إن بالإمكان جعل مسألة اعتماد الولايات المتحدة على الطاقة من مصادر أجنبية قضية أمن قومى من خلال تقبل التهديد الخيالى بأن الأوبك ستُغلق صنبور النفط من أجل أن تجثو الولايات المتحدة كقوة اقتصادية وسياسية على ركبتيها، أما البعابع المضمرة التى لم تذكر بالاسم فهم العرب والإيرانيون.

تستخدم «البعابع» أيضا وسيلة لاكتساب الدعم لطاقات «بديلة» كى لا تخضع الولايات المتحدة لقطعان البلدان الإسلامية ذات الثروات النفطية. يميز أوباما نفسه عن سلفه بأسلوبه المتعرج بين نزعات حربه المعلنة وبين مطالب أمريكا الوسطي، ويعتبر مثال المهاجرين الذين لا يحملون وثائق دالا فيما يتعلق بالإسلاموفوبيا. نرى أوباما، من جهة، يأخذ موقفا ضد تشريعات ولاية أريزونا المعادية للاتينيين وللمهاجرين، ومن جهة أخرى، نجده يوبّخ المهاجرين «غير القانونيين» ويعمل على عسكرة الحدود كى يُرضى الأمريكيين البيض. وكما فى حالة المسجد المزمع إقامته على مقربة من موقع أحداث ٩/١١ «Ground Zero Mosque» فإن إصرار الرئيس المتواصل على وقف إدمان أمريكا للنفط شرق الأوسطي والفنزويلي يستخدم لحشد مشاعر جماهير أمريكا الوسطي، حيث يطمئن الرئيس أمريكا البيضاء على أنه

يشاركهم مشاعر الاستياء من السماح لذوى البشرة السمراء، سواء كانوا مسلمين، أو فنزويليين كاثوليك، بالتحكم وامتلاك موارد هى من حق الأمريكيين، وذلك لأنها موارد تعمل بها الإمبراطورية الأمريكية.

إنها إسرائيل أيها الغبى:

كان ترشح أوباما ورئاسته حملة قُصد بها تحديدا ضمان الثروة والقوة والنظام الرأسمالى المعولم الذى تتحكم فيه البنوك، وكبرى الكوربوريشنات والرأسمال النقدي، وليس الناس والأفراد. أمدّ خطاب القوة الناعمة الذى استخدمه أوباما تيار الولايات المتحدة السائد بمنطقة مريحة يعيد فيها التأقلم مع عنف قوتهم الكوكبية كما مارسها المحافظون الجدد بفجاجة ووضوح. قدّم، على المستوى المحلي، رؤية إصلاحية للشركاتية الأمريكية، يصبح للجميع فيها مكان على «الطاولة». وبالمثل، مضى يلقى المحاضرات، على المستوى الدولي، عن أن القوة الأحادية ستُمارس من خلال كرم قوة إمبريالية «مستنيرة» خيِّرة تعرض مشاركة «المصالح المتبادلة» بين مختلف البلدان. لكن تلك النقلة المعيارية، وعلى الرغم من أنها لم تبعد كثيرا عن نظرة زكريا، أو حتى كيسنجر للقيادة الكوكبية، أثارت قلق الذين كانوا قد قاموا بتطبيع ميكانيزمات القوة الصلبة ونجحوا فى استخدامها من أجل هندسة عالم يستوعب رؤيتهم النبوئية الخاصة.

لم تكن قضية دعم الولايات المتحدة لإسرائيل التى طفت على السطح أثناء ترشح أوباما ورئاسته، لم تكن فقط تجلياً للسياسات المصغرة على أرض الواقع بل دلالة على إعادة تشكيل أيديولوجى أوسع لرؤية قوة الولايات المتحدة. وكما رأينا، فقد كان أوباما قد تعرض للهجوم والتشهير من قبل لوبى «إسرائيل» والمنظمات الصهيونية ومجموعات المحافظين الجدد والإنجيليين بصفته «معاديا لإسرائيل»، واستخدام اسمه الأوسط، أى حسين، سلاحا ناجعا فى هذا التشهير. بيد أنه، وأثناء الحملة الانتخابية، لم تختلف سياسة أوباما المقترحة للشرق الأوسط كثيرا عن سياسة هيلارى كلينتون أو چو بايدن. فى المراحل التمهيدية المبكرة، عملت منظومة مشتركة

من صغار مستشارى الرئيس كلينتون فى فريق الأمن القومى لهيلارى كلينتون وأوباما معا، وكان كثيرون من هؤلاء قد شاركوا فى إعداد مبادرة فينكس منذ عام ٢٠٠٥. وفيما انشغلت هيلارى بإبعاد نفسها عن المصادقة على غزو العراق، وعد أوباما بتقليل حجم التواجد العسكرى هناك (وليس الانسحاب) مع مضاعفة الجهد العسكرى فى أفغانستان ومعه عدد القوات. أما سياسته فى الشرق الأوسط فلم تتعد القبول بالمبادئ التى أرستها اتفاقيات أوسلو فى العقد السابق. بيد أن مجرد فكرة احتمال توسطه فى مباحثات السلام التى كانت قد تفسخت أثناء رئاسة بوش، كانت إشارة كافية لصهاينة اليمين الأمريكى بأن أوباما قد يُجبر إسرائيل على احترام التزاماتها بحل الدولتين. لكن أوباما كان حريصا على تهدئة مخاوف ناخبيه الموالين لإسرائيل (أى الحزب الديموقراطي). كذلك، لم تُبرز علاقة أوباما الوثيقة بزبنجيو برجنسكى أحد فرسان الحرب الباردة، وروبرت مالى كبير مفاوضى بيل كلينتون بكامب دايفيد، لم تُبرز فى أوساط الجماعات الموالية لإسرائيل. أبلغ أوباما مُحاوره فى حوار لمجلة ذا أطلانتيك أنه يؤمن بقوة أن إسرائيل «ديموقراطية نابضة، الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» وأن دعمه لها ولأمنها ولولاء الولايات المتحدة لها وتمسكه بالعلاقة الخاصة التي تربطها بها لا يتزعزع. أما الفلسطينيون الذين تخيلوا أن النقلة المعيارية التي تبناها أوباما تضمنت حلا منصفا عادلا للنزاع الفلسطيني الصهيوني، فقد خاطبهم أوباما مباشرة بالقول «انظروا، إنني متعاطف معكم ومع احتياجكم لأن تكون لكم دولة قابلة للحياة، لكن عليكم أن تفهموا التالي، إذا كنتم تنتظرون أن تُبقي أمريكا علي مسافة بينها وبين إسرائيل، فأنتم واهمون، ذلك لأن التزامنا، التزامنا بأمن إسرائيل، لا يقبل التفاوض أو المساومة».

قام أوباما، أثناء الحملة، بجولة في الشرق الأوسط، ضمّنها زيارة لإسرائيل تأكد من أن تلقي دعاية إعلامية واسعة، وقام خلالها بزيارة لمستعمرة سيدروت المتاخمة لغزة، والتي كانت فرصة لالتقاط كثير من الصور فيما كان ينظر إلى قذيفة من صاروخ أطلقته حماس علي المستعمرة. زار أيضا «حائط المبكي» بالقدس الشرقية

المحتلة، ومتحف الهلوكوست حيث تعهد علنا بألا يحدث ذلك مرة أخري أبدا «Never Again». لم يكتف بعقد اجتماع برئيس الوزراء وزعيم الليكود بنيامين نتنياهو، بل قضي وقتا ليس بالقصير مع اثنين من أفضل حلفائه المحتملين: إيهود باراك وتسيبي ليفني. أتت جولته في إسرائيل بعد أسابيع من الخطاب الذي ألقاه أوباما في المؤتمر السنوي لتنظيم إيباك والذي كان قد سبقه خطاب ألقته نانسي بلوسي، عضوة مجلس الشيوخ الصهيونية المتشددة. لم يكن الخطاب لافتا فقط لأن المرشح للرئاسة أكد أنه يعمل مع چون ماكين الجمهوري لدعم الدولة اليهودية أو لأن أوباما ذكر عملية السلام فيما كان يؤكد علي أن الولايات المتحدة ستظل وسيطا منحازا. ولم يكن الخطاب منفردا من حيث تكرار سيناريو «القيم المشتركة» و«المصالح المشتركة» بين إسرائيل والولايات المتحدة، أو لأنه أدمج فيه دعمه للحرب علي الإرهاب وعزل إيران واحتواء حماس ونزع سلاح حزب الله. لم يكن متفردا لأن أوباما مضي يتغني بترنيمة أن البيت الأبيض سيحافظ علي «التزامه الذي لا يتزعزع بأمن إسرائيل».

مما لا ريب فيه أن توجه المناخ السياسي كان وراء خطاب أوباما بمؤتمر إيباك والذي كان قد سبقته حملة إيميلات ودعاية بالإنترنت مضت تؤكد علي اسم أوباما الأوسط - حسين - وأصوله المسلمة وصلت إلي حدد التكرار الممل. وبما يتسم به أوباما من مرونة واتقاد خطابي، نجده يعود إلي النقاط الرئيسية في خطابه لطمأنة جماهيره الموالية لإسرائيل، فيعمد إلي الربط بوضوح بين خطته للطاقة المتسمة بالإسلاموفوبيا وبين الأمن القومي لإسرائيل بأن يتعهد بالارتكاز علي «قانون التعاون بين إسرائيل والولايات المتحدة في مجال الطاقة لتعميق شراكتنا لتطوير مصادر بديلة لها». لكن الأكثر دلالة هو أن اعتراف أوباما بالحملة الدعائية واستجابته لها يكشف عنصرا لكراهية الذات والخجل من كنهها. من اللافت أنه لا يتجاهل تحريضات مهاجميه والمنتقصين من قدره، كما أن المرشح للرئاسة لا يواجه الإسلاموفوبيا المتعصبة - التي استُخدِمت أداة سياسية للتشهير به - والتي تربط بين اسمه المسلم وبين الإرهاب الكوكبي. بدلا من ذلك، يطمئن باراك حسين أوباما مستمعيه بإيباك إلي أنه يتفهم مخاوفهم ويقول إن تلك «الإيميلات المستفزة» مليئة:

«بوشايات وتحذيرات رهيبة من مرشح معين للرئاسة وكل ما أريد أن أقوله هو أن تبلغوني إن أنتم رأيتم ذلك الشخص المسمي باراك أوباما لأنه يبدو مخيفا. إذا كانت تلك الإيميلات قد عملت علي تشوش أي شخص فإنني أريدكم أن تعلموا أنني اليوم أتحدث من أعماق قلبي وبصفتي صديقا حقا لإسرائيل».

وفي إجابته علي التلميح بأن أوباما مسلم، يكشف المرشح دونما قصد عن كره ذاتي مكبوت لاسمه المسلم، اعترافاً برفض واعٍ خجول لأصوله الإثنية علي أساس من الإسلاموفوبيا المُستبطنة. ولو رأي البعض أن الرد لا يعكس كراهية للذات فمن المؤكد أنه ينقل بدلا من ذلك حذر أوباما من ذوي الأسماء المسلمة وارتيابه بهم.

وفي النهاية، عمل تأكيد أوباما المستدام علي أنه «صديق حقٌّ لإسرائيل» علي اكتسابه بعض أكثر المرتابين به حماسا إلي جانبه ومعهم ٧٧٪ من أصوات اليهود الأمريكيين. وبالتأكيد فقد حاز أوباما علي اهتمام أشهر الدعائيين الصهاينة بالولايات المتحدة، آلان درشوويتز وعلي دعمه المؤقت علي الأقل. وإلي جانب كون درشوويتز منُظرًا أيديولوجياً ودعائياً، إلا أنه انتهازي شهير. في إحدى مشاركاته القليلة في ميديا الإعلام الرئيس الشركاتية (باستثناء فوكس نيوز) كتب درشوويتز مقالا افتتاحيا يصادق فيه علي ترشح أوباما للرئاسة، مقالا يمنح فيه كلا من ماكين ومنافسه درجات عالية لمواقفهما المؤيدة لإسرائيل، لكنه يهدف أيضا إلي تهدئة المخاوف من أوباما بقوله إنه من بين «أقوي الداعمين لإسرائيل» وإنه في هذا يُعد نظيرا لـ «تدكيندى، وهاري ريد، ونانسي بيلوسي، وبارني فرانك، وهيلاري كلينتون وميت رومني وجورج دبليو. بوش وأورن هاتش وجون ماكين». تكشف مصادقة درشوويتز المتأخرة عن استراتيجيات الجهات الموالية لإسرائيل، حيث إنه لم يكن أبدا مناصرا مسموعا لأوباما، بل إنه كان قد قاد حملة أمل من خلالها أن يجبر أوباما علي التخلي عن برجنسكي أكثر مستشاريه في مجال السياسة الخارجية توقيرا. مما لا شك فيه أن مصادقة درشوويتز المتأخرة نجمت عن رؤيته النتيجة النهائية وقد تبدّت، هذا علي الرغم من أن تلك المصادقة الفاترة تُفصح عن المقصد الذي يكمن

وراءها، أي أنها تبين لقرائه أن الناخبين المؤيدين لإسرائيل عليهم التصويت لداعم إسرائيل الأقوي وليس بالضرورة للمرشح الأفضل بالنسبة لإسرائيل. وعلي الرغم من أن درشوويتز لم يكن أبدا منظّرا أو أكاديميا فذا، إلا أنه أوضح أنه استراتيجي بالغ المهارة يفتش عن تكتيكاته في حقيبته القديمة ويخرجها في الوقت المناسب. فبعد أن اضطلع المحافظون الجدد، بدور الحزب الديموقراطي التقليدي في تبني القضايا الموالية لإسرائيل بل وتفوقوا عليهم خطابيا وإجرائيا، أمل درشوويتز في استعادة جمهور الناخبين الليبراليين لدورهم السابق. أتاح ترشح أوباما الفرصة لقلقلة التأثير المتنامي للأكاديميين اليساريين أو لذوي الفكر السياسي في الأحرام الجامعية والأوساط الليبرالية، بل وتقويض هذا التأثير. قال درشوويتز حرفيا إن فوز أوباما «سيعزز وضع إسرائيل في أوساط الليبراليين المترددين». بصياغة أخري، إن التصويت لأوباما هو استثمار في مصداقية سياسة الولايات المتحدة وأمدها الطويلة، وتلك كانت تحديدا الرسائل التي حاول أوباما نفسه إيصالها.

لم تكن سياسة درشوويتز حينما عمل بعد ذلك علي الدفع بأجندة اليمين الأكثر تطرفا إلي إدارة أوباما ناجمة عن سوء حسابات. اتسمت السنوات الأولي من رئاسة أوباما بعدد من الأحداث المهمة علي الساحة الفلسطينية/ الإسرائيلية: حصار غزة المستمر، قصف غزة واجتياحها في ديسمبر ٢٠٠٨ وتقرير جولدستون الذي تلي ذلك، والهجوم علي أسطول الحرية، وتوسيع المستوطنات وزيادة عددها، وفشل محادثات التقارب. ظل أوباما وفياً لالتزامه بالرباط الذي لا تنفصم عراه بين الولايات المتحدة وإسرائيل. لم يختلف رد فعل إدارة أوباما علي قصف إسرائيل الإجرامي لغزة واجتياحها لها في ديسمبر ٢٠٠٨/ يناير ٢٠٠٩ كثيرا عن رد فعل إدارة بوش علي قصف إسرائيل الوحشي للبنان واجتياحها له عام ٢٠٠٦، بل جاء متطابقا مع المواقف الإمبريالية التي استمرت لعقود عديدة إزاء جرائم إسرائيل المتكررة ضد المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين، أي لوم الضحايا لأنهم استفزوا الغضب المشروع لإسرائيل الجريحة المعرضة للأخطار والتي لا خيار أمامها سوي «الدفاع» عن نفسها

وعن أمنها القومي. وكما وثّق الصحفي سيمور هيرش، قامت الولايات المتحدة بإرسال شحنة عاجلة من القنابل الحارقة لإسرائيل للحفاظ على إمداداتها من تلك الأسلحة [المحظورة دوليا] أثناء حرب تموز على لبنان. وبالمثل، وعلى الرغم من أن ذلك لم يلق إعلاما واسعا، أمدت الولايات المتحدة إسرائيل بتجهيزات جديدة من القنابل شديدة الانفجار والتدمير بعيد هجومها على غزة، وعبّر مسئولون بالولايات المتحدة عن قلقهم من احتمال استخدام الإسرائيليين تلك القنابل «الذكية» الموجهة «Guided Bomb Unit-39s» ضد إيران بحيث تشعل أزمة عسكرية خطيرة في المنطقة. لكن إسرائيل وبعد أن تعلمت من فشلها في قتل السيد حسن نصر الله على الرغم من تدميريها لضاحية بيروت الجنوبية وقرى الجنوب اللبناني، استخدمت القنابل المائة الجديدة لتدمير البنية التحتية في غزة وقتل قيادات حماس، وعلى الرغم من احتجاج العالم ضد استخدام إسرائيل غير المشروع للذخائر الفوسفورية البيضاء المحرمة دوليا وقصف الأهداف المدنية واستهداف المدنيين، إلا أن إدارة أوباما التزمت الصمت بعامة فيما عدا ترديدها مقولات فارغة تحث على «ضبط النفس» فيما تعترف بحق إسرائيل في «الدفاع عن النفس».

صادم هو دعم الولايات المتحدة لجرائم الحرب الإسرائيلية في غزة بمثل إضفاء البيت الأبيض المشروعية على إقامة جدار الفصل العنصري والذي قضت محكمة العدل الدولية بأنه غير قانوني وبأنه انتهاك لحقوق الفلسطينيين الإنسانية، أو بمثل مصادقة إدارة أوباما على حصار غزة اللاإنساني غير المشروع. وإذا نحينا جانبا سياسات وتفاوضات القنوات الخلفية، فقد بعثت إدارة أوباما برسالة علنية إلى حكومات إسرائيل اليمينية باستمرار البيت الأبيض في «حماية» إسرائيل ديبلوماسيا وعسكرياً. تمضي سوزان رايس مندوبة أمريكا فى الأمم المتحدة في تكرار مقولة أوباما بوضوح مرددة أن دعم الولايات المتحدة لسياسات إسرائيل «غير قابل للنقاش أو التفاوض». في البداية، حاول أوباما وقف تقرير جولدستون ثم إعاقته حينما أحيل إلى محكمة العدل الدولية، وبعد ذلك منع هو والصين وروسيا، مناقشة مجلس الأمن

له. وبالمثل، حاولت الولايات المتحدة إحباط محاولة إنشاء لجنة تقصي حقائق للتحقيق في استيلاء إسرائيل علي أسطول الحرية في ٣١ مارس ٢٠١٠ والذي نجم عنه مقتل تسعة مدنيين كان أصغرهم سنا شاب أمريكي.

تتدفق التضمينيات الكاملة لفلسفة «القوة الذكية» التي ينتهجها أوباما وهيلاري كلينتون علي مرأي من العالم وتتجسد في سياسة الولايات المتحدة الخارجية بالشرق الأوسط ودعمها لإسرائيل. تصبح إقامة التحالفات والشراكات ضرورية لمحاولة فرض هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية وتوسيع مداها. كان تشكيل «تحالف الراغبين» ضروريا لشرعية سياسات الولايات المتحدة بالعراق وأفغانستان، ولترقيع مزيد من العقوبات ضد إيران حتي فيما كانت تتفاوض علي حلول دولية سلمية مع البرازيل وتركيا للقضاء علي ما يعبر عنه الغرب من مخاوف حول إمكانية تطويرها أسلحة نووية. لكن، حينما فرغ صندوق عدة القوة الذكية دون أن يحدث النتائج المرغوبة، لجأت الولايات المتحدة إلي الوفاء بتعهد أوباما بالقاهرة بالتصرف بجسارة، وحقا، فقد أصابت نانسي بيلوسي حينما صرحت قبل اجتماعها بنانتنياهو في مارس ٢٠١٠، قائلة «إننا [أي الحزبين الديموقراطي والجمهوري] نتحدث بصوت واحد في موضوع إسرائيل».

وفي واقع الأمر فإن الكونجرس يتحدث بصوت واحد حول إسرائيل، وهذا التناغم لا يحدث بسبب التمويلات التي يتلقاها الأعضاء من إيباك، الأحري، وكما أوضح المفكرون من أمثال نعوم تشومسكي، فإن هذا الانسجام بين الحزبين هو نتيجة تناغمهما مع السياسات الكارهة للعرب والمتأصلة في الثقافة الأمريكية. حينما ازدرت إدارة نانتنياهو بصفاقة نائب رئيس الولايات المتحدة أثناء زيارته لإسرائيل في فبراير ٢٠١٠ بإعلان التوسع في إقامة المستوطنات غير الشرعية بالضفة الغربية والقدس المحتلة، لم يسائل سوي القلة في حزب بايدن الإسرائيليين وذلك لأن الولايات المتحدة توافق جوهريا علي سياسة إسرائيل التوسعية، وبالمثل فإن استخدام إسرائيل للعنف ضد العرب الفلسطينيين واللبنانيين متقبل، مثلما كان العنف الذي مارسه البيض

ضد سكان أمريكا الأصليين أثناء فترة التوسع متقبلا. ولهذا السبب، نجد بيلوسي تصرح دوما أن علي الولايات المتحدة الوقوف إلي جانب إسرائيل لدي قصفها لجيرانها العرب. إن قائمة أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الأمريكيين الذين يتسلقون علي بعضهم كي يعلنوا دعمهم لاعتداءات إسرائيل العسكرية وانتهاكاتها لحقوق الإنسان أكثر من أن تُحصي، ولا يحتكر أي من الحزبين حماية إسرائيل. أعلن عضو الكونجرس عن الحزب الديموقراطي تشارلس شومر، وهو صهيوني متطرف لا يخفي كراهيته للعرب. أنه «حارس» لإسرائيل، ثم صرح، في أعقاب مذبحة أسطول الحرية أنه ينبغي علي الإسرائيليين والأمريكيين «خنق» الفلسطينيين حتي يستسلموا، ولم تكن تلك الكلمات المستفزة سوي تعبير عن توجهات شائعة بين المسئولين المنتخبين، سواء من الحزب الجمهوري مثل ديك آرمي الذي طالب في ٢ مايو ٢٠٠٢ بطرد الفلسطينيين من الضفة الغربية أو هاري ريد الذي بين في برنامج بإحدي الفضائيات في ٤ يناير ٢٠٠٩ أن إسرائيل كانت الضحية لغزوها لغزة، وأن هذا كان ما «نالته» علي نبلها وكرمها حينما انسحبت في عام ٢٠٠٥.

الذيل الأيديولوجي يحرك الكلب:

لا يتسع هذا الفصل لدراسة ناقدة مستوفية لسياسة أوباما والولايات المتحدة إزاء إسرائيل والشرق الأوسط، فإن مثل ذلك المشروع يتطلب كتابا مستقلا بخاصة إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن أوباما، وإدارته، والكونجرس قد أوضحوا بما لا يدع مجالا للشك أن هدفهم الأول في الشرق الأوسط هو استمرار هيمنة الولايات المتحدة علي المنطقة بالتلازم مع دعم إسرائيل واستخدامها كحليف استراتيجي رئيسي في تحقيق هذه الهيمنة. بيد أن بؤرة هذا الكتاب، أي كيف مكنت الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي تحول السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية علي مدي العقدين الأخيرين، تسعي لإيضاح بعض جوانب «العلاقة الخاصة» بين الولايات المتحدة وإسرائيل. يُلقي المقال التحريري الذي نشره آلان درشوويتز للمصادقة علي ترشح أوباما، بأسلوب يثير الدهشة ومتعمدا في آن، يلقي الضوء علي جوانب من التخطيط

الأمريكي الصهيوني الاستراتيجي بما قد يساعد الكثيرين منا علي استيعاب الدرجة التي تبدو بها الولايات المتحدة وأنها تدعم إسرائيل بدون تفكير بدرجة قد تضر بمصداقيتها ومصالحها وأمنها ومعها الإضرار بإسرائيل أيضا كما يري البعض من أمثال ستيفن كينزر في كتابه «Reset:Iran, Turkey and America,s Future» (٢٠١٠). يصيب درشوويتز جزئيا حينما يزعم أن إسرائيل ليست قضية خلاف في الرأي بالولايات المتحدة، أو علي الأقل علي المستويين الفدرالي والتشريعي. يُقر جِلن جرينوالد بمقال له بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩ أن الهيئة التنفيذية وأعضاء الحزب الديمقراطي بالكونجرس «يسيرون بخطوات متشابكة مع الجمهوريين فيما يخص إسرائيل» وفي أسوأ الأحوال يتنافسون حول من باستطاعته أن يكون «أكثر صقورية» من الآخر فيما يعمل أيضا علي توسيع نطاق «العلاقة الخاصة التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل».

بيد أن علينا أن نفصل بين الصهاينة الأمريكيين وبين الإسرائيليين، وهذا ضروري ليس لأن بعض الإسرائيليين معادون للصهيونية، بل لأن الصهيونية الأمريكية جزء من منظومة أيديولوجية/ ثقافية/ سياسية منفصلة، وهنا، فإنني أذهب إلي أن اليهود الصهاينة الأمريكيين هم أمريكيون ذوو «ولاء مزدوج» بالتقابل مع الصهاينة الإسرائيليين الليبراليين أو المتشددين والذين يحملون جنسية أمريكية، حيث يشكل جوهر الهوية اليهودية للمجموعة الأولي تاريخ اليهود بالولايات المتحدة بأكثر ما تشكله التجربة التاريخية اليهودية في أوربا، أو الهلوكوست. في سياق الولايات المتحدة، فعلي حين يبدو المعسكر المناصر لإسرائيل مُوحّدا وأنه «يتحدث بصوت واحد» إلا أنه في واقع الأمر متنوع ومختلف المشارب. كثيرا ما يشكل المسيحيون الصهاينة بعض أكثر التوجهات تطرفا في إطار الحركة المناصرة لإسرائيل بالولايات المتحدة. ومع هذا، تجد أن المسيحيين الصهاينة يلعبون دورا هامشيا في أي نقاش حقيقي لموضوع إسرائيل والولايات المتحدة والشرق الأوسط، باستثناء الحقيقة ذات الأهمية الكبيرة وهي أنهم أعضاء في حركات وتنظيمات سياسية أوسع مثل حركة «المحافظين الجدد»

أو «حزب الشاي»، كما لعب المسيحيون الصهاينة من أمثال هاري ترومان وروبرت كنيدي، دورا محوريا في تصنيع العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة.

بيد أن هؤلاء هم مجرد أفراد نشطاء أقوياء لا يعكسون الثقل السياسي الضئيل لحركة مسيحية صهيونية جمعية متناغمة». تطورت أجندة اليمين الإنجيلي علي مر السنين تدريجيا من حركة محافظة معادية للسامية إلي حركة رأت أن ثمة تلاقياً في المصالح بين الحركة الصهيونية اليهودية الأمريكية وبين مصالح المحافظين الجدد. لم يحدث سوي منذ وقت قريب جدا أن كان للمسيحيين الإنجيليين الصهاينة أي إسهام يذكر في سياسات الولايات المتحدة الداخلية أو الخارجية بالشرق الأوسط. وإذا لم يكن بالإمكان تحليل تأثير المسيحيين الإنجيليين علي سياسة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط وإسرائيل سوي مقارنة بمجمل تواجدهم ضمن الطبوغرافية السياسية الأمريكية الأوسع، إذن ينبغي علينا إعادة تقييم التأثير الحقيقي للوبي إسرائيل في تشكيل التحالفات الإسرائيلية الأمريكية، وذلك لأن نفوذ «اللوبي الصهيوني» وبأساليب عدة، مبالغ فيه إلي حد كبير، هذا علي الرغم من أنه، وبلا ريب، هو أحد أفضل اللوبيهات في واشنطن من حيث التمويل والقدرات، وفي واقع الأمر فإن لديهم تنظيماً ضخماً وكفئاً يتجسد في إيباك، لكنه لا ينحصر فيه. يمتد نفوذ إيباك ليصل إلي داخل مؤسسات الدولة والهيئة التشريعية الفدرالية، ومراكز الشرطة والأحرام الجامعية، و يقدم مقال ميرشايمر ووولت سردا مفصلا لأساليب إيباك ووسائله وأمواله ونفوذه. لا يكتفي إيباك بالإسهام بمبالغ كبيرة لتمويل معظم الحملات الانتخابية (بما في هذا تمويل الطرفين المتنافسين في نفس الحملة) بل إنه لا يتردد في عقاب من ينظمون حملات ضد السياسات المناصرة لإسرائيل أو يجاهرون بآرائهم عنها. والقول بأن إيباك واللوبي المناصر لإسرائيل يعملون داخل إطار الثقافة السياسية لواشنطون وضمن حدودها هو إنكار لاستخدام إيباك بأسلوب بالغ الفعالية لموارده للزج بروايته في وسائل الإعلام والتيار الرئيسي ودهاليز السلطة. وبالمثل، فإن وضع إيباك في السياق الصحيح لا يعني بأي حال المصادقة علي هجوم أبرام فوكسمان

وآلان درشوويتز علي المصداقية والصرامة البحثية لأمثال ميرشايمر وولت وبتراس وغيرهم.

تهيمن فكرة تحكم اللوبي اليهودي في سياسات واشنطون من جهة لأنه من السهل تقبلها، كما تبدو أنها تنبعث من خلال دعاية إيباك وكفاءته وتنظيمه الهائل، ومن هذا المنطق، فإن إيباك ضحية نجاحه. يخلق حضوره اللافت في دهاليز السلطة ونجاحه في جمع الأموال، وحملات علاقاته العامة فكرة أن أيديه متواجدة في عقول جميع السياسيين وجيوبهم بمن فيهم الأفرع الأخري للمجمع الصناعي/ العسكري/ الأكاديمي. علاوة علي ذلك، فإن الحجم المحض لإيباك وسطوته وثروته، وحضوره مرتفع الصوت في أي نقاش عن إسرائيل حتي لدرجة إجباره اللوبيهات الأخري المناصرة لإسرائيل والأكثر صداقة مع الإعلام علي خفض صوتها، يعرّض ذلك التنظيم للفانتازيات المعادية للسامية والتنميطات المتضمنة في اللاوعي الثقافي والتاريخي لأمريكا البيضاء البروتستانتية. وفي واقع الأمر فإن فكرة القوة الشاملة الكاملة للوبي اليهودي تبدو منطقية بحيث يصدقها الكثيرون بسبب طبيعة مسارات السياسات في واشنطون حيث تقوم الجيوب الأكثر امتلاء بتشحيم العجلات الحكومية والحزبية.

بيد أنه، وكما يذهب هذا الكتاب، فإن «الروابط التي تنفصم عراها» بين الولايات المتحدة وإسرائيل ودعمها الذي لا يتزعزع تنجم عما هو أعمق وأطول بقاء بكثير من مجرد سياسات «ادفع كي تلعب» التي تتبعها واشنطون الشركاتية والتي تديرها اللوبيهات. فلو أن دعم الولايات المتحدة الذي لا يتزعزع لإسرائيل يتوقف علي الأموال، فمما لا شك فيه أن باستطاعة اللوبيهات المؤيدة للعرب وبمساعدة البترودولارات وأثرياء الجالية العربية الأمريكية أن تنفق أكثر مما ينفقه إيباك كي تحقق أهدافها. الأحري هو أن الأيديولوجيا هي التي تُبقي علي دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، حتي في مواجهة انتهاكاتها البشعة لمواثيق حقوق الإنسان الدولية والقوانين الدولية. يتواءم الأمريكيون مع تلك الرواية القومية التي تُمجّد «الرواد» الذين قاموا بإصلاح أرض

«خاوية» وجعلوها أكثر إنتاجا ووفرة وسخاء من سكانها الأصليين، بل يشعرون بقدر من الود والحب تجاههم. يعتقدون أن التاريخ يضم الفائزين والخاسرين ويكتسب الفائزون الحق، بالرغم مما يمثله هذا من سوء حظ للخاسرين، في تقديم أنفسهم للعالم كنموذج يحتذي به في الديموقراطية والحرية، مهما اختلف هذا مع الواقع الذي يعاني منه السكان الأصليون. يتوائم الأمريكيون مع رواية غزو يشوع لأريحا ومع فكرة الشعب الإنجيلي الأبيض وهو يصلح الأرض [الأمريكية] التي وعد الرب بها ومن قبل أن يحتلها ذوو البشرة السمراء حتي علي الرغم من عدم وجود تاريخ سابق لتواجده علي هذه الأرض.

الأيديولوجيا التي تربط إسرائيل بالولايات المتحدة معقدة ومتعددة الأوجه وهي ذات الأيديولوجيا التي توظف التضمينات المختلفة للإسلاموفوبيا للحفاظ علي هيمنتها علي الكوكب، وهي أيديولوجيات تتناسج أيضا في جميع الأطياف السياسية بالولايات المتحدة وإسرائيل. ليست إسرائيل هي الذيل الذي يحرك كلب الولايات المتحدة، ووفقا لما قاله المفكر والمستشرق العظيم ماكسيم رودينسون منذ حوالي أربعة عقود فإن إسرائيل توظِّف كرأس جسر في المنطقة لخدمة مصالح سياسية وعسكرية خاصة: وكما صرح المسئولون السياسيون الإسرائيليون والأمريكيون تكرارا، فإن إسرائيل، علي أقل تقدير، «رأس جسر» للقيم الغربية والأمريكية في منطقة هي خلو من تلك القيم.

تنعكس تعقيدات تلك المصالح في تعقيدات المشهد السياسي الداخلي بالبلدين. وبالمثل، يمضي اللاعبون الداخليون بالبلدين ينأون عن حلفائهم المحتملين في البلد الآخر، ويتحولون بعيدا عنهم، ويتوددون إليهم ثم يهاجمونهم من أجل المكاسب السياسية والقيادة الاستراتيجية. إن معادلة الولايات المتحدة/ إسرائيل عملية حسابية قائمة ومعقدة للمصالح السياسية والتلاعبات الداخلية والدولية. وعلي حين تظل المتغيرات في المعادلة دينامية، فإن كثيرا من الثوابت تشكل بنية المعادلة أي التفوق الإسرائيلي والأمريكي في المنطقة. وفي هذا الصدد فإن الرابط بين معادلة

العلاقات الأمريكية والإسرائيلية هو بنية فوقية أيديولوجية مشتركة، نوع من منطق الإمبراطورية الرياضي المشترك.

ما علينا إلا الاستماع لبعض أصوات العاملين في المجال السياسي الأمريكي كي نتبين كيف تتلاقي المصالح الإمبريالية والاقتصادية المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة. وفي واقع الأمر فإن مصادقة درشوويتز علي ترشح أوباما تكشف عن استراتيجية للصهاينة الأمريكيين تؤكد علي عدم وجود لوبي صهيوني واحد موحّد (أي كيان واحد علي هيئة منظومة تراتبية). الأحري أننا نجده يحث قراءه علي أن يصوتوا لصالح الداعم القوي لإسرائيل وليس للمرشح الأفضل لإسرائيل وذلك لأن «إسرائيل ليست مسألة تنقسم حولها الآراء في الولايات المتحدة ومن ثم فإن التصويت للرئيس ليس استفتاء علي دعم إسرائيل». يعترف درشوويتز أنه يأمل في الحفاظ علي الوضع الأيديولوجي القائم كما هو، حيث إن وحدة الأيديولوجيا والهدف تشكل الدعامة التحتية للتحالف الإسرائيلي الأمريكي وتؤكد عليه. ليست تلك أيديولوجيا متفردة، أيديولوجيا أحزاب، كما أنها لا تتكون من بنود برامج سياسية أو شعارات متداولة لا معني لها. إن الخلاف حول المستوطنات بين أوباما ونتنياهو وتشاحنهما حولها عام ٢٠١٠ يوضح أن متانة علاقة الراعي/ العميل التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل تكمن في متانة الأيديولوجيا المشتركة حيث تتلاقي المواقف السياسية التي ما كان لها أن تجتمع معا (أوباما الليبرالي ونانتنياهو اليميني) في أجندة مشتركة من أجل الحفاظ علي الهيمنة الغربية علي الشرق الأوسط.

يدرك المرء بوضوح لدي قراءة السيرة الذاتية لمارتن إنديك بعنوان «البريء في الخارج» كيف يعمل هو وغيره من الصهاينة الأمريكيين علي التوفيق بين المصالح المتناقضة لسياساتهم وبين ولائهم لأيديولوجيا قوة الولايات المتحدة وإسرائيل وسطوتهما. تماثل تلك السيرة الذاتية، التي تُعلي من شأن صاحبها، من حيث البنية واللهجة والتموضع السياسي، وبدرجة لافتة كتاب دنيس روس «السلام المفقود» مثلا، يتجنب إنديك مناقشة تنافساته وخلافاته مع الصهاينة الأمريكيين من اليهود وغير

اليهود والذين ينتمي بعضهم للحزب الديموقراطي وينتمي معظمهم للحزب الجمهوري، وكذلك خلافاته مع السياسيين الإسرائيليين وعلاقاته بهم. يؤكد إنديك علي وجود أولويتين، متعارضتين ظاهرياً، لكنهما متكاملتين رغم تبنيهما من قبل مجموعتين متقابلتين، وجودهما أثناء عمله الدبلوماسي بإدارة كلينتون. من جهة، كان إنديك دبلوماسي كلينتون الرئيسي بالمنطقة، وكان سفير الولايات المتحدة بإسرائيل، وعمل في نهاية المطاف مفاوضا نيابة عن كلينتون في محادثات السلام. ومن جهة أخرى، عملت «الهوية اليهودية» لإنديك، والذي كان أحد الناشطين السابقين بإيباك، وشارك في تأسيس معهد واشنطون لسياسات الشرق الأوسط الموالي لإسرائيل، عملت علي «توليد رغبة في أعماقنا جميعا [فريق السلام لكلينتون والذي كان أعضاؤه جميعهم من اليهود] للتوصل إلي سلام لأننا كنا نؤمن أن أمن إسرائيل يتوقف علي إنهاء النزاع مع جيرانها العرب». تروي قصة إنديك المخططات والمناورات التي استخدمت لإدارة الشخصيات والصراعات السياسية والتجمعات والتفاوضات المصغرة علي تلك الصراعات؛ أو بصياغة أخري تروي تعقيدات الحياة السياسية في البلدين، وبين الولايات المتحدة وإسرائيل. من التبسيط النظر إلي رواية إنديك علي أنها غير متميزة بسبب صراعاته مع الصقور الإسرائيليين (حول الاستراتيجية بأكثر منها حول الأيديوجيا): الأحري أن فائدة روايته تكمن في كشفها العامل المشترك التحتي للسياسة الخارجية الأمريكية والقيادات الإسرائيلية وشخوص وزارة الخارجية الأمريكية، أي أن انطباعاته عن نظرائه العرب ونضال الشعب الفلسطيني ذات بعد واحد ومسطحة تماما. يتسق نهجه إزاء القادة العرب وبخاصة الفلسطينيون والسوريون والعراقيون مع رواية روفائيل بطي التي تصور الحكومات العربية ملوكا وحكاما مصابين بجنون العظمة يحكمون مجتمعات وثقافات سياسية لديها نزوع لأن «تتأسل وترتد إلي تبني توجهات أسلافها العنيفة القبلية والأصولية».

تستخدم الوسائط الإعلامية، والمحللون والمنظّرون كتابات إنديك وروس كبرهان علي أن الدبلوماسيين الأمريكيين من ذوي الروابط القوية بإيباك يمكنهم أن يكونوا

وسطاء متوازنين بين إسرائيل والعرب وذلك لأنهم يبغوض نتنياهو أكثر أحد الشخصيات الإسرائيلية إثارة للكراهية. بدا «شجار» أوباما مع إسرائيل، وبخاصة مع إدارة نتنياهو، للبعض من أمثال درشوويتز على أنه دلالة على أن أوباما قد «انقلب على إسرائيل». بيد أن هذا «الشجار» لم يخرج عن كونه أكثر من تفاعل سياسي آخر بين إسرائيل والولايات المتحدة نجم عن «الإهانة» التي وجهها نتنياهو لجو بايدن، وهو أحد أكثر الصقور الأمريكيين الداعمين لإسرائيل حماسا، حينما أعلنت تل أبيب التوسع في المستوطنات غير القانونية أثناء زيارة نائب الرئيس لإسرائيل. بيد أن إجراءات نتنياهو لم تكن حسابات خاطئة، كما لم تكن مجرد صفاقة أو مثال على اعتقاد إسرائيل في حصانتها ضد أي نقد أو إجراءات، إذ إن «الإهانة» التي وجهها نتنياهو لبايدن كانت مجرد تكتيك سياسي ظلت إسرائيل على مدى عقود تستخدمه كدولة تابعة مع الأمريكيين، وأيضا تستخدمه كدولة محتلة مع الفلسطينيين. قُصِد بهذا الاستفزاز خلق وضع سياسي أو تضخيمه يجبر الولايات المتحدة على الاستسلام لاستراتيجية مفادها أن باستطاعة إسرائيل فعل ما تريده في النهاية، أو حسب ما قاله نتنياهو «إن أمريكا شيء نستطيع تحريكه بسهولة شديدة».

لا تعني هذه المقولة أن إسرائيل تتحكم في الولايات المتحدة، بل تكشف عما هو أكثر قيمة، أي عن استراتيجية إسرائيل في سياق قوة الولايات المتحدة الكوكبية، بمعنى أن إسرائيل، هي في النهاية، دولة تابعة يقوم اقتصادها على المعونة، والميزات التجارية الخاصة التي تتيحها لها الولايات المتحدة ومعها التمويلات الخاصة المهولة التي تمكنها من التوسع في الأراضي المحتلة. كثيرا ما ينظر إلى استراتيجية إسرائيل في الحفاظ على أهدافها الإقليمية على أنها تقوم على أساس التقدم إلى شفير الحرب ثم الإحجام عن الاشتباك لكن هذا تكتيك وليس استراتيجية. فعلى الرغم من مكانتها المفضلة والنفوذ الكبير الذي يتمتع به عملاؤها ومؤيدوها، فإن إسرائيل، في النهاية، ليست في وضع من يتحكم بالولايات المتحدة. بيد أنها في وضع مميز تدرس من خلاله العملية الحسابية المعقدة للمتغيرات والثوابت السياسية الداخلية والإقليمية

التي تطوق مصالح الولايات المتحدة الخارجية والاقتصادية وتسهم فيها. وفي إطار منظومة الشروط والتفاهمات تلك، تستخدم استراتيجيتها نظرية لتلاعباتها تحسب من خلالها التداعيات المحتملة لأحد إجراءات (مثل إعلان توسيع المستوطنات في تحدٍ لبايدن) والتي ستكون جميعها، بأسلوب ما، مفيدة لمصالحها. ظلت تل أبيب تستخدم هذه النظرية باتساق وتحسب جميع التداعيات الممكنة لمواصلة سياسة إقامة المستوطنات غير المشروعة، وفي التفاوضات مع الفلسطينيين، سواء في أوسلو أو شرم الشيخ، وفي استخدام العدوان العسكري لإثارة رعب الحكومات الأجنبية والتلاعب بها، كما في حالة حربها علي لبنان عام ٢٠٠٦، أو استخدام القوة المسلحة لكسر شوكة المقاومة الفلسطينية كما في حربها علي غزة أو هجومها علي أسطول الحرية. الأحري أن تلك التداعيات «هدف» يجب رعايته، أو «تحريكه» وفقاً لمقولة نتنياهو، أو «حفزه» بحيث يعمل من أجل تحقيق أفضل مصالح إسرائيل، لأن جمهور الولايات المتحدة وسياسييها ينظرون إلي رد الفعل ذاك علي أنه يحقق أفضل مصالح واشنطون.

التزم أوباما الصمت إلي حد كبير إزاء الإهانة التي تلقاها بايدن، الذي وعلي الرغم من تهليله المعتاد لإسرائيل أدان سلوكها الطائش. في تلك الأثناء، قام أوباما بنشر مساعديه كي يقوموا بمناورات في مواجهة مخططات نتنياهو الدعائية. ومن ثم، مضي دايڤيد أكسلرود، كبير مساعدي أوباما والصهيوني المتشدد، يركز في أحاديثه التليفزيونية الصباحية في مختلف المحطات علي أن «الشقاق» الذي نجم عن سوء حسابات نتنياهو لا يعني أن أوباما اتخذ موقفا معاديا لإسرائيل، بل يعني أن موقف نتنياهو يعمل علي تقويض مصداقية الولايات المتحدة في المنطقة وقدرتها علي التوسط لعقد صفقة سلام بين إسرائيل والفلسطينيين. وفي واقع الأمر، إنه، وعقب بضعة أشهر، كان نتنياهو هو من أبدي، في البيت الأبيض، قدرا كبيرا من التوقير والإذعان للرئيس، أي أن أوباما قد أدار، بأسلوب دبلوماسي ومقتدر في آن، دفة أجندة نتنياهو السياسية مؤكدا علي «خصوصية» العلاقة الأمريكية الإسرائيلية، مع الحفاظ علي التراتبية الواجب الالتزام بها.

وفي واقع الأمر، فإن تركيز أكسلرود علي مصداقية الولايات المتحدة يجزم بما هو أكثر، حيث إن رغبة أوباما في تشجيع حل الدولتين لا علاقة له بمظالم الشعب الفلسطيني، كما عبر عن ذلك بوضوح خطابه في القاهرة. يريد أوباما التوصل إلي اتفاق يقوم علي أساس حل الدولتين لأنه مهتم بالمدي الطويل لمصداقية الولايات المتحدة وسطوتها في المنطقة، وأيضا بأمن حليفتها الرئيسية هناك، أي إسرائيل، تلك الدولة التابعة والشقيقة الأيديولوجية. أدت قضية المستوطنات إلي تصدعات مرئية في صفوف المناصرين لإسرائيل بالولايات المتحدة. ساند تنظيم جيه ستريت، أو المؤتمر الحزبي الذي أقيم لمجابهة أجندة إيباك اليمينية الصهيونية، ساند أوباما. كان التصدع الأيديولوجي في صفوف الحركة المسيحية واليهودية المناصرة لإسرائيل قد بدأ منذ بضع سنوات، وفاقمه استيلاء المحافظين الجدد علي القضايا الصهيونية وأمن إسرائيل من الليبراليين، وسوء تعاطي الصقور الصهاينة الأفظاظ بإدارة بوش مع هذه القضايا. بدأت المقالات الناقدة للصقور الصهاينة في التزايد، مقالات ذهبت إلي أن العسكرة وسياسة التدخل في الشرق الأوسط تضر بقوة الولايات المتحدة وسطوتها ومصداقيتها، وأيضا بأمن إسرائيل ومستقبلها. لم يقتصر الأمر علي ذلك، بل ذهب تنظيم جيه ستريت واليهود الليبراليون المناصرون لإسرائيل لحد المطالبة بحدوث نقلة معيارية داخل المعسكر الموالي لإسرائيل وذلك لأنهم يرون أن إيباك وغيرها من المتشددين يضرون باستمرار دعم الجالية اليهودية الأمريكية لإسرائيل، وبخاصة الشبان اليهود الأمريكيين الذين لا يرتبطون بقوة بدولة إسرائيل.

ظهرت مقالات كثيرة تبين مكاسب حل الدولتين، ومزايا التنظيمات الصهيونية «الليبرالية» «المناصرة للسلام» مثل تلك التي مثلها جيه ستريت. أزعجت معارضة السياسات المتشددة المناصرة لإسرائيل، تلك المعارضة التي انبثقت من داخل الجالية اليهودية الأمريكية أزعجت بخاصة أعضاء إيباك وعلي رأسهم درشوويتز. ومرة أخري يمدنا درشوويتز ببصيرة داخل الذهنية الاستراتيجية لإيباك لدي نقاشه مع هادار ساسكيند ممثل جيه ستريت. يحث درشوويتز بقوة علي الوحدة ويدعو أعضاء جيه

ستريت للانضمام إلي إيباك من أجل التأثير فيه من الداخل بدلا من الهجوم عليه من الخارج، والانتقاص من هدف مناصرة إسرائيل. وفيما يفكر درشوويتز داخل الإطار السياسي الأمريكي الأوسع لكيفية كسب أكبر دعم ممكن لبرنامجه أحادي القضية، فإن تفكير ساسكيند أكثر تناغما مع النقلة المعيارية التي يتبناها أوباما، حيث يفكر في التغيير الديموجرافي المحتمل داخل الولايات المتحدة والتحديات التي تواجه الحفاظ علي مرونة الإمبراطورية الأمريكية الضرورية لبقاء إسرائيل. وهاتان الاستراتيجيتان من المفاهيم الغربية التي لا يستوعبها مفكرو القوة الصلبة أحاديو الرؤية. ولهذا السبب، قام ويليام كريستول، أثناء مشاحنات أوباما/ نتنياهو حول المستوطنات والشقاق بين جيه ستريت وإيباك، قام، ومعه عدد من كوادر المحافظين الجدد والأصوليين المسيحيين بتشكيل «لجنة طوارئ» متشددة أسماها «الجناح المناصر لإسرائيل من الجالية المؤيدة لإسرائيل». وعلي حين ذهب ساسكيند إلي القول بأنه ثمة حاجة لوجود تنظيمات يهودية ليبرالية لمجابهة سياسات إيباك التي لا يتفق معها، فقد انتهي إلي أنه وعلي الرغم من الاختلافات العميقة في البرامج والتكتيكات «إلا أننا [إيباك وجيه ستريت] نقف علي نفس الجانب».

علي المستوي المصغَّر [المايكرو]، تشير الانقسامات داخل الجماعة المناصرة لإسرائيل بالولايات المتحدة إلي أن الإمبراطورية الأمريكية، تعيد تشكيل منظومة حكمها الإقليمي وأهميتها في إطار الفلسفة العملياتية المزعومة للقوة الذكية واستراتيجيتها. يؤشر ظهور خطوط شقاق داخل جماعة سياسية اعتادت أن تتباهي بواجهة الوحدة السلسة المتسقة يؤشر علي احتمال حدوث نقلة في المنظومة السياسية داخل إسرائيل. سابقا، كان التوازن بين المعسكرات الإسرائيلية المتنافسة يعمل علي التخفيف من ضراوة الحركة الصهيونية الأمريكية وتزوعها القتالي. لكن مع نهاية وجود تيار «ليبرالي» و«يساري» قابل للحياة في إسرائيل، فقدت القوة الصلبة الصهيونية وسياساتها أكثر أدواتها للعلاقات العامة تأثيرا وفعالية، أي وجود حزب قابل للحياة بإمكانه أن يستدعي لغة السلام، والعيش المشترك وحل الدولتين، ذلك

الوجود وتلك اللغة التي كانت قد عملت علي حرف الانتباه عن سياسات الاحتلال علي أرض الواقع والتي كان الليبراليون واليساريون الإسرائيليون قد صادقوا عليها. لا يعنى هذا القول إنه قبل النقلة الإسرائيلية إلي اليمين وتخلي الصهيونية «الليبرالية» عن المثل الاشتراكية في تسعينيات القرن الماضي، ذلك التخلي الذي حفزته استراتيجية «القطيعة الكاملة Clean Break»، لا يعني أن الصهيونية كانت أكثر نعومة. الأحري أن وجود العديد من الآراء داخل المجتمع الإسرائيلي السياسي والمدني نجح في إخفاء أصول سياسات إسرائيل غير المشروعة ومبتغاها. ومع أخذ هذا في الاعتبار، فإن التوترات والانقسامات التي شهدها المعسكر الموالي لإسرائيل وكما أوضحته الخلافات بين إيباك وجيه ستريت تلفت الانتباه إلي خطاب السلام الذي تبناه حزب العمل والذي تم إخراسه بشكل شبه كامل من خلال صلافة الليكود وكاديما وهيمنتهما علي الحياة السياسية في الداخل الإسرائيلي.

الأهم من ذلك ومن حيث المستوى الأشمل لهيمنة الولايات المتحدة سياسيا، فإن التوترات التي حدثت بين إدارتي أوباما ونتنياهو تختلف عن التوترات بين إدارة أوباما وإيباك التي لم تكن تتعدي تشاحنات مايكروسياسية تتعلق بتقلبات السياسات الانتخابية ودرجات متفاوتة من الاختلاف داخل نفس الإطار الأيديولوجي، أي أيديولوجيا هيمنة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط واستراتيجيات الحفاظ عليها في سياق دعمها الذي لا يتزعزع لإسرائيل، وهذه الاختلافات تعكس الاختلافات في الرؤي الاستراتيجية الداخلية بين تلك الأطراف، وليس اختلافات رؤي عالمية حول قوة الولايات المتحدة وإسرائيل بالمنطقة. أي أن تلك التشاحنات العلنية الثانوية التي عكّرت صفو العلاقات السلسلة بين إيباك وتلك الأطراف في الإدارة تعكس الاختلافات بين من يؤيدون القوة الذكية في الداخل الإسرائيلي والأمريكي، وبين من يفضلون أساليب العسكرة والسياسات التدخلية في ذات الوقت. تعود التوترات بين أوباما وإسرائيل، إلي اختلافات فى النماذج المعيارية والاستراتيجيات، وبخاصة التزام البيت الأبيض في عهد أوباما بتوسيع نطاق قوة الولايات المتحدة من خلال أساليب

القوة الذكية واستراتيجياتها بالتقابل مع استخدام نتنياهو الفج للقوة الصلبة التي رعتها إدارة بوش بحماس. من ثم، فليس هذا «الصراع» أيديولوجيا، بل هو تكتيكي و«عملياتي».

وهكذا، فليس التشاحن بين إدارة أوباما وإسرائيل علي توسيع المستوطنات دليلا علي مخطط أوباما «الخبيث» للتخلي عن إسرائيل، بل دليلاً علي التزام إدارته علي إطالة عمر هيمنة إسرائيل والولايات المتحدة في المنطقة من خلال تقوية موقفهما بإضفاء القانونية والمشروعية عليه. علاوة علي ذلك، فقد دأب أوباما طوال حملة ترشحه ثم رئاسته علي أن الوسيلة الفضلي لضمان المصالح الأمريكية وأمن إسرائيل هي إعادة الحياة إلي مصداقية الولايات المتحدة في إطار سياق «عملية السلام». تدرك إدارة أوباما تماما أن «عملية السلام» ضرورية لإضفاء المشروعية علي الدولة الصهيونية، وأن هذا بدوره ضروري لحفاظ واشنطون علي هيمنتها السياسية والاقتصادية في المنطقة.


@Ahmedyassin90

لاحقة

منظور مشهد القوة الأمريكية المتغير

الحفاظ على فاعلية الولايات المتحدة وصلتها بالأحداث

ظلت الولايات المتحدة، وطوال عقود، تستخدم الخوف من أجل تصنيع الموافقة والإجماع. وفيما قد يتذكر البعض حقبة مكارثي، فقد تم محو عمليات «اصطياد الساحرات» والقمع التي مورست ضد الشيوعيين والأناركيين من الذاكرة الجمعية الأمريكية. حينما تصاعدت توجهات الأناركيين والعمال القتالية وتعددت التفجيرات التي نفذوها، أدت الهستيريا الجمعية بالولايات المتحدة إلى صدور قانون الفتنة Sedition Act، وإلى حملات بالمر التي نجم عنها احتجازات شاملة للمثقفين والناشطين اليساريين ومحاكمتهم وترحيلهم.

ومن الأمور الدالة أيضا أن تلك الهستيريا أدت إلى أعمال عنف وقتل وإجراءات عنصرية ضد السود، قادها غالبا رجال من الجيش والشرطة. يلفت كتابا فرانك فوردى «ثقافة الخوف» (١٩٩٧) و«سياسات الخوف (٢٠٠٥)، الانتباه إلى سهولة تعرض المواطن فى العصور الحديثة للتلاعب به وقمعه وذلك بسبب اغترابه المتزايد عن مجتمعه وجاليته وجيرانه، بل وعن ذاته. كما تبدو ملاحظة محمود ممدانى عن الإرهاب حينما قال إن «الإرهاب السياسى ينجم عن فشل حكومة ما، أو فشل حركة حرب عصابات سرية فى كسب دعم المدنيين لها» تبدو وأنها تتطابق بأسلوب عكسى مع استخدام الدولة للخوف. يذهب فوردى إلى أن الخوف والاغتراب يميتان أحاسيس المواطن الحديث بآدميته، ويخلقان جمهورا طيّعا تتلاعب به الحكومات والأسواق والإعلام بسهولة وتقود خطواته. كشف الفيلم الوثائقى «قوة الكوابيس The Powerof Nightmares» بوضوح وصراحة كيف يستخدم الخوف لهندسة الموافقة

والقبول، وأوضح كيف سبق استخدام الخوف من الإسلام القتالى أو «التطرف الإسلامي» أحداث ٩/١١، وكيف خلقت الرغبة فى الإيقاع بالعرب والمسلمين وسياسات الولايات المتحدة الداخلية والدولية الحاجة إلى «الحرب على الإرهاب» وإجراءات «الأمن الداخلي» واسعة المدي. تمدنا مثل هذه الدراسات بآليات الموافقة والإجماع (التشريعات التى تطبق، والسياسات التى تبتكر وتفعل، واستمالة الإعلام). من، أجل تحقيق رؤى سياسية أوسع لمجموعات القوة.

استندت الحرب على الإرهاب إلى ما سبقها من شيطنة المسلمين وتشويه سمعتهم، ولم تكن الاستراتيجيات التى استخدمت لخلق حالة من الخوف بجديدة. وبالمثل، فإن ظهور المشاعر الفاشية المعادية للاتينيين وما واكبها من تشريعات ضدهم كان مجرد نسخة أخرى من تشكيل أيديولوجى يستخدم الخوف لتوليد إجماع على ما لابد وأن يبدو للتفكير العقلانى محض نزوات مجنونة. أكد كتابنا هذا على أن الإسلاموفوبيا

ظاهرة غُرست فى اللاوعى الثقافى الأمريكى فى فترة ما بعد الحرب الباردة بحيث أصبح هذا اللاوعى يعبر عن تلك الظاهرة. قامت أشكال الإسلاموفوبيا الراهنة باستخدام حطام النماذج المعيارية الاستشراقية التى كان إدوارد سعيد وآخرون قد نجحوا فى تقويضها، وأعيد تشكيلها لتتسق بخاصة مع التحولات الراديكالية فى القوة والسلطة والسياسة والاقتصاد بعد نهاية الحرب الباردة. قامت الشبكات غير محددة المعالم من المنظرين والسياسيين ومراكز الدراسات والمؤتمرات ومجموعات الفعل السياسى ونشطاء الصحفيين والأكاديميين المأجورين واللوبيهات ومجموعات المصالح الشركاتية ومعهم إعلام التيار السائد وأفلام هوليوود، قاموا برعاية النماذج المعيارية للإسلافوبيا وجعلوا منها أساليب متسقة استُخدمت فى تحليلات الشرق الأوسط فى التسعينيات، كما عمل فريد زكريا وبرنارد لويس وغيرهم من أمثال فؤاد عجمى وتشارلس كراوثامر وتوماس فريدمان على التعبير عن بُنى الإسلاموفوبيا الأيديولوجية وجعلوا منها أنظمة منطقية مُغلقة تتسق بسلاسة مع مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة. نمت الإسلاموفوبيا على أيدى مفكرين «مصدّقين» وشبكات سياسية ومناصرين نشطاء بالكونجرس، ناهيك عن البيت الأبيض ومجلس الوزراء لتصبح وسيلة شبه عقلانية وتاريخية وثقافية مزيفة يفهم من خلالها كُنه المسلمين. علاوة على ذلك، فإن هذا الفهم المزعوم والزائف لنقائص المسلمين وتخلف الإسلام أكسب دور الولايات المتحدة الجديد فى العالم الإسلامى أهمية كبرى بحيث تمكّن المحافظون والليبراليون، وإدارات كلينتون وبوش وأوباما، ومشروع القرن الأمريكى الجديد، ومعهد الأمريكان إنتربرايز، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد البروجرسيف بوليسي، تمكنوا جميعهم من الاتفاق على أن الولايات المتحدة تتحمل العبء الأخلاقى للإتيان بالحضارة إلى الشرق الأوسط.

المقاومة التى يخوضها المسلمون والعرب الأمريكيون:

ما الحرب على الإرهاب إلا نقطة النهاية المنطقية للإسلاموفوبيا فى الولايات المتحدة، لكن اغتراب الجاليات العربية والإسلامية الأمريكية وعزلتهم كانت قد بدأت قبل ٩/١١ بفترة . تبين الباحثة نادين نابر أن نظام سياسات الحكومات المحلية

والولايات، والحكومة الفدرالية عمل على تمييز «المسلم/ الآخر» بصفته «العدو الداخلى الموجود بيننا»، تقول إن جعل المسلمين «آخرين» يأتى فى إطار متتالية تاريخية مترابطة للعرق والتاريخ السياسى للولايات المتحدة. لكن حدث أيضا أن أطيافا من الجاليات غير الإسلامية من ذوى البشرة السمراء تم تضمينها مع المسلمين من خلال الحرب على الإرهاب، حيث كان للسياسات الفدرالية والوسم العرقي، والإسلاموفوبيا الثقافية والتنميطات الإعلامية عظيم الأثر السلبى على المسيحيين العرب واليهود الإيرانيين واللاتينيين، بين آخرين، مما يوضح أن الخطابات السائدة عن الإسلام والمسلمين بالولايات المتحدة لا تتميز فقط بالمرونة وعدم التحديد بل إنها أيضا اعتباطية وخيالية فى أفضل الأحوال. أوضحت أبحاث كثيرة، أكاديمية ومن التيار السائد، التنوعات داخل الجالية العربية الإسلامية الأمريكية، وناقشت الأجيال الجديدة من الأئمة والباحثين والفنانين والكتاب والناشطين المنتمين إلى تلك الجاليات، وديناميات المجموعات الشبابية المتنوعة، والمجموعات الإثنية الفرعية والاختلافات الطبقية الموجودة بين هؤلاء فى أنحاء أمريكا الشمالية. منذ ٩/١١، تم إجراء عدد كبير من الدراسات الديموغرافية التى تتعاطى مع ظلال الفروق والاختلافات والتوجهات والتطورات داخل الجالية العربية والإسلامية الأمريكية. وأوضحت بعضها بإقناع ومنهجية ليس فقط وجود تمايزات بين تلك المجموعات، بل أيضا فروق معالجة قضايا الجندر، والفروق الطبقية والسياسية والعمرية فى نطاق تلك الجاليات. علاوة على ذلك، ركزت تلك الدراسات على أن التنوعات داخل تلك الجاليات لا تعكس فقط تغيرا عاما فى الديموغرافية داخل الولايات المتحدة بل توضح أيضا أن المسلمين الأمريكيين أنفسهم يكادون يكونون نموذجا للمواطن الأمريكى «عبر الدولي» الجديد.

ناقش بحثنا هذا نمو الجاليات العربية والإسلامية الأميركية وأساليب حشدها وإعدادها لمختلف الأنشطة، والتلاحم بينها، وكيف شهدت توجهات التعامل مع نظرائهم المسيحيين والهندوس واليهود والارتباط بهم كثيرا من التحولات. وفيما يستخدم الكثيرون قضايا النساء لوسم المسلمين واستهدافهم، فقد تعاطى الرجال والنساء العرب والمسلمون أنفسهم مع قضايا المساواة بين النوعين، والهوية الدينية والإثنية

والعرقية والفروق الاقتصادية بين الرجال والنساء، والتعليم، وصحة النساء، والعنف المنزلي، كما عمل صعود العولمة وتداعياتها على زيادة جهد الناشطات المسلمات، ولم يجبرهن حصار جالياتهن أو يغريهن على التواطؤ مع حملة «صيد الساحرات» بدافع الإسلاموفوبيا، أو مخططاتها، أو نشطائها، أو على الإذعان لبطريركية جالياتهن الأخرى، فقد رفضت النساء المسلمات أن تخطف الجماعات النسوية لأمريكا البيضاء التي تعمل في إطار من الإسلاموفوبيا، أو مرتزقة اليمين من أمثال هيرسي على ومنجي، تخطف مسيرة تحررهن.

وفي واقع الأمر، لا يعرف المسلمون والعرب الأمريكيون الكلل أو الملل في محاولاتهم لإسماع أصواتهم بخصوص الخطابات العنصرية وما يتعرضون له من تمييز واضطهاد منذ ٩/١١. ظهرت إصدارات كثيرة تعرض قصصا مقنعة مؤثرة لأحاسيس الخوف والحصار والتهديد، وأيضا لمشاعر المقاومة والتحدى والبهجة في أوساط الجاليات العربية والمسلمة الأمريكية. قبل ٩/١١، عبّر شعراء العرب والمسلمين الأمريكيين والكنديين، وموسيقيوهم من أمثال سهير حماد وفرقتي نارسيست وأيرون شيخ لموسيقى الراب، ناهيك عن فرق الأندرجراوند الساخرة من أمثال Group X، عبروا عن نقدهم لكراهية العرب والإسلاموفوبيا، وقد أصبحت أعمالهم الآن مباشرة وأكثر صراحة وزخماً، ولم يكن من قبيل الصدفة أن تفجّر غضب الفرق الغنائية من أمثال «الفدائيين»، و«كوميناس» البنجابية وفرق الراب الأخري، مع حسهم الساخر الفكاهي والتي زادت أعدادها بعد ٩/١١، حيث يعبر هؤلاء عن جيل من العرب والمسلمين الأمريكيين شبوا في زمن أحادية القطب الذي تستهدف فيه الإسلاموفوبيا المسلمين بسبب دينهم وثقافتهم بدلا من استهدافها العرب في الجيل السابق بسبب توجهاتهم اليسارية الراديكالية.

وفي واقع الأمر، فإن هؤلاء الفنانين أكثر مواكبة للثقل الأيديولوجي الكامل للإسلاموفوبيا بما يفوق كثيرا المجموعات الإسلامية والعربية التي تسعى إلى التماثل والتكيف كما تمثلها أعمال وكتابات بعض تنظيمات تلك الجاليات ونشطائها. مازال كثير ممن نصّبوا أنفسهم قادة للجاليات من أمثال جيمس زغبي، وراى حنانيا

والتنظيمات من أمثال المعهد العربى الأمريكي، واللجنة العربية الأمريكية لمناهضة التمييز ADC ومجلس شورى جنوب كاليفورنيا، بل وحتى CAIR وجمعية شمال أمريكا الإسلامية اللتين تستهدفهما وزارة العدل والإف بى آى - مازالوا يعتقدون أن حوارهم مع الحكومة الفدرالية يجعلهم جزءا من الحل. وفيما تحتج تلك «القيادات» على الوسم العرقى للمسلمين واستهدافهم، فإنهم يعملون مع الإف بى آى ووزارتى العدل والخارجية على أمل إثبات ولاءاتهم لأمريكا. ثمة الكثير من المجموعات العربية والإسلامية ظلت مشغولة بالدفاع عن امتيازاتها كأثرياء شبه بيض، بدلا من أن تتحدى بنية الإسلاموفوبيا الأيديولوجية التى تصورهم فى وضع العدو الداخلي، ويفضل هؤلاء التركيز على السياسات الانتخابية والأنشطة داخل الأحزاب ذاتها التى تتغاضى عن قصف المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين واجتياح أفغانسان والعراق واحتلالهما. وبتحديد أكثر، يسعى زغبى وتنظيمات التيار السائد العربية الأمريكية إلى الانخراط فى النظام السياسى الأمريكي، ويتمسون المترشحين على أساس الدين والأصول العرقية للترويج لهم حتى وإن كان هؤلاء المرشحون من أمثال راى لحود وتشارلس بستاني يحاولون إخفاء جذورهم العربية. تسعى معظم المجموعات العربية والإسلامية من خلال أنشطتها إلى علاج التحيز والتعصب لكنهم لا يبذلون أى جهد للتعاطى مع أصول الإسلاموفوبيا، وأهدافها وتداعياتها الكاملة. بل فى واقع الأمر، تشجع كثير من التنظيمات العربية والمسلمة المساجد والأفراد على مساعدة الإف بى آى فى جهوده من أجل الوسم العرقي والرقابة واستهداف أعضاء الجالية.

يعمل بعض دعاة الاندماج والذوبان من أمثال رضا أصلان، بجد واجتهاد للدفاع عن عدالة أمريكا البيضاء المتأصلة، ويؤكدون أن «الأمريكيين الحق يعتقدون أنه لا ينبغى أن يكون ثمة صراع بين الهوية الدينية للأفراد، وهويتهم القومية». ويحتفى آخرون، مثل داليا مجاهد، بالنتائج «المدهشة» لاستطلاع جالوب الذى يثبت أنه «على حين أن للمسلمين مواقف سلبية إزاء سياسات الغرب الخارجية فإن مواقفهم من الغرب أكثر إيجابية». وفى ذات الوقت الذى من المفترض أن يشعر المسلمون والعرب بأن استطلاع جالوب قد برأهم من تبنى معتقدات عنصرية تناظر الإسلاموفوبيا

الثقافية، تم وضع تشريع جديد في ظل أوباما لزيادة استهداف الجاليات المسلمة ووسمها وإضفاء الصبغة القانونية على تلك الإجراءات. يسمح هذا التشريع الجديد لبرنامج الإف بي آي للرقابة الداخلية بجمع المعلومات الإثنية والدينية عن الجاليات، مما يعني جوهريا إضفاء المشروعية على التجسس على معاملات الأفراد المالية، وكيفية قضائهم إجازاتهم وأماكنها، وارتباطاتهم السياسية والدينية والاجتماعية ووظائفهم ومهنهم. يتحدى الناشطون المسلمون، بقيادة فرحانة خيرة، واللجنة العربية الأمريكية لمناهضة التمييز قانونية خطة الإف بي آي لوضع خريطة معلومات إثنية وعرقية لمجموعات الأقلية ومشروعيتها.

الإسلام السياسي كتشكيل أيديولوجي:

تعتبر محنة العرب والمسلمين بالولايات المتحدة، ورغم كل المظالم التي يعانون منها والانتهاكات لحقوقهم المدنية، أخف وطأة من تداعيات الإسلاموفوبيا على شعوب العالم الإسلامي. قد يرى الكثيرون هذا الكتاب وأنه دعوة ضد حق الولايات المتحدة في «الدفاع» عن نفسها في أعقاب هجمة غير مسوغة، وقد يراه آخرون تبريرا للتوجهات «المتطرفة»، بيد أنه لا هذا ولا ذاك. يهدف هذا الكتاب إلى التأكيد على أن الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي تمد السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي ببنيتها ومسوغاتها، وأن هذا يستحث المسلمين، بأسلوب حتمي، لممارسة الضغط المعاكس. ظل الإسلام السياسي لعدة عقود شكلا من أشكال الضغط المعاكس، ومن ثم، ينبغي علينا أن نفهمه بصفته هذه على أنه ظاهرة سياسية، رد فعل على ما أوقعته الحداثة والرأسمالية والديكتاتورية والسيطرة السوفييتية والهيمنة الأمريكية من تدمير وسلب ونهب. ومثلما ينبغي فهم الإسلاموفوبيا على أنها تشكيل أيديولوجي في إطار أيديولوجيا أكثر شمولا «للرأسمالية الأمريكية المعولمة ما بعد الصناعية (أي الإمبراطورية) يجب فهم الإسلام السياسي بصفته تركيبة أيديولوجية تختلف عما سبقها من أيديولوجيات إسلامية».

تم إضفاء كثير من المصداقية على المقولة الظنية التي تذهب إلى أن «جزءا من جاذبية الأصولية الإسلامية في العالم الإسلامي مردّه إلى أن تلك الجماعات تقوم بتوفير

المزايا الاقتصادية والخدمات الاجتماعية التى لا تقوم الدولة بتوفيرها». وفيما أن تلك المقولة تتضمن بعض العناصر الصائبة إلا أنها تظل اختزالا كسولا يروجه الليبراليون الذين يدفعون بأجندة القوة الذكية. ما لا يعترف به الكثيرون علناً هو أن الإسلام السياسي، فى مختلف الظروف والأحوال، يتيح للكثيرين نموذجا معياريا سياسيا بديلا لقيود العولمة النيوليبرالية الخانقة. وفى واقع الأمر، فقد تم تشويه صورة البدائل اليسارية، العلمانية والاشتراكية، طوال العقود الثلاثة الأخيرة فى العالم العربي، ويتحمل القادة العرب جزءا من المسئولية عن هذا. فبعد أن استولوا على السلطة فى حقبة ما بعد الكلونيالية من النخب الحاكمة المتعفنة الفاسدة والأوليجاركيات الملكية، بل ومن الأنظمة الكلونيالية ذاتها أحيانا، عملت الأنظمة العربية القومية بدءا من الجزائر وإلى العراق، على توفير الحريات والحياة الكريمة للمواطنين بمن فيهم الفلاحون والعمال من خلال برامج تضمنت إعادة توزيع الأراضي، وتأميم الموارد والصناعات الحيوية وإتاحة خدمات الدولة لجميع المواطنين بمن فيهم الشرائح التى تجاهلها الحكام السابقون وبخاصة خدمات التعليم والرعاية الصحية. بيد أن هذه الأنظمة تحولت وتحت تأثير عيوب نموذج التخطيط المركزى السوفييتى ومركزية الدولة السياسية، والخوف من الفتنة والانشقاقات المخططة والممولة من الخارج، تحولت إلى نخب حاكمة متحجرة، وانحصر اهتمامها فى إطالة عمر الأحزاب المسيطرة بأكثر من اهتمامها بالعروبة والاشتراكية التى قامت عليها هذه الأحزاب بل وكانت مبررات حكمها ووصولها إلى السلطة. أيضا، لا يجب إغفال تأثير الحملة المستدامة المحمومة الناجعة التى شنتها الولايات المتحدة لتشويه مُثل العروبة والاشتراكية من أجل تقويض الحركات والأنظمة العلمانية. رأينا كيف شجع «منحنى الأزمة» لبرنارد لويس تنامى الإسلام السياسى مثلما شجعت الحكومة الإسرائيلية ظهور حماس وتناميها فى ثمانينيات القرن الماضى من أجل تقويض منظمة التحرير العلمانية.

ليست جاذبية الإسلام السياسى فقط نتيجة للخدمات التى يوفرها حزب الله وحماس، والتى لا توفرها الدولة اللبنانية أو السلطة الفلسطينية البائسة سوى بأسلوب نزواتى غير كفء. كما أن الإسلام السياسى ليس ظاهرة واحدة فريدة

إذ إن حزب الله الشيعي، وحركة حماس السنية، واللذين دائما ما يُقرن بينهما، يختلفان اختلافا كبيرا من حيث أجندتاهما السياسيتان اللتان تشكل جوهرهما الأوضاع والضرورات السياسية والاقتصادية المحلية وليس الكراهية العدائية المتخيلة للغرب والحداثة. وبالمثل تختلف أجندة جبهة الإنقاذ الإسلامى الجزائرية التي حُرِمت من فوزها فى انتخابات عام ١٩٩٢ وحظر عليها المشاركة السياسية فى التيار السائد، تختلف من حيث أجندتها وممارساتها ومستويات اندماجها السياسى عن حزب العدالة والتنمية المغربي. علاوة على ذلك، فإن ثمة اشتقاقات للإخوان المسلمين وحماس وحزب الله فى سوريا والأردن وغيرها لكن كل منها شهد تغييرات مستقلة عن بعضها منذ التسعينيات. تطورت حركة الإخوان المسلمين فى مصر والأردن من تنظيمات قتالية سرية إلى أحزاب سياسية لها تمثيلات برلمانية غير رسمية ونفوذ فى الأنشطة السياسية بالشارع. بيد أننا لا نهدف من طرح تلك البنية الموجزة عن الإسلام السياسى فى الشرق الأوسط الدفاع عن الأجندات المتنوعة لتلك الأحزاب والحركات وعن برامجها السياسية أمام الجمهور العربي. الأحرى أن هدف هذا الكتاب هو التنقيب الصادق الناقد فى ترسيبات الإسلاموفوبيا المهيمنة على ثقافة التيار السائد السياسية وكيفية توظيفها ذريعة أيديولوجية تمكن الدولة من التحكم فى مواطنيها بالداخل، وممارسة سطوة الولايات المتحدة غير المكبوحة على مستوى الكوكب.

ومن هذا المنطلق، لا يمكن فصل الإسلاموفوبيا بصفتها بندا رئيسياً فى سطوة الولايات المتحدة أحادية القطب وركيزة لها، فصلها عن الإسلام السياسي. يُرجِع الليبراليون جاذبية تنظميات «الأصولية الإسلامية» إلى حقيقة أن هذه التنظيمات تضطلع بالمهام التى لا تؤديها النخب الحاكمة الفاسدة المتعفنة وليس لأية جاذبية متأصلة فى الإسلام السياسى ذاته؛ وهم فى هذا يسعون إلى تبرير تكتيكاتهم ذات الدوافع الأيديولوجية لمزيد من التدخلات فى سياسات ومجتمعات واقتصادات وعقول شعوب الجنوب، ويتجاهلون قدرة هذه الشعوب على التنمية الذاتية وحقها فى تقرير مصائرها. وفى واقع الأمر، فإن معظم السياسات الأمريكية ضد المسلمين لا تُوجه

إليهم بشكل حصري. بيد أنه، وفى زمن العولمة هذا، فإن المسلمين يمثلون شعوب العالم من غير الجنس الأبيض، ويشكلون عقبة رمزية وواقعية فى آن أمام توسع النيوليبرالية غير المكبوح، وفى مواجهة سطوة الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية، والنخب الحاكمة التى تتآمر معهم. وعلى حين أن ثمة أمريكيين كثيرين «يدافعون» عن الإسلام بصفته «دين سلام» بناء على افتراضهم أنه عقيدة لا علاقة لها بشئون الدنيا مثل العقيدتين التوحيديتين الإبراهيميتين الأخريين، فإن هذه الإيماءة وعلى الرغم من نبلها فى حد ذاتها، هى إيماءة عنصرية ذات مركزية غربية غير ملمة بما تقتضيه العقيدة الإسلامية وبخاصة ما يقتضيه ما يسمى بالإسلام السياسي. مما لا ريب فيه أنه ليس ثمة ما هو غامض مستعص على الفهم فى الإسلام بأكثر من الأديان الأخرى بما فيها اليهودية والمسيحية. بيد أن وجه العملة الآخر الذى يجعل منه الغرب وسيلة للدفع قدما بأجندته السياسية والاقتصادية، هو أن المسلمين يجدون فى الإسلام وسيلة للدفاع عن أنفسهم ضد حصار الكولونيالية الجديدة والإمبريالية والنيوليبرالية، وضد أنظمة الحكم الداخلية الفاسدة القائمة على الشللية والمحسوبية. وفيما أن العالمين العربى والإسلامى يضمان أقليات إسلامية أكبرها عددا هم المسيحيون والهندوس واليهود، إلا أن الإسلام ذاته هو دين العالم النامي، بعد أن اختطف الغرب المسيحية واليهودية وأضفى عليهما لونه الأبيض على مر القرون. منذ القرن التاسع عشر، ظل المبشرون البروتستانت يستهدفون السكان المسيحيين من ذوى البشرة السمراء والسوداء فى الشرق الأوسط وإفريقيا وأمريكا الجنوبية (الكاثوليك فى غالبيتهم) والذين اعتبروهم «مسيحيين صوريين» فقط. وبالمقابل ظل الإسلام يتعرض للهجوم من قبل الذين تفحصناهم فى هذا الكتاب وذلك تحديدا لأنه يُعتبر ديناً عربياً، دينا لذوى البشرة السمراء والسوداء لم تتمكن الثقافة الأمريكية/ الأوروبية من إضفاء اللون الأبيض عليه بالأسلوب الذى جسدت به المسيح شخصا أزرق العينين، وموسى شخصا أبيض مسترسل الشعر كما تصورهما أفلام هيولوود.

الأيديولوجيا واللوبيهات والنفط:

النفط وإسرائيل هما المصلحتان الخاصتان اللتان تشكلان، تقليدياً، ركيزة سياسة الولايات المتحدة الخارجية بالشرق الأوسط. منذ فترة تم توثيق تاريخ اهتمام الولايات

المتحدة بنفط الشرق الأوسط، وهو اهتمام غدا الآن أكثر إلحاحا من ذى قبل. وكما ذكرنا سالفاً، فقد أكد آلان جرينسبان بصراحة ووضوح أن الولايات المتحدة اجتاحت العراق لضمان «أمن النفط».

ناقشنا فى الفصل السابق مسألة العلاقات الإسرائيلية/ الأمريكية، كما أنه، ومما لا ريب فيه، فقد تعرض دعم الولايات المتحدة لإسرائيل للتعليقات والنقد بأكثر مما نستطيع أن نورده فى هذا الكتاب. يرى البعض أن سبب ولاء الولايات المتحدة الكلى الأعمى لإسرائيل هو أن الدولة اليهودية تؤدى وظيفة رأس جسر فاعل فى منطقة معادية لمصالح الولايات المتحدة بشكل أساسى، فيما يؤكد آخرون أن هذا الدعم ناجم عن شعور بالذنب، على حين يزعم البعض الآخر من أمثال ميرشايمر ووولت، أن موقف أمريكا هذا يغذيه اللوبى اليهودى الأمريكى وأيضا المسيحيون الإنجيليون المناصرون لإسرائيل والذين يُشهِرون نفوذهم المالي، بفعالية، فى العملية السياسية الأمريكية. تذهب تلك الأطروحة إلى أن هذا أثّر سلباً على وضع الولايات المتحدة فى العالم العربى وعمل ضد مصالح البلد الحقة. وفى نفس الوقت، تشير نظريات المؤامرة عن الولايات المتحدة، وأحداث ٩/١١، والصناعة النفطية، وعائلة بوش وكلينتون وجماعة «المستنيرين Illuminati» السرية عن مخطط إقامة اليهود حكومة واحدة للعالم أجمع» تشير إلى ما هو أكبر من مجرد شعوب واهمة مضللة ذاتيا تسعى إلى أهداف محددة تلقى عليها بمسئولية ما تعانيه بلادها. تظَهر نظريات المؤامرة نتيجة وجود عيوب وثغرات فى النظام وفى سيمائه التى يطالعنا بها فى الإعلام والحكومة وأمريكا الشركاتية، حيث إن تلك النظريات هى حقا تجسيدات عبثية لعدم منطقية الأيديولوجيا التى تحكم حياتنا وتناقضاتها: السلام من خلال الحرب؛ التنازل عن الحقوق لكى نحيا أحرارا؛ قصف الشعوب الأخرى من أجل تحريرهم..إلخ.

وسواء نجمت التحليلات عن نظريات هامشية للمؤامرة، أو بُنيت على أساس الأبحاث الجادة حول مصالح الولايات المتحدة النفطية بالشرق الأوسط، والعلاقة الداعرة بين اللوبيهات الموالية لإسرائيل والسلطة التنفيذية والكونجرس، فإن معظم

المعالجات لواقع سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى الشرق الأوسط وتاريخ تلك السياسة، تُغفل احتمال أن يكون ثمة دافع أيديولوجى يحكم تلك العلاقات. ليست هذه الدوافع أيديولوجية بمعنى «الديموقراطية مقابل الشيوعية» أو «الحرية مقابل الاستبداد»، إذ إن الأيديولوجيا لا تعنى «المبادئ» أو «القيم» أو أيا مما يقول بوش أو أوباما إنها تعنيه. فما «الديموقراطية» و«القيم» و«المبادئ» سوى مفاهيم أيديولوجية فى إطار أيديولوجيات الواقع السياسي/ الثقافى الأمريكى الأشمل، أى أن الخطاب الذى تبناه لويس، وزكريا، ومشروع القرن الأمريكى الجديد، وبوش، وتشيني، ووولفويتز، ومن يكتبون خطبهم، ليس انحرافا مؤقتا فى ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية، أو انقلابا غير معهود فى نظامها السياسى بالإمكان تصويبه من خلال رئاسة أوباما الأكثر توازنا. ومثلما أن المحافظين الجدد لم يقوموا باختطاف المبادئ الأمريكية فى وقت أصيبت فيه المشاعر القومية بالرضوض وكانت بحاجة إلى الشفاء، فلم يعمل أوباما على تبديد ضباب الغضب ويتيح للأمريكيين فرصة لإبصار طريق أكثر تعقلا باتجاه السلام والأمن. الأحرى أن النماذج المعيارية المتعصبة التى يطبقها الأمريكيون على مجمل العرب والمسلمين، هى نماذج معيارية عضوية مصدرها اللاوعى السياسى «الأمريكي» فى عصر العولمة – لا وعى يتعامى عن تناقضات الرأسمالية، والعنصرية، وعدم المساواة بين الرجال والنساء، وقضايا الجندر، والإسلاموفوبيا. حاول هذا الكتاب أن يوضح أن هذا اللاوعى تشكل من طبقات متعددة تعلو بعضها من الأنشطة والخطابات المعادية. إن مجمل التعليقات السياسية، والإصدارات، والوسائط الإعلامية، ولجان الفعل السياسي، ومراكز الدراسات والأبحاث، والسياسيين والأكاديميين والبيت الأبيض ووزارات العدل والتعليم والخارجية والكتائب المناهضة للإسلام، جميعها فى مجملها تلقى الضوء على الإسلاموفوبيا المتجسدة فى اللاوعى السياسى الأمريكى وتجسدها.

الإسلاموفوبيا والحفاظ على أهمية إمبراطورية الولايات المتحدة وصلتها بالأحداث:

فى مارس وإبريل ٢٠٠٩ التقى مسئولون من وزارة الخارجية الأمريكية مع ممثلين

لـ «المتمردين» [المقاومين] العراقيين فى تركيا، ومن المحتمل أن هذا كان ما عناه أوباما بالحوار. تقدم القاتلون العراقيون بأربعة طلبات بسيطة: على الولايات المتحدة أن تعتذر علنا عن غزو العراق واحتلاله؛ وعليها الإفراج عن جميع الأسرى الذين تحتجزهم في سجونها ومعتقلاتها! وأن تتعهد بالتزامها بإعادة إعمار العراق، وأن تسهل دخول جميع من قاتلوا الأمريكيين وحلفائهم من العراقيين إلى معترك التيار السياسى السائد. لم يكن من قبيل المصادفة أن حُدِّد موعد في شهر يونيو لجولة ثالثة من تلك المحادثات لكنها لم تتم. قدم القاتلون العراقيون طلبات منطقية كان لابد أن تؤدى إلى إنهاء احتلال الولايات المتحدة للعراق، لكن ليس إلى مشاركة الولايات المتحدة فى شئونه السياسية والاقتصادية. وفى واقع الأمر، فإن وزارة الخارجية الأمريكية تعترف بأسلوب غير مباشر، بعقد اجتماعات سرية طوال الوقت من المجموعات «المتمردة» ومع أعدائها. لكن، لم لم تقبل إدارة أوباما تلك الطلبات البسيطة، أو تواصل المحادثات على الأقل؟ تؤكد وزارة الخارجية أنها لم تُرِد الخروج على التزاماتها الراهنة إزاء إعادة إعمار العراق، كما لم تُرِد الانقلاب على حلفائها هناك. لكن الأسباب الحقيقية أكبر من هذا، بمثل ما أن الإسلاموفوبيا ليست مجرد كراهية للمسلمين لأنهم مختلفون.

إن الانتصار فى العراق وأفغانستان مجرد أهداف تكتيكية هامشية فالحرب على الإرهاب «حرب دائمة» كما بين أندرو بايسفيتش. ينتهى كثير من المحللين والأكاديميين اللامعين إلى أن حكومة الولايات المتحدة، وفى محاولة للحفاظ على أمانها وأمنها، جعلت نفسها أقل أمناً وأثارت مشاعر الكراهية ضدها. يذكر ستيفن كينزر فى كتابه الذى أشرنا إليه سالفا أن الولايات المتحدة بحاجة إلى أن تخطو خلفا «وتعيد ترتيب» أولويات سياستها الخارجية ومراجعة رؤيتها للشرق الأوسط، حيث إن الولايات المتحدة ستضمن مصالحها الخارجية والاقتصادية إن هى غدت أكثر إنصافا، وأحسنت الإصغاء إلى شعوب العالم الإسلامي، وتداخلت مع إيران بأسلوب بناء، وعملت على إقامة دولة فلسطينية مستدامة قابلة للحياة.

تستنكر بعض الأصوات النادرة بالكونجرس من أمثال دنيس كوسينيتش وراس فاينجولد، علناً، كيفية إفرا غ مجهود أوباما الحربي، وقبله مجهود بوش لخزائن الولايات

المتحدة، وتحويله الأموال المفترض إنفاقها على الخدمات الاجتماعية الأساسية مثل التعليم والرعاية الصحية وتقليص الفقر وخلق الوظائف لتُنفق على الحروب. وهذا التفكير معارضة منطقية لما يبدو وأنه سياسة غير منطقية ومستدامة لحكومة الولايات المتحدة. ورغم منطقية هذه المعارضة إلا أنها لا تصيب الهدف. إن استغراقنا فى التفكير حول دور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط لا يسهم فى استنارتنا لأن هذا الدور كثيرا ما يتناقض مع المنطق. وعلى الرغم من أن اعتبارات الحرب الدائمة، واعتماد الولايات المتحدة على نفط المنطقة ومواردها وحاجتها للتحكم فى تلك الموارد، ومصالحها «الأمنية»، وروابطها «التى تنفصم عراها» مع إسرائيل، على الرغم من أنها كلها عوامل مقنعة إلا أنها لا تصبح كُلاًّ متكاملا متسقا إذا لم يتم الربط بينها فى إطار أيديولوجيا أكثر شمولا.

وفى النهاية، فقد أوضح كثير من الباحثين والأكاديميين المرموقين أن «هوجة» الإرهاب مبالغ فيها ناهيك عن كونها خدعة ذرائعية. مثلا، قام أوليفيه روى بتقويض أسطورة «چيواستراتيچية الإسلام» فى كتابه «سياسات الفوضى بالشرق الأوسط» حيث بدّد المزاعم القائلة بأن الإسلام فى حالة حرب مع الغرب. علاوة على ذلك، يبين روى وآخرون التناقضات الفاضحة فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية مثل دعمها للأنظمة الفاسدة فى السعودية وباكستان، مثلا، والتى تقوم بتمويل «المجموعات المتمردة» المعادية لأمريكا بالعراق وأفغانستان. كما أوضح طارق على أن التهديد الذى تمثله القاعدة لأمن المنطقة أقل من ذاك الذى يمثله دعم الولايات المتحدة للجيش الباكستاني. وبالمثل، توضح كتابات مايكل شوير، عميل السى آى إيه الذى قاد وحدة اقتفاء أثر بن لادن فى التسعينيات والسنوات المبكرة من القرن الحادى والعشرين، توضح إدراك عملاء الولايات المتحدة ومسئوليها أن سياسات الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى تقوض مصالحها الإقليمية، وتمكن التنظيمات الإسلامية التى تقاتل ضد أمريكا وحلفائها، وتضفى عليها الشرعية، بل وتؤدى إلى تشكيل العديد منها.

يذهب أحد تفسيرات التيار غير المنطقى الذى يشكل أساس سياسة الولايات المتحدة إلى أنها تستثمر فى عدم استقرار المنطقة عن وعى وتفكير عقلاني. يتحدث

مارك لڤاين عن أن رؤية المحافظين الجدد للشرق الأوسط تقوم على أساس نظرية الفوضى الشاملة التى تذهب إلى أن التخطيط الإقليمى الاستراتيجى يستند إلى احتمالات عدة للفشل والنجاح ويتوقف عليها. أيضا، تفحص يحيى صدوسكى كيف فكر المحافظون الجدد فى «تنويعات عدة» من الفوضى الكوكبية، لكنه يرفض النظرية الجامعة الشاملة التى تذهب إلى أنه قد نجم عن العالم أحادى القطب انفجارات للعنف الإقليمى وأنه بإمكان القوة الكوكبية المهيمنة التحكم بتلك الحروب الصغرى القائمة على أساس القومية والطائفية والقبلية وإدارتها. وفى هذا، فإن صدوسكى يستهدف بخاصة روبرت كاپلان والذى يُعتبر كتابه «الفوضى القادمة» قمة فى بارانويا المحافظين الجدد حيث إنه وضع لهم أجندتهم التى ساروا على خطاها فى التسعينيات. ليست رؤية كاپلان للعالم المعولم والتى تتسم بأنها مقلوب للطوباوية، هى ما يميز كتابه، أو يميزه ازدراؤه للعالم الثالث بصفته مكانا للفوضى والعنف المتأصلين فيه. المثير للاهتمام هو إدراكه للأهمية المتزايدة التى بإمكان الجيش الأمريكى والاستخبارات الأمريكية أن يكتسباها ودورهما المركزى فى قيادة الولايات المتحدة للعالم. علاوة على ذلك، ينتهى كاپلان إلى القول بأن السلام العالمى ليس بالأمر المحمود، إذ إن الحرب، وليس السلام هى التى تمنح «حسا بالماضي» وتعمل كمُحفز للتغيير الاجتماعي، أما السلام، فيأتى معه بمجموعة من الأخطار من بينها تقليص عدد من يرتدون البزات العسكرية الأمر الذى سينجم عنه مزيد من الجموح وعدم سيطرة القانون. وفى النهاية، يوصى تحديدا، وعلى النقيض من كثير من المحافظين الداعين للعزلة، بأن تدفع الولايات المتحدة ما تدين به للأمم المتحدة، وبهذا، يمكنها السيطرة عليها واستخدامها وسيلة لانتزاع أهدافها الخاصة والتى يرى الكاتب أنها مرادفة للنظام الكوكبى وازدهار العالم.

تشهد صراحة كاپلان المخيفة على وجود خطاب خاص باللحظة أحادية القطب، حيث تعبر عن تبرير فج غير منمق لهيمنة إمبراطورية الولايات المتحدة «الخيِّرة» على الكوكب. قام كثير من الباحثين والأكاديميين والصحفيين بدراسة غزو العراق وتحليله على أنه يمثل مكونًا حاسما فى الخطوة المنطقية التالية للعالم أحادى القطب، بل رآه البعض حالة تجريبية إرشادية لمسيرة الإمبراطورية. أوضح معلقون من أمثال مايكل

شوارتز أن الولايات المتحدة نفذت خطة للعراق كانت قد تفتقت عنها أذهان المسئولين والمنظرين السياسيين من المحافظين الجدد فى مراكز الأبحاث والدراسات ومختلف المجالس فى تسعينيات القرن العشرين، وتم التعبير عنها فى أوساط التيار السائد فى وقت متزامن من خلال متحدثين يتبنونها مثل فريد زكريا وبرنارد لويس. يأتى شوارتز بأطروحة مكتملة لا تشوبها شائبة توضح كيف كان من المفترض للعراق أن يوفر نموذجا نيوليبرالياً ليس للشرق الأوسط فحسب بل أيضا للعالم النامى بأكمله. يذهب إلى أن الولايات المتحدة قامت بغزو العراق، والإطاحة بحاكمه المستبد، وفككت جميع أجهزة الحكومة شبه الاشتراكية الفاعلة، ومزقت شبكة الضمان الاجتماعى الحكومية الناجحة وأبطلت الخدمات العامة، واستبدلت كل هذا بفراغ فى السلطة، وبفساد مروع وارتفاع هائل فى معدلات الجريمة وبكابوس خصخصة نيوليبرالية غير مجدية.

إذا ساورنا أى شك فى أن الولايات المتحدة هى من هندست، ليس فقط غزو العراق واحتلاله ثم الانسحاب العسكرى الجزئى الزائف، بل وأيضا الأزمات التى يعانى منها، ما علينا إلا النظر إلى مُجمَع السفارة الأمريكية ببغداد. تشهد «قلعة» أمريكا تلك على رغبة الولايات المتحدة فى أن تظل لها الهيمنة السياسية على المنطقة، سواء تم ذلك من خلال نشر مئات الآلاف من القوات، أو عشرات الآلاف من المرتزقة، مثل عملاء وبلطجية بلاكووتر، أو من دون ذلك، وتعتبر السفارة الأمريكية ببغداد الأكبر من نوعها فى العالم، والتى تكلفت ما يربو على سبعمائة مليون دولار، وتحتل مساحة تساوى مساحة مدينة الفاتيكان، دليلا على هذا العزم. يقول ويليام لانجويتش فى مقال له بمجلة ڤانيتى فير عدد نوفمبر ٢٠٠٧ «ليست السفارة الجديدة مؤشرا على الرحيل من العراق، بل على البقاء هناك – لأى سبب كان، وفى ظل أية ملابسات، ومهما كانت التكلفة». ويضيف قائلا إنه وعلى نفس الدرجة من الأهمية، فإن السفارة ستعمل كرأس إخطبوط تخدم عدة «مواقع تواجد دائم» أى قواعد عسكرية استراتيجية تأوى قوات عسكرية تابعة للولايات المتحدة، أو مليشيات خاصة، فى مناطق استراتيجية بالعراق، غالبيتها مناطق نفطية.

تعهد أوباما فى خطابه الاستهلالى «بزيادة التوكيد على عظمة بلدنا وإثباتها» على المستوى الداخلى والخارجي. وفى فبراير ٢٠٠٩، تعهد أيضا بسحب جميع «الألوية

المقاتلة» من العراق بحلول ٣١ أغسطس ٢٠١٠. وقبل شهر من هذا الموعد النهائى الذى حدده، علّق كثير من المراقبين على إعادة تسمية أوباما لمهام بعض القوات، الأمر الذى اقتضى تحويل مهمة القوات «غير القتالية» البالغ عددها ٥٠٠٠٠ جندى التى ستبقى فى العراق إلى مهمة «مساعدة» و«تدريب» الجيش العراقى على محاربة «المتمردين» وتتبع «الإرهابيين» ومحاولة القضاء على التهديدات الإرهابية. تضمنت إعادة التسمية تلك تضخيم مهمة القوات الخاصة المتعاقدة. يذهب جيرمى سكيل فى كتابه «بلاكووتر: صعود أقوى جيش مرتزقة فى العالم»[1] إلى أن الانسحاب الرسمى يدعمه «احتلال مصغّر» أى انتشار مصغر للميشيات الولايات المتحدة الشركاتية والتى تستخدم لحماية المصالح الأمريكية ودبلوماسييها فى العراق، ويبين أن «استخدام القوات الخاصة هو أسلوب ملتوٍ لاستمرار تواجد كبير للولايات المتحدة تحت غطاء أمن الدبلوماسيين» وهذا الأسلوب الملتوى لتواجد المرتزقة وإعادة تسمية قوات الاحتلال باسم «القوة الانتقالية» ضرورى لاستمرار دور الولايات المتحدة ووجودها بالعراق. يبين إريك مارجوليس فى مقاله بعنوان «إعادة تسمية مهمة الولايات المتحدة بالعراق. مرحبا بالمستشارين والمساعدين» والذى نُشِر بصحيفة هفينجتون پوست فى ١٠ أغسطس ٢٠١٠، يبين أنه «لو تم سحب جميع قوات الولايات المتحدة من العراق، لواجه نظام المالكى الألعوبة خطر السقوط سريعا؛ والمحتمل فى تلك الحالة، أن يأتى إلى السلطة نظام وطنى قومى حق، يعيد تأميم النفط، وتسليح الجيش، ويعيد بناء الأمة المدمرة، والانضمام للعرب فى مواجهتهم لإسرائيل». كما يذهب جارث پورتر المعلق التليفزيونى المتمرس فى موضوع احتلال العراق، إلى أن الانسحاب قد تحول إلى إقامة «قوة انتقالية» قوية العضلات وأن هذا التغيير اللفظى الطفيف أتاح لأوباما أن يتراجع عن وعده بالانسحاب من العراق الذى قطعه على نفسه أثناء حملته الانتخابية، فى إيماءة منه إلى القوى السياسية والبيروقراطية التى تدعم الوجود العسكرى طويل الأمد بالعراق، وتفيد عدم وجود نية لديه لسحب جميع القوات المقاتلة حتى نهاية عام ٢٠١١ على أقل تقدير».

لم يكن من قبيل الصدفة أن صرح أحد كبار المسئولين العسكريين العراقيين، فى

(١) صدرت عن سطور الترجمة العربية لهذا الكتاب بعنوان «بلاكووتر. المرتزقة قادمون».

أعقاب إعلان أوباما أن جدول الانسحاب يسير وفقاً للخطة، بالقول إن قوات الأمن العراقية غير مهيئة بعد لاستلام تلك المهام، وإنه لا ينبغى للولايات المتحدة الانسحاب حتى عام ٢٠٢٠. لا يعتبر مثل هذا التصريح دليلا على أن الولايات المتحدة كانت توجه من يعملون نيابة عنها إلى استغلال الثغرات الموجودة فى «اتفاقية حالة القوات» لعام ٢٠٠٨ بقدر ما تشير إلى المعركة السياسية بين الولايات المتحدة وإيران فى نطاق حلفائهم المشتركين بحكومة المالكي. وكما بيّنا، تذهب أطروحة الكتاب إلى أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجى يتم نشره واستخدامه لتسهيل تواجد الولايات المتحدة فى العالم الإسلامي، ولجعل هيمنة الولايات المتحدة تبدو ضرورية. بيد أن الولايات المتحدة خلقت حربا ضد «المتطرفين» السُّنة فى العراق لم يكن لها وجود من قبل. علاوة على ذلك، وجدت إيران، مع انتشار مئات الآلاف من قوات الولايات المتحدة فى بلد متاخم لها، وبعد القضاء على نظام منافس لها، وجدت من الضرورى زيادة دورها بالعراق من أجل أمنها القومي. ومن المفارقات أن العدوين - إيران والولايات المتحدة - لهما نفس الحلفاء المشتركين فى الحكومة العراقية.

هذا هو التغير الذى حدث فى مشهد قوة الولايات المتحدة وسياستها بالخارج نتيجة لتغير المنظور، وذلك لأن نظرتها الأيديولوجية إلى العالم تشكل جوهر رؤيتها للمنطقة وشعوبها. بيد أنه لا يجوز لنا أن نعزو اختلاف المشهد إلى تغير المنظور فقط.

إن الفرق، فى واقع الأمر، يكمن فى حقيقة أن الولايات المتحدة، ومن خلال توظيفها للمجمل الكلى لمواردها وإمكاناتها السياسية والاقتصادية والعسكرية - ناهيك عن أقوى جهاز أيديولوجى تملكه أية دولة فى عصر العولمة، وإعلام القنوات الفضائية وصناعة الترفيه بما فى ذلك أفلام هوليوود - تبث وجهة نظرها عن العالم الإسلامى بين المتآمرين معها فى الغرب وتفرض تلك الرؤية على بقية العالم.

بلغ تغير مشهد وضع القوة الأمريكية درجة أصبح ينبغى عليها معها تحويل رؤيتها إلى واقع إن كان لها أن تحافظ على دور لها وأهمية فى العالم العربى والشرق الأوسط. وفى واقع الأمر فإن الحفاظ على هذا الدور وتلك الأهمية، هو المبرر الأول لوجود الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، وليس النفط أو نشر الديموقراطية. أثناء إدارة بوش، كان وجود «الجنود على الأرض boots on the ground» ضروريا

لترسيخ السطوة الأمريكية في أماكن لم تكن متاحة لها من قبل. كما أن تقويض برمر الاستباقي للدولة العراقية، وكذلك الأسلوب الذى تعامل به مرعوس بوش مع المسئولين العراقيين وكأنهم نُمي، كلها أمور أصبحت معروفة على نطاق واسع. لكن الاستراتيجية الأكثر فاعلية للإبقاء على دور للولايات المتحدة وأهمية لوجودها هى الحفاظ على حالة من التوتر والصراعات على درجة من الشدة بحيث يحتاج حلفاء الولايات المتحدة المحليون لمساعدة واشنطن العسكرية والسياسية والاقتصادية لكنها ليست على درجة من العنف بحيث تتطلب وجود جنود الولايات المتحدة على أرض العراق . تستفيد الولايات المتحدة من عدم الاستقرار مثلما تستفيد من الخوف. يعمل عدم الاستقرار على انبعاث المشاعر القتالية والوطنية فى السكان، ناهيك عن التوجهات الشوفينية، والتى تبرر بسهولة ما كان لابد له، لولا هذا، أن يبدو عدوانا فجا صلفا، أو احتلالا. وفيما يمضى أوباما، وبوش وكلينتون ورايس فى تصريحاتهم المتكررة بأنه ليس للولايات المتحدة رغبة فى أن يكون لها قواعد «دائمة» فى المنطقة، فإنهم يؤكدون دوما على التزامهم «الثابت» و«طويل المدى» بأمن العراق وازدهاره.

تفحص الواقع:

على حين أن سياسات الولايات المتحدة الاقتصادية وإجراءاتها السياسية بالشرق الأوسط مثمرة ومفيدة للنخب المحلية فإنها مدمرة للطبقات الوسطى والعاملة والمحرومين. يناقش تيموثى ميتشل فى كتابه بعنوان «حكم الخبراء» عملية القضاء على الاقتصادات القومية الاشتراكية [كما حدث فى مصر] وتداعياتها ويوضح الآثار المدمرة لإعادة الهيكلة على مجموعات السكان الحضرية والريفية. وبدوره، يعمل الفقر الجماهيرى وإفساد البيئة وتدمير الزراعة الناجم عن إعادة الهيكلة البنيوية على خلق حاجة إلى «معالجة» الاقتصاد و«إصلاحه» مما يستدعى معه أن تبدو معونة الولايات المتحدة المباشرة، و«الشراكة معها» وتوجيهها السياسي/الاقتصادى أمورا ضرورية بل مسألة «حياة أو موت». وبالمثل فإن «الإرهاب» الذى تستثيره الولايات المتحدة وسياساتها الخارجية المعادية للمسلمين (دعمها للحكام المستبدين القامعين وبخاصة حسنى مبارك) وصعود إيران كقوة إقليمية ونووية، يجعل تواجد الولايات المتحدة

ضروريا، وبخاصة إذا كانت تلك «التهديدات» مدعومة بدين يحث على الكراهية» يمكن تصويره على أنه يقوم على «أيديولوجيا» معادية للحداثة ولحقوق الإنسان وحقوق النساء والحرية والديمقراطية.

بيّنا في هذا الكتاب كيف أن تيارات الإسلاموفوبيا الراهنة نجمت عن لحظة تاريخية محددة، وثقافة ما بعد الحرب الباردة الأمريكية التى تزدهر على إعادة إنتاج شروط هيمنتها. أوضح الكتاب أيضا الأسس الاستطرادية للإسلاموفوبيا، وهيمنة ذلك الفكر، وكيفية انتشاره، وأوضح أيضا أنه يكمن فى أسس السياسات الداخلية والخارجية. رأينا أيضا الحملات المتعددة المتنوعة ضد المسلمين فى الولايات المتحدة، وفى العالم الإسلامي، والتى نفذتها وانتهجتها وزارات الدفاع والأمن الداخلى والعدل فى إدارتى بوش وأوباما. علاوة على ذلك، رأينا كيف عمدت المنظمات السياسية واللوبيهات، وجماعات الفعل السياسي، ومعها المرتزقة المكارثيون والمنظرون المأجورون، والنشطاء والمواطنون العاديون، عمدوا بجد وحماس دينى إلى استهداف المسلمين الأمريكيين، والمفكرين، والطلبة المسلمين والجامعات أيضا، ومارسوا العنف ضدهم، فى محاولة منهم لإشاعة مناخ من الخوف والترهيب والرقابة الذاتية. إن الإسلاموفوبيا ذريعة أيديولوجية تتيح للحكومة التحكم فى السكان، المسلمين وغير المسلمين معا، علاوة على إضفاء الطابع المؤسسى على الإجراءات السياسية والعسكرية بالخارج وعلى حدود الولايات المتحدة الجنوبية.

وكما ذكرت فى مقدمتي، فلابد أن يتسم أى دفاع عن الإسلام فى حد ذاته، أو أى تعميم عن عنف المسلمين السياسي، بالإسلاموفوبيا إذ إنه سيكون من المستحيل تحاشى الاختزال أو التعميمات. من ثم، فلم يتعاط هذا الكتاب مع موضوع الإسلام السياسى أو مع أيديولوجيا المقاومة التى تكمن تحته، سوى بشكل موجز. كثيرا ما يقوم المنظرون والصحفيون والمدونون والمرتزقة والهواة، عشوائيا، بذكر أسماء مثل سيد قطب وحسن البنا والإخوان المسلمين والسلفيين والوهابيين دونما فهم منهم لسياقات هؤلاء التاريخية، بل إن المعلقين الأوروبيين، حتى المتعاطفين منهم الذين يتبنون نهجا نقديا، غالبا ما يجدون من الصعوبة بمكان فصل أنفسهم عن فهم للتاريخ لا يتمركز حول أوروبا والغرب. من ثم، غالبا ما ينجم سوء الفهم الناقد للإسلام

السياسى عن عدم القدرة على التمييز بين الفصائل المتعددة للإسلام السياسى التى تجسدت كمكون للحداثة، وليس كدليل على رد الفعل ضدها تحديدا. وفى واقع الأمر، يسهم الإلمام باللغة العربية فى سوء الفهم هذا. بيد أن المشكلة تتخطى عدم القدرة على قراءة اللغة الأصلية للشعوب التى يهاجمها المنظرون والصحفيون وصناع السياسة والمعلقون، إذ إن المشكلة تنجم عن حقيقة عدم فهم المعلقين الأمريكيين لقوة الحداثة ومعناها وتداعيات انتشارها فى العالم النامى المُستعمَر. لن يسوغ الفهم الناقد للإسلام السياسى بصفته ظاهرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية وسياسية معقدة ومتعددة الأوجه، لن يسوغ العنف السياسي، بل سيعمل على توضيح أصوله ومنطقه ومصادر إلهاماته.

يعكس الغضب والخوف والحس بالاقتلاع فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى مشاعر الكثيرين فى بقية أنحاء العالم النامى فى عصر العولمة. وبلا أدنى ريب، فإن مناخ الحصار الذى يعيش فيه المسلمون فى أنحاء العالم تتسبب فيه مباشرة الإجراءات السياسية والاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة والتى ظلت قائمة منذ عاصفة الصحراء، على الرغم من أن هذا لا يعنى أن مناخا مماثلا، وإن كان أقل حدة، من ازدراء الغرب ورغبته فى السيطرة لم يكن موجودا قبل عاصفة الصحراء، أو أن كل شيء تغير فجأة فى ١٧ يناير ١٩٩١. فعلى الرغم من أننى استخدمت عاصفة الصحراء كلحظة فارقة، لكن النقلة من كراهية العرب الاستشراقية إلى منظومة الإسلاموفوبيا الجديدة كانت قد بدأت قبل عاصفة الصحراء ولم يكتمل تبلورها سوى بعدها بفترة. مثلا، تُجسِّد سياسة الولايات المتحدة فى أفغانستان والعراق ما طرأ على استخدام العرب والمسلمين فى الشرق الأوسط والإساءة إليهم من تغيرات وتعديلات. مثلا، فعلى حين أن الولايات المتحدة ساعدت على حدوث الانقلاب البعثى فى العراق عام ١٩٦٣، إلا أن العراق التحق بالحظيرة السوفييتية فى نهاية الستينيات، ثم كان دفء العلاقات بين صدام حسين ورونالد ريجان نذير الزمن الذى نحياه الآن. لم يكن هذا الدفء من قبيل المصادفة، بل إن الانفراجة فى العلاقات جاءت نتيجة للمصالح المشتركة حيث مثلت الثورة الإسلامية الإيرانية تهديدا لنظام البعث العلماني، بأكثر من تهديدها لمصالح الولايات المتحدة الجيو/سياسية

بالمنطقة. وفى نفس الوقت الذى قامت فيه إدارة ريجان بتسليح صدام حسين من أجل احتواء إيران، قامت الولايات المتحدة بزراعة المجاهدين المعادين للسوفييت ورعايتهم وقوّت العلاقة مع محمد ضياء الحق، ديكتاتور باكستان، الذى كان شخصيا، مسئولا عن «أسلمة» نظام باكستان القانوني. وباتباعها رؤية لويس وبرچنسكى عن منحنى «قوس» الأزمة، قامت واشنطون بتطوير علاقات عسكرية وثيقة مع حكومة «معادية للديموقراطية» من أجل محاربة النفوذ السوفييتى فى آسيا الوسطي، واستخدمت أيضا كثيرا من الأنظمة المثيلة من أجل عزل إيران الخميني.

لابد وأن يبين لنا هذا الموجز الانتقائى بالغ الاقتضاب لبعض تدخلات الولايات المتحدة فى العالم الإسلامى أن ثمة أسباباً وجيهة تبرر غضب المسلمين وإحباطهم من الولايات المتحدة وارتيابهم فيها، إذ إن تلك الأنظمة الجائرة القامعة المدعومة من الولايات المتحدة لم تأت لشعوبها بأى خير.

بيد أنه لا يجوز أن يترك هذا التحليل الانطباع بأن العرب والمسلمين فى مجملهم يُكنون عداءً جماعيا ثقافيا ومتأصلا ضد الولايات المتحدة والغرب والعالم المسيحى وضد اليهودية والحداثة، أو ضد «التقدم» حتى مع احتمال أن تكون تلك مشاعر مُبرَّرة. ليس هذا الغضب سمة ثقافية للعرب والمسلمين، بل ظاهرة تاريخية وسياسية واقتصادية. وفى واقع الأمر، فإن أكثر ما لا يجوز غفرانه، بل يجب إدانته فى أعمال المؤرخ لويس، والمحلل السياسي، زكريا، هو استخدامهما الانتقائى للتاريخ. وعلى الرغم من أنه يمكن فهم هذا القصور، لا غفرانه، فى أعمال الصحفيين الانتهازيين من أمثال توماس فريدمان الذى لا يفهم العربية على الرغم من زعمه أنه مرجعية فى التاريخ العربى إلا أن الجهل بالعربية لا يُعدّ عذرا لأى شخص مثل فريدمان لارتكاب مغالطات فجة كقوله «لقد أعطت حكومة الولايات المتحدة وجيشها للعراقيين فرصة لم تُتح لأى شعب عربى آخر، فرصة كتابة عقدهم الاجتماعى الخاص الذى يوضح كيف يريدون أن يحكموا أنفسهم ويتعايشوا معاً». تناقض هذه المقولة تجربة العالم العربى التاريخية حيث تشتبك كثير من البلدان فى صراعات للحصول على استقلالها، وفى ثورات تخلص بها نفسها من الأنظمة الكلونيالية القامعة و/أو صبيانها ووكلائها من الحكام الفاسدين المتعفنين. علاوة على ذلك، فإن ثمة كثيراً من الأعمال البحثية

والأكاديمية، بما فيها هذا الكتاب، والتى تعاطت تحديدا مع التعقيدات التى بها ترسخت الحداثة، واتخذت صبغة مؤسسية، بل وحُفِرت فى الفكر العربى الحديث وفى الثقافة العربية.

توضح معظم الأعمال الأكاديمية حول العالم الإسلامى والعربى فى القرن العشرين تعقيدات القضايا المتضمنة فيما ينظر إليه فى الوقت الراهن على أنه الإسلام السياسي. أوضحت تلك الدراسات أن الحداثة مشروع ذاتى المنشأ وليس فقط مشروعا تم فرضه على تلك المجتمعات المحلية. من الشائع الآن فى الدوائر الأكاديمية النظر إلى النخب المحلية والطبقات الوسطى التى خُلِقت حديثا على أنها تُستثمر فى التطور الرأسمالى والمؤسسات السياسية الجائرة وفى قمع المعارضة السياسية والعمالية تماما مثل استثمار سياسات الولايات المتحدة ومن ينوبون عنها. وعلى الرغم من العدد الكبير المتاح من الدراسات الأكاديمية السليمة، يختار الكثيرون من كتاب الأعمدة والصحفيين والمعلقين أن يتبعوا الدراسات ذات الأجندات السياسية والثقافية المغرضة لكتّاب من أمثال لويس وزكريا، وذلك بسبب الرغبة التى تنطوى عليها الإسلاموفوبيا للإبقاء على العرب والمسلمين فى حالة من التخلف والسلطوية وذلك لجعلهم أكثر مرونة للتكيف مع متطلبات النيوليبرالية والإمبراطورية الأمريكية ومقتضياتهما. لقد رأينا أن بإمكان تلك السياسات أن تتحقق فقط إذا أُظهِر العالم الإسلامى فى وضع يبين أنه معكوس العالم الغربي. مثلا، يقول زكريا تحديدا إن مسيرة العالم العربى تمثل «مقلوب المسيرة التاريخية فى العالم الغربى حيث أنتجت الليبرالية الديموقراطية وغذّت الديموقراطية الليبرالية. أما الطريق الذى انتهجه العرب فقد أنتج الديكتاتورية التى ولّدت الإرهاب الذى هو أكثر التجليات اللافتة للاختلال الوظيفى فى العلاقة بين الدولة والمجتمع». وبالمثل، تُثبِّت نهاية كتاب برنارد لويس «أين الخطأ؟» المقتضبة مسئولية ذلك التخلف وتلصقه بالعرب أنفسهم، لا بالتداعيات السياسية والاقتصادية للحرب الباردة، أو حتى بالتقلبات التاريخية حيث يقول إن على العرب «التخلى عن مظالمهم وأحزانهم، ومشاعرهم بأنهم ضحايا، وعليهم تسوية خلافاتهم وتسخير مواهبهم وطاقاتهم ومواردهم معا فى جهد خلّاق مشترك، وبذلك فقط يصبح باستطاعتهم جعل الشرق الأوسط من جديد مركزا رئيسيا للحضارة. وفى تلك الأثناء، فإن الخيار خيارهم».

إن القول بأن مثل هذه الشخصيات هى العقول المفكرة التى تضع السياسات الأمريكية والغربية هو تضخيم لقيمتهم. لكن فهمنا للثنائيات التى أرسوها بين المسلمين والولايات المتحدة، وبين العرب والغرب، وبين الإسلام والحداثة، وبين السلطوية والنيوليبرالية يساعدنا على فهم المنظومة الفكرية للتبريرات الأيديولوجية لسياسات الولايات المتحدة، وأيضا على فهم أن أطروحاتهم وعلى الرغم من أنها ليست فريدة، إلا أنها تعمل مبررا فكريا وثقافيا للإجراءات السياسية والاقتصادية والتى لها تداعيات جد واقعية، وجد عنيفة. ولهذا نجد أن الصحافة العربية قد أدركت منذ فترة تأثير زكريا ولويس على الرأى العام السائد وعلى سياسة البيت الأبيض. مثلا، وصف الدكتور حمدى سيد السكّوت فى مقال له بجريدة الأخبار بتاريخ ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٤ بعنوان «برنارد لويس.. المرشد العام للمحافظين الجدد فى أمريكا» وصف لويس بأنه أحد أخطر الشخصيات المؤثرة التى تختبئ فى الكواليس وتدفع السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الراهنة. أما التحدى بالنسبة لقراء الإنجليزية فيتمثل فى أن عليهم التنقيب فى الأعماق التى غُرست بها الإسلاموفوبيا فى الثقافة الأمريكية واللاوعى الأمريكى وتداعيات ذلك المعقدة. وكما رأينا، تعمل الإسلاموفوبيا بسلاسة فى أوساط التيار السائد الأمريكي، وذلك بسبب تاريخه العنصرى وعدم وجود غضاضة لديه فى ذلك، حيث إن الأمر لا يقتصر على أن للولايات المتحدة تاريخا مستداما من تجريد السود والسكان الأصليين والآسيويين من آدميتهم وحرماتهم واستهدافهم، بل أيضا تحويل تلك الكراهية العنصرية إلى فعل سياسى للاصطياد وارتكاب المذابح من أجل التحكم فى المعارضة ومشاعر السخط والاستياء. والآن فقد تناسجت الإسلاموفوبيا فى هذا التاريخ وأصبحت جزءا لا ينفصل عنه.

نهاية البداية:

علينا، من أجل كسر أصفاد الإسلاموفوبيا أن نبدأ من حيث بدأ تحرير السود وذوى البشرة السوداء والنساء فى الولايات المتحدة، أى أنه ينبغى أن نبدأ بتقويض كامل للخطاب والنماذج المعيارية التى تشكل الأساس التحتى لأفكار الإسلاموفوبيا. لذا، فليست المسألة هى ما إن كان أوباما يوافق على إقامة مركز إسلامى بالقرب من موقع أحداث ٩/١١ «Ground Zero»، حيث بدت «مصادقته» الفاترة وأنه يضمر

مذاقا مريرا فى فمه لاضطراره إلى مساندة الحرية الدينية. ونحن وقد قلنا هذا، فإن موقف أوباما من مبادرة قرطبة، يماثل موقف بوش من موضوع إدارة دبى للموانئ. وبالمثل، فإن شن كلينتون الحرب إلى جانب مسلمى كوسوفو لا يعنى أنه كان لا يتصرف من منطلقات الإسلاموفوبيا، وبخاصة، إذا أخذنا فى الاعتبار أن سياساته لعزل العراق وفرض العقوبات عليه كان لها تداعيات الإبادة الجماعية على سكانه.

وعلى الرغم من الأبحاث الأكاديمية الحقة فى الموضوع، إلا أن الأسئلة حول الإسلام والديموقراطية، والإسلام والحداثة، والإسلام وحقوق الإنسان، والإسلام والنساء، وغيرها من الثنائيات المماثلة يجب أن تتوقف. علينا التوقف عن البحث عن إجابات، أو توجيه الاتهامات على أساس من ثنائيات الإسلام وأيضا أن نتخطى الثنائيات من أمثال الجهاد مقابل عالم ماك. بيد أن الإجابات التى نبحث عنها لن تأتى من المصادر التى تعمل على استدامة الإسلاموفوبيا، ولن يساعدنا أى من دعاة الإسلاموفوبيا الذين وردت أسماؤهم فى هذا الكتاب على التخلص من فكر الإسلاموفوبيا ناهيك عن سياساتها. بل، والأهم من ذلك، فمن غير المرجح أن تأتى الإجابات من المسلمين أنفسهم. فقد أوضح التاريخ السياسى والثقافى للعالم الإسلامى الذى خضع للاستعمار لفترات طويلة أن الحداثة قد ترسخت بعمق فى جميع مناطق العالم، الإسلامى وغير الإسلامي، ومن ثم نجد المفكرين المسلمين والعرب، سواء اليساريين العلمانيين أو المتدينين المحافظين، مشبعين بثنائيات الحداثة التى تُقابل بين الشرق والغرب، والجنوب والشمال، و«المتخلفين» والحداثيين، كما نجدهم أيضا وقد تخندقوا فى معركة لن ينجم عنها بأية حال إلا استمرار استبعاد شعوب العالم النامي، ونهب ثرواتهم واقتلاعهم. يذكر هنرى جيروكس فى مقال له بعنوان «مابعد مشهد الإرهاب» بكتاب «صور الإرهاب: ما نستطيع معرفته عن الإرهاب وما لا نستطيع معرفته» (٢٠٠٣) يُذكر أن «الموت والمعاناة محفوران بعمق فى منظومة السياسات» كما أن للصورة أثرا عميقا نافذا بدرجة غدا معها من غير الممكن فهم العلاقة الوثيقة بين الإرهاب والأمن فى الزمن المعاصر بدون أن نفهم كيف يشكّل المشهد العلاقات الاجتماعية ويضفى عليها الشرعية». ومن المفارقات أن الأثر

النافذ لهذه الصور ومعناها أصبحا الآن محفورين بعمق فى عيون المسلمين وعقولهم، ويؤطران محاولاتهم للحوار مع الغرب والاشتباك معهم.

من ثم، يقدم هذا الكتاب الخطوة الأولى فى محاولة تقويض النظرية المعرفية للإسلاموفوبيا من خلال الكشف عن بعض ظواهرها الغريبة الاستطرادية وآثارها على البشر، أو أنه يغامر بخطوة ضرورية استهلالية للإجابة عن السؤال التالي: ما مصدر الإسلاموفوبيا وأى المصالح تخدمها؟ تنبثق الإسلاموفوبيا، والتى هى مزيج من النماذج المعيارية الاستشراقية المُستهجنة، عن زمن جديد للرأسمالية الكوكبية تتربع الإمبراطورية الأمريكية فى طليعته. من ثم، فإن الإسلاموفوبيا تتمحور حول القوة، قوة الولايات المتحدة وقوة الرأسمالية الكوكبية. تعمل الإسلاموفوبيا على شيطنة المسلمين لأنهم يمثلون للذهنية الأمريكية وعلى المستوى الرمزي، الوجه الأسمر للمقاومة ضد الإمبراطورية الأمريكية، والرأسمالية العالمية، والخوف شبه الواعى من الكوكب الأسمر أو «العدو العام المعلن» كما يقال. علاوة على ذلك، فإن استهداف المسلمين هو محاولة لتقويض التكافل بين الشعوب السمراء والسوداء، والتي، وإن كانت لا تتشارك فى عقيدة دينية واحدة، إلا أنها تتشارك فى المعاناة من الآثار السلبية والمدمرة للرأسمالية الكوكبية. وإذا كان ما نقوله يبدو مستغرباً، فما علينا سوى الإنصات إلى أصوات المثقفين والمفكرين الأجلاء فى العالم العربى والإسلامي، تلك الأصوات التى حجبها تدريجيا صخب المشتبكين فى العنف السياسي، والذين لا يكرسون طاقاتهم للتعبير الذى ينقد ما يشنون الهجوم المُستحقّ عليه.

ربما ينبغى علينا الإنصات إلى أصوات مثيلة لصوت الراحل نصر حامد أبوزيد الذى قال «ليس ثمة وسيلة لتحاشى تداعيات ٩/١١ التى أوجدت وضعا يماثل الكلونيالية المبكرة. تحولت المعركة ضد الإرهاب، المشروعة فى حد ذاتها، إلى معركة دائمة ضد كل الآخرين، أى ضد الذين لا يقفون إلى جانبنا، وفقا لما أعلنه رئيس الولايات المتحدة. تُضمر تعبيرات «قيمنا» و«مجتمعنا» وثقافتنا، بوضوح أن الآخرين غير متحضرين». ثم ينتهى بالقول «ليست القضية القائمة هى تهديد التنوع الثقافي، بل إمكان خلق عالم منصف على المستوى الاقتصادى والسياسى والثقافي. تمثل

المطالبة العامة بالعدالة تهديدا للنظام العالمى الذى تمثله الولايات المتحدة وللسلطة السياسية الإقليمية للقادة الفاسدين الموالين للغرب».

أو، إذا كانت أصوات المسلمين والعرب وذوى البشرة السمراء تظل مريبة بسبب سطوة الإسلاموفوبيا وعمقها، فربما ينبغى علينا الإنصات إلى جندى أبيض نادم، كان قد ارتكب أعمال قتل لخدمة الإمبراطورية الأمريكية. ألقى مايك بريزنر، المحارب السابق بالعراق، والناشط ضد الحرب حاليا، كلمة استغرقت أربع دقائق، ثم انتشرت بشكل فيروسى على الشبكة الإلكترونية. يأتى بريزنر، فى إطار هجومه على حروب الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وكلفتها البشرية والاقتصادية، يأتى بتعليق ثاقب البصيرة على العنصرية فيقول:

«ظلت العنصرية فى الجيش لوقت طويل آلة مهمة لتبرير تدمير بلد آخر واحتلاله، وظلت تستخدم منذ وقت طويل مسوغا لقتل الآخرين واستبعادهم وتعذيبهم. إن العنصرية سلاح ماضٍ تستخدمه هذه الحكومة؛ سلاح يفوق البندقية والدبابة وقاصفات القنابل والسفن الحربية أهمية..».

حينما نفهم الإسلاموفوبيا على أنها تشكيل أيديولوجى عنصرى أُوجد بهدف العمل على تعاظم قوة الولايات المتحدة وسطوتها، وإدارة المعارضة والانشقاقات، وتعزيز نظام العولمة الاقتصادية، سنتبين، وكما يقول بريزنر، أن العدو ليس هو الإسلام، أو المسلمين، أو الفلسطينيين، أو العراقيين، أو الأفغان، أو الإيرانيين أو الباكستانيين. ليس عدونا هو حماس، أو حزب الله، أو حتى جماعة الإخوان المسلمين.

«إن العدو هو النظام الذى يبعث بنا إلى الحرب حينما تكون مربحة؛ إن أعداءنا هم المدراء التنفيذيون الذين يقومون بفصلنا من وظائفنا حينما يكون ذلك مربحا؛ إنها شركات التأمين التى تنكر علينا الرعاية الصحية حينما يكون ذلك مربحا. إن أعداءنا لا يبعدون عنا بمسافة ٥٠٠٠ ميل. إنهم هنا بالداخل. وإذا نظمنا أنفسنا، وضممنا إلينا شقيقاتنا وأشقاءنا كى نقاتل هؤلاء الأعداء، فسيصبح بإمكاننا وقف هذه الحرب، والتصدى لهذه الحكومة، وخلق عالم أفضل».

صدر من هذه

السلسلة

١- محمد (صلي الله عليه وسلم)
٢- صدام الحضارات
٣- عصر الجينات
٤- القدس
٥- العولمة والعولمة المضادة
٦- التاريخ السري للموساد
٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨- حريم محمد علي
٩- عولمة الفقر
١٠- صور حية من إيران
١١- البحث عن العدل
١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣- الصهيونية تلتهم العرب
١٤- معارك في سبيل الإله
١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦- التسوية: أي أرض.. أي سلام
١٧- المكنز الكبير
١٨- الحق يخاطب القوة
١٩- نساء في مواجهة نساء
٢٠- مؤامرة الغرب الكبري
٢١- روسيا.. إلي أين
٢٢- موسوعة الأم والطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوجيا
٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة
٢٧- بوش ضد العراق... لماذا؟!
٢٨- أين الخطأ؟
٢٩- اللولب المزدوج
٣٠- رجال بيض أغبياء
٣١- سادة العالم الجدد
٣٢- الخطيئة الأولي لإسرائيل
٣٣- اللعب مع الصغار
٣٤- الإبادة السياسية
٣٥- حكومة العالم السرية
٣٦- ما بعد الإمبراطورية
٣٧- بوش في بابل
٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولي
٣٩- تزييف الوعي
٤٠- القانون في خدمة من؟
٤١- كفي
٤٢- معني هذا كله
٤٣- حياة بلا روابط
٤٤- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٥- جسدي سلاحاً
٤٦- ثالوث الشر
٤٧- الحضارة الإسلامية المسيحية
٤٨- أمريكا العظمي .. أحزان الإمبراطورية
٤٩- الطريق إلي السوبر مان
٥٠- مدربون علي القتل
٥١- معاداة السامية الجديدة

٥٢- إبادة العالم الثالث
٥٣- بيولوجيا الخوف
٥٤- لغز اسمه الألم
٥٥- تعليم بلا دموع
٥٦- أحمد مستجير
٥٧- العين بالعين
٥٨- شافيز
٥٩- قصص الأشباح
٦٠- حزب الله
٦١- الإنسان هو الحل
٦٢- السيارات المفخخة
٦٣- بلاكووتر
٦٤- حضارتهم وخلاصنا
٦٥- نحو الحرية .. نلسون منديلا
٦٦- العهد
٦٧- مزرعة الحيوانات
٦٨- أطفال الإنترنت
٦٩- لعبة الملايين
٧٠- تجارة الجنس
٧١- الأمريكي الساذج
٧٢- الأبرياء
٧٣- الشباب والجنس
٧٤- التربية من عام إلي عشرين عام
٧٥- فلورانس وإداورد
٧٦- الجهاد في سبيل الحقيقة
٧٧- غاندي(٢). رؤى. تأملات. اعترافات
٧٨- شرف البنت
٧٩- الزواج المحرم
٨٠- أنبياء مزيفون
٨١- إمبراطورية العار
٨٢- اختطاف أمريكا
٨٣- شريعة الجستابو
٨٤- رومانسية العلم
٨٥- اختفاء فلسطين
٨٦- من هم إسرائيل
٨٧- اقتصاد الاحتيال البرىء
٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب
٨٩- اللّه.. لماذا؟
٩٠- الأمراض المعدية
٩١- الطريق إلي بئر سبع
٩٢- مجمع الشيطان
٩٣- في ذكري المقاومة
٩٤- خطايا تحرير المرأة
٩٥- دساتير من ورق؟
٩٦- صُناع الملوك
٩٧- صناعة الأكاذيب
٩٨- عندما تحكم الصين العالم
٩٩- الحركة العامة للاقتصاد المصري في نصف قرن
١٠٠- رحلة السندباد
١٠١- وجه أوباما الأبيض
١٠٢- تشي جيفارا سيرة للنشء
١٠٣- أنا افتراض.. أنا موجود
١٠٤- قصة فيس بوك

محتويات الكتاب


@Ahmedyassin90





تسود الإسلاموفوبيا جميع مستويات الحياه الأمريكية، من اليمين إلى اليسار، و من المتدينين إلى الملحدين. يعتقد من يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا أن كل مسلم « حقير أحمق » و إرهابي مُخرّب.

مشاعر الإسلاموفوبيا جلية في قطاعات عديدة من المجتمع الأمريكي ، تنفثها الوسائط الإعلامية و مراكز الأبحاث و «الخبراء» المتفقهون المزعومون ، و الأكاديميون المغرضون ،و اللوبيهات ، و تنظيمات النشطاء.

ليست الإسلاموفوبيا أيديولوجيا سياسية في حد ذاتها كما أنها ليست دوجما منعزلة. بل هي تشكيل أيدلوجي جديد تم التعبير عنه باكتمال منذ انهيار الاتحاد السوفييتي . لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها، أو أحد المفكرين ، أو الفلاسفة ، أو النشطاء ، أو إلى أي منفذ إعلامي ، أو مجموعة مصالح خاصة، أو مركز أبحاث ، أو حتى قطاع إقتصادي أو صناعي. هذا على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون بأسلوب جمعي عن نشر التنميطات الخبيثة المعادية للمسلمين و المعادية للعرب و عن تداول تلك المعتقدات من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية و السياسية على الكوكب و تبريرها.

ستيفن شيهي Stephen Sheehi
أستاذ اللغة و الثقافة العربية
بجامعة ساوث كارولينا

ستيفن شيهي الإسلاموفوبيا الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين ترجمة: فاطمة نصر